

الأكاديمية

مجلة
أكاديمية المملكة المغربية

العدد 4 – ربيع الثاني 1408 / نونبر 1987

بسم الله الرحمن الرحيم



الأكاديمية

مجلة

أكاديمية المملكة المغربية

العدد 4 ـ ربيع الثاني 1408 ـ نونبر 1987

رقم الإيداع القانوني بالخزانة العامة وحفظ الوثائق 29 / 1982

أكاديمية المملكة المغربية
كلم 6,4 شارع الإمام مالك ـ السويسي. ص.ب 1380
الرباط ـ المملكة المغربية

مطبوعات
أكاديمية المملكة المغربية

I - سلسلة «الدورات»

- «الأزمات الروحية والفكرية في عالمنا المعاصر»، بحوث موضوع دورة الأكاديمية، نونبر 1981.
- «الماء والتغذية وتزايد السكان»، القسم الأول، بحوث موضوع الأكاديمية، أبريل 1982.
- «الماء والتغذية وتزايد السكان»، القسم الثاني، بحوث موضوع دورة الأكاديمية، نونبر 1982.
- «الإمكانات الاقتصادية والسيادة الدبلوماسية»، بحوث موضوع دورة الأكاديمية، أبريل 1983.
- «الإلتزامات الخلقية والسياسية في غزو الفضاء»، بحوث موضوع دورة الأكاديمية، مارس 1984.
- «حق الشعوب في تقرير مصيرها»، بحوث موضوع دورة الأكاديمية، اكتوبر 1984.
- «شروط التوفيق بين مدة الانتداب الرئاسي وبين الاستمرارية في السياسة الداخلية والخارجية في الأنظمة الديمقراطية» بحوث موضوع دورة الأكاديمية، أبريل 1985.
- «حلقة وصل بين الشرق والغرب : أبو حامد الغزالي وموسى بن ميمون» بحوث موضوع دورة الأكاديمية، نونبر 1985.
- «القرصنة والقانون الأممي» بحوث موضوع دورة الأكاديمية، أبريل 1986.
- «القضايا الخلقية الناجمة عن التحكم في تقنيات الإنجاب» بحوث موضوع دورة الأكاديمية، نونبر 1986.

II - سلسلة «التراث»

- «الذيل والتكملة»، لابن عبد الملك المراكشي، السفر الثامن، جزءان، تحقيق محمد بنشريفة، عضو الأكاديمية، الرباط 1984.
- «الماء وما ورد في شربه من الآداب»، تأليف محمود شكري الألوسي، تحقيق محمد بهجة الأثري، عضو الأكاديمية، مارس 1985.
- «معلمة الملحون»، محمد الفاسي، القسم الأول والقسم الثاني من الجزء الأول، أبريل 1986، أبريل 1987.
- «ديوان ابن فركون»، تقديم وتعليق محمد ابن شريفة، ماي 1987.

III - سلسلة «الندوات»

- «فلسفة التشريع الإسلامي»، الندوة الأولى للجنة القيم الروحية والفكرية، 1987.

IV - سلسلة «المجلة»

- «الأكاديمية»، مجلة أكاديمية المملكة المغربية، العدد الافتتاحي، فيه وقائع افتتاح جلالة الملك الحسن الثاني للأكاديمية يوم الإثنين 5 جمادى الثانية عام 1400 هـ، الموافق 21 أبريل 1980.
- «الأكاديمية» مجلة أكاديمية المملكة المغربية، العدد الأول، فبراير 1984.
- «الأكاديمية» مجلة أكاديمية المملكة المغربية، العدد الثاني، فبراير 1985.
- «الأكاديمية» مجلة أكاديمية المملكة المغربية، العدد الثالث، نونبر 1986.

الفهرس

البحوث

ترجمت خلاصات النصوص العربية إلى الفرنسية والإنجليزية والإسبانية، وترجمت خلاصات النصوص غير العربية إلى العربية.
الأفكار والمصطلحات الواردة في بحوث هذا العدد لا تلزم إلا أصحابها.

القسم الأَول
البحوث

دور التربية في تنمية العالم الإسلامي وتضامنه

عبد الهادي بوطالب

مقدمة :

أ ـ إشكالية البحث :

يتعلق موضوع هذا العرض بتحليل العلاقة بين التربية والتنمية والتضامن في العالم الإسلامي، وهو يحاول الإجابة عن التساؤلات التالية :

- ما هي طبيعة العلاقة بين التربية والتنمية والتضامن بصفة عامة ؟
- ما هو واقع هذه العلاقة في العالم الإسلامي ؟
- كيف يمكن توجيه التربية في العالم الإسلامي حتى تساهم بشكل فعال في تنميته وتضامنه ؟

ب ـ أهمية الموضوع :

1) التنمية والتربية :

يعتبر مشكل التنمية من التحديات الكبرى التي تواجهها المجتمعات الإسلامية ومجتمعات دول العالم الثالث بصفة عامة. وقد حظي منذ الخمسينات باهتمام فائق من طرف

المفكرين ورجال السياسة والاقتصاد وكذا المؤسسات الدولية، فعقدت بشأنه مآت المؤترات والندوات والحلقات الدراسية وصدرت فيه مؤلفات ومجلات مختصة كثيرة.

وحظيت التربية بقسط وفير من هذا الاهتمام إذ اعتبرت منذ البداية عاملا أساسيا في التنمية، وتم انطلاقا من ذلك إعادة النظر في النظم التربوية القائمة فأدخلت عليها إصلاحات شتى تهدف كلها إلى جعل التربية أداة فعالة في عملية التنمية. لكن الواقع لم يستجب بشكل مرض للآمال المعقودة على التربية، فأدى ذلك إلى الارتباك والبلبلة لدى المربين والمفكرين، وظهرت تيارات متطرفة تدعو إلى رفض مبدأ التنمية (روزاك 1969) ورفض المؤسسة المدرسية (Illich 1971).

كيف تطرح اليوم إشكالية التنمية والتربية ؟ وما هو موقف الإسلام من هذا الطرح ؟ ذلك ما سنراه في القسم الأول من العرض.

2) التربية والتضامن :

يعتبر التضامن من أهم مبادئ «التربية الحديثة» ذلك أنه من مقومات «المواطن الصالح» ومن مقومات التنمية، لكننا نلاحظ المفارقة التالية : فبينما نجد الخطاب التربوي مليئا بالتحليلات والتوجيهات المتعلقة بضرورة التضامن وأهميته الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والنفسية وبالطرق والتقنيات الفعالة في تلقينه نصطدم في واقع الحياة بنقصان التضامن أو غيابه كليا في كثير من المجتمعات وبغلبة الأنانية والذاتية والاتجاهات القومية الضيقة والعرقية على سلوك الأفراد والجماعات.

يمكن أن نتساءل إذن لماذا تخفق التربية الحديثة في تحقيق التضامن على مستوى الواقع ؟ ماهي الشروط التي تنقصها في ذلك ؟ وهل هذه الشروط متوفرة في التربية الإسلامية ؟

جـ - حدود البحث :

إن تحليلنا للموضوع سيكون تحليلا عاما بمعنى أننا سنكتفي بدراسة المكونات الأساسية لإشكالية التربية والتنمية والتضامن وسنركز على الخاصيات المشتركة بين البلاد الإسلامية. وفيما يخص الاقتراحات العملية سنهتم بالتوجيهات العامة فقط دون الدخول في التفاصيل.

د - تصميم البحث :

ينقسم البحث إلى أربعة أقسام : يتناول القسم الأول بالتحليل الإطار النظري لإشكالية التربية والتنمية والتضامن، ويتطرق القسم الثاني إلى الوضع التربوي في العالم الإسلامي، ويقدم القسم الثالث التوجيهات العامة لاستراتيجية تربوية إسلامية تهدف إلى تنمية العالم الإسلامي وتضامنه. وسيعرض القسم الأخير مختلف الأنشطة التي تقوم بها منظمة الإيسيسكو في مجال التربية والتنمية والتضامن.

1. الإطار النظري لإشكالية التربية والتنمية والتضامن :

1.1 - التربية والتنمية :

1.1.1 - المنظور الاقتصادي للتربية والتنمية :

أ) مقولة الاقتصاد الكلاسيكي :

إن التنمية تعني الزيادة في الإنتاج وتراكم الثروة المادية، ويعتقد رجال الاقتصاد الليبراليون أن هذه الزيادة تؤدي بصفة تلقائية إلى تحسن مستوى المعيشة لدى جميع

أفراد المجتمع، الشيء الذي يخلق الانسجام في العلاقات الاجتماعية من جهة ويوفر أرضية صالحة لازدهار الثقافة والفكر من جهة أخرى (سميث 1950، روسطوف 1952).

وتعتبر التربية عاملا أساسيا في التنمية، فهي تساهم عن طريق تكوين الأطر المتعلمة والمتخصصة في تنمية الموارد المادية (شولتز 1961، ستروميلين 1962، دونسون 1964)، وبالتالي ينبغي النظر إليها كاستثمار منتج ومعاملتها على هذا الأساس، ويعني ذلك اعتبار التعليم صناعة إنتاجية تطبق فيها معايير الإنتاج الصناعي الحديث : الكلفة والربح والإنتاجية والمردودية والفعالية (لي ثان خوي 1967، كومباس 1968، وودهال 1970)، فالنظام التعليمي مؤسسة إنتاجية يجب أن يخضع للتحليل الاقتصادي حتى تقاس قيمته ويحكم على فعاليته.

وقد أنجزت بالفعل في نهاية الخمسينات وخلال الستينات دراسات كثيرة في هذا الاتجاه على الأنظمة التعليمية في البلاد المصنعة على الخصوص، وبينت هذه الدراسات من بين ما بينت :

- أن الرأسمال البشري والرأسمال المادي يتساويان في التأثير على النمو الاقتصادي (شولتز 1963، أندرسون 1965).

- وأن هناك ارتباطا وثيقا بين مستوى التعليم ومستوى الدخل الفردي والدخل القومي (لي ثان خوي 1967، وودهال 1970).

- وأن العلاقة بين التربية والتنمية ليست أحادية الاتجاه : فالتنمية تؤثر بدورها على تطور التربية. يقول باج (1971 ص 36) نقلا عن أحد تقارير اليونيسكو لسنة 1957 : «لقد أثبتت الدراسة الميدانية أن نمو التعليم ونمو الدخل القومي مرتبطان

ارتباطا وثيقا، فكلما انتشر التعليم في بلد ما كلما كان نمو هذا البلد سريعا، كما أن انتشار الأمية يؤدي إلى إبطاء مسلسل التنمية»؛ ويلاحظ باج من جهته أنه «كلما ارتفع المستوى الاقتصادي لبلد ما كلما ارتفعت النفقات المخولة للتربية. فهناك إذن علاقة جدلية بين التربية والتنمية».

انطلاقا من هذا المنظور وبمساعدة المنظمات الدولية تبنت دول العالم الثالث في بداية الستينات مخططات تربوية طموحة تهدف إلى تعميم التعليم في أسرع وقت ممكن وتكوين أكبر عدد من الأطر إيمانا منها بأن التعليم ومحاربة الأمية هما السبيل الوحيد للخروج من وطأة التخلف الاقتصادي ومسلسل التفكك الاجتماعي والثقافي (مخطط كاراتشي لسنة 1960، مخطط أديس أبابا لسنة 1961، ومخطط سانتياغو لسنة 1962).

ب) دروس التجربة :

لكن التجربة ستوضح من جهة أن نمو الإنتاج لا يؤدي بالضرورة إلى تحسن الظروف المعيشية لسائر فئات المجتمع بل هناك فئة محدودة هي التي تستفيد من النمو الاقتصادي وتبقى الفئات الأخرى تعاني من الحرمان (كومبس 1970).

وستوضح من جهة أخرى أن التربية لا تساهم بصفة فعالة في التنمية الاقتصادية. فانتشار التعليم يتم تحت تأثير عامل الضغط الاجتماعي دون مراعاة الحاجيات الاقتصادية (لي ثان خوي 1967، كومبس 1968) مما يؤدي إلى انعدام التوازن بين مخرجات التربية وحاجيات التنمية، فمن جهة تكون النظم التعليمية أعدادا هائلة من المتعلمين لا يصلح إلا قليل منهم للإنتاج ويحكم بالتالي على أغلبيتهم بالبطالة، ومن جهة أخرى يبقى الاقتصاد مفتقرا أشد الافتقار إلى الأطر المتوسطة والعليا المتخصصة في أكثر قطاعاته حيوية. (الفلاحة والصناعات المتقدمة). يترتب إذن على الانتشار العشوائي للتعليم عدم وظيفيته اقتصاديا (طوماس 1975، الأليكسو 1979).

ثم إن التجربة بينت فوق ذلك أن نمو الإنتاج الاقتصادي وبالتالي نمو الدخل القومي في البلاد النامية ليست له علاقة واضحة بالنمو التربوي، فنفقات التربية في العالم الثالث فاقت زيادتها ثلاث مرات زيادة الدخل القومي بين 1950 و1960 ومرتين بين 1960 و1970 (باج 1971).

لقد حذا هذا الوضع برجال الاقتصاد إلى اعتبار التعليم في دول العالم الثالث استثمارا غير منتج، وجعل بعض المفكرين يطالبون بالحد منه (طوماس 1975) وبعض المؤسسات الدولية تدعو إلى «عقلنته» و«الاقتصاد» في نفقاته خصوصا وأن العالم يجتاز أزمة اقتصادية صعبة.

إلا أن هذه التجربة بينت كذلك أن إشكالية التربية والتنمية ليست محض إشكالية اقتصادية بل لها مكونات اجتماعية وسياسية وثقافية وفكرية وروحية لا يمكن إغفالها بتاتا. وهذا الإغفال هو الذي أدى إلى التصورات الخاطئة وإلى المشاكل المزمنة التي تعيشها النظم التربوية في الدول النامية منذ الستينات (هومل 1977، الأليكسو 1979).

إلا أن الأرقام توحي لنا بانطباع آخر عما يتطلبه التعليم، فقد بلغ الإنفاق على التعليم في دول العالم الثالث سنة 1970 : (13.762) مليون دولار أمريكي أي ما يعادل 2,9 ٪ بالنسبة للناتج القومي الإجمالي، وسنة 1975 : (39.383) مليون دولار أمريكي أي بنسبة 3,6 ٪، وسنة 1980 : (88.631) مليون دولار أمريكي أي بنسبة 3,7 ٪، وسنة 1983 : (89.872) مليون دولار أمريكي أي بنسبة 4,00 ٪ من الناتج القومي الإجمالي.

أما بالنسبة لدول العالم المصنع : فقد بلغ الإنفاق على التعليم سنة 1970 : (146.113) مليون دولار أمريكي وهو مبلغ يعادل 5,6 ٪ بالنسبة للناتج القومي

الإجمالي، وسنة 1975 : مبلغ (291.397) مليون دولار أمريكي أي نسبة 6,1 ٪ بالنسبة للناتج القومي الإجمالي، وسنة 1980 : (523.942) ويمثل 6,1 ٪، أما سنة 1983 فقد بلغ الإنفاق (538.656) مليون دولار أمريكي بنفس النسبة أي 6,1 ٪.

وبالنسبة للعالم العربي : فقد بلغ الإنفاق على التعليم سنة 1970 : (1.798) مليون دولار أمريكي أي بنسبة 5 ٪ من ناتجها القومي الإجمالي، وسنة 1975 : (8.438) مليون دولار أمريكي أي بنسبة 5,9 ٪، وعن سنة 1980 : (17.422) مليون دولار أمريكي بنسبة 4,6 ٪، وسنة 1983 : (21.704) مليون دولار أمريكي 4,7 ٪

أما في القارة الإفريقية : (دون إدخال الدول العربية) فقد بلغ الإنفاق على التعليم سنة 1970 : (1.151) مليون دولار أمريكي بنسبة 3,3 ٪ من الناتج القومي الإجمالي سنة 1975 : (3.552) مليون دولار أمريكي بنسبة 4,2 ٪ من الناتج القومي الإجمالي، سنة 1980 : (9.338) مليون دولار أمريكي بنسبة 4,8 ٪ من الناتج القومي الإجمالي.

القارة الأسيوية : (دون إدخال الدول العربية).

سنة 1970 : (13.366) مليون دولار أمريكي بنسبة 3 ٪ من الناتج القومي الإجمالي.

سنة 1975 : (41.92) مليون دولار أمريكي بنسبة 4,2 ٪ من الناتج القومي الإجمالي.

سنة 1980 : (91.543) مليون دولار أمريكي بنسبة 4,6 ٪ من الناتج القومي الإجمالي.

سنة 1983 : (100.947) مليون دولار أمريكي بنسبة 4,7 ٪ من الناتج القومي الإجمالي.

أمريكا الشمالية : بلغ الإنفاق على التعليم :

سنة 1970 : (71.830) مليون دولار أمريكي أي بنسبة 6,7 ٪ من الناتج القومي الإجمالي.

سنة 1975 : (113.288) مليون دولار أمريكي أي بنسبة 6,6 ٪ من الناتج القومي الإجمالي.

سنة 1980 : (200.231) مليون دولار أمريكي أي بنسبة 7 ٪ من الناتج القومي الإجمالي.

سنة 1983 : (248.595) مليون دولار أمريكي أي بنسبة 6,9 ٪ من الناتج القومي الإجمالي.

نلاحظ إذن تطور الإنفاق على التعليم من سنة 1970 إلى سنة 1983، ومعنى هذا أن الاهتمام بهذا المجال وبتطويره قد جذب اهتمام جميع الدول التي أدركت بما لا يدع مجالا للشك أن العنصر البشري هو أهم عناصر التنمية بل إنه العنصر الضامن لبقاء المجتمعات وتطويرها. إلا أن هذا لا يمنع من ملاحظة أن تدني الإنفاق في دول العالم الثالث بالمقارنة مع الإنفاق في دول العالم المصنع ما زال مثيرا للانتباه.

ولإعطاء صورة أكثر تفصيلا لنتجه إلى مجال آخر أدق تحديدا، وهو معدل ما تنفقه الدول على كل فرد من أفراد سكانها :

فعلى المستوى العالمي بلغ معدل تكاليف الإنفاق على التعليم بالنسبة لكل مواطن :
سنة 1970 : (45) دولارا أمريكيا ـ سنة 1975 : (84) دولارا أمريكيا.
سنة 1980 : (142) دولارا أمريكيا ـ سنة 1983 : (138) دولارا أمريكيا.

دول العالم الثالث :

سنة 1970 : (5) دولارات أمريكية ـ سنة 1975 : (14) دولاراً أمريكياً.
سنة 1980 : (28) دولارا أمريكيا ـ سنة 1983 : (27,18) دولارا أمريكيا.

دول العالم المصنع :

سنة 1970 : (139) دولارا أمريكيا ـ سنة 1975 : (266) دولارا أمريكيا.
سنة 1980 : (461) دولارا أمريكيا ـ سنة 1983 : (465) دولارا أمريكيا.

العالم العربي :

سنة 1970 : (15) دولارا أمريكيا ـ سنة 1975 : (62) دولارا أمريكيا.
سنة 1980 : (109) دولارا أمريكيا ـ سنة 1983 : (124) دولارا أمريكيا.

إفريقيا دون الدول العربية :

سنة 1970 : (5) دولارات ـ سنة 1975 : (13) دولارا ـ سنة 1980 : (29) دولارا.
سنة 1983 : (23) دولارا.

آسيا دون الدول العربية :

سنة 1970 : (7) دولارات ـ سنة 1975 : (18) دولارا ـ سنة 1980 : (37) دولارا.
سنة 1983 : (39) دولارا.

أمريكا الشمالية :

سنـة 1970 : (317) دولارا ـ سنـة 1975 : (474) دولارا ـ سنـة 1980 : (795) دولارا.
سنة 1983 : (960) دولارا.

لا يسعنا هنا إلا أن نقف مجددا عند هذه الأرقام لنلاحظ تدني الإنفاق في مجال التعليم بالنسبة لدول العالم الثالث بالمقارنة مع دول أمريكا الشمالية حيث بلغ الفرق في الإنفاق على المواطن الواحد نسبة مذهلة تراوحت بين 5 دولارات سنة 1970 في العالم الثالث و317 دولارا في أمريكا الشمالية، أي أن دول أمريكا الشمالية تنفق في مجال التعليم على المواطن الواحد 63,5 ضعف ما تنفقه دول العالم الثالث.

وقد بلغت هذه النسبة سنة 1983 : في دول العالم الثالث 27 دولارا، في حين أنها في دول أمريكا الشمالية بلغت 960 دولارا أمريكيا. ومعنى هذا أن هذه الأخيرة أنفقت على كل مواطن من مواطنيها 35,56 ضعف ما أنفقته دول العالم الثالث على مواطنيها. و(41,74) ما أنفقته الدول الإفريقية و(7,74) ما أنفقته الدول العربية.

جانب آخر تجدر ملاحظته في هذا المضمار، وهو خصوصية النظام التعليمي في العالم الثالث.

فباستثناء بعض التجارب التي تبنت الخط الاشتراكي في الاقتصاد حيث تحملت الدولة كل عبء النظام التعليمي مقابل هيمنتها على جميع الموارد الاقتصادية، فإن أغلب دول العالم الثالث تشكو من ظاهرة غير صحية تتمثل في علاقة القطاع العام بالقطاع الخاص فالقطاع الخاص في دول العالم الثالث لا يتحمل مسؤوليته في الإنفاق على التعليم مقابل استفادته من خريجيه تقنيين كانوا أو أطرا عليا أو متوسطة، وبذلك يتحمل القطاع العام كل ثقل العملية.

من هنا فإن الاختيار السياسي الواضح مطروح على دول هذا العالم في ميدان السياسة التعليمية، فإما أن ترغم الدولة القطاع الخاص على المساهمة في الإنفاق على التعليم وتحمل مصاريف تكوين ما يحتاجه من مستخدمين كما هو الحال في الاختيار الليبرالي، وإما أن تبقى الدولة على مسؤوليتها في الإنفاق على التعليم مقابل ضريبة خاصة على القطاع الخاص قد يختلف مقدارها وكيفية أدائها من بلد لآخر - وتسمى هذه الضريبة ضريبة التكوين أو ضريبة المساهمة في نفقات التعليم أو ما شابه ذلك - لتتمكن الدول من توسيع التعليم وتعميمه بين مواطنيها والرفع من مردوديته، دون أن يضر الإنفاق عليه بمجهودات هذه الدول في القطاعات الأخرى.

2.1.1. المنظور الشمولي للتربية والتنمية :

أ) التنمية :

يرى الإخصائيون في المجال التنموي أن التنمية ليست عملية إنتاج مادي فقط، بل هي عملية شمولية تهم ميادين الاقتصاد والاجتماع والثقافة والفكر في آن واحد (هاربسون 1971، الأليكسو 1979)، وعناصرها متداخلة وفي تفاعل مستمر بحيث إذا غير عنصر منها كان لذلك أثر في العناصر الأخرى (هومل 1977، بوفير 1984). لذلك وجب على العمل التنموي أن يكون عملا متوازيا في جميع الميادين وعملا ينشد التكامل بينها، ووجب على التخطيط التنموي أن يكون تخطيطا شاملا ومندمجا يبتغي تنمية جميع القطاعات في آن واحد وبشكل متكامل (كومبس 1970) وإلا فقد فعاليته.

ب) التربية :

لا يجادل أحد في أن النظام التعليمي في العالم المعاصر يشكل العمود الفقري للنظام التربوي في أي مجتمع، من حيث الدور الذي يلعبه في تنشئة الأطفال وتعليمهم

وتأهيلهم لولوج درب الحياة والمشاركة في بناء مجتمعاتهم، ومع أن طرائق ومناهج التعليم قد واكبت التطورات الحديثة في مجالات العلوم والتكنولوجيا وحاولت الإفادة منها وتسخير مبتكراتها من أجل تحسين مردودية التعليم وتطوير أساليبه، فإن مفهوم التعليم ما زال لم يرق لأن يستوعب مضمون التربية بما يحمله هذا الأخير من شحنات دلالية واسعة، فمفهوم التربية يشمل كل القطاعات والأنشطة الاجتماعية التي تهتم بالتكوين بصفة مباشرة أو غير مباشرة : التعليم النظامي، الأسرة، الشارع، وسائل الإعلام المرئية والمسموعة، المؤسسات الإنتاجية وجميع الأنشطة الثقافية والاجتماعية والمهنية.

وليست التربية مجرد تلقين لمعارف ومهارات فكرية وتقنية كما هو الشأن في المنظور الاقتصادي الضيق بل هي كذلك وفي نفس الوقت عملية تنشئة اجتماعية وتنمية جسدية وفكرية وعقلية وعاطفية وخلقية وظيفتها إعداد الفرد ليساهم مساهمة فعالة في الحياة الاجتماعية بمختلف مكوناتها (بوفير 1984) أي إعداد شخص فعال على جميع المستويات لا على مستوى الإنتاج المادي فقط.

والتربية بهذا المعنى ليست مشروطة بسن معينة أو بوضع اجتماعي أو اقتصادي معين بل تتحدد بالعمق الذي يشير إليه الحديث الشريف «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد»، وبالتالي فهي نشاط يمارس طول الحياة وفي كل الأوضاع ومن طرف جميع الأفراد في المجتمع. وتنمية التربية بهذا المنظور تتطلب :

- التنسيق والتكامل والانسجام بين مختلف مستويات وقطاعات النشاط التربوي بين التعليم النظامي وغير النظامي، بين الأسرة ووسائل الإعلام، بين المدرسة ومؤسسات الإنتاج.

- التنسيق والتكامل مع القطاعات التنموية الأخرى كالفلاحة والصناعة والتجارة.
إن تنمية التربية بالمفهوم الشمولي تتطلب تخطيطا شاملا ومندمجا لعملية التنمية ككل.

3.1.1. ما هو موقف الإسلام من هذا الطرح لإشكالية التربية والتنمية ؟

نعتقد أن المنظور الشمولي للتربية والتنمية كما أشرنا إليه في الفقرة الآنفة يستجيب عموما لتعاليم الإسلام وأهم ما يؤخذ عليه هو غياب عنصر من أهم العناصر في حياة الفرد والمجتمع، عنصر لا يمكن بدونه أن يتحقق النمو أبدا في البلدان المتخلفة وفي العالم الإسلامي على الخصوص وهو البعد الروحي.

فالمنظور الإسلامي لهذه الإشكالية يندرج في المنظور الشمولي للإنسان، لأن العنصر الذي سنعمل على تربيته هو الإنسان، الذي أكرمه الله تعالى وفضله على العالمين.

ونظرة الإسلام للإنسان تنطلق من مبدإ التوحيد لله تعالى، ضمن رؤية الكون كنظام متكامل مبني على التوازن بين الروح والجسد، حتى يسلم الإنسان من التناقض والتنازع ومن الانشقاق، وحتى لا ينشأ تنازع بين العقل والمادة أو غلبة أحدهما على الآخر. وبذلك تستقيم الحياة على الأرض بنعمتها وجمالها وتوازنها، ويشعر الإنسان بالوحدة الشاملة المتكاملة في ذاته التي توحي إليه بالثقة والاطمئنان.

ولا يمكن أن يفهم من البعد الروحي الذي تركز عليه التربية الإسلامية أنه إغراق في العبادة لدرجة نسيان الواجبات الدنيوية، وواجبات المجتمع تجاه أفراده، بل إن المقصود به هو أن تؤسس التربية الإسلامية على الركيزة الأساسية وهي أن الإنسان مخلوق مكرم من الله تعالى ومكلف بحمل الأمانة دون سائر الموجودات، وهو مطالب بأن يعيش حياته على وجه الأرض وفق التعاليم الإلهية. ويستخلص من هذا أن أهم

المحاور التي تشكل أسس النظرة الإسلامية للتربية يمكن تلخيصها في أن تربى الناشئة على :

أولا - عبادة الله والامتثال لطاعته وأداء فروض هذه العبادة، والالتزام بمقتضياتها في كل شؤون حياتها.

ثانيا - أن تربى الناشئة على العيش ضمن مجتمع سليم يقر مبادئ الأخوة والتعاون والمساواة والمشاركة القائمة على الحقوق والواجبات ضمن نظام التكافل الاجتماعي كما يقره الإسلام.

ثالثا - إعمال العقل والتعويل عليه، فاستعمال العقل لازم لجوهر العقيدة التي هي في الأساس مخاطبة للعقل دون كهانة أو وساطة. وإعمال العقل هو أساس التكليف للإنسان وتحميله الأمانة، لأن التكليف مبني على الحرية والاختيار بهدي من العقل والضمير.

رابعا - الانفتاح على الغير دون انكماش على نفسها، ودون التفريط في مقومات شخصيتها، فالحضارة الإسلامية قامت على الحوار البناء وعلى الأخذ والعطاء، وبذلك استطاعت استيعاب مكتسبات العلوم التي ازدهرت في حضارات أخرى، وأضافت إليها وأغنتها فأخرجت للعالم حضارة مزدهرة متألقة في جميع ميادين العلم والمعرفة.

خامساً - استعمال الفكر العلمي وتسخير مكتسباته في التخطيط والدراسات. والإسلام دين انفتاح في هذا المضمار لا يعرف انغلاقا ولا معاداة للعلم مهما اختلفت مصادره، بل إن المسلمين مدعوون لاستخدامه أكثر من غيرهم ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ كما جاء في القرآن الكريم.

2.1. التربية والتضامن :

يرى علماء النفس والاجتماع والتربية أن التنشئة الاجتماعية من أهم وظائف التربية ويرون كذلك أنه كيفما كان محتوى هذه التنشئة فإنها تؤدي دائما إلى وحدة الرؤية ووحدة السلوك لدى الأفراد، وبالتالي تخلق لديهم روح التضامن والتعاون (أوبير 1963، درفايم 1963، دريبس 1967)، هذا ومن جهة أخرى يعلم الجميع أن التضامن بين البلدان عامل أساسي في التنمية الاقتصادية. وهذا ما وعته مثلا بعض الدول المصنعة بعد الحرب العالمية الثانية فكونت مجموعات اقتصادية مثل المجموعة الاقتصادية الأوروبية ومنظمة التعاون والتنمية الاقتصادية. ويرى رجال الاقتصاد أن التضامن ضرورة حتمية في العالم المعاصر، ذلك أنه لا يمكن للاقتصاد أن يتطور وينمو وبالتالي للمجتمع أن يزدهر في حدود الوطن الواحد لأن طرق الإنتاج العصرية تتطلب موارد ضخمة وأسواقا متنوعة. وهذا ما دفع في السنوات الأخيرة بدول العالم الثالث إلى خلق اتحادات وكتل اقتصادية.

والتضامن لا يقتصر على المجال الاقتصادي بل يمكن أن يصل إلى المستوى السياسي فيعطي إذاك للوحدات المتضامنة قوة كبيرة وقدرة فائقة على مجابهة التحديات.

والعالم الإسلامي مدعو اليوم لبناء تضامنه على أساس نمو أقطاره اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا وروحيا، فقوة الإسلام المرتقبة لابد أن ترتكز على القاعدة الأساسية التي قام عليها صرحه في عهد بنائه التاريخي الشامخ، أي وحدته الروحية بوصفه رسالة عالمية تخترق حدود الزمان والمكان. والتاريخ لم يصنع قط بالجهد المادي وحده، ولم تتحرك أحداثه فقط بالعوامل الاقتصادية، ولكن بالفكر والإرادة والإيمان ومع ذلك فلا ينبغي أن يغمرنا تفاؤل ساذج بالنجاح، فالتجارب الإسلامية المطلوب إجراؤها في المجالات الممهدة لتحقيق الهدف لا ينبغي أن تجرى بصفة عشوائية، بل لابد أن تتقيد بقواعد المنهج العلمي في نظرة شمولية لا تستثني جانبا من مقومات العمل التضامني

سواء في الميدان الفكري والروحي أو في الميدان الاقتصادي. وعلى هذا الأساس، فالوسيلة الأصح للعالم الإسلامي هي العمل في واجهتي التنمية الثقافية العلمية والتنمية الاقتصادية، إذ بدون تنمية ثقافية لن يكتشف العالم الإسلامي مقومات وجوده الأساسية، ولن يحقق أصالته ويستعيد شخصيته ويتقدم للعالم بهوية متميزة، بل سيظل كمية مهملة محكوما عليها بالاندماج في الغير والذوبان فيه، وبدون تنمية اقتصادية لن يتمكن العالم الإسلامي من حشد طاقاته بما يجعل منها قوة ذاتية، وسيظل عالم الإسلام بدون هذه التنمية مجرد سوق كبرى لاستهلاك اقتصاد الآخرين وتنمية قوتهم الاقتصادية على حساب مصالحه الذاتية، وبدون التنميتين معا سيصبح التضامن الإسلامي الذي نتغنى به سياسيا عبارة جوفاء تفقد المحتوى والمضمون. لأن التحدي الذي يريد العالم الإسلامي أن يربح رهانه هو أن يكون له كيان متميز، ولا يمكن للعمل السياسي وحده أن يحقق إبراز هذا الكيان وترسيخه لأنه مجرد واجهة فوقية، ولا العمل الاقتصادي وحده لأنه ليس الحجر الأساسي في الصرح الإسلامي وإن كان لا مندوحة عنه، وإنما العمل التربوي الثقافي العلمي هو الذي سيشيد الكيان الإسلامي وهويته وبعده الحضاري المتميز وتنميته.

لكن ما هو يا ترى الواقع التنموي والتربوي في العالم الإسلامي ؟

2 ـ الوضع التربوي وإشكالية التنمية والتضامن في العالم الإسلامي

1.2 ـ التحديات المطروحة على العالم الإسلامي

إن أقطار العالم الإسلامي تعيش رغم اختلاف مستوياتها الاقتصادية وضعا عاما يتميز بالصعوبة والدقة، من مؤشرات هذه الصعوبة في المجال الاقتصادي ضعف الدخل الفردي والوطني، وضعف الإنتاج الداخلي، والبطالة، وسوء التغذية، ونقص التجهيز والتأطير الصحي، وانتشار الأمية على نطاق واسع (منظمة الأمم المتحدة 1982).

ويتميز اقتصاديا كذلك بعدم التوازن بين القطاعات وبالتبعية التجارية والعلمية والتكنولوجية (منظمة الأمم المتحدة 1985، مؤتمر بانكوك 1985). ومن مؤشرات الصعوبة في المجال الاجتماعي التوترات والنزاعات التي تعيشها مجتمعات العالم الإسلامي داخلها وفيما بينها. أما ثقافيا فإن ازدواجية النظم التعليمية والفكرية الموروثة عن عهد الاستعمار ما زالت تتسبب في تقسيم هذه المجتمعات وخلق نزاعات فكرية وسياسية تنهك قواها وتنخر كيانها (حسين وأشرف 1979).

انطلاقا من هذه الصورة الموجزة يمكن إبراز التحديات المطروحة حاليا على العالم الإسلامي : فعليه من جهة أن يقوم بالإقلاع الاقتصادي ويقتضي ذلك النهوض بالصناعة وعصرنة الفلاحة وتحقيق الاستقلال الذاتي على مستوى الاستهلاك كما عليه أن يحقق نموا شاملا ومندمج العناصر ويتمكن من التكنولوجية الحديثة.

- وعليه من جهة أخرى أن يحقق الرقي الاجتماعي بإزالة الفقر والبطالة والأمراض المعدية والأمية وبناء علاقات اجتماعية تتسم بالانسجام والتعاون والتضامن وتكون مستوحاة من عقيدة الإسلام التي تقول بمجتمع تتوفر داخله الحرية والمساواة والعدل والمسؤولية والصحة والتربية.

- وعليه أخيرا أن يحقق نهضته الثقافية ويعني ذلك تثبيت هويته الإسلامية في مختلف أنواع الإنتاج الفكري والفني سواء على المستوى الإسلامي أو على المستوى العالمي.

ومن البديهي أن مواجهة هذه التحديات تتوقف على التربية، لكن أي نوع من التربية ؟ قبل الإجابة عن هذا السؤال نرى من المفيد استعراض الملامح العامة للوضع التربوي الحالي في العالم الإسلامي.

2. 2. ملامح الوضع التربوي في العالم الإسلامي

يعتبر العالم الإسلامي جزءا لا يتجزأ من العالم الثالث، ويشترك معه في صفاته ومميزاته مع الاحتفاظ بهوية خاصة تجعله متميزا عن هذا العالم الثالث وإن كان معتبرا جزءا منه. وقد عرفت الأنظمة التربوية بشكل عام والأنظمة التعليمية بوجه خاص تطورات هامة في هذه الدول خلال ربع القرن الأخير ومست هذه التطورات الأعداد المتمدرسة والأطر التكوينية وحجم الإنفاق.

فعلى مستوى الأعداد المتمدرسة :

بلغ عدد التلاميذ المسجلين في المؤسسات التعليمية في العالم الثالث، والذين تتراوح أعمارهم بين 5 سنين و24 سنة، سنة 1970 ـ 394,884 مليون. وقد ارتفع سنة 1983 إلى 640,706 مليون أي بزيادة بلغت 62 ٪، أما في إفريقيا دون الدول العربية فقد بلغ هذا العدد 46,949 مليون سنة 1970 ليرتفع إلى 68,989 مليون سنة 1983 أي بزيادة بلغت 46,9 ٪.

وفي آسيا دون العالم العربي بلغ هذا العدد 319,660 مليون سنة 1970 ليرتفع إلى 473,624 مليون سنة 1983، أي بزيادة بلغت 48,1 ٪، أما في العالم العربي فقد بلغ هذا العدد 16,572,000 سنة 1970 وارتفع إلى 35,271,000 سنة 1983، أي بزيادة بلغت 112 ٪.

إن الأرقام تثبت أن المجموعات الثلاث التي تنتمي إليها الدول الإسلامية قد حققت تطورات مهمة في ازدياد عدد المتمدرسين في الأطوار الثلاثة للتعليم العام. هكذا نلاحظ مثلا أن نسبة ازدياد عدد المسجلين في الطور الأول على مستوى العالم الثالث

قد ارتفعت بنسبة 48 ٪، وبنسبة 101 ٪ في الطور الثاني، وبنسبة 191 ٪ في الطور الثالث ما بين سنوات 1970 و1983.

أما في العالم العربي، فقد بلغت هذه الزيادات نسبة 83 ٪ بالنسبة للطور الأول، و199 ٪ بالنسبة للطور الثاني، و244 ٪ بالنسبة للطور الثالث.

وقد واكب هذا الارتفاع زيادة مهمة على مستوى الأطر التعليمية. فنلاحظ مثلا أن عدد هذه الأطر في دول العالم الثالث قد ارتفع من 8.705,000 سنة 1970 إلى 15,136 مليون سنة 1983 بالنسبة للطور الأول، أي بزيادة نسبتها 73 ٪، ومن 3997,000 مدرس سنة 1970 إلى 8646,000 سنة 1983 أي بزيادة قدرها 116 ٪ بالنسبة للطور الثاني، ومن 597,000 سنة 1970 إلى 1.523,000 سنة 1983، وتمثل هذه الزيادة نسبة 155 ٪ على مستوى الطور الثالث. وقد عرفت الدول الإفريقية والأسيوية والدول العربية زيادات مماثلة لعل أبرزها ارتفاع نسبة المدرسين في الطور الثاني في إفريقيا بزيادة 301 ٪ وفي الطور الثالث بنسبة 241 ٪، وفي الدول العربية ارتفع عدد المدرسين في الطور الأول بنسبة 125 ٪، وفي الطور الثاني بـ 236 ٪، وفي الطور الثالث بنسبة 296 ٪.

أما على مستوى الإنفاق على التعليم فقد وردت الإشارة إلى ارتفاعه في فقرة سابقة، وللتذكير فقط نشير إلى أن الإنفاق العمومي على التعليم قد ارتفع من 13.762,000 دولار أمريكي سنة 1970 إلى 89.872,000 دولار أمريكي سنة 1983 في دول العالم الثالث، وقد ارتفع هذا الإنفاق في الدول العربية من 1798,000 دولار أمريكي سنة 1970 إلى 21.704,000 دولار أمريكي سنة 1983.

وقد واكب هذه التطورات الكمية مجهودات جبارة في تحسين نوعية الأنظمة التعليمية وما يتطلبه ذلك من إعادة النظر في البرامج والمناهج الموروثة عن عهد الاستعمار،

وإعادة تأليف الكتب المدرسية وتشجيع المؤلفين وإعادة الاعتبار للغات الوطنية، وبروز مشاريع إصلاح التعليم وإعادة النظر في أسسه بمخططات هادفة تأخذ بعين الاعتبار الحاجيات الوطنية من جهة ومتطلبات التنمية الشاملة من جهة أخرى. وهذه مؤشرات كلها تثبت أن الأنظمة التربوية قد عرفت تقدما ملموسا ومجهودات محمودة، وهذا يعكس ما أصبح للتربية والتعليم من دور في بناء الإنسان داخل هذه المجتمعات عند قادة وشعوب هذه الدول. ومن غير المنازع فيه أن شعوب ودول العالم الثالث أدركت أن التربية هي العمود الفقري في مسيرة التنمية المنشودة، فبدونها لن تتمكن هذه الدول من اللحاق بركب الحضارة المعاصرة وتجاوز التخلف الذي تركته عهود الاستعمار، وقد لعب الوعي بالانتماء القومي والشعور بالخاصيات الوطنية لدى شعوب ودول العالم الثالث دورا بارزا في بلورة هذا الاتجاه، وترجم هذا الوعي لدى دول العالم الإسلامي في ضرورة التضامن الإسلامي كإطار لتقوية روابط التعاون وتنمية دول هذا العالم. إلا أن هذه الصورة المشرقة التي رسمناها آنفا يجب ألا تحجب عنا الوجه الآخر المتمثل في ما تعانيه الأنظمة التعليمية من نقص كما وكيفا بالمقارنة مع ما يجب أن تصل إليه.

فعلى مستوى استيعاب الأطفال البالغين سن التمدرس : نلاحظ أن نسبة من هؤلاء لا يجدون المقاعد الدراسية وعلى سبيل المثال لا الحصر :

على مستوى التعليم في الطور الأول : فرغم أن نسبة عدد المسجلين قد ارتفعت في العالم الثالث من 57,9 ٪ سنة 1970 إلى 72,7 ٪ سنة 1985، ومن 38,1 ٪ سنة 1970 بإفريقيا إلى 63,5 ٪ سنة 1985، ومن 52,9 ٪ سنة 1970 في العالم العربي إلى 76,00 ٪ سنة 1985، فإن هذا لا يحجب عنا أن نسبة 100 ٪ ما زالت هذه الدول بعيدة عنها، ومعنى هذا أن النسبة المتبقية من الأطفال البالغين سن التمدرس في هذه الدول يحكم عليها منذ البداية باللحاق بصفوف الأميين، وهذه ظاهرة تثقل كاهل هذه المجتمعات، خصوصا إذا عرفنا أن قدر الدول المصنعة على استيعاب الأطفال

البالغين سن التمدرس قد بلغت سنة 1985 نسبة 90,9 ٪، وفي دول أمريكا الشمالية بلغت قدرتها على استيعاب المتمدرسين 100 ٪ منذ سنة 1960.

أما إذا حاولنا إقامة مقارنة سريعة بين **مستوى الاستيعاب في الطور الثاني :** فإننا نجد أن نسبة الاستيعاب في دول العالم الثالث قد بلغت سنة 1970 : 31,3 ٪ لتنتقل إلى 46 ٪ فقط سنة 1985، وفي إفريقيا بلغت هذه النسبة 25,8 ٪ سنة 1970 و51,7 ٪ سنة 1985. وفي العالم العربي بلغت : 30,3 ٪ سنة 1970 و52,2 ٪ سنة 1985.

وتزداد الهوة اتساعاً حينما نصل إلى الطور الثالث، أي التعليم الجامعي حيث إن نسبة المسجلين في العالم الثالث بلغت سنة 1970 : 7,1 ٪ لتصل إلى 13,7 ٪ سنة 1985، ففي إفريقيا بلغت 3 ٪ سنة 1970 وانتقلت إلى 9,3 ٪ سنة 1985. أما في الدول العربية فقد كانت هذه النسبة سنة 1970 : 9,2 ٪ وأصبحت 19,2 ٪ سنة 1985، بينما نجد أن هذه النسبة بلغت في الدول المصنعة : 26,7 ٪ سنة 1970 وانتقلت إلى 32,7 ٪ سنة 1985.

أما في دول أمريكا الشمالية فالنسبة كانت سنة 1970 : 45,7 ٪ وارتفعت إلى 50,7 ٪ سنة 1985.

وإذا كان هناك من تعليق على هذه الأرقام فنكتفي بإثارة الانتباه إلى ضخامة المجهودات التي ما زالت تنتظر الدول النامية بصفة عامة والدول الإسلامية من بينها إذا أرادت هذه الدول أن تصل إلى المستوى المطلوب.

عامل آخر أشرنا إليه آنفا هو **مشكلة الأمية** بين الكبار حيث تطلعنا إحصائيات اليونيسكو لسنة 1985 أن نسب الأميين بين الكبار ذكورا وإناثا تتراوح حسب

البلدان بين 25 ٪ و76,3 ٪، وأن هذه النسب عالية جدا بين الإناث (بين 34,6 ٪ و92,2 ٪) بالمقارنة مع الذكور (بين 17 ٪ و61 ٪) إذ من المعلوم أن الأمية من أكبر الحواجز التي تقف في وجه التنمية.

ولعل الصورة تتضح لدينا أكثر إذا ما علمنا أن نسبة التعليم التقني في بلدان العالم الثالث ما زالت متدنية، والحال أن متطلبات الإقلاع التنموي تفرض أن يحتل هذا النوع من التعليم مكان الصدارة إسوة بالتعليم العام.

فبينما بلغت نسبة التعليم التقني في البلدان المصنعة سنة 1970 : 18,6 ٪ مقابل 80,4 ٪ للتعليم العام، وسنة 1983 بلغت نسبة التعليم التقني 21,5 ٪ مقابل 77,7 ٪ للتعليم العام، نجدها في العالم الثالث لا تتعدى 9,3 ٪ سنة 1970 مقابل 88,8 ٪ للتعليم العام، وسنة 1983 : 9,4 ٪ بالمقارنة مع نفس النسبة للتعليم العام أي 88,8 ٪.

أما في إفريقيا دون البلدان العربية فقد انخفضت هذه النسبة من 10,9 ٪ للتعليم التقني مقابل 83 ٪ للتعليم العام سنة 1970 إلى 6,1 ٪ بالنسبة للتعليم التقني سنة 1983 مقابل 85,9 ٪ للتعليم العام. وفي البلدان العربية نلاحظ نفس الانخفاض حيث مثل التعليم التقني نسبة 11,1 ٪ سنة 1970 مقابل 86,8 ٪ للتعليم العام إلى 10,5 ٪ سنة 1983 مقابل 87,7 ٪ للتعليم العام.

وسلبيات الأنظمة التعليمية في العالم الإسلامي لا تقف عند هذا الحد، إذ نلاحظ تعددية الأنظمة التعليمية بتعدد الدول الإسلامية، حيث أن جل الدول الإسلامية تبنت مناهج وهيكلة الأنظمة التعليمية المتبعة في الدولة الغربية التي استعمرتها وذلك شكلا ومضمونا، وهذا يعني من ضمن ما يعنيه أن هياكل التعليم ومحتوياته وطرقه مستوردة من الغرب الشيء الذي يجعله يغرس تصورات ونزعات سلوكية غريبة عن

البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها المتعلم المسلم. كما أنه يهمل المعطيات الأساسية للشخصية الإسلامية، وينتج عن هذا الوضع شعور المتعلم بالغربة، وتعرض المجتمع لصراعات فكرية وسياسية بين التراث والمعاصرة، وما ينتج داخل المجتمعات الإسلامية عن هذا التعارض من مشاكل فكرية وإيديولوجية أغلبها زائف ومصطنع.

كما أن هذا الوضع يخلق عثرات في طريق التضامن الإسلامي من حيث صعوبة معادلة الشهادات المدرسية والجامعية بين أجزاء العالم الإسلامي، وعدم يسر تبادل الطلبة والأساتذة بين جامعاته ومعاهده العليا، بالإضافة إلى انعدام المشاريع المشتركة في مجال البحث العلمي الذي تفتقر إليه الأنظمة التربوية في العالم الإسلامي والذي بدونه لا يمكن للتضامن الإسلامي أن يبنى على أسس علمية سليمة تذلل العقبات التي تقف في طريقه.

إن تجاوز هذه السلبيات وجعل التربية تستجيب حقا لمتطلبات التنمية والتضامن في العالم الإسلامي لن يتأتيا إلا بإعادة النظر جذريا في الأنظمة التربوية الحالية وبتوجيهها التوجيه الصحيح.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الإيسيسكو تولي هذا الموضوع اهتماما كبيرا وهي الآن بصدد وضع اللمسات الأخيرة لمشروع تربوي إسلامي سيعرض قريبا على الدول الإسلامية لمناقشته وإغنائه ولا بأس أن ندرج الخطوط العريضة لهذا المشروع تعميما للفائدة.

3) من أجل استراتيجية تربوية تسعى إلى تنمية العالم الإسلامي وتضامنه

قبل التطرق إلى الملامح العامة لهذا المشروع لابأس من إعطاء صورة عامة عن الإطار الذي يندرج فيه وعن خلفيات إبرازه لحيز الوجود.

فمنذ إنشاء الإيسيسكو في شهر رجب 1402 هـ / ماي 1982 حدد المشرع لها من بين الأهداف الأساسية في المادة الرابعة من ميثاقها «تدعيم التفاهم بين الشعوب والمساهمة في إقرار السلم والأمن في العالم بشتى الوسائل ولا سيا عن طريق التربية والعلم والثقافة» و«جعل الثقافة الإسلامية محور مناهج التعليم في جميع مراحله ومستوياته»، وعملا على تحقيق هذه الأهداف ضمنت الإيسيسكو خطة عملها الثلاثية 1985 ـ 1988، تلك الخطة التي وافق عليها المؤتمر العام الثاني للمنظمة بإسلام أباد في صيف 1985، البرنامج التربوي رقم 11 الخاص باستراتيجية تطوير التربية في البلاد الإسلامية، والبرنامج الثقافي رقم 6 المعنون بـ « : من أجل استراتيجية ثقافية إسلامية».

وبعد أن اطلعت اللجنة الدائمة للإعلام والشؤون الثقافية المنبثقة عن منظمة المؤتمر الإسلامي، التي يرأسها فخامة الرئيس السينغالي السيد عبده ضيوف، في اجتماعها الثاني بداكار في اكتوبر 1985، على خطة عمل المنظمة، نوهت بهذين البرنامجين وأوصت الإيسيسكو بعقد مؤتمر وزاري لتبني استراتيجية تربوية واستراتيجية ثقافية إسلامية في الدول الأعضاء.

كما أن المؤتمرات الإسلامية لوزراء الخارجية منذ الدورة 13 بنيامي استمرت في إصدار توصياتها في كل دورة من أجل بلورة هذه الاستراتيجيات، حتى يمكن التخطيط للعمل الإسلامي وفق رؤية واضحة متكاملة، تتيح تفادي الازدواجية في العمل وتمكن من ترشيد استغلال الطاقات خدمة للتضامن الإسلامي.

ولا بأس أن نذكر أن الإيسيسكو قد أعدت مشروع استراتيجية تربوية وستعرضه على الدول الأعضاء لدراسته وإبداء وجهة نظرها فيه وإغنائه قبل أن تعرضه على مؤتمر وزراء التربية والتعليم في الدول الإسلامية قصد إقراره.

تشير كلمة الاستراتيجية إلى مجموع المبادئ والأفكار التي توجه (أو ينبغي أن توجه) عمل الأنظمة التربوية بالعالم الإسلامي. ونظرا لخصوصية هذا الأخير المتمثلة في العقيدة الإسلامية فيتوجب على الاستراتيجية التربوية أن تتخذ طابعا إسلاميا متميزا. لهذا سيكون المنطلق والمرجع فيها دائما هو الإسلام وتعاليمه الحنيفة.

وتتكون الاستراتيجية المقترحة من ثلاثة عناصر رئيسية هي الأهداف والأسس واتجاهات العمل.

3. 1. أهداف التربية الإسلامية :

إن أي تصور لأهداف التربية في العالم الإسلامي لابد أن يضع في اعتباره أن مجيء الإسلام كان بداية جديدة للإنسانية. فالإسلام جاء ليصلح أمور البشرية ويكمل الرسالات السماوية السابقة وكان هدفه بلوغ الكمال الإنساني لأنه يمثل بلوغ الكمال الديني. يقول الله تعالى : ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلاَمَ دِينًا**﴾ و﴿**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ**﴾، انطلاقا من هذا المعطى الجوهري يمكن إجمال الأهداف المتوخاة من التربية الإسلامية في هدفين أساسيين : تكوين «الإنسان الصالح المؤمن بالله وبدينه» وتكوين «المجتمع الصالح» المهتدي بهدي الدين الإسلامي في جميع أموره.

3. 1. 1. تكوين الإنسان الصالح :

نعني بالإنسان الصالح، الإنسان الذي يقترب من كمال خلقته ونعني بتكوين الإنسان الصالح : ـ تنشئة. إنسان يعبد الله ويخشاه ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ إنسان متشبع بالإيمان والتقوى متصل بالله ومراع له ومتوجه إليه في

كل عمل يعمله وكل سلوك يسلكه، وكل فكرة تخطر بباله، وكل شعور يخالجه، إنسان يقتدي بسيرة الرسول في فكره وعمله.

والإنسان الصالح يؤمن إيمانا راسخا بأنه مستخلف في الأرض ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ وأن له رسالة ربانية عليه أن يحققها ومن تم فهو ملزم دوما بالكمال وإن كان الكمال لله وحده. ومن تمام الكمال مكارم الأخلاق إذ يقول محمد ﷺ : «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

ومن أخلاق الإنسان الصالح في الإسلام الكرامة والمروءة والطهر والعطف والحب والقوة الجسدية والمعنوية والتحكم في الذات والفعالية والمسؤولية، فهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، كما يتصف بالصدق والأمانة والإخلاص وله حس بالجمال. هو إنسان متوازن :

1) في شخصيته : لا يطغى فيها جانب على آخر، فالجسد والنفس والعقل والروح جميعها نامية ومتكاملة في النمو، يقول الرسول ﷺ إن لبدنك عليك حقا ولنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقا، فاعط كل ذي حق حقه.

2) يعمر الأرض ويستثمر خيراتها ويسخر ما أودعه الله فيها من ثروات دون أن يشغله ذلك عن هدفه الأساسي وهو السعادة الأخروية، ذلك أنه يؤمن بالحياة الدنيا، ولكن هناك حياة الدوام والخلود التي لا ينساها قال الله تعالى : ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ**﴾. و﴿**وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ**﴾. ومن الأقوال المأثورة في الإسلام : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا. وهذا التوازن يميز الإنسان المسلم عن غيره.

- الإنسان الصالح في الإسلام منفتح على الكون يحس بأن جزء منه غير منفصل فهو دائم البحث عن أسراره.

- هو يعمل لأن العمل عبادة من حيث الأساس ولا يربط عمله فقط بالرزق : ﴿وقُل اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ ورَسُولُه والمُؤمِنُون﴾.

- هو في عبوديته لله يشعر بالاستقلال الذاتي والقوة والمناعة، ذلك أنه يستمد وجوده من الله، وقوته لا من أسرة أو وظيفة أو مجتمع (عبود 1977) هو يستمده من ذاته المهتدية بالله.

- هو إنسان اجتماعي النزعة يحب الآخرين ويتعاطف معهم.

3. 1. 2. تكوين مجتمع مسلم متحرر

المجتمع المسلم هو المجتمع الذي يؤمن بأن له رسالة على الأرض هي رسالة العدل والحق والخير وهي رسالة خالدة لا تتأثر بعوامل الزمان والمكان، يقول الله تعالى : ﴿كُنْتُمْ خَيرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَامُرُون بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ﴾ والمجتمع المسلم هو الذي يعمل على أن يكون في مستوى المسؤولية المنوطة به ويبذل قصارى جهده في سبيل تحقيقها في أي عصر وفي أي مكان. ومهمة التربية الإسلامية هي أن تساعده على ذلك.

انطلاقا من التحديات المطروحة على العالم الإسلامي في الوقت الراهن يمكن تلخيص مهام التربية الإسلامية على المستوى الاجتماعي في العناصر التالية :

أ) **مساعدة المجتمع على بناء علاقات اجتماعية مطبوعة بالانسجام والتضامن** والتعاون والتكافل والتوازن عملا بقوله تعالى : ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾.

ب) **تقوية الروابط بين المسلمين** ودعم تضامنهم عن طريق توحيد الأفكار والاتجاهات والقيم، كل ذلك قصد تحقيق الوحدة الإسلامية.

ج) **مساعدة المجتمع الإسلامي على تنمية ذاته اقتصاديا ويعني ذلك :**

- العمل على تحسين ظروف عيشه المادية بمحاربة الجهل والفقر والأمراض.
- مساعدته على التحرر من التبعية الفكرية والعلمية والتكنولوجية، ويكون ذلك بخلق بنيات داخلية مستقلة تلبي المتطلبات الداخلية للمجتمعات الإسلامية، وتكون موجهة بتعاليم العقيدة الإسلامية.

- المساهمة في بناء علاقات اقتصادية مستقاة من تعاليم الدين الحنيف (حميد الله 1975).
- تسليحه بالعلم والتكنولوجية الحديثة وتذريعه بالمنظور الإسلامي لنظام الحياة الاقتصادية.
- تكوين الأطر الكافية والكفأة لمختلف القطاعات الاقتصادية والاجتماعية.
- تنمية القيم والاتجاهات والسلوكات التنموية لدى الأفراد والجماعات.
- تأهيل العاملين في القطاعات الاقتصادية وسائر أفراد المجتمع للمشاركة الفعالة في مختلف الأنشطة التنموية اقتصادية كانت أو اجتماعية أو ثقافية.

د) المساهمة في تطور المجتمع الإسلامي :

نعني بالتطور التكيف مع مقتضيات الحياة المعاصرة مع الحفاظ على الهوية الإسلامية، والإسلام لا يتعارض مع التطور والتجديد فهو دين صالح لكل زمان ومكان.

ودور التربية الإسلامية هنا يتلخص في تسهيل عملية التطور داخل المجتمع الإسلامي ويتم ذلك :

- بتهيىء الأفراد والجماعات لقبول التطور والمساهمة فيه.
- بتهييئهم لتوجيه عملية التطور حسب المتطلبات الروحية والشرعية والأخلاقية للإسلام.

دورها كذلك هو تسليح الأفراد والجماعات فكريا وخلقيا وعاطفيا وروحيا ليساهم الجميع في مسلسل التطور.

هـ) تدعيم الهوية الثقافية الإسلامية :

ويكون ذلك بتكوين مثقفين ومفكرين وعلماء.

- متشبعين بالروح الإسلامية، واعين ومطبقين لتعاليم دينهم، غيورين على التراث الحضاري الإسلامي معتزين به ومدافعين عنه مما يجعل إنتاجهم ذا طابع إسلامي أصيل.

- متمكنين من العلم والتكنولوجية الحديثة ومنفتحين على الحضارات والثقافات الأخرى.

- منتجين يؤلفون ويخترعون وينظمون وينفعون الآخرين.

- متحررين من التبعية والتقليد الأعمى.

لتحقيق هذه الأهداف لابد للتربية الإسلامية أن تنطلق من بعض الأسس التي يمكن إجمالها فيما يأتي :

3. 2 أسس التربية الإسلامية :

قبل أن نشرع في عرض هـذه الأسس لابـد من الإشـارة إلى أن جل الأسس التي تعتمدها التربية الحديثة توجد في جوهرها في تعاليم الإسلام. لذلك نعتقد أن الإسلام ينبغي أن يكون هو المنطلق في بناء أسس التربية في العالم الإسلامي.

3. 2. 1 أول هذه الأسس هو الشمولية :

- ينبغي للتربية الإسلامية أن تكون تربية شاملة ويعني ذلك أن تهتم بكل مكونات الكائن البشري : جسده ونفسه وعقله وروحه. وقد سبق أن استشهدنا بقول الرسول ﷺ إن لبدنك عليك حقا، ولنفسك عليك حقا ولأهلك عليك حقا فأعط كل ذي حق حقه.

- ينبغي أن تهتم بتربية جميع الأفراد في المجتمع.

- من حيث التنظيم : ينبغي أن تشمل الأنشطة التربوية النظامية وغير النظامية كالتربية في البيت والمسجد والعمل والمؤسسات الاجتماعية والثقافية.

3. 2. 2 التكامل :

- ينبغي للتربية الإسلامية في تعاملها مع الفرد أن تعتبر أن مكونات الشخصية من جسد ونفس وعقل وروح مرتبطة ارتباطا عضويا وممتزجة فيا بينها أشد الامتزاج بحيث إذا حدث تغيير في عنصر منها كان له أثر على العناصر الأخرى.

- ينبغي أن تنطلق من تكامل الأفراد في المجتمع المسلم ومن التكامل بين الأقطار الإسلامية وتنشئ الأفراد على روح التضامن والتعاون مستلهمة نشاطها من روح الإسلام وتعاليه في هذا المضار : ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى**﴾.

- ينبغي النظر إلى مختلف أنواع التربية ومختلف مستوياتها على أنها متكاملة فيا بينها.

3. 2. 3 الاستمرارية :

- ينبغي لنظام التربية الإسلامية أن يوفر إمكانية التعلم في أي سن وكل مرحلة وجميع الظروف. لا وجود في الإسلام لحواجز السن والشهادات والعمل، ومن الأقوال المأثورة في ذلك : «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد»، و«اطلبوا العلم ولو في الصين» ويرى ابن قتيبة أنه «لا يزال المرء عالما ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل». (مرسي 1982).

- وينبغي كذلك أن تكون تربية متجددة، ورد عن الإمام علي كرم الله وجهه : «علموا أولادكم غير ما عُلّمتم فإنهم خلقوا لزمان غير زمانكم».

3. 2. 4 الأصالة :

- ينبغي للتربية الإسلامية أن تستقي مكونات وتوجيهات مناهجها ومحتوياتها وطرقها من التراث الإسلامي قبل أن تكمل بما قد يفيدها من التراث العالمي.

- ينبغي أن تعطى الأولوية للتربية الروحية كما يعلمها الإسلام : السمو بالإنسان إلى العالم العلوي دون الانسلاخ عن العالم المادي مقتدية بقول الرسول ﷺ «اللهم أصلح لي دنياي التي فيها معاشي وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي».

- وتقتضي التربية الروحية الإسلامية الحق التمكن من العربية لغة الكتاب والسنة.

- هذا ويستوجب مبدأ الأصالة كذلك تلقين العلوم والفنون الحديثة في مناخ تكويني يستمد توجهه العام من العقيدة الإسلامية.

3. 2. 5 العلمية :

ينبغي للتربية الإسلامية أن تعتبر العلم والتكنولوجية من أهم مكونات الحضارة الحديثة وأن اكتسابها يعتبر ضرورة ملحة للعالم الإسلامي إذا أراد ألا يفوته الركب، وبالتالي ينبغي أن تولي أهمية خاصة لمختلف العلوم والتقنيات الحديثة في مناهج الدراسة ومختلف الأنشطة التربوية على أنه ينبغي توجيه التربية العلمية توجيها إسلاميا.

3. 2. 6 تربية عملية :

ينبغي للتربية أن تأخذ بالاعتبار أن العمل من أهم مقومات الحياة العادية والروحية في الإسلام، فهو يعتبر عبادة، عليها إذن أن تكون إنسانا يؤمن بتعاليم الإسلام ويطبقها ويدافع عنها وأن تكون العامل المنتج في ميدان الاقتصاد والفرد الفعال في المجتمع.

3. 2. 7 التضامن :

من أهم تعاليم الإسلام التعاون والتآخي والتكافل بين المسلمين، فعلى التربية الإسلامية أن تنمي وتوطد روح التضامن لدى الأفراد والجماعات.

3. 2. 8 الانفتاح :

على التربية أن تفتح الأشخاص على الكون وخالقهُ، على الحياة والأحياء، على الأمم والثقافات الأخرى. فالإسلام بعيد عن التعصب والتمييز العرقي أو الاجتماعي حيث لا شعوبية فيه ولا تفضيل بين البشر إلا بالتقوى والإيمان، يقول الله تعالى : ﴿**يا أيّها الناسُ إنّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ الله أَتْقَاكُمْ**﴾ وورد عن النبي ﷺ «كلكم لآدم وآدم من تراب».

فالتربية الإسلامية تربية إنسانية على أخوة الإيمان (لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى) وهي تربية عالمية لأن الإسلام رسالة عالمية جاءت للناس كافة. قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ كَافَّةً لِلنَّاس بَشِيراً وَنَذِيراً**﴾.

3. 3. أولويات العمل التربوي :

انطلاقا من الأهداف والأسس السابقة يمكن استخلاص بعض العناصر الرئيسية التي ينبغي في نظرنا أن تحظى بالأولوية في اهتمام المسؤولين عن التربية في العالم الإسلامي، وهذه العناصر هي التالية :

3. 3. 1. العمل على استيعاب جميع الأطفال البالغين سن الدراسة، والتخطيط لأن ينالوا حدا أدنى من التعليم، ومن المهارات التي تؤهل من لم يسعفه الحظ لمتابعة

دراسته أن يلج الحياة العملية بمؤهلات محترمة، وذلك حتى تسد البلدان الإسلامية منفذاً من المنافذ الأساسية للأمية، وبالمقابل العمل على محو الأمية بين الكبار للمساهمة في عملية الإقلاع المجتمعي.

ونظرا للعوز المادي الذي تشكو منه أغلبية الأقطار الإسلامية فإن هذه المهمة تتطلب الاستغلال الأقصى للهياكل التعليمية الموجودة والبحث عن هياكل وموارد أخرى خارج الجهاز التعليمي كالكتاتيب والمساجد والزوايا والمؤسسات الاجتماعية والثقافية والمهنية، كما تتطلب تجنيد جميع الطاقات القادرة على التلقين داخل وخارج الجهاز التعليمي.

3. 3. 2. **تنويع المسارات التكوينية** في جميع أسلاك التعليم وتوجيهها نحو المرونة والسيولة.

ويقتضي التنويع تأسيس أسلاك تكوينية طويلة وقصيرة ومتوسطة المدة وإنشاء تعليم عام وتعليم تقني وتعليم مهني وتعليم فلاحي مع إعطاء أهمية خاصة للتعليم التقني والمهني والفلاحي.

وتقتضي المرونة والسيولة وضع جسور بين مختلف أنواع التعليم ومستوياته.

3. 3. 3. **إعادة النظر في محتويات وطرق التعليم** وجعلها تستجيب لروح الإسلام وتعاليمه ولمختلف الحاجيات الاقتصادية والفنية والاجتماعية. وفي هذا الباب لا ينبغي نقل علوم الغرب كما هي، بل يتوجب الأخذ منها بما يستجيب إلى احتياجات العالم الإسلامي وخصوصياته وصهرها في نظام القيم الإسلامية.

3. 3. 4. تدعيم التربية الدينية والأخلاقية في جميع مستويات التعليم وأشكاله حتى يتشبع النشئ منذ نعومة أظفاره بالقيم الأخلاقية الإسلامية ويكون عارفا بشؤون دينه.

3. 3. 5. الإدارة والتخطيط :

فيما يخص الإدارة التربوية ينبغي تسهيل التواصل في الأجهزة الإدارية وتكوين الفنيين الأكفاء والعمل باللا مركزية.

وعلى مستوى التخطيط بنبغي أن يكون تخطيطا مندمجا يشمل مختلف قطاعات ومستويات التربية من جهة ويشمل التكامل بين التربية والقطاعات الأخرى الاقتصادية والاجتماعية والثقافية من جهة أخرى.

3. 3. 6. التعاون :

التعاون من الجوانب الأساسية التي ينبغي أن تحظى باهتمام كبير من المسؤولين، ذلك أنه يدعم التضامن والتكامل بين أقطار العالم الإسلامي.

ويكون التعاون بتبادل الخبرات والبعثات الطلابية والتدريسية وبفتح المعاهد العليا والجامعات في وجه طلاب العالم الإسلامي، وبتطوير المراكز الإقليمية وشبه الإقليمية للأبحاث والدراسات العلمية والتكنولوجية، وباستغلال كل دولة للطاقات البشرية والكفاءات العلمية الهائلة التي يزخر بها العالم الإسلامي. فكم من دول لجأت للخبرات الغربية للاستعانة بها، في حين أن هذه الكفاءات موجودة بأعداد هائلة في دول إسلامية أخرى، بل إن بعضاً من هذه الكفاءات يشكو من البطالة في الوقت الذي تشكو دول إسلامية أخرى من ندرة هذه الكفاءات، كما يكون التعاون بالقيام

ببحوث مشتركة في مختلف المجالات العلمية والفكرية وبترجمة الإنتاج الثقافي ذي الأهمية في العالم الإسلامي إلى مختلف لغات البلاد الإسلامية.

هذه بعض التوجهات التي نقترحها لإصلاح الأنظمة التربوية بالبلاد الإسلامية والإيسيسكو تعمل جاهدة لبلورتها على مستوى الواقع من خلال برامجها المختلفة.

4) برامج الإيسيسكو

يمكن أن توصف الأنشطة التي تقوم بها الإيسيسكو في المجال التربوي بأنها على نوعين رئيسيين : يهدف الأول منهما إلى الاستجابة للحاجيات الملحة لبعض الدول الإسلامية، ويتعلق الأمر بتكوين القيادات في مجال محو الأمية باعتباره من أكبر المشاكل التي تعيق التطور في هذه البلدان، وكذلك تكوين القيادات في مجال تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، وتأليف الكتب في ذلك، مع تزويد أقسام الدراسات الإسلامية بالكتاب الإسلامي. بالإضافة إلى العمل على تبادل الطلبة والأساتذة بين جامعات الدول الأعضاء ومعاهدها وتشجيع تدريس اللغات الإسلامية في هذه الجامعات والمعاهد، وتطوير المختبرات العلمية بمدارس الدول الإسلامية مع عقد دورات تدريبية للتقنيين في مجالات تخزين المعلومات واستعمال الحاسوب. ومن شأن هذه الأنشطة أن تستجيب لبعض الحاجيات الملحة وتعين الدول الإسلامية الأكثر احتياجا في هذه المرحلة.

أما النوع الثاني من الأنشطة التربوية التي تضطلع بها الإيسيسكو، فيمكن نعتها بأنها عمل تخطيطي طويل المدى يهدف إلى تطوير الأنظمة التربوية في العالم الإسلامي وفق منهجية إسلامية، وفي هذا الإطار، فإن الإيسيسكو بلورت لحد الآن العديد من مشاريع البرامج الموحدة، ويتعلق الأمر بالبرنامج الموحد لتدريس التربية الإسلامية في مختلف المراحل التعليمية في الدول الأعضاء، وبالمنهاج الموحد لتدريس التاريخ

والجغرافية من وجهة نظر إسلامية، وبالمنهاج الموحد لتدريس البيولوجيا في المرحلة الثانوية، وبالمنهاج الموحد لتدريس الكيمياء في المرحلة الثانوية بالدول الأعضاء.

ولا يخامرنا شك في أن هذه الحركة المباركة ستشكل رافداً أساسيا من روافد الاستراتيجية العامة التي أعددنا مشروعها لتطوير التربية في الدول الإسلامية.وسيعرض على ممثلي الدول الأعضاء لمناقشته وإغنائه خلال شهر أبريل من السنة القادمة (1988) بحول الله ونعتقد أن من شأن هذه الاستراتيجية العامة ورديفتها الاستراتيجية الثقافية الإسلامية التي نعمل جاهدين على بلورتها أن تمكن الإيسيسكو من وضع وسائل العمل رهن إشارة الدول الأعضاء لكي تحقق هذه الدول أحد الأهداف التي أنشأت الإيسيسكو من أجلها، وهو جعل الثقافة الإسلامية محور مناهج التعليم في البلاد الإسلامية.

خاتمة :

إن التنمية والتضامن من أهم التحديات المطروحة على العالم الإسلامي في الوقت الراهن، وإن الوضع التربوي الحالي للبلاد الإسلامية يعاني من عدة مشاكل تقف حاجزاً ضد مساهمة التربية في تحقيق هذين المطلبين.

لذلك يتحتم القيام بإصلاح جذري للتربية في العالم الإسلامي وينبغي لهذا الإصلاح أن يخضع لمنهج علمي مشبع بالروح الإسلامية وأن ينطلق من أسس سليمة تعتبر الواقع المادي والروحي والتراث الحضاري للأمة الإسلامية.

المراجــــع

- القرآن
- الحديث
- الأليكسو (1979) «استراتيجية تطوير التربية العربية»، بيروت : مؤسسة الريحـاني للطباعة والنشر.
- مرسي محمد منير (1982) «التربية الإسلاميـة : أصولهـا وتطورهـا»، القـاهرة : عـالم الكتب.
- عبود عبد الغني (1977) «في التربية الإسلامية» : دار الفكر العربي.

– Anderson, C.A. et Bowman M.J., éditeurs (1965) **Education and Economic Development.** Chicago : Aldine Publishing Company.

– Combs, Ph H. (1968) **La crise mondiale de l'éducation** Paris : P.U.F.

– Combs, Ph.H. (1970). **Qu'est-ce que la planification de l'éducation ?** Paris : UNESCO/I.I.P.E

– Conférence de Bangkok (1985). Vème Conférence régionale des ministres de l'Education en Asie et dans le Pacifique. 4-18 Mars 1985. Rapport Final. Paris : UNESCO, Juillet 1985.

– Denison, E.F. (1964). La mesure de la contribution de l'enseignement à la croissance économique. **Le facteur résiduel et le progrès économique.** Paris : O.C.D.E.

– Dreeben, R. (1967). **The contribution of schooling in the learning of norms.** Harvard Education Review, 37, 211-237.

– Durkhein E. (1977). **Education et sociologie** 3eme édition, Paris – P.U.F

– Eicher, J.C. (1982). Quelles ressources pour l'éducation ? **Perspectives,** XII, 1, 1982, pp, 59-70

– Faure, E. et al. (1972). **Apprendre à être.** Paris : UNESCO – Fayard

– Hamidoulah, Moh. (1975). **Le Prophète de l'Islam** Beyrouth-Ankara : Hilal Yayinlari. 2 tomes

– Harbison, F. (1971) **Planification de l'éducation et des ressources humaines** Paris : I.I.P.E

– Harbison, F. et ch. A Inyers (1967) **La formation, clé du développement** Paris : Editions ouvrières.

– Hubert, R (1963). **Traité de Pédagogie générale** Paris : Delalain

– Hummel, ch. (1977). **L'éducation aujourd'hui face au monde de demain.** Paris : UNESCO – PUF

– Husain, S.S. et S.A Ashraf (1979) **Crisis in muslim education.** Hodder and Stoughton-King Abdulaziz University.

- Illich, I (1971) **Une société sans école** Paris : Seuil
- ISESCO (1983). **Annuaire statistique**
- Le Thành Khêi (1967) **L'industrie de l'enseignement** Paris : Minuit
- Marshall, A (1961). **Principles of économics** London : Macmillan. 8eme édition
- O.N.U (1982) **Annuaire statistique**
- O.N.U (1984) **Etude sur l'économie mondiale en 1984**
- O.N.U (1985) **Aperçu global sur la crise économique et sociale en Afrique** C.E.S : Commission Economique pour l'Afrique Page, A (1971) **L'économie de** l'éducation, Paris, Presses universitaires de France
- Plan de Karachi (1960) in UNESCO (1962) : Rapport de la réunion des ministres de l'Education des Etats membres d'Asie qui participent au plan de Karachi (Tokyo, 2-11 avril 1962) Bangkok : UNESCO.
- Plan d'addis Abeba : UNESCO (1961). Rapport final de la Conférence d'Etats africains sur le développement de l'éducation en Afrique. Addis Abéba, 15-25 mai 1961. Paris UNESCO.

Ce plan avait fixé les objectifs de scolarisation suivants :

	1961	1970-71	1980-81
enseignement primaire :	40 %	71 %	100 %
enseignement secondaire :	3 %	15 %	23 %
enseignement supérieur :	0,2 %	0,4 %	2 %

- Plan de Santiago (1962) : UNESCO (1962) : Conférence sur l'éducation et le développement économique et social en Amérique Latine. Santiago-du-Chili, 5-19 mars 1962. Rapport final. Paris : UNESCO
- Puvert, J.C. (1984). **Guide méthodologique pour l'application de la notion de** tronc commun dans la formation. UNESCO : Division de l'enseignement supérieur.
- Roszak, Th. (1969). **The making of counter culture** New-York : Anchor Books.
- Rostow, W.W. (1952). **Les étapes de la croissance économique** Paris : Seuil.
- Schultz, Th. W. (1961). **Education and economic growth** Chicago : Chicago Press.
- Schultz, Th. W. (1963) **The economic value of education.** Columbia University Press.
- Smith, A. (1950) **Textes choisis.** Paris : Dalloz.
- Stroumiline, S. (1962) **Aspects économiques de l'enseignement en URSS.** Revue Internationale des Sciences Sociales, XIV, 4, 1962, pp. 682-695.
- Thomas, J. (1975) **Les grands problèmes de l'éducation dans le monde.** Paris : Presses Universitaires de france.
- UNESCO (1985) **Annuaire statistique.**
- Vaisey, J. (1964) **Economie de l'éducation**. Paris : éditions ouvrières.

Woudhall, M. (1970) **L'analyse – coût, bénéfice dans la planification.** Paris – UNESCO I.I.P.E.

السلام في السياق الإقليمي

أحمد صدقي الدجاني

يكتسب موضوع «السلام في السياق الإقليمي» أهمية كبيرة في عالمنا المعاصر، عالم يعيش ثورة الاتصال على أوسع مدى ويعيش الانقلاب النووي بما يحمله من خطر فناء البشرية بالأسلحة التدميرية النووية. ويبدو هذا الموضوع الذي شغل الناس منذ القديم وقد باتت أبعاده بصورة جديدة لم تعرفها البشرية من قبل. ولعل أهم ما نراه في هذه الصورة هو الارتباط الوثيق بين السلام العالمي والسلام الإقليمي. وقد ظهر هذا الارتباط جليا حين أدت تفجرات إقليمية إلى نشوب أول حرب عالمية أوائل هذا القرن عام 1914م. ثم ظهر بصورة أقوى حين تكررت الكارثة بعد عقدين من انتهاء الأولى، وأدت تفجرات إقليمية أخرى إلى نشوب الحرب العالمية الثانية عام 1939. وقد ازداد هذا الارتباط قوة مع اتساع ثورة الاتصال التي وثقت الصلات بين دول كل إقليم من جهة وبين جميع الأقاليم من جهة أخرى. وأصبح يحمل في طياته خطرا لم يعرفه الإنسان من قبل بعد أن حدث الانقلاب النووي. وكم من مرة حبس العالم فيها أنفاسه منذ عام 1945 حين كادت التوترات والتفجرات التي ظهرت في هذا الإقليم أو ذاك أن توصل إلى مواجهة شاملة قد تستخدم فيها الأسلحة النووية، وكلنا يذكر أزمة كوبا عام 1962 وأزمة تصاعد التوتر في منطقة الوطن العربي عام 1970.

إن استتباب السلام على الصعيد الإقليمي في عالمنا المعاصر هدف عظيم يستحق أن نعمل له بكل قوة ووضوح مفهوم هذا الهدف العظيم الذي نضعه نصب أعيننا

ضروري لننجح في عملنا. والسلام بالتعريف البسيط هو «ضد الحرب»، وهو أيضا «وقف الحرب وإيقاف للنزاع والخصومة»، «وعلاقات بين دول ليست في حرب» و«حالة من التوازن المستقر في العلاقات السياسية»، «وحالة من الهدوء والسكينة والراحة العقلية في ظل الصداقة. «ومن تعريفاته الحديثة» هو مجموعة علاقات التعايش والتعاون المتحركة بين الأمم وفي داخل الأمم، لا تتميز بغياب النزاعات المسلحة فحسب بل وباحترام القيم البشرية التي عبّر عنها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان وبالرغبة في أن يؤمن لكل فرد أقصى ما يمكن من الرفاه».[1]

واضح من هذه التعريفات أن مفهوم السلام يتطور وفقا لتطور التجربة الإنسانية، **وأن إيقاف العمليات الحربية هو خطوة أُولى هامة لبلوغ حالة السلام، ولكن بلوغ** هذه الحالة يقتضي أيضا إيقاف النزاع والخصومة اللذين أديا إلى نشوب الحرب والوصول إلى توازن مستقر في العلاقات السياسية. فلا بد أن يستقر السلام في النفوس والعقول على أساس متين من العدل كي يجلب السكينة والراحة العقلية ويدوم. ومن معاني السلام في اللغة العربية أنه شجر دائم الخضرة لا يأكله شيء والظباء تلزمه، وهو أيضا اسم من أسماء الله تعالى، والديمومة قائمة في المعنيين.[2] واضح أيضا وجود فرق بين «منع الحرب» «وإقرار السلام» فالتعبير الأول يحمل مدلولا سياسيا بينما يحمل التعبير الثاني فضلا عن ذلك مدلولا اجتماعيا نفسيا. وإقرار السلام يقتضي وجود ثقة متبادلة بين الناس.[3] وديمومة السلام تقتضي أن يقترن السلام بالعدل فيتلازمان كهدفين. وقد قرن السلم بالعدل في ميثاق الأمم المتحدة لأن الدول التي أنشأتها كانت تبغي أكثر من مجرد هدنة طويلة، بعد أن أثبتت تجربة عصبة الأمم أن الاتفاقات السياسية التي لا تؤمن العدل قد تلزم الحكومات دون الشعوب ولا تصل أبدا إلى القلوب.

1) المؤسسة الفرنسية لدراسات الدفاع الوطني «الحروب والحضارات».
الترجمة العربية، ص 451 ـ ص 458، دار طلاس.
2) ابن منظور «لسان العرب» مادة سلم، دار صادر.
3) محمد كاملّ حسين/محاضرة عن التعاون الدولي من كتاب محمد محمد الجوادي محمد كامل حسين ص 121.

إن عالمنا الواحد ينقسم إلى أقاليم يضم كل منها دولا تشغل موقعا جغرافيا معينا وتربطها وشائج خاصة. ويلاحظ (مودى) عالم الجغرافيا السياسية أن خريطة العالم السياسية «تبين نمطا توزيعيا للدول بأنواعها المختلفة، لا يتفق إلا قليلا والأقاليم الطبيعية المعروفة لرجال الجغرافيا أو لا يتفق معها إطلاقا.. وقد أظهرت البشرية من الناحية العملية عجزها التام حتى الآن عن إيجاد نموذج للدول يتفق مع النموذج الطبيعي الذي تفترضه الأقاليم الجغرافية.. ذلك أن الإنسان بسبب رغبته الملحة في تكوين دول، والاحتفاظ بها، تجاهل الإطار الممكن للأقاليم الجغرافية تجاهلا كبيراً، واضطر في سبيل الاحتفاظ بسلامة الدولة إلى أن يفرض حدودا تعسفية كثيرا ما تسبب تصادما بين الدول».[4] ومن هنا تأتي أهمية دراسة السلام في الإطار الإقليمي لأن الإقليم وحدة جغرافية طبيعية تتكامل فيه العناصر الطبيعية والبشرية وتجعل له كيانا مميزا. وإذا كانت دولة بمفردها لاتتفق إلا قليلا والإقليم الطبيعي الذي تحتل جزءا منه، فإن مجموع الدول التي يضمها هذا الإقليم الطبيعي يمثل وحدة متفقة معه. وقد نبّه علماء الجغرافيا السياسية وفي مقدمتهم ماكندر إلى أهمية «إدراك الحقائق الجغرافية» وإلى العلاقة بين الأحوال الطبيعية وأنواع النشاط البشري.

حين نعتمد دائرة الإقليم الجغرافي للبحث عن السلام فيها، فإن علينا أن نستحضر في أذهاننا دوائر أخرى. فهناك دائرة أرض الدولة وهي «الوطن»، وترسمها حدود الدولة وهناك دائرة «الوطن القومي» ويرسمها مدى انتشار «الأُمة». وقد كان نمو الدولة في صورتها الحديثة في الغرب مرتبطا بتطور فكرة القومية، وبرز مصطلح «الدولة القومية» ليدل «على وضع تكون الأُمة والدولة فيه شيئا واحداً». وهناك «الدائرة الحضارية» ويرسمها مدى انتشار الحضارة التي أسهم في بنائها شعب تلك الدولة مع شعوب دول أخرى. ويمكننا أن نلاحظ وجود صلة قوية بين دائرة الإقليم الجغرافي والدائرة الحضارية وإن لم تتطابق الدائرتان. كما نلاحظ وجود صلة قوية بين دائرة الإقليم الجغرافي ودائرة الوطن القومي وإن لم تتطابق الدائرتان أيضا.

---

4) مودى «الجغرافيا من وراء السياسية» ترجمة روفائيل جرجس، ص 6، سلسلة الألف كتاب.

إن اعتمادنا دائرة الإقليم الجغرافي كمجال لتحقيق السلام ينطلق من حقيقة أن العلاقات الخارجية والداخلية للدول تكمل بعضها بعضا، وإذا كان السلام لا يتجزأ في عالمنا فكذلك الحال في العلاقات الخارجية للدول التي لا يمكن فصلها بدورها فصلا تاما عن الأحوال الداخلية. ويلفت النظر أن عالمنا المعاصر يشهد اعتمادا اقتصاديا متزايدا للدول بعضها على بعض، كما يشهد إزالة الحواجز بين الدول بالتدريج مع نمو المعرفة وانتشارها بفعل ثورة الاتصال[5] وهكذا فإنه يمكننا اليوم أن نحدد للاستقلال معنى أعمق من معناه في عصور سابقة. فهو لم يعد يوحي بالانعزال والانفصال عن الآخر وإنما أصبح مقترنا بالاتصال بالآخر والتفاعل معه والتكافل وإياه، بعد أن بدأ الإنسان في عصرنا هذا يفهم بشكل أفضل كما قرر ماكنمارا في كتابه الهام «جوهر الأمن» أن استقرار العلاقات بين دول العالم يتأثر بما يجري في كل دولة على حدة. وقد ختم الكتاب بالقول «إن استقرار العلاقات بين الدول الغنية يتأثر باستقرار النظم الأساسية في الدول الفقيرة... وستدرك الدول الغنية والآمنة في العالم أنها لا تستطيع أن تبقى غنية أو آمنة إذا استمرت في إغلاق عيونها عن وباء الفقر الذي يغطي النصف الجنوبي كله من الكرة الأرضية.[6] وسبق (مودى) وسجّل كعالم جغرافيا سياسية أن جفافا ينتاب أمريكا الشمالية له انعكاساته على أوروبا، وسياسة أستراليا البيضاء قد تشجع قيام الروح العسكرية في اليابان.. وأصبح معنى الاستقلال يبرز بعد المسؤولية جنبا إلى جنب مع بعد الحرية على صعيد الدولة الواحدة وعلى صعيد الدول المجتمعة، فمثل العالم كمثل قوم في سفينة أراد بعض من كانوا أسفلها أن يتقبوا في المكان الذي يحتلونه، ليحصلوا على الماء فإن تركهم الآخرون وشأنهم هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعا، وقد رسم لنا نبي الإسلام هذه الصورة ليوضح بعد المسؤولية.

إن استتباب السلام في عالمنا على مختلف الصعد القومية والإقليمية والعالمية يتأثر بالفلسفات السائدة. ويلفت النظر أن هذا العالم يشهد صحوة الفكر الفلسفي فيه

5) المصدر نفسه، ص 61.

6) ماكنمارا «جوهر الأمن» ص 133، ترجمة يونس شاهين، الهيئة المصرية للكتاب.

والعودة إلى طرح التساؤلات الرئيسية للفلسفة الأُولى. فبعد أن تراجعت مكانة الدين في المجتمعات الصناعية الغربية، وضعف دور الفلسفة في حياتها، وأكد بعض المفكرين الغربيين أن عصر الفلسفة ولى وأدبر، إذا بالفكر الفلسفي يصحو ويعود التساؤل الفلسفي بشكل قوي ويشمل فيما يشمل رجل الشارع في حياته اليومية التي سيطر عليها الاتصال الجماهيري. أما الدين فقد عرف ظاهرة إحياء نراها اليوم تشمل مختلف المجتمعات والدوائر الحضارية تفاعلت في تكوينها عوامل مختلفة اجتماعية وثقافية وسياسية.(7) وواضح أن الاتجاهات التي ستتخذها حركات الإحياء هذه والاتجاهات التي ستبرز في الفلسفات المعاصرة ستحسم في قضية السلام والحرب.

ما هي مسببات التوتر التي تعكر صفو السلام على الصعيد الإقليمي، وتفتح الباب على مصراعيه أمام العنف والحروب المحلية والإقليمية ؟

يسود في ظل الإسلام نظام قيم ذو وجهة عالمية، ويقوى النزوع نحو التنوع والوحدة، ويتحقق الاعتراف بالغير رغم اختلافه، ويؤدي إلى وجود حالة من التوزان. فإذا ساد نظام قيم نسبي، وسيطر مبدأ «الأسود أو الأبيض»، وجرى إنكار الغير وعدم التسليم باختلافه، واختل التوزان، أصبح من المحتم أن يخيم شبح الحرب.(8)

إن التكوين غير المتجانس للدول في إطار الإقليم الواحد هو من أهم الأسباب التي توجد التوتر وتؤدي إلى الحروب المحلية والإقليمية. ولقد قامت في أعقاب انحسار الاستعمار الغربي وانتصار ثورة التحرير دول رسمت حدودها بشكل مفتعل ومفروض، فضمت عددا من القبائل والجماعات العرقية المختلفة، وسيطرت فيها إحدى هذه القبائل أو الجماعات في أطر جغرافية وسياسية مصطنعة. وتشهد هذه الدول نشوب حروب قبلية وأهلية في إطارها، وتكاد هذه الحروب أن تكون مستمرة لأن

7) أنور عبد الملك «تغيير العالم» ص 135 ـ ص 145، سلسلة كتاب عالم المعرفة.
8) «الحروب والحضارات» مصدر سبق ذكره ص 24 ـ ص 29.

سببها الرئيسي يضرب بعمق في صلب التكوين البشري لهذه الدول. ويلاحظ أن الحرب الأهلية هي من أكثر أشكال الحروب وحشية. وهي يمكن أن تتسع فتهدد سلام الإقليم كله.

إن التكوين غير المتجانس للدول يظهر أيضا في الدولة متعددة القوميات. ففي عالم قويت فيه الدعوة القومية وبلغت ذروتها خلال القرنين الأخيرين، وبرز فيه نموذج «الدولة القومية» باعتباره النموذج الأمثل للدولة، يحمل تعدد القوميات في الدولة الواحدة في طياته خطر حدوث صراع قومي قد يوصل إلى تفجر حرب بين قوميتين، مالم يتدارك بالاعتراف بالنزوع القومي وباللغات القومية وبإيجاد أنماط فعالة من التقدم الاقتصادي والاجتماعي في ظل سلطة مركزية اتحادية قوية.[9]

يتداخل التعدد القومي بالتعدد الديني، ويأخذ الصراع القومي شكل صراع ديني والصراع الديني شكل صراع قومي أحيانا. فتنشب حروب داخلية تأخذ طابعا دينيا وقد عرفت أوروبا في بدايات العصر الحديث الحروب الدينية وعانت منها. ويؤدي تعدد القوميات في ظل الدولة الواحدة إلى حدوث توترات بين هذه الدولة ودول مجاورة لها بسبب «الأقليات القومية». وكم عانت أوروبا من حروب نشبت بفعل هذا النوع من التوترات على مدى القرون الأربعة الأخيرة.

يظهر التكوين غير المتجانس للدول في الدولة «ثنائية البنية» التي قامت في العالم الجديد ضمن ظاهرة الخروج الغربي الاستعماري. وتسيطر في هذه الدول أقليات أوروبية الأصل على غالبية من السكان الأصليين، وتبدو فيها بوضوح «ثنائية الحضارة». وما أكثر ما حدث بسبب هذه السيطرة أن تفجرت الصراعات العنيفة بين مختلف الجماعات البشرية في هذه الدول.

9) أنور عبد الملك، مصدر سبق ذكره، ص 55.

لعل أخطر صور التكوين غير المتجانس للدول في الإقليم الواحد هو صورة «دولة الاستعمار الاستيطاني» التي جرى زرعها في منطقة متجانسة وتأسيسها على فكرة «العنصرية العدوانية». فهذه الدولة تقوم على إشلاء أهل البلاد» وهي تمثل جسما غريبا في المنطقة وتعمل على التخريب الحضاري فيها. وقد عانت قارتا إفريقيا وآسيا من استهدافها بعدد من غزوات هذا الاستعمار الاستيطاني الأُوروبي، خلال عصر الاستعمار.

واضح أن عملية الاستعمار تتحمل مسؤولية خاصة في بروز التكوين غير المتجانس للدول في عالمنا المعاصر، تماما كما تتحمل نزعات الاستعلاء القومي والتعصب الديني مسؤوليتها فيما نشب من صراعات قومية ودينية في العالم الحديث. وقد تفاعل عاملا الاستعلاء القومي والتعصب الديني مع عوامل اقتصادية واجتماعية في تكوين «الظاهرة الاستعمارية».

كان الاستعمار ولا يزال سببا رئيسيا في نشوب الحروب في عالمنا، وقد عانت منه الشعوب المستعمرة الويلات. ومثل الاستعمار تخريبا في الأَقاليم التي استهدفها، فأفقدها ما تتميز به من وحدة تتكامل فيها العناصر الطبيعية والبشرية. وقد عبرت مقاومة غزوات الاستعمار بداية وثورات التحرير منه بعد ذلك عن جهد لوقف هذا التخريب وإصلاح ما فسد، ومن هنا، اعتبرت مقاومة الاستعمار وحروب التحرير عملا ضروريا لبناء السلام ولعودة الأمور إلى طبيعتها.[10]

إذا كان الاستغلال الذي تمثله عملية الاستعمار يقدم نموذجا صارخا، فإن الاستغلال بصورة عامة حتى وإن حدث على صعيد الدولة الواحدة والأُمة الواحدة، هو أحد مسببات التوتر التي تؤدي إلى نشوب الحروب والثورات. وما الثورة الاجتماعية في

10) جمال حمدان «استراتيجية الاستعمار والتحرير» ص 110، عالم الكتب.

مجتمع ما إلا جواب حتمي على الاستغلال الذي تمارسه طبقة مستغلة على طبقات أخرى مقهورة في المجتمع. ومن هنا كانت النظرة إلى هذه الثورات الاجتماعية انها عملية مفهومة وهي تمهد لعودة الأُمور إلى طبيعتها في المجتمع.

لقد تميز العالم الحديث بظهور «العقائد» الإيديولوجيات» فيه، وعانى من الصراع العقائدي الذي احتدم بين هذه العقائد. وبدأ واضحا أن هذا الصراع أصبح من مسببات التوتر في عالمنا التي تؤدي إلى نشوب ما اصطلح على تسميته بالحروب الباردة. وينفخ في هذا الصراع ما يعم في وسائل الاتصال الحديثة من حملات يقوم بها المتصارعون العقيديون.

بقي أن نشير من بين مسببات التوتر على الصعيد الإقليمي إلى «الإرهاب» الذي برز كظاهرة في عالمنا المعاصر. وقد تفاعلت في صنع هذه الظاهرة عوامل قومية واجتماعية وعقيدية وسياسية وفكرية. وعلى الرغم من أن الغموض ما زال يكتنف الإرهاب، إلا أنه من الواضح الفرق القائم بينه وبين مقاومة الاستعمار. وهو يمكن أن يحدث على صعيد الأفراد، كما يمكن أن يأخذ شكلا رسمياً حين يمارس على صعيد الدول.

يمكننا أن نجمل مسببات التوتر التي نراها في المجتمعات والدول على صعيد إقليم بعينه في الاستعمار والاستعمار الاستيطاني العنصري بخاصة، والاستعلاء القومي، والاستغلال الطبقي، والتعصب الديني، والصراع العقيدي، والإرهاب وهذه المسببات تؤدي منفردة أو مجتمعة إلى نشوب الحروب العدوانية التي تعاني منها البشرية أشد معاناة. وقد أدان الإنسان هذه الحروب العدوانية ومجّد التصدي لها بالمقاومة أو بالثورة الاجتماعية أو بالنضال من أجل التحرير أو بإشاعة الثقة، واعتبر ذلك كله عملا من أجل استتباب السلام وعودة الأُمور إلى طبيعتها. ومنذ القديم ميَّز الإنسان الحروب العدوانية واعتبرها غير مشروعة كما فعل ابن خلدون في مقدمته.

السؤال الذي يلح علينا اليوم وقد تفاقم خطر هذه الحروب في عصرنا، وأنذر بانتقالها من الصعيد الإقليمي إلى الصعيد العالمي هو :

كيف نعمل لنقضي على مسببات التوتر هذه ؟

إن عملنا يجب أن ينطلق من إدراك الواقع القائم في عالمنا. وهذا يعني الإقرار بالوجود غير المتجانس الذي أوجدته مسببات التوتر، والعمل من ثم على إصلاح مافيه من خلل ليصبح متجانسا. فخريطة العالم بأقاليمه المختلفة ودوله الكثيرة تَمَّ رسمها عبر عملية استغرقت زمنا طويلا ولا مجال للقفز فوقها. وعلينا أن نضع أيدينا على ما فيها من خلل ونعمل على إصلاحه.

إن عملنا يجب أن يستهدف عقل الإنسان الذي فيه تتولد الحروب وفيه تبنى حصون السلام. ولا بديل عن بذل الجهد لنحمل عالمنا من الخطر الذي يتهدده.

كذلك فإن عملنا يجب أن يلاحظ طبيعة النفس الإنسانية والفطرة البشرية ليحقق النجاح المطلوب.

إن الإنسان الذي تتسلط عليه الأفكار العنصرية مهيأ بفطرته للشعور بالأخوة الإنسانية مع كل البشر، وما عنصريته إلا إخلال بهذه الفطرة. وواضح أن النزوع القومي في فطرة الإنسان شيء أصيل لأنه «حيوان اجتماعي» يعيش ضمن أقوام. ولكن الاستعلاء القومي إخلال واضح بهذا النزوع، والإنسان بفطرته يتوق إلى العدل، ولكنه حين يطغى يستغل. وواضح أن البعد الروحي في النفس الإنسانية بعد أساسي، وهو الدافع وراء نزوعه إلى التدين، ولكن التعصب الديني انحراف بهذا الدافع. والإنسان بفطرته يبحث عن عقيدة توفر له النظرة الكلية، ولكن انسياقه إلى الانغماس في صراع العقائد إخلال بهذه الفطرة.

المطلوب إذن هو أن يستجيب الإنسان إلى فطرته البشرية، يلبّي نوازعها، ويحقق التوازن بين أشواقه وضروراته، وينهى نفسه عن الهوى.

تقتضي هذه الاستجابة أن يحدد إنسان عالمنا المعاصر انتماءه في عالمه وهويته، بحيث يلبي متطلبات هذا الانتماء وهذه الهوية.

والحق أن قضية الانتماء تبرز في العالم اليوم على صعد عدة، وفي كل المجتمعات مع التغير المتسارع الذي نعيشه. فنحن نراها على صعيد القطر الواحد والدولة الواحدة في صلب موضوع الوحدة الوطنية لشعب تتعدد فيه الأجناس أو الأديان أو المذاهب أو الثقافات. ونراها على صعيد الوطن القومي في موضوع الوحدة القومية لأمة تضم مجموعة شعوب فيها ذلك التعدد. ونراها على صعيد الدائرة الحضارية الواحدة التي تربط عدة أمم فيها برباط العقيدة والحضارة في موضوع الوحدة الحضارية بين تلك الأمم التي يجمعها إقليم واحد. ونراها على صعيد الدائرة العالمية الواحدة في موضوع التعايش والتعاون والتكافل بين مختلف الأمم والحضارات.

هل يتحدد انتماء الإنسان بالنسبة إلى المجتمع، أم بالنسبة إلى الدولة، أم بالنسبة إلى القومية، أم بالنسبة إلى الدين أو العقيدة، أم بالنسبة إلى الحضارة، أم بالنسبة إلى العالم ؟ وهل يتحدد بالنسبة إلى بعض هذه المحددات أم بالنسبة إليها مجتمعة ؟

واضح أن الإنسان ينتمي لكل هذه الدوائر في وقت واحد. والصلة بين هذه الدوائر صلة تكامل. وهوية الإنسان تتحدد بانتمائه إلى الموطن والقوم، وهذا الانتماء يكسبه اللغة، كما تتحدد بالانتماء إلى العقيدة. وينتمي الإنسان بهذه الهوية إلى الدائرة الحضارية والدائرة العالمية.

إن أكثر ما سبب الخلل على صعيد علاقة الإنسان بأخيه الإنسان هو عدم تحقيق التوازن بين متطلبات الانتماء إلى كل دائرة، واصطناع تناقض بين الانتماء لدائرة وأخرى. ولقد عانى عالمنا الكثير من المغالاة في الانتماء القومي مع الغفلة عن متطلبات الانتماء العالمي، الأمر الذي أوصل القوميات جميعاً إلى أخطار جسام. ونذكر هنا أن (أرنولد تويبني) تحدث في عرضه لكتاب برتراند رسل هل للإنسان مستقبل ؟ عن «التناقض البين بين جسامة الأخطار التي تسببنا فيها وسخف المصالح القومية التي نتقاتل من أجلها، مصالح ستفنى مع فناء كل شيء».[11] وعانى عالمنا الكثير من عدم تحقيق التوازن بين الانتماء الوطني والانتماء القومي، وبين الانتماء القومي والانتماء الحضاري. ولكم نشبت حروب طاحنة بين قوميات تنتسب جميعها إلى حضارة واحدة.

لقد فعلت ثورة الاتصال فعلها في عالمنا على صعيد الاحتكاك الحضاري، واشتد بفعلها نزوع الشعوب إلى الوحدة وإلى التنوع في وقت واحد، بعد أن قوت الإحساس بالذات والتميز لدى كل مجموعة بشرية مهما صغرت. وإن وضوح الهوية بدوائر الانتماء جميعها هو الذي سيدفع هذه المجموعات إلى السير في طريق التعاون، وهو يحقق إنسانية الإنسان، ويمكنه من إطلاق طاقاته ويبلور ذاته فتتميز عن الغير وتفسح الطريق لتتعامل مع هذا الغير تعامل الانداد وتتواصل.

إذا انتقلنا من الحديث على صعيد الفرد إلى الحديث على صعيد الدول، نجد أن عالمنا المعاصر يضم دولا كثيرة تتراوح في الحجم والإمكانات والعمر. ونجد أن الحاجة ملحة كي تستشعر هذه الدول جميعها مسؤولية انتمائها إلى كوكب واحد وإلى أقاليم جغرافية في هذا الكوكب. فعليها أن تتعاون وتتكافل لحماية كوكبها من خطر الفناء، ولتأمين العيش الكريم للإنسان فيه.

☆ ☆

11) أرنولد تويبني، مقدمة كتاب «هل للإنسان مستقبل» لبرتراند رسل.

ما هي الصيغة المناسبة لتحقيق تعاون الدول وتكاتفها ؟

لقد قوى الحديث في أعقاب الحرب العالمية الثانية عن ضرورة التعاون والتكافل، واقترحت صيغ مختلفة تتجاوز عيوب الصيغ القديمة. ومن الملاحظ أن تقسيم الوحدات الإقليمية إلى مجموعات في الماضي كانت تفرضه الدول الأقوى، واتخذ شكل امبراطوريات وتحالفات.

برز اقتراح إنشاء الحكومة العالمية مع بروز خطر الفناء بالحرب النووية، وطرحه عدد من المفكرين وجرى تصور قيام «عالم بدون حرب»[12] تفرض وجوده هذه الحكومة العالمية بما لها من سلطات فعالة تجعل الحرب مستحيلة في المستقبل. وكان عالم الجغرافية السياسية (ماكيندر) قد اقترح في كتابه «حقائق جغرافية» الوصول إلى «وحدة عالمية» من خلال قيام «مجموعات إقليمية» تدرك أن أحسن ما يخدم مصالحها هو التعاون بينها. وقد اقترح (مودى) قيام ست منها هي المجموعة السوفيتية وغرب أوروبا والشرق الأوسط والشرق الأقصى والكومنولث البريطاني ومجموعة الأميريكيتين. ولاحظ أن كلا منها تمتلك موارد بشرية ومادية هائلة، وتشمل في داخلها مصالح مشتركة كافية لأن تجعل الأساس المرضي للتعاون العملي ممكنا.[13]

إن التقسيم الأنسب للمجموعات في عالمنا هو ذاك الذي يأخذ في اعتباره بعد المكان والوحدة الحضارية والواقع القائم. والحق أنه يمكننا أن نتحدث على الصعيد الحضاري عن دائرة حضارية غربية ازدهرت فيها حضارة الغرب وهي تشمل أوروبا بكاملها وتمتد إلى أميركا الشمالية، ودائرة الحضارة العربية الإسلامية التي يقع الوطن العربي في قلبها وقد امتدت آسيويا وإفريقيا، ودائرة الحضارة الآسيوية في الشرق الأقصى، والدائرة الحضارية الإفريقية، ودائرة حضارة أميركا اللاتينية. وواضح أن الخريطة

12) أرثر لارسون «عالم بدون حرب» الترجمة العربية ـ راشد البراوي، مكتبة النهضة المصرية.

13) مودى مصدر سبق ذكره، ص 75.

السياسية التي رسمتها أحداث القرنين الأخيرين جعلت المجموعات السياسية لا تتطابق مع هذه الدوائر، ولكن شيئا من الاقتراب منها حدث عند رسم مجالات نشاطات المنظمات الإقليمية. ويجب الانتباه إلى أن التقسيم الحضاري للمجموعات لا يضع خطوطا فاصلة بين الدوائر الحضارية، وإنما تكون خطوطه جسور اتصال بينها فالتفاعل الحضاري ظاهرة أصيلة من ظواهر الحضارة. وهكذا فإن الدول الأوروبية المطلة على المتوسط في دائرة الحضارة الغربية وثيقة الصلة مع الدول العربية المطلة على المتوسط في دائرة الحضارة العربية الإسلامية، وهذه الدول وتلك تشكل معا مجموعة متوسطية فرعية.

لقد قامت في عالمنا المعاصر صيغ عملية للتعاون بين المجموعات. فبرزت مثلا صيغة التعاون العربي الإفريقي بين دول الجامعة العربية ودول منظمة الوحدة الإفريقية، وصيغة الحوار العربي الأوروبي بين دول الجامعة العربية ودول المجموعة الأوروبية. وقوى الشعور في نطاق الحوار العربي الأوروبي بأن أمن أوروبا وسلامها مرتبط بأمن منطقة الوطن العربي وسلامتها.

ينبغي أن يكون الانطلاق إلى التعاون بين الدول على صعيد المجموعة الواحدة أو على صعيد مجموعة وأخرى من الإقرار بالتعددية. وقد أثبتت أحداث القرنين الأخيرين أن هيمنة الحضارة الواحدة والمركز الواحد لا تخلق المناخ الصالح للتعاون. كما أثبتت أن الاستقطاب الثنائي حول مركزين في ظل حضارة واحدة يزيد من شدة التوتر. والحق أن ثورة الاتصال التي يعيشها عالمنا المعاصر أبرزت حقيقة تعدد الحضارات وأفسحت المجال واسعا أمام تفاعلها. وواضح أن الحضارة الغربية عانت من موقف وقفه بعض مفكروها ينكر ما قدمته الحضارات الأخرى ويقول بوحدانية حضارة الغرب، ويعتبر «العالمية» مرادفا «للغربية». وقد دأب (توينبي) على تبيين خطأ هذا الموقف. وحذّر هو وآخرون من آثاره السلبية، ومن بينها اعتماد مقياسين والكيل بكيلين.

إن التعددية الحضارية هي الكفيلة بتقليل أخطار المواجهة، وهي القادرة على صياغة مشروع حضاري جديد يجسد حضارة العصر.

☆ ☆

من أين نبدأ عملنا لتحقيق التعاون ضمن صيغته المناسبة ؟

أن المناخ الصالح للتعاون يتوافر حين تشكل المجموعة الإقليمية منطقة ثقافية واحدة ومفهومه الصحيح كما طرحه (أولف بالمي) في شرحه للتعاون القائم بين دول الشمال الأوروبي الخمس هو أن تشابه العوامل الثقافية من اللغة إلى الدين ومن المؤسسات السياسية والاجتماعية إلى الفكر القومي يجعل الأطراف التي يقوم بينها التعاون على فهم تام لبعضها بعضا. وهو يعبر عن قناعة هذه الأطراف بأن قدرا كاف من التشابه يجمعها بحيث تتشابه تطلعاتها، كما يجمعها في الوقت نفسه قدر كاف من الاختلاف بما يسمح أن تكمل كل منها الأخرى، ويسود ما بين التشابه والاختلاف قدر من التوازن من شأنه أن يترك مجالا لكل طرف فيما يتعلق بتطلعاته الخاصة. ولكن تشابه المصالح شديد بحيث يجعل التحقيق الأمثل لتلك التطلعات يأتي عن طريق التعاون.[14]

لنا أن نبدأ عملنا لتحقيق التعاون بالاهتمام بالثقافة كي نصل إلى أن تعرف الشعوب بعضها بعضا، وقد سبب جهلها بعضها بعضا سيطرة الريبة والشك على تعاملها. ولابد أن نصل إلى اشتراكها في التمسك بالمثل والقيم ضمن مفهوم واحد لها، وإلى أن تقوم الثقة بينها، وإلى أن ترفض كل أشكال التفرقة العنصرية وتؤمن بالمساواة الكاملة بين الأجناس، وإلى أن تستشعر ضرورة التكافل فيما بينها.

14) أولف بالمي خطاب افتتاح ندوة الحوار بين الجامعة العربية ودول الشمال الأوروبي وثائق الجامعة العربية.

إن ثورة الاتصال تتيح فرصة عظيمة للتبادل الثقافي، ولابد لنظام الإعلام أن يخدم هذه الغاية. وعلينا أن نحسن صياغة مضمون الرسالة الإعلامية بحيث تبني حصون السلام في العقول. وواضح أن المشكلات الحرجة التي تواجه البشرية اليوم تتداخل في بعضها البعض بصورة وثيقة، وأن حل أي مشكلة منها مرهون غالبا بحل المشكلات الأخرى. ولقد بين تقرير اللجنة الدولية لدراسة مشكلات الاتصال أن هناك مشكلات تتخذ نطاقا عالميا متزايدا وتتطلب إيجاد حل عالمي لها. وفي شرحه لصور العالم، تحدث عن الحرب ونزع السلاح، والجوع والفقر، والفجوة القائمة بين الشمال والجنوب، ومواضع التلاقي بين الشرق والغرب، وانتهاكات حقوق الإنسان، وحقوق متساوية للمرأة، والتكافل والتعاون.[15] وجميع هذه الموضوعات تستحق أن تدرج في مضمون الرسالة الإعلامية.

سيمهد التعاون الثقافي على الصعيد الإقليمي الطريق أمام التعاون الاقتصادي والتعاون السياسي. وقد أوصل في بعض التجارب إلى سوق العمالة الواحد، وإلى التنسيق الأمني والتعاون البرلماني. كما أوصل ـ وهذا مهم جدا ـ إلى بروز «مواطنية المجموعة الإقليمية» التي يستشعر من خلالها الفرد انتماءه إلى الوطن الكبير الذي تمثله المجموعة. ويلفت النظر أن هذا الشعور ينتشر أكثر مع نمو المصالح المشتركة وتأمين الضمان الاجتماعي وإلغاء جماعات السفر فيما بين دول المجموعة. وكم نرى اليوم أناساً من هذا البلد الأوروبي أو ذاك يصفون أنفسهم بأنهم مواطنون أوروبيون، ونرى مثل ذلك على صعيد دول الشمال الأوروبي، وعلى صعيد الوطن العربي حيث يجرى التعبير عن الانتماء للوطن العربي الكبير.

☆ ☆

لقد نجح العالم طوال العقود الأربعة الأخيرة في أن يتجنب الانجرار إلى مهاوي حرب عالمية، ولكنه وللأسف الشديد وقع في مهاوي حروب إقليمية كثيرة نشبت في أقاليم مختلفة. والحاجة ملحة اليوم إلى النجاح في بلوغ هدف السلام على الصعيد الإقليمي. وهذا يقتضي عملا مشتركا تحكمه أفكار ثبتت صحتها.

15) شون ماكبرايد «أصوات متعددة وعالم واحد» ص 367، يونسكو.

إن السلام الإقليمي لا يمكن أن يتحقق إذا عانى الإقليم من وجود استعماري فيه. فهذا الوجود الاستعماري يمثل مسببا دائما للتوتر، وهو يخرب وحدة الإقليم الطبيعية والثقافية والاقتصادية والبشرية. وإذا كانت ثورة التحرير التي تفجرت في أعقاب الحرب العالمية الثانية قد أوصلت إلى تحرير الغالبية العظمى من البلاد المستعمرة، فإن هناك جيوبا استعمارية لا تزال موجودة ولابد من تحريرها.

ويستحيل استتباب السلام الإقليمي بخاصة إذا عانى الإقليم من وجود مراكز للاستعمار الاستيطاني فيه. والاستعمار الاستيطاني هو قريب العنصرية، ولا مناص من أن يكون بالفكر والممارسة عنصريا. والمستعمر المستوطن يعجز عن الاندماج في حضارة الإقليم لاختلافه الثقافي، فيعمد إلى ممارسة التميز العنصري الذي هو كما عرفته الاتفاقات الدولية «كل تمييز أو استثناء أو تقييد أو تفضيل يقوم على أساس العرق أو اللون أو النسب أو الأصل القومي أو الجنسي، ويستهدف أو يتتبع تعطيل أو عرقلة الاعتراف بحقوق الإنسان والحريات الأساسية أو التمتع بها أو ممارستها على قدم المساواة في مختلف الميادين. «كما يعمد المستوطن إلى صياغة مفهوم للأمن يؤدى إلى العدوان، وإلى بناء مزيد من المستعمرات الاستيطانية في محاولة عبثية لفرض الأمن بالقوة الغاشمة. وقد نبه المؤرخ العربي (يعقوب تالمون) إلى ضلال هذا المفهوم فأوضح في دراسته حساب النفس في أعقاب حرب 1973 أن الأمن وعدم الأمن لا يتعلق بالحدود الآمنة أو غير الآمنة، الطبيعية أو الاصطناعية، المحصنة أو المكشوفة، وإنما يتعلق الأمن بدوافع العدو وتصميمه على شن الحرب. كما أوضح في رسالته المفتوحة «الوطن في خطر» التي كتبها في أعقاب الغزو الإسرائيلي للبنان عام 1982 أنه أيا كانت الدوافع وراء الرغبة في السيطرة على سكان غرباء وحكمهم بالقوة وهم مختلفون في اللغة والتاريخ والثقافة والدين والوعي والطموحات القومية والبنى الاقتصادية والاجتماعية، هو أمر من قبيل محاولة إحياء الاقطاع في القرن العشرين، مهما كانت تلك الدوافع قديمة وخاصة وفريدة. وأوضح أيضا أن عدم المساواة السياسية يقود إلى «الدونية» الاجتماعية والاقتصادية، وأن الحديث عن ضرورة حكم شعب آخر لأسباب

أمنية هو أشبه بالجلوس فوق بركان، وجزم بأن بناء المستعمرات لا يمكن أن يخلق شروطا للتعايش، وإنما هو في نظر العرب علامة من علامات سلب الحق والقهر.[16] ومن هنا فإن السلام الإقليمي يقتضي انتهاء الاستعمار الاستيطاني والقضاء على العنصرية.

يسود السلام الإقليمي إذا تحقق قيام توازن بين دوائر الانتماء الوطنية والقومية والدينية والحضارية، وجرى إعطاء كل انتماء حقه واستشعار ما يفرضه من مسؤوليات. وبقدر ما هو مرغوب الاعتزاز بالروح الوطنية والانتماء القومي والإيمان الديني بقدر ما ينبغي محاربة النعرات الوطنية والاستعلاء القومي والتعصب الديني أو العقيدي. ولابد من التسليم بالتعددية والسعي إلى الوحدة من خلال التنوع، والنظر إلى التخوم القائمة بين الدول أو الدوائر المختلفة على أنها جسور واصلة وليست حدودا فاصلة.

إن الفكر الفلسفي والإحياء الديني يستطيعان تقديم الكثير من أجل صياغة الأفكار وبلورة القيم التي تحكم إنسان عالمنا المعاصر وتوجهه إلى إقامة السلام والعدل. ومن هنا تأتي أهمية طرح موضوع السلام على مائدة البحث والانشغال به.

يبقى أن نشير إلى أهمية إيجاد المؤسسات والتنظيمات اللازمة لتحقيق التواصل الفكري والإعلامي والمادي. ولنا أن نتابع جهودنا بدون ملل كي نصل إلى السلام والعدل في عالمنا.

---

16) يعقوب تالمون «الوطن في خطر».

الشعر الأمازيغي والمقاومة المسلّحة في الأطلس المتوسط وشرقيّ الأطلس الكبير (1912 ـ 1934)

محمد شفيق

من المعلوم أن التنافس كان قويّاً بين الدول الأوربية الاستعمارية في العقود الثلاثة الأولى من هذا القرن. وقد نتج من ذلك فيما نتج أن فرنسا كانت حريصة أشد ما يكون الحرص على إحاطة ما تخوضه من معارك «التهدئة» في المغرب بكل ما يمكن من الكتمان. وإن لم تتمكن فرنسا من إسكات الأصداء المدوّية التي أثارتها حرب الريف، فلثلاثة أسباب، أوّلها أن محمد بن عبد الكريم الخطابي كان رجلا مثقّفاً، احتكّ بالأوربيين وعرف بعض أساليبهم في الدعاية، فاستطاع أن يلفت الأنظار في الخارج إلى القضية التي كان يدافع عنها، وهي قضية المغرب والإسلام المهاجمين. وثانيها أن حرب الريف شاركت فيها دولة استعمارية أخرى، غير فرنسا، هي إسبانيا. وثالثها أن الريف يحاذي البحر المتوسط الذي كان آنذاك صلة وصل بين المغرب من جهة وأوربّا والمشرق من جهة أُخرى. فبينما كانت لحرب الريف انعكاسات مهمّة داخل المغرب وخارجه، ظلت الحروب الأخرى التي فرضها المستعمر الفرنسي على المناطق الداخلية من المغرب «مغمورة» شبه منسيّة، لأن أمر الإعلام بها ـ أو السكوت عنها ـ كان كله بيد الفرنسيين. ولقد كان حرصهم على إخفاء الحقائق من وقائع حرب ضروس دامت زهاء ربع قرن يتجلّى في ظاهرتين اثنتين، أولاهما أن «المناطق المتمرّدة» (حسب تعبيرهم) كانت تُعزل عزلا تامّاً عن «المناطق المهدّأة»،

وكانت تعزل بعضها عن بعض؛ وثانية الظاهرتين أن المسؤولين المدنيين والعسكريين الذين عهد إليهم بترسيخ أقدام فرنسا في أرض المغرب كانوا يخفون عن الرأي العام الفرنسي نفسه ما يعترض في طريقهم من الصّعوبات الناجمة عن المقاومة المغربية المسلّحة. ومما لا شك فيه أن المنطقة التي تعرّضت أكثر من غيرها للعزل والحصار الطويلين هي منطقة الأطلس المتوسط وشرقيّ الأطلس الكبير. لقد عمل الفرنسيون على تطويقها بإحكام، نظراً لوعورتها الجغرافية وما يترتب على تلك الوعورة في شتّى الميادين؛ حاصروها عسكريّاً لمنعها من الحصول على السلاح والذخيرة، وعزلوها عزلا شبه تام اقتصاديا وبشريا قصد تفقيرها وتجويعها وقصد منعها من التواصل مع سكّان السهول ومع سكّان المدن خاصّة ويوحون لبعض هؤلاء من ذوي المكانة السياسية والاجتماعية بأن «التمرُّدَ» لا يمكن أن يكون لصالحهم؛ فكانوا يمنعون بذلك «المتمرّدين» من كل مساندة ماديّة أو معنوية. وقديما حُوصر الأطلس وعزل عن باقي مناطق المغرب، منذ أن دشَّن الرومان استراتيجية «اللِّيَمس» (limes).

ومما يسترعي الانتباه أن المؤرِّخين المغاربة المعاصرين لم يهتموا اهتماما يذكر بالحرب الاستعمارية الطويلة التي ظلّت فيها جيوش الاحتلال وجهاً لوجه مع سكّان الأطالس لمدة لا تقل عن نصف مدّة «الحماية» كلّها (الحماية 1912 ـ 1956؛ حروب الأطلس : 1912 ـ 1934). لكن الفرنسيين كتبوا الكثير عن تلك المواجهة القاسية التي لم تكن فيها هوادة، فَرَوَوْا أحداثها ووصفوا وقائعها مرئيَّة من وجهة نظرهم ومن زاوية أهوائهم ورغباتهم. أما جيل المغاربة الأطلسيين الذين أبلَوا البلاء الحسن في تلك المواجهة أو عاصروها على الأقل، فقد انقرض أو كاد، ويخشى أن يكون الأوان قد فات على من يريد أن يستشهد بما علق بأذهانهم من روايات للأحداث في تسلسلها وتفاعل بعضها مع البعض. فلنكتف هنا بذكر ما يقوله عنهم عدوّهم، مشنّعاً عليهم ما تراه عينه الاستعمارية عَيْباً فيهم، ومنوّهاً ـ عن غير قصد ـ بصبرهم وشجاعتهم ونفورهم من التعامل مع الأجنبيّ الدخيل ما دام يريد فرض وجوده بالقوة، أي منوّهاً بوطنيّتهم الفطرية النابعة من الأعماق والمقدّسة للوطن بصفته أرضاً

وكيانـاً ذاتيّـاً متميزاً. فمن الفرنسيين الـذين كتبـوا عن حروب الأطلس الاستعمارية الجنرال «كَيوم» (Guillaume) المشهـور المُخلَّـد في السيِّئـات ذكره بـالنِّسْبـة إلينـا نحن المغاربة. وهو من الضّباط الذين شاركوا في تلك الحروب؛ ألّف في أواخر الثلاثينـات وأوائل الأربعينات كتاباً بعنوان : «الأمازيغيون المغاربة و«تهدئة» الأطلس الأوسـط» (les Berbères marocains et la pacification de l'Atlas central)، نشره لــــه «روني جوليار» (René Julliard) بباريس سنـة 1946. يقول «كَيوم» في مقـدمـة كتـابـه مـا يلي : «لقد ظلّت العمليات العسكرية التي كان المغرب ميداناً لها غيرَ مفهومةِ القصـدِ لدى أغلبيـة الفرنسيين... إن الرأي العـامّ الفرنسي لم يتمكّن من إدراك الأسبـاب التي من أجلها كنّا نتقدّم ببطءٍ أمام «خصم بدائي» (كذا) كان من المفروض، مَبْـدَئِيّـاً، أن نتفوّق عليه تفوُّقا هائلا بفضل ما يوفّره لنا سلاحُنا وعتـادنـا من قوّة... ثم إن انهزام محمد بن عبد الكريم سنة 1926 قد خَيَّل إلى الكثير أن «التمرُّد» قد قُضِي عليه نهـائيّـاً، بينمـا كان الـوضـع على عكس ذلـك، إذ كان أكبر جـزءٍ من الأطلس ومن المنــاطـق الصحراوية لم يخضع بعد لنفوذنا... والواقع أن عمليات «التهدئة» التي شُرع فيهـا سنـة 1908، انطلاقا من الشاوية، لم تنته إلاّ سنـة 1934. أمـا سيـاسـة الإغراء والاستهواء التي نشط في نهجها ضبّاط الشؤون الأهليـة نشـاطـا لم يعرف كَلالا ولا ملالا، فـإنهـا قوبلت بالرفض والعداء والتعصّب؛ لقد مكّنتنا من إعداد المجال للعمل الحربي، لكنّهـا لم تُغنِنا عن العمل الحربي شيئاً. فلم تُقْبِل علينا أيّة قبيلة مـا لم نهزمهـا بقوة السلاح. ولقد كانت كل مرحلـة من مراحل توغلنـا في البلاد مرحلـة حرب وقتـال. فكنّـا لا ننتقـل من مرحلـة إلى أخرى إلا بعـد تحصين مــا اكتسبنـــاه بمجمـوعــة من القــلاع والثكنات كانت وَحَدَاتُنا تُضطرّ إلى حراستها والدفاع عنها لمدة سنين، معرِّضة نفسها للخطر غير مُحرزةٍ مع ذلك لِمَجْدٍ». أما محتوى الكتاب الـذي قـدّم لـه «كَيوم» بهـذه المقدمة، فلا يمكن تلخيصه في هذه العجالة، وإنما أكتفي بإيراد بضع فقرات من أحـد فصوله، أحصى فيها المؤلّف الخسائر البشرية والمادية الفرنسيـة إثر المعركـة التي دارت رحاها بين جيش الاحتلال وقبيلة زايان (بتفخيم الزاي) يوم 13 نوفمبر 1914 بالمكان المسمّى «الهري»، الواقع على بعـد أربعـة عشر كيلومترا من مـدينـة خنيفرة من الجهـة

الغربية الجنوبية. يقول «كَيّوم» محصياً للخسائر الفرنسية ومعلّقاً على إحصائه : «من مجموعة 1232 جنديّ و43 ضابطا ـ التي كانت السّريّة تتكون منها ـ قتل 33 ضابطا و590 جنديّ، وجرح 176 رجل، منهم 5 ضبّاط. فمن الثلاثة والأربعين ضابطاً الذين شاركوا في المعركة لم يسلم إلا خمسة، كان من بينهم أربعة فرسان. ولم يُسترجع من جثث الموتى إلا 40 جثّة حُملت إلى خنيفرة. فاستولى «المتمرّدون» على جميع المدافع وجميع الرشاشات وعدد كبير من البندقيات. إن جَيْشنا لم تصبه قطّ، في أفريقيا الشمالية، فادِحَةٌ كالّتي أصابته في معركة الهري». وَيُقِرُّ «كَيّوم»، إضافةً إلى هذا أن «زايان» أُخذوا على غِرَّةٍ تامة، وأنّ الجانب الفرنسي هو الذي غَدَر بنقضه لهدنة موقتة ضمنية كانت سارية المفعول منذ بضعة أيّام.

أما الكولونيل «ڤْوانو» (Voinot) فقد أحصى في مؤلّفه : «فَلْنَقفُ الآثار الجيدة لمهدّئي المغرب» المقابر العسكرية الفرنسية المنتشرة في أنحاء بلادنا، وهي المقابر التي دُفن فيها الجنود الفرنسيون الذين لَقُوا مصرعهم على يد المقاومين المغاربة، فوجد 300 مقبرة : 35 منها في المغرب الشرقيّ وتافيلالت؛ و50 في السهول الشاطئية الممتدة من الشمال إلى الجنوب؛ و65 على طول «الحدود الفاصلة» بين «المنطقتين الفرنسية والإسبانية»؛ و95 في الأطلس المتوسّط؛ و35 في الأطلس الكبير؛ و20 في سوس ووادي درعة. وأول تفسير لكون الأطلس المتوسّط يحتضن الجزء الأعظم من تلك المقابر، أي ما يقرب من ثلث عددها، هو أن المعارك استمرت هناك أكثر مما استمرّته في الجهات الأخرى بسبب العامل الجغرافي وبسبب بعض العوامل التاريخية أيضاً. ولا يفوتني هنا أن ألفت النظر إلى أن المقابر العسكرية الفرنسية لم تؤو جميع قتلى الجيش المحتل، بما أن عدداً من الجثث كان يُتْرَكُ على ساحة القتال في حالة الانهزام، كما صرّح بذلك «كَيوم» نفسه، فكان يتامى الحرب المغاربة وأراملها يمثّلون بها، حسبما سمعت من شهود عيان.

لقد كتبت الجريدة الفرنسية «لوجورنال دي ديبا» (le Journal des Débats) في العدد الذي أصدرته يوم 10 ـ 11 ـ 1935، أي بُعيد تمكّن الجيوش الفرنسية من

اكتساح الأطلس كله، كَتَبَتْ ما يلي : «إنّنا لم نسجّل اسم معركة واحدة على صفحات أعلامنا، وكأنّنا لم نخض حرباً... مع أنه قد أريق هناك [في الأطلس] كثير من الدماء الفرنسية؛ أريق كثير من أزكى الدماء الفرنسية وأنبلها».

لكن هذه البطولات التي يشهد بها المستعمر للمغاربة عامة ولسكان الجبال خاصّة، قد أُدِّيَ ثمنها غاليا، وغالياً جدّاً؛ أُدِّيَ ثمنها بشريّاً واقتصاديّاً وسياسيّاً وثقافيا. ولا شك أن الخمسة والتسعين مقبرة فرنسية المحصاة في الأطلس المتوسّط تقابلها هناك مائات المقابر المغربية. أما عن عدد الأسر التي مُزِّقت وشرِّد أفرادها، وعن الثروات التي عُرِّضت للضياع والأمتعة التي أُتلفت وعن المآسي المختلفة التي واكبت الحرب، فحدّث ولا حرج. والمؤلم هو أن الظروف التي سادت إثر الاستسلام لم تكن ظروف تواس وتعاز، بل كانت بحكم الضرورة ظُروفَ طغيان النزعة الفردية ونسيان المصلحة العامة، فانكسرت النفوس ويئست القلوب. وحبّذا لو أن أدبنا المغربي العربي دَوّن لبطولات سكّان الأطلس بعض مفاخرهم، ولكن لسبب من الأسباب الموضوعية التي يتعذَّر شرحها في سطور أو حتّى في صفحات لم يُسجَّل لحروب الأطلس نبأ، حسب ما أعلم، لا في شعر ولا في نثر ذي نَفَسٍ. ومن حسن الحظ أن بعض أصدائها ظلت حَيَّةً متجاوبة في الشعر الأمازيغي، أو على الأقل في ما لا يزال يُرْوَى منه وما قُدِّر لَهُ أن يُكتب، مع أن الشعر الأمازيغي لم يُكتب منه ولم يحفظ إلا الشيء القليل. لقد أتيح لي شخصيّاً، في صغري، أي في الثلاثينات، أن أسمع منه وأحفظ ما تيسّر واتّفق في الأربعينات أن قَيَّدتُ منه بالكتابة قدراً لا بأس به؛ ثم أتيح لي فيما بعد أن أطّلع على بعض ما دوّنه منه المتمزِّغون الفرنسيون أمثال «لاووست» (Laoust) و«رينْيي» (Reyniers) و«أولوج» (Euloge) و«روكس» (Roux)، فيما يهم الأطلس، و«رونيزْيو» (Renisio) فيما يهمّ الريف.

وأول ما يلاحظ في الشعر الأمازيغي الذي له علاقة بالمقاومة الأطلسية المسلّحة أنه، في المرحلة الأولى من تلك الحقبة العصيبة من تاريخنا، أي المرحلة الممتدة من 1912

إلى 1920 على وجه التقريب، كان يَهْدِف إلى إثارة الحماسة وإلهاب الشعور الديني مُعَـزَّزاً بحُبّ الأرض، كما سنرى ذلك في آخر هذا المقال، وكان في المرحلة الثانية (1920 ـ 1930) سجلا لما أحس به المقاومون من دبيب اليأس في النفوس ومن الحزن والمرارة أمام قوّة العدوّ الجبّارة وتفوّقه المادّي الهائل، بعد إذ تبين للشجعان أن شجاعتهم صارت غير ذاتِ مفعول، وأن الاستسلام أصبح أمراً محتوماً. وعلى أية حال، فإن ذلك الشعر يتلاقى مع كتابات المستعمر في شيءٍ، هو أنّ المعارك بين جيوش الاحتلال وبين المقاومين اتّسمت بالشراسة والضراوة المتناهيتين، لأنّ الهاجم كان يُحقر شأن المهجوم عليه، فيعجب لإصراره على مواصلة الدفاع عن نفسه ويشدّد عليه الحصار أكثر فأكثر، ولأنّ المهجوم عليه كان يتصلّب تصلُّب المدافع عن حقّ أبلج لا يمكن التخلّي عنه، ثم إن المواجهة كانت بالدرجة الأولى بين دين ودين، من وجهة نظر المقاومين، ومن وجهة نظر فئة مهمّة من المنظّرين للاستعمار الفرنسيّ آن ذلك، والمنفّذين.

وقبل أن أَرْويَ بعض ما وصلتُ إلى جمعه من أشعار المقاومة، أرى من الضروري أن أعرّف بالشعر الأمازيغي ولو في إيجاز. إنه من حيث أغراضه لا يختلف كثيرا عن الشعر العربي، غير أن الفخر نادر فيه، والمدحَ أندر منه، اللهمَّ إلا ما يتصل فيه بالأنبياء عامةً، وبالرسول الأكرم خاصة. أما الهجاء فكثير، حتى هجاءُ النفس، وكذلك الغَـزَل. وأصناف الشعر الأمازيغي الرئيسية أربعة ـ فيما يخصّ الأطلس المتوسط وشرقيّ الأطلس الكبير ـ، وهي : «ئـزلي» الذي يجمع على «ئـزلان»، و«تاماوايت» التي جمعها «تيماواين» و«تايْفّارت» التي تجمع على «تيفْفرين»؛ و«تاميدوليت» التي لا جمع للفظها. الـ «ئـزلي» (المنطوق في الريف «ئـزري» ج «ئزران»، براء مرقّقة)، يتكوّن من بيتين اثنين ولازمة. وهو الصنف الذي يتبارى فيه الشعراء عادة ويجرّبون حظوظهم في القدرة على الارتجال وعلى الردّ السريع. تقوم فيه اللاّزمة بدَور الذاكرة الجماعية الموكول إليها بتسجيل ما يَمرّ بالقوم من أحداث مهمة. تظل اللازمة مُعْتَمَدَة لمدة معينة تطول أو تقصر حسب الظروف

وحسب أهمّية الحدث الذي «تؤرّخ» له. وهي التي تفرض على الشاعر، في أحد فرعي «ئزلان» الإيقاع الذي ينشد عليه شعره، كما تفرض وزن البيتين. ناظم اللازمة وقائلها الأول مجهول في الغالب، حتّى إن الناس كانوا يعتقدون أنّ لوازم «ئزلان» من قَوْل جِنّيّ يسكن إحدى مغاور الأطلس الكبير على مقربة من زاوية «سيّدي حمزة وْعيّاش»؛ وهي نوعان، لازمة الـ «ئزلي» القارّ الوزن الذي يمكن أن نسميه الـ «ئزلي» الكلاسيكيّ، ولازمة الـ «ئزلي» المتغيِّر الوزن. وهذا الفرع الأخير من فرعي «ئزلان» يتغيّر وزنه كل سنة على وجه التقريب، بحيث يَأتي كل فصل ربيعٍ بلازمة جديدة تفرض نفسها بما تدعو إليه من وزن وإيقاع وتنغيم. أمّا الـ «ئزلي» الكلاسيكيّ فثابت الوزن والإيقاع والنَّغْمَة، على منواله ينسج عادة كبار الشعراء، والغالب أن وجوده صَاحَبَ تاريخ الأمازيغية منذ أقدم عصورها، لازمته قارة الصيغة لا يتغيّر فيها إلاّ اللفظ والمعنى، وهي أقلّ تعرُّضاً لِلْبِلَى من لازمة «ئزلي» الربيع، يُعِينُ على حفظها ثبات إيقاعها. أما «تاماوايت» فمدلولها اللغوي هو «الرفيقة» أو «المرافقة» التي ترافق المسافر في سفره عبرَ الجبال والوهاد، وَكُلَّ إنسان منفردٍ عن القوم، تُشجيه الوَحْشة فيُطْلِق العنان لحنجرته وَيصدَح متغنّياً بفقرة من نظمه أو من نظم غيره، مادّاً لكل نغمة أكثر ما يمكن المدّ. و«تاماوايت» في الواقع، مِنْ حَيْثُ لفظُها شيء بين الشعر والنثر، تتكوّن من «وحدة» ذات ثلاثة عناصر أو أربعة أو خمسة يمكن أن يقال في مجموعها إنها فقرة نثرٍ كما يمكن أن يقال إنها قطعة شعر، لأنَّ الشَّاعِرَ الأمازيغي حُرٌ في التقفية أو عَدَمِ التقفية، غَيْرُ مُلْزَم بإتيان الرّويّ. فكأن الرَّويَّ في العروض الأمازيغي مِنْ باب «لُزُوم ما لا يلزم»، وجوده مُسْتَحْسَن وعدمه غير مستقبح. أما «تايفّارت» فمدلولها اللغوي هو «السلسلة» التي تتسلسل فيها الأبيات. وإذن، في اصطلاح الشعر العربي، هي القصيدة؛ قد تتألّف من عَشَرَة أبيات وقد تتألف من مائة بيت فأكثر، مع المحافظة التامة على وحدة الموضوع. مواضيعها عادة دينية أو سياسية أو ملحمية أو قَصَصِيَّة. أما «تاميدوليت» فهي في الواقع رقصة يُتغنى فيها بمجموعة من أشعار المناسبات؛ فأطلق اسمها على تلك الأشعار التي يُبَارَكُ بها في الأعراس والعقائق والتي لا يَتغيَّر أيٌّ شيء فيها، لأنها تراث جامد جمودَ تقاليدِ

المناسبات نفسها. والشعر الأمازيغي شعر يُتَغَنَّى به شأنه شأن الشعر اليوناني القديم، يَهْمِسُ به الشاعر إلى ذِي صوت شجيّ - إن لم يكن هو نفسه ذا صوت شجيّ - فَيُنشِدُه صادحاً. وذلك هو السبب في كون عروضه لا يقبل علّةَ زيادة وَلاَ عِلَّةَ نَقْص، بينما يَقبل أنواعا كثيرة من «ضرورات الشعر». والأكثر انتشارا من أصنافه صنف «ئزلان»، وتليه «تاماوايت»، وتليهما «تايفّارت».

ومما يلاحظ أن ما قيل أول الأمر من شعر في موضوع المقاومة كان من نوع «تاماوايت»، وكأن القوم اعتبروا دخول الأجنبي إلى المغرب شيئاً عابراً لا يمكن أن تكون له مضاعفات. ولما استفحل الأمر وظهر للعيان أن ذلك الأجنبيّ يريد الاستيطان، بل يريد السيادة والسيطرة، وأصبح الناس كافة يحسون بخطورة الموقف، طرق الشعراءُ موضوع الاحتلال والمقاومة على إيقاعات «ئزلان» وأوزانها لأنها هي الصنف الأكثر انتشاراً والأصدق تعبيراً عن المشاعر الجماعية. ولذا كَثُرَت «ئزلان» في المرحلة الثانية السالفة الذّكر. أمّا «تايفّارت» (القصيدة)، فلم يُنظم على نمطها بكثرة، في موضوع المواجهة مع الفرنسيين، إلا في السنوات الأخيرة من عهد الكفاح المسلّح، أي لَمَّا جاء وقت استخلاص العبرة و«تقييم» الخسارة.

وأقدم لازمة تتصل بموضوع الحروب الاستعمارية وما واكبها من الآلام والأحزان، يرجع عهدها، حسب استنتاجاتي الشخصية، إلى أوائل العشرينات، حيث اكفهرّت الأيام وانْسَدَّتِ الآفاق كلها في وجه المقاومين. تقول اللاّزمة :

«يَا هـذَا، عَلَـيَّ، أَنَـا، بِالنَّحِيـبِ !»[1]

1) يامكان القارئ أن يطّلع في ملحق هذا المقال على النصّ الأمازيغي لكل ما ترجمته إلى اللغة العربية، مكتوباً بالحروف العربية حسب قواعد للكتابة وضعتُهَا في نطاق مشروع أوسع أنا بصدد إنجازه منذ سنين، وهو مشروع «معجم عربي أمازيغي».

هذه «الجملة ـ اللازمة» فرضت نفسها على كل قائل شعر لمدة خمس سنوات أو أكثر، مع أنها من نوع «ئزلان» الربيع التي تعوَّد الناس أن يجدِّدوها كل سنة؛ «امتطاها» (كما يقال في الأمازيغية) الشاعر اليوسي «حمّو يـ امعظور»[2] في قول أبيات كُلُّها حزن وَتَفجُّع، سأحاول قدر المستطاع أن أمرِّر نفسها الشعري في ترجمتي لها إلى العربية. قال «حمّو يـ امعظور» :

اِسْوَدَّتِ الأَيّامُ، إن تَبْحثْ عَنْ بَصِيصٍ فَلَنْ تَرَاه !
يَا هَذَا، عَلَيَّ، أَنَا، بِالنَّحِيبِ !
أَسِيرُ فِي الظَّلاَمِ، أَيْنَ الطَّرِيقُ، وَكَيْفَ أَعْرِفُهُ ؟!
يَا هَذَا، عَلَيَّ، أَنَا، بِالنَّحِيبِ !

وَقَال أَيْضاً، لائماً نفسه بَعْدَ إِذْ جُرِّدَ مِنَ السِّلاحِ مَعَ مَنْ جُرِّدَ :

سَأَحْلِق لِحْيَتِي؛ لَنْ أَحْمِلَ بَعْدَ اليَوْمِ أَدْنَى سِلاَح
يا هَذَا، عَلَيَّ، أنا بالنحيب !
«تُوذَاكِ» يَا أُمِّي خَيْرٌ منّي، هَا قَدْ صِرْتُ مُنْعَدِمَ الوُجُود[3]
يَاهَذَا، عَلَيَّ، أَنَا بِالنَّحِيبِ !

وبطبيعة الحال قد نُظِمَ على أوزان هذا الـ «ئزلي» أشعار أخرى كثيرة في أغراض مختلفة، لاَ حاجة إلى روايتها هنا.

وحوالي 1925 خَلَفَت «اللاَّزمةَ» الواردةَ أعلاه لازمةٌ أخرى، فيها يأس وقنوط أيضاً؛ فظلت معتمدةً لدى الشعراء لمدة أربع سنوات أو أكثر بقليل، حسب ما قدَّرته من خلال الروايات التي وصلت إليّ، وهي :

«ألا، لَقَدْ أَضْنَانِي البُكَاءُ، وَكادَ يُعْمِينِي !»

---

2) الياء التي ترد على هذا الشكل (يـ) في التراكيب الأمازيغية ياء وقاية أو حرف معنى. وهي في اسم الشاعر المذكور أعلاه ياء وقاية بين الواو والألف القائمين مقام الضَّمَّة والفتحة. والقِرَاءَةُ في الجملة والعِبَارَةِ الأمازيغيتين موصولة دائماً لاَقَطْعَ فِيهَا.

3) «توذا» اسم علم للمرأة. فكأن للشاعر أُختاً اسمُها «توذا».

في تلك السنين كانت قبائل أيت يوسي وأيت واراين وأيت سغروشّن وغيرها من قبائل شرقيّ الأطلس المتوسّط قد استسلمت نهائيّاً ونُزِعَ مِن رجالها السلاح ولم يتمكن من مواصلة المقاومة إلاّ قبائل «ئمرموشن» وأيت علاهم وغيرها من القبائل الصّغيرة التي كان بإمكانها أن تعتصم بجبال «بويبْلان» الشامخة، وأن تُبلي هناك كل بلاءٍ حسن، حتّى إن جماعة قليلةً منها استطاعت في يوم واحد أن تجبر ست مرات فيلقاً من فيالق الاحتلال أن يُنزِلَ علمه «المثلث الألوان» عن قمة من القمم كان يريد رفعَهُ عَلَيْهَا. في تلك الظروف كان الحكّامُ الفرنسيون يحاولون أن يُلهوا بشتّى الوسائل أفراد القبائل «المهدّأة» المجاورة؛ كانوا يشجعون إقامة «المواسم» والحفلات الراقصة ويغرون الأعيان بمنحهم بعض الامتيازات التافهة. فأقيم «موسم» على ضريح الوليِّ الصالح سيدي «بوعلي»، بأيت سادّن، والتقى هناك الشاعر اليوسي «حمّو يـ امعظور»، السالف الذِّكر، وخصمه السادني «حدّو وْ عمّوياس». وكان هذا الأخير شابّاً يَكْبُرُهُ نظيره اليوسي بعقدين أو أكثر؛ وكان فوق ذلك مكفوفَ البصر. قال في فخر، متحدّياً لِخَصْمِهِ، مُشبِّهاً نفسه بالأسد :

ذَا أَسَدُ الغَابِ، جَاءَ زَائِراً !
أَلاَ، لَقَدْ أَضْنَانِي البُكَاءُ، وَكَادَ يُعْمِينِي !
كَسَرَ الدَّوْحَاتِ، مَا بَالُكَ بِآلِ مَعْظُورِ !
أَلاَ، لَقَدْ أَضْنَانِي البُكَاءُ، وَكَادَ يُعْمِينِي !

فأجابه اليوسي مستصغراً شأنه، مظهراً العطف عليه نظراً لصغر سنه وللعاهة التي هو مصاب بها. قال :

تَنَحَّ عَنِ الثِّيرَانِ، جُحَيشُ، هَا قَدْ أُثِيرَ الغُبَارُ !
أَلاَ، لَقَدْ أَضْنَانِي البُكَاءُ، وَكَادَ يُعْمِينِي !
لَيْسَ لَكَ مِنْ قُرُونٍ، اِلْزَمْ حَظِيرَةَ الأَغْنَامِ !
أَلاَ، لَقَدْ أَضْنَانِي البُكَاءُ، وَكَادَ يُعْمِينِي !

فتدخل شاعر ثالث من أيت بنعثمان، كان شيخاً وقورا طاعناً في السِّنِّ لم يعد يرقص مع الراقصين، وإنما يهمس بشعره لمن يجهر به. قال، مُوَبِّخاً للشاعرين الآخرين مُعَيِّراً إيَّاهُما بتغافلها عن الوضع المزري الذي يوجد فيه بنو جلدتهم، موجّهاً كلامه لهما ولأمثالهما من المتغافلين :

إذا مَا هَدَّ[4] كُلَّ متسلِّقٍ وبَلَغَ «بُويْبِلاَنَ»،
أَلاَ، لَقَدْ أَضْنَانِي البُكَاءُ، وَكَادَ يُعْمِينِي !
فَسَيُلْبِسُكُمُ البَرَاذِعَ وَتُصْبِحُونَ بغَالاً !
أَلاَ، لَقَدْ أَضْنَانِي البُكَاءُ، وَكَادَ يُعمِينِي !

أما في غربيِّ الأطلس المتوسط والجزء الشرقي من الأطلس الكبير، فقد كان المستعمر ينهج الأسلوب الذي نهجه في الجهات الأخرى. كان يطوّق القبائل التي يستعصي أمرها عليه، تطويقاً محكماً ويعمل على إلهاء القبائل المجاورة «المهدّأة» بما لديه من المغريات السياسية والاجتماعية وبما يثيره من المنافسات الضيّقة الأفق بين رؤساء العشائر. وكان يظهر للناس أنه يقدّس الأولياء الصالحين ويُكبر شأنهم، وكان يختلق المناسبات للاحتفال وألعاب الفروسية ورقصات الـ «أحيذوس». فالتقى بإحدى تلك المناسبات شعراء «زايان» وشعراء «أيت مكْيلد». وذلك بعد استشهاد المقاوم «موحا وْ حمّو» ببضعة أعوام. وكان من بين المشاركين في الاحتفال أبناء «موحا وْ حمّو»؛ ضَرَبُوا مِضْرَبَهم المشهور (والمِضْرب هو الخيمة العظيمة) الذي يقال عنه إنه كان يؤوي حتّى ألعاب الفروسية. وكان من بين «ئمحزان» الحاضرين («ئمحزان»، أي آل المحزون، هم عشيرة «موحا وْ حمّو») أحد أبناء شهيد الوطنية الرائد، كان قد تخلّى عن أبيه قبل مقتله بقليل وانضم إلى صفوف العدوّ حيث قوبل بالترحاب وأصناف التكبير، وحيث مُنح رتبة ضابط من يومه. وتقابلت «زايان» مع بني مكَيلد في رقصة «أحيذوس».

4) الضمير في الفعل «هدّ» يعود على «الروميّ..» غير المذكور اسمه.

قـال شـاعر «زَايـان» مفتخرا بمـا بقي لقبيلتـه من «مجـد» بعـد انهزامهـا أمـام الجيوش الفرنسية، في سخرية رقيقـة تختفي من وراء الفخر، يصعب على المرء أن يميِّز مـا هو فيها موجّه للخصم وما هو فيها موجّه للنفس وللقرابة، قال :

أُخرجي، أُخْتَ بني مَكْيلـــــد، تَرَيْ آل مَحْـــــزُون،
تَرَيْ مِضْرَبــــاً، وَمَــــا قَــــدْ تَصْنَــعُ الأَصَــــابِــعُ.

فأجابه شاعر بني مكَيلد مُضَمِّناً لأحد بيتيـه، عن قَصْـدٍ وفي مكر، صـدرَ البيت الأول الذي دعا به نظيره المرأة «المكْيلديـة» للخروج، سَـاخِراً مِن قَوْمٍ يرقصون وقـد لزمهم الخزيُ والعار. قال :

أُخرجي، أُخْتَ بَنِي مَكْيلْـــــدِ، ترَيِ الرَّقَصَــــاتِ،
تَرَيْ لِحْيَــــةَ مَنْ بِـــــأَبِيـــهِ قَـــــدْ غَـــــدَرَ !

ولست أدري مـا هي الـلازمـة التي كانت معتمـدة في إنشـاد هـذه الأبيـات الأربعـة، المزدوجة الانتماء، إذ يصلح التغنّي بها على نغمات الـ «ئزلي» الكلاسيكي، كما يصلح على إيقاع اللاّزمة الآنفة الذكر : «ألا، لقد أضناني البكاءُ،...».

وفي أوائل الثلاثينات ظهرت للوجود لازمتان تختلفان في اللفـظ والمعنى وتتّحـدان في الوزن والإيقاع، إحـداهمـا نظمهـا أحـد شعراء «أيت حْـديـدّو»، على مـا يظهر، لأنَّ مفهـومهـا ينطبـق تمـامـاً على مـا يُروى في شـأن ضـابـط فرنسي دخـل عليـه أحـد «المتمردين» لَيْـلاً، بغيـةَ الفتـك بـه، فلم يجـده حيث كان ينـام عـادة، فـوجـد قُبَّعَتَـهُ العسكرية (le képi) فأخذها غنيمةً ليُعظِّمَ الأَمْرَ على صاحبها، باعتبـار أن مَنِ استولى على ما يُغطِّي رأسَ المَرْءِ قد نال من كرامته ومن مروءته. وكان ذلك الضابط يسمّى «ريشير» (Richert). فذاع خبر قبّعتـه «السَّبيَّـة»، ولم يلبث القوم من «أيت حْـديـدّو» الا أيّاماً حتى طلعت عليهم لاَزِمَة شعرية جديدة، هي :

«اســـــأَلُــــوا «ريشَــــانْ» ! أَيْنَ ضَيَّـــعَ القُبَّعَــــة ؟»

فسار بها الركبان، ونظم على نمطها الشعراء. وكان الفقر قد بلغ من «أيت حديدّو» مبلغه بسبب الحصار المُشَدَّد الذي أحكمه حولهم الفرنسيّون، وبسبب عامل الحرب نَفْسِهِ. فأصابتهم المجاعة واضطرّ جل النّاس إِلَى سدّ الرّمق بأكل البُقُول الحُرّة وجذور النباتات ووَرَقِ الخضراوات ونحو ذلك. فقال شاعرهم :

كَذَبْتُ بَطْنِيَ الجَائِعَ وَقُلْتُ لَهُ : «هَا قَدْ صُنِعَ العَشَاءُ !»
إِسْأَلُوا «ريشان» ! أَيْنَ ضَيَّعَ القُبَّعَة ؟
يَا هَذَا، أَمِنْ قَبْضَةِ أَعْشَابٍ، سِرْتَ تَقْطَعُهَا، يُعْمَلُ العَشَاءُ ؟!
إِسْأَلُوا «رِيشَان» ! أَيْنَ ضَيَّع القُبَّعَة ؟

فعارض شعراء آخرون، في المناطق «المُهدَّأة»، اللاّزمة «الحديدّيويّة» وأَخْرَجُوا مِنْهَا ثلاث لوازم ليس فيها تشهير بضياع القبَّعة، بل فيها مَرَح وتفاؤل وإقبال على الحياة، وكأنَّ النَّاس أَسْأَمَهُمُ السَّأَمُ حتّى هجروه. فإليكم الروايات الثلاث التي عورضت فيها لازمة «ريشان» :

أ ـ أَلاَ، أُرِيدُ التَّجْوَالَ، وبالتَّجْوَالِ أَنَا مُولَعٌ !
ب ـ أَلا، أُرِيدُ التَّجْوَال، فِي عَالَمٍ مَا أَجْمَلَهُ !
ج ـ أقبلي، مَيْمُونَةُ، قَبْلَ أَنْ يَفْتُرَ هَوَايَ !

لكن مَضَاضَةَ الانهزام كانت، مع ذلك، لا تزال تحزّ في النفوس، حتّى في نفوس من اضْطَرَّتْهم الفاقة إلى الارتزاق تحت راية المحتلّ. قال رجل مرغاضيّ (مِنْ أيتَ مرغاض) إثر عملية حربية شارك فيها بصفته «مَخْزَنِيّاً» :

يَقُولُ لِيَ «القَبْطَانُ» : أَقْدِمْ يَا مَرْغَاضِيُّ، وَسِرْ أَمَامِي !
أَلاَ، أُرِيدُ التَّجْوَالَ، وبالتَّجْوَالِ أَنا مُولَعٌ.
آهٍ، لَوْ كُنْتُ أَهلاً لِلنِّزَالِ لَمَا قلتُ لَكَ «عِمْ صَبَاحاً» يَا ابْنَ دَفَار !
أَلاَ، أُرِيدُ التَّجْوَالَ، وبالتَّجْوَالِ أَنَا مُولَعٌ.

وذلك لأنَّ «القبطان» الفرنسي كان يحضّه أثناء المعركة على الإقدام في مواجهة مع «أيت عطّا».

وقال شاعر آخر مُعبِّراً عمّا يشعر به من مهانة بسبب المعاملة التي يعامله بها أعوان الاستعمار أمام مكاتب «الشؤون الأهلية» حينما يستدعى إليها أو تسوقه الظروف إلى أبوابها :

أَشْعُرُ أني مِنَ الشُّجْعَانِ، حَتَّى إذا مَا وَصَلْتُ بَابَ «البيرُو» شَعَرْتُ أني مِنَ الأنذال.
أَلاَ، أُرِيدُ التَّجْوَالَ، وَبِالتَّجْوَالِ أَنَا مُولَعُ.
كُلَّمَا ضَرَبَنِي «المَخْزَنِيُّ» قُلْتُ لَهُ «يَا سَيِّدِي !»، ومَا هو والله بسَيِّدِ.
أَلاَ، أُرِيدُ التَّجْوَالَ، وبالتَّجْوَالِ أنا مُولَعُ.

وَ«البيرُو» كما يَعْلم جيل المغاربة الذين عَاصَرُوا عهد «الحماية» هو مكاتب ضابط «الشؤون الأهلية» (أو «المراقب المدني») مَعَ مَن يساعده.

ولّما وضعت القبائل كلها السلاح (1934) صار الناس يهتّمون أكثر فأكثر بما يحمل إليهم من أخبار المدينة، وأخذوا يدركون أن هناك وسيلةً أخرى لمقاومة الاستعمار، هي السياسة. لكن أغلبيّتهم كانوا مشغولين عنها بمشاغلهم المادّية اليومية أو لا يَعُون مدلولها حقّ الوعي، أو كانوا حذرين أشدّ ما يكون الحذر، لأن الحُكّام العسكريين كانوا لا يرحمون كلَّ من سوّلت له نفسه أن يَشُكَّ أو يشكِّكَ في أن المغرب ملك خالص لفرنسا.

وكان أخشى ما يخشاه الرَّجُلُ أن يُوشى به وأن يساق إلى السِّجن، فتلزمه بذلك المَذَلَّةُ، لأنّ الرأي العام المغربي آنذاك ـ وخاصة في البوادي ـ كان لا يميِّز بين «سجين الرأي» و«سجين الإجرام»، ولأن السَّجَنَة كانوا قساة جفاة، ولأن المكوث في السِّجن

كان يحرم الأسرة من قوتها اليوميّ... كان الناس يرون في كل ذي سلوك مريب رَافعاً من الرَّفَعَة. وفي تلك الظروف أُخرِجَتْ لازمة شعرية جديدة تنعكس في عباراتها مخاوف الناس. تقول اللاّزمة :

وَاهِ، لاَ سَبِيلَ لِلْكَتْمَانِ إِذَا مَا بُحْتُ بِسِرِّي !

وإذ كانت هذه اللازمة ذائعة، أُلقي القبض على شاعر عياشي (من أيت عيّاش)، لأنه اتصل بـ «وطنيّ» (أضع الكلمة بين قوسين لأنّ مفهومها عند ظهورها كان له وقع خاص، يثير في النفوس شَيْئاً بين الإعْجَابِ والخوف : يُعْجَبُ الناسُ بهذا «المتمرد» غير المسلّح، لكنهم يخشون التورّط معه). فصار يساق مع سائر السجناء إلى ضيعات المعمّرين حيث يقضي سحابة يومه في قلع الدوم والسِّدر مُجهداً نفسه حتّى لا ينهال عليه الحراس بالضَّرب. وعندما أُطلق سراحه شارك يوماً ما في مباراة شعرية، فَبَادَرَهُ أَحد خصومه القَوْلَ، ظانّاً أن الفرصة سانحة للتخلص منه نهائيّاً، وأنشد :

أَلْبَسُوكَ بِرْذَعَةً وَحَمَّلُوكَ سِدْراً
واهِ، لاَ سَبِيلَ لِلْكِتْمَانِ إِذَا مَا بُحْتُ بِسِرِّي !
أَخْشَى عَلَيْكَ أَنْ لاَ يَكُونَ اليَوْمُ لَكَ يَوْمَ إِنْشَادِ
وَاهِ، لاَ سَبِيلَ لِلْكِتْمَانِ، إِذَا مَا بُحْتُ بِسِرِّي !

فأجاب شاعرنا العيّاشي قائِلاً :

إِنَّمَا يَسْعَى النَاسُ لإِلْجَامِ الفَرَسِ الجَوَادِ
وَاهِ، لاَ سَبِيلَ لِلْكِتْمَانِ إِذَا مَا بُحْتُ بِسِرِّي !
وَتَرَكُوا الحِمَارَ، فَخَلاَ الحِمَارُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ
وَاهِ، لاَ سَبِيلَ لِلْكِتْمَانِ إِذَا مَا بُحْتُ بِسِرِّي !

وننتقل الآن عن الـ «ئـزلان»، إلى صنف «تـايفّـارت» من الشعر الأمـازيغي، لنَرْصُدَ بعض ما يتعلّق منه بالمقاومة المسلّحة وبالصدمة العنيفة التي تعرّض لها المجتمع المغربي عندما دَهَمَهُ الاستعمار في عقر داره وبحبوحتها. قال شاعر يغلب على الظن أنه مطيري (من بني مطير = أيت نضير) أو كْرواني (من كْروان = ئكْروان) :

إلهي بيَدِكَ زِمَامُ الأُمُورِ كُلِّهَا ومَنْ لَمْ يَعْتَصِمْ بِحَبْلِكَ فَقَدْ خَسِر.
أُمِّي وأَبي، أكثِرَا لِي من الدُّعَاءِ إن تَرْضَيَا عَنِّي فَلَنْ أَخَافَ نَاراً،

وسَيَجْتَمِعُ لِيَ اللَّفْظُ وَيَنْسَابُ كَالقَصَبِ عَلَى النَّهْرِ
جُبْتُ شَوَارِعَ مِكْنَاسَ، فَبَكَى قَلْبِي هُنَاكَ حَتَّى دَمِيَ،
إذ مَرَرْتُ فِي الطَّرِيقِ بالصَّنَادِيدِ، وقد اغْبَرَّتْ وُجوهُهمْ
حَفَرُوا بِالمَعَاوِلِ وَسَوَّوْا بـ «البَالاَتِ»،
حَتَّى مَجِلَتْ أيْدِيهِم، اِحْزَنِي يَا بُنْدُقِيَّاتُ

وَلَمْ أُثْبِتَ القَوْمَ اليَوْمَ من أَبْنَاءِ «الشُّرَفَاءِ» : لَقَدْ صَارُوا «بُوليساً»
ذَهَبَ مَلِكُنَا، نَحْنُ المُسْلِمِينَ، فَمَا قَدْ نَفْعَلُ ؟!
أَمَّا النَّصَارَى، فَكُلَّمَا ذَهَبَ عِجْلٌ مِنْهُمْ عَوَّضَهُ عِجْلُ

. . . .

اِنْبَعِثْ مِنْ قَبْرِكَ يَا عَلِيُّ ! وانظُرْ مَا آل إليهِ الكَوْنُ.
واجْعَلْنَا فِي حِمَاكَ يَا أَبَا فَاطِمَةَ، يَا شَفِيعُ !

هذه القصيدة («تـايفّـارت») قيلت ولا شك في السنوات العشر الأولى من عهد «الحماية»، ولعلها قيلت مباشرة بعد تخلّي المولى عبد الحفيظ عن المُلْك، كَمَا يَدُلّ على ذلك بيت من أبياتها. وهي من القصائد المطوّلة القلائل التي نُظمت في موضوع الاستعمار خلال العقد الثاني من القرن كما سبق أن شرحت. لكن أواخر العقد الثالث

وأوائل العقد الرابع أتت بمجموعة من القصائد ذات النفس الطَّويـلِ، وكأنَّ القوم تفرّغوا للكلام بعد ما نفدت حيلهم في الحرب ونفد ما كان لديهم من قدرة على تحمّل التَّضْحِيَاتِ، فصاروا يعبّرون عن آلامهم في سكون السلم المفروضة عليهم، لا يستعجلهم أمر بَعْدَ أن خَسِرُوا كلَّ شيءٍ. قال «علي نْ تيريتّ» البوعزّاوي (وهو شاعر لا يزال على قيد الحياة، غير أنه لم يعد يقرض الشعر، لكبر سنه، ولتمسُّكه بوِرْدٍ من أوراد الصّوفية) :

أَلَمْ تَرَ مَا وَقَعَ لِلأمازيغ ؟! ذاكَ جَزَاءُ مَا اقترفوه قِدْماً؛
المولى حفيظ، الشريف «المسكين» غَرَّبَتْهُ الرُّومُ إِلَى تِلْكَ العَدْوَةِ
«سيدي رحّو» أَبْلَى البَلاءَ الحَسَنَ وبالنَّارِ وَالحَدِيدِ أَوْقَفَ النَّصَارَى؛[5]
ولمّا مات الـ «أَمْغَار» ذَهَبُو بِأَرَاضينا تَمَلَّكُوهَا وَكَتَبُوا لَهَا العُقُودَا
أَرَّفوا لَهَا كُلَّ حدٍّ وقَالُوا سَنحرُثُ وإِيَّاكُمْ، ها قَدْ صِرْنَا لكم جيرَاناً !
صَبَغُوا لنا الأَصَابِعَ؛ يا كُمْدَةَ القُلُوبِ إذ قَالُوا أَدِّ التَّحِيَّةَ،
والرَّأْسُ مُطَأطَأ مَا لَدَيْكَ اليومَ مِنْ سِلاحٍ !

. . . .

سَمِعْتُكَ يَا طَالِبَ العِلْمِ يَا عَالِمُ، تقرأ في «الكتاب»
فَاستَمِعتُ إلى ما ورثناهُ عن نَبِيِّنَا من دُرَرِ النَّصِيحةِ.
قال : صَلُّوا وصُومُوا واتَّبِعُوا الهُدَى إن كنتم تُحِبُّونَنِي.

وقال الشاعر نفسه، في قصيدة أخرى :

. . . .

آهٍ، لَوْ تَرَى مَا بِفَاس الجَديد وما شُيِّدَ فِيهِ مِنْ جدران !
بَنَى فِيهِ الحصونَ وزوّدَهَا بِبوّاباتٍ من حديد !
صنع الطائرةَ، ولها أجنحة زوّدها بمحرّك فَعَلَتْ كُلَّ أَرضٍ.
تُرَى، هل بقي للحصان من سلطان ؟!

5) «سيدي رحّو» أحد زعماء المقاومة المسلحة في جبال «تيشّوكت».

قـــــد صرتم أيهــــا الأمــــازيـــغ وكَـــأَنَّ البَــــازِيَ حلّــق فــوقكم
وأنتم دَجَـــــــــــــاجٌ تَلُـــــوذون بـــــــالأَعْشَـــــــابِ
اِحْتَرِقْ كَبِـــــــــــــدِي واكسِرِي، أَيَّتُهَـــــا الحِمَّى، عظـــــامي...

ومن الـذين «امتطَـوْا» صنف «تـايْفّـارت» للتعبير عمّـا يشعر بـه قـومُهم من حيرة لم يعرفوا مثلها قطُّ، ومن دَهَشٍ أمام مَا بَـدَأ المستعمر يُحـدِثـه من إخلال بـالتوازنـات الاجتماعية والاقتصادية المغربية، الشاعر «عْلي وْ الحُسَيْن» اليَحْيَوِيّ (مِن «أيت يحيي»). ويمكن القول إن هذا الرجل كان فيلسوفاً حقّاً، بمعنى أنه أخذ يستطلع مستقبل بلـده ويرصد في سمائه ما هو مقبل عليـه من هزّات في عمق كيـانـه، لا ينتظر من ورائهـا خير؛ فنظم في هـذا الموضـوع قصيـدة من 52 بَيْتـاً، أكتفي في هـذا المقـال بـالتقـاط شَذَرَاتٍ منها :

سَيَأْتِي زَمَـــــنٌ
فِيـــهِ سَتَنْقَرِضُ الخِيَـــامُ، وَيبْتَنِي النَّـــاسُ مِنَ القُصُـورِ
طَبَقَاتٍ سَتَمَسُّ النُّجُومْ !
اللَّهُمَّ اجْعَـلْ آنَـذَاكَ فِي مَـدِينَـةِ الأَمْـوَاتِ مَسْكَنِي؛
إِذِ العُذُوبَةُ عَنِ الوُجُودِ تَزُولُ،
إِذْ يَقِفُ النَّـــاسُ وِقْفَـــةَ الـــدَّجَـــاجِ ! (كـــذا).

. . . .

سَيَأْتِي زَمَنٌ
تُنْتِـجُ فِيـهِ الحُقُـولُ قَمْحـاً مَـا أَكْثَرَهُ، وَكَـذَا الشَّعِيرَ،
فَيَحْصُدُ النَّاسُ وَيَدْرُسُونَ الزَّرْعَ، وَيُكَوِّمُونَ !
يَرَى المُسَافِرُ تِلْكَ العُرَمْ، فَيَقُولُ: خِلْتُهَا، وَالله، جِبَالاً !
أُمَّاه ! إِنِّي أَخَافُ أن يَنْعَدِمَ
في ذَلِكِ الزَّمَنِ الشِّبَعُ !

. . . .

القصيدة الأمازيغية، كما بإمكان القارئ أن يلاحظه في النصوص الأصلية الواردة ضمن الملحق، من النوع الذي يُسمّيه العروضيُّون العرب بالشعر المُسَمَّط. فيها إيقاعات وأوزان مختلفة، أحْصَيْت منها إلى حدّ الآن ستّةً، تنقسم إلى إيقاعات بطيئة تُنْشَد عليها القصائد التي يراد بها الجِدّ في طرق المواضيع الدينية أو السياسية أو الفلسفية، وإيقاعات سريعة لطرق المواضيع الهزلية؛ والهجاء هزل في نظر شعراء الأمازيغية. وهناك نوع خاصّ من القصائد إليه قصيدة تنتهي «عْلي وْ الحُسَيَن» المترجمة أعلاه، ذلك أن الشاعر يَنظم مجموعةً من «تيماوايين» («رفيقات المسافر»)، يستغرق نظمها ما يستغرق من الأيّام أو الأسابيع أو الشهور، فلا يكون قد أنهى عمله حتى إن كل عنصر من عناصر المجموعة ـ أي كلّ «تاماوايت» ـ قد تَبَوَّأ المكان اللائق به؛ فتكون وحدة الموضوع هي «سِمْطَ العِقْدِ» الذي انْتَظَمَتْ فيه الـ «تيماوايين» مع أن كل واحدةٍ منها أنشئت على انفراد.

ولم يُجِدْ هذا الفَنَّ من الشعر أحد مثلما أجاده فحل شعراء المقاومة الأطلسيّة المسلّحة، ولم يقل هذا الفحل شِعْرا في المقاومة غير «تيماوايين»، المنفردات منها والمنتظمة في قصائد. هذا الشاعر الفحل هو في الواقع شاعرة؛ شاعرة فحلة هَجَت... وهُجِيَتْ مِن أجل المقاومة؛ اِسمها «تاوگْراتّ».

يقول «المتمزِّغ» الفرنسيّ، «فرانصوا رينيي» (François Reyniers)، الذي جمع جُزْءا من أشعار «تاوگْرات» :(6)

---

6) في كتيّب عنوانه :

«Taougrat», ou les Berbéres racontés par eux-mêmes, François Reyniers, Ed. Genthner, Paris, 1930

وهو كتيّب مليئ بالأخطاء من حيث الرواية ومن حيث اللغة.

«لقد كانت عدوّتنا «تاوكْرات»، غير ما مرّة، هي التي أحيت الحماسة والشجاعة في نفوس سكّان «أغبالا»... وبمجرّد ما دخل الفرنسيون «أغبالا» غادرته «تاوكْرات» والتجأت إلى «تونفيت» على العَدْوة الأخرى لنهر «ئورينّ»... ولقد ظل نفوذ ها كبيراً هناك، حيث كان الناس يقدّمون لها الهدايا... إنها شاعرة من طبقة الشعراء اليونانيين الأول الذين أتخذهم «هو ميروس» نموذجا له... معاني شعرها صعبة المنال لمن يريد ترجمتها، لما يتخللها من تلميح وتعريض... شعرها ملحميّ تارة، وكأنّه تعازيم، وغنائي تارة فيه رقة وحنان وطرب... وهو في بعض الأحيان شبيه بأقاصيصنا الأسطورية القديمة، لما يتسم به من بداهة وما يتضمنه من تهكم وسخرية... كله شتم مقذع للنصارى ولأتباعهم من «مخازنية» و«كُوم» ومجنَّدي «الحركة». ولقد امتنع مخبرنا الأول [بوجود شعرها] عن رواية هجوها لنا. لكن مخبرا آخر كان أكثر صراحة وأجدر بأن يوثق به، أطلعنا على محتوى ذلك الشعر». وأطلق «ريني» (Reyniers) العنان لحقده على «البربر» وأخذ ينعتهم بكل نعت شائن. ثم يضيف، وكأنّه أحسَّ بوخزة ضمير : «ولكن ماذا يا ترى نواخذ به هؤلاء البربر ؟ فلنستمع إليهم...!»، ويتكرّم بعد ذلك على «البربر» بذكر ما كان يراه فيهم من الخصال الحميدة التي يَودّ لو أن الإنسان الأوربي ظلّ يحافظ على مثلها.

ومن هي «تاوكْرات» ؟ - «تاوكْرات ولت عيسى نـ ايت سخمان» (تاوكْرات العيسوية السُّخْمَانِيّة) نشأت يتيمة، عمياء، ولم تتزوج؛ فاحترفت مهنة الإنشاد في رقصات الأحيدوس، و«اتخذت عاهتها زينة لها، وفرضت شخصيتها على أقاربها ومن يحيط بها، شأنها في ذلك شأن كل من نكبه الدهر، فاستطاع أن يتحمل ما أصابه بشجاعة» كما يقول فيها «ريني». «لم تكن نَبِيَّةً ولم تكن سحَّارَةً... وإنّما كان لها خيال ينْدَهِش المَرْءُ لما فيه من قوة خارقة». متى وُلدت «تاوكْرات» ومتى توفّيت ؟ لا نعلم بالضَّبْط، لكنّ «ريني» يُخبرنا بأنّها كانت، حوالي 1930، «عجوزاً هرمة مشرفة على الموت». ومما لا شك فيه أنها ماتت وفي نفسها أمر؛ ماتت وهي تسائل نفسها : كيف يمكن الكفر أن يتغلب على الإسلام، وكيف يمكن الرّوم أن يتغلّبوا على الأمازيغ ؟

ماتت على عداوة المستعمر، وعداوة من ناصره من قريب أو بعيد، وعداوة من تهاونوا (من وجهة نظرها) في مقاومته، لأنها لم تشف غليلها مع أنها أسمعت الجميع فنونا من التَّعْيَار، وبالغت في هجْوِ «المتهاونين» خاصَّة حتى إن أحد الشعراء الآخرين تضايق من غُلُوِّها وَزَجَرَهَا زجْراً عنيفاً، موبِّخا إيّاها على انسياقها وراء خيال خصب يخدمه اللفظ في عزلة تامّة عن الواقع المحسوس. وإنّي لأجدُ، شخصيّاً، في كلام ذلك الشاعر روعة لا تقلُّ عن تلك التي أجدها في شعر «تاوكُرات» نفسه، لما فيه من حكمة بالغة عُبِّر عنها في إيجاز ما بعده من إيجاز، حكمة من علّمته التجربة أنَّ الكلام لا يمكن أن يُغيِّر مجرى الأحداث في جميع الأحوال، وأنّ لِسِحْر البيان حدوداً من يجاوزْها يظلم نفسه. فإليكم ما أَنْشَده ذلكم الشاعر، في بساطته :

«قُولُوا لِـ «تاوكُرات ولت عيسى»، يا مَعْبَدَ الكَلِمِ، يا عاصِيَةَ ربِّها، في جهنَّم سيكون مأْوَاكِ !».

وهل عَصَتْ ربَّهَا امرأة أحبّت وطنها حبّاً جمّاً وأخلصت لدينها إخلاصا لا شَوْبَةَ فيه ؟ فكأنّي بـ «تاوكُرات» لا تزال في مضجعها تُردِّد هذا السُّؤال وتجيب عنه كلَّ مرة : «كلاّ واللهِ، ثم كلاّ !»، لأنها لم تتعلّم قطُّ في الحياة أن الثباتَ قد يستحيل عناداً إذا لم يتعامل مع الواقع بفطنة وذكاء وحذر.

ومع أن شعر «تاوكُرات» قمين بأن يُدرس على انفراد، وأن يعنى به عناية خاصَّة، بل وأن يُجمع من جديد، ويُنَقَّحَ، ما وجد إلى ذلك سبيل، لا بدّ من تقديم عَيِّنَةً منه للقارئ، في موضوع المقاومة. ومن الفوائد التي يمكننا أن نجنِيَهَا من تلك العَيِّنة فائدتان؛ أولاهما أن جهات المغرب بأسرها كانت تتجاوب في صَيْحَاتها على المستعمر الهاجم؛ وثانيتهما أنّ الباعث الدِّيني كان قويّاً جدّاً، كان يمتزج بحُبِّ الأرض إلى درجة أن الفصل بينهما غير ممكن، فلا يُعْلَم أَيُّهما الأقوى ولا أيُّهما الأكثر مكنة في النفوس. وأول شيء قالته «تاوكُرات» وله صلة ما بالمقاومة المسلّحة هو ما هجت به رجلا

أسود غريباً عن القبيلة ألحق نفسه بها بصفته حدَّاداً، نَعَّالاً لِلْخَيْلِ. فلَمَّا سمع ذلك الرَّجُلُ بأن مجموعةً من فرسان «أيت سخمان» عزموا على الذّهاب للجهاد في الشاوية ـ سنة 1908 ـ انضمّ إليهم، مع أنه لم يكن قطُّ شارك في معركة. ولَمَّا التقى جمعُ المسلمين بجمع النَّصَارَى أُردي من تحته فرسه وفرّ هارباً. كان اسمه «موحا وْ الرِّيبان». فنظمت «تاوكْرات» في ذلك الحدث البسيط إحدى «تيماوايين» التي إشتهرت بها من بعد. قالت، في شبه ذهول عمَّا يكتسيه وضع المغرب آنذاك من خطورة :

«يا قَيْنُ، يا «موحا وْ الرِّيبَان» ! لَمَّا أُرْدِيَ مِنْ تَحْتِكَ الأَشْهَبُ،
مَنَ ذَا الَّذِي عَادَ لِخَلْعِ السَّرْجِ عَنْهُ !؟
لَوْلاَ «واسّو» ومَن لَزِمُوا خَلْفَكَ سَاحَةَ القِتَالِ ؟!»

وعندما سمع «موحا وْ الرِّيبان» أن «تاوكْرات» قالت فيه شِعْراً، اعتبر ذلك الشعرَ مدْحاً، على ما فيه من ظاهر الهجاء، فصار يعتزّ بفَعَالِهِ ويفاخر ويعتدّ بنفسه. فبلغ ذلك شاعرتَنَا الكبيرة، فأبت إلاّ أن تهجوه هجواً صريحاً تُسْكِتُهُ بِهِ، فقالت :

«أي «موحا وْ الرِّيبان»، يَا قَيْنُ، أنت الَّذي لَطَّخْتَ القَبِيلَ !
إذْ فَرَرْتَ فِرَارَ الأَرْنَبِ أَمَامَ «السَّلُوقِيَّات»
الْزَمِ الكُورَ، يَا هَذا، وَاصْمُتْ، مَا أَنْتَ أهلٌ إلاَّ لِلَمْسِ الفَحْمِ !»

ولم يمرّ على ذلك إلاّ بضع سنوات حتى بدأ سكان الأطلس يكتوون مباشرةً بنار مدافع الاستعمار. فانطلقت «تاوكْرات» في هجو «الروم» وهجو كل من قيل لها فيه إنه قد جَبُنَ أمامهم أو أحجم إحجاماً ما عن القتال، مركّزةً رشقاتها على أفراد الأُسر الّتي كانت لها الزّعامة؛ فهجت أسرة «عْلي يـ امهاوش» في شخص شيخها «وْخليدجا»، وهجت الأعيان «الذين يتقلّدون حمائل الحرير، ويلبسون برانس الجوخ، ويختالون

في الأسواق !»، وهجت «الشباب الذين لا يستطيعون حَتَّى نشّ الذُّبَاب عن وُجوههم !»، وهجت كلّ من سمح لنفسه أن يتّصل بـ «الروميّ» في مكتبه قائلةً :

«كَيْفَ رُجُوعُكَ إلى الإِسْلاَمِ وَقَدْ زُرتَ
مَكْتَبَ «الرُّومِيِّ» وَسَجَّلَكَ في سِجِلاَّتِ الكُفْرِ»

ولَمَّا فرض الواقع المرّ نفسه على المقاومين، بعدما صارت صفوفهم فلولا مكسورةً، وتسرّب الضعف إلى نفوس الأبطال، لأسباب هم أدرى بها من غيرهم، وأخذت فكرة الاستسلام تروج في الأذهان، أيقنت «تاوكْرات» أنّ قومها مقبلون على «الروميّ» لا محالة، وقضت بأنّ «آفة الشجاعة هي كثرة الرجال»، واستصرخت النِّساء للدفاع عن أرض الأجداد، وذلك في سلسلة من ثلاث «تيماوايين» إليك ترجمة معانيها :

جاءت الرُّومُ، وَوَرَدُوا «عَيْنَ السِّنْدِيَان»؛ عَجَباً مَا فَرِقُوا ! ضَرَبُوا الخِيَامَ،
بَعْدَ أَنْ رَبَطُوا، وقَالُوا : «إِنَّا لَكُمْ مُنْذُ اليَوْمِ جيرَانٌ !»

☆

☆ ☆

«أَطلِّي، «يْطو»، وَ«ثوذا»، و«يَزَّةَ» واستصرخْنَ النِّسَاءَ !
عَلَيْهِنَّ أَن يَحْمِلْنَ لِلْحَرْبِ لِوَاءَهَا، فَبِكَثْرَةِ رِجَالِ الأَمَازِيغِ يَنْعَدِمُ الأَمَازِيغُ !»

☆

☆ ☆

«إِنَّ أَرْضاً عَنِ الفُهُودِ قِدْماً وَرِثْنَاهَا، لَنْ تَكُونَ لِعُبَّادِ الشَّيْطَانِ مَرْتَعاً.
فَإِنْ يَقْتُلُونِي والنَّهَارُ جَاهِرٌ، يَطْرُدْهُمْ، إذا مَا جَنَّ اللَّيْلُ، «صَدَاي» !»

ولست أدري هَلْ همّت «تاوكْرات» بهجو النساء لمّا تبَيَّنَ لَها أنهن على غير استعداد لتَلْبِيَةِ ندائِهَا. وكل ما يمكن إثباته أن الشاعرة المقاومة واصلت هي الكفاح مع رجال «أيت يحيى»، في نواحي «تونفيت»، بعد أن «خَيَّبَ ظنَّها» رجال قبيلتها «أيت

سُخان»، وبعد أن آلت على نفسها «لَتَشُدَّنَّ بَطْنَهَا دُونَ التَخَلِّي عَنْ دِينِ مُحَمَّدٍ»؛ أَنصِتُوا إليها وهي تصدع بما لها من حقٍّ في التمسُّك بعقيدتها، عند عبورها لنهر «ئوْرينّ» قاصِدَةً «تلك العدوة» :

«إِنْ جُعْتُ أَكَلْتُ بَلُّوطاً، أو خُبَّيْزَةً، أَوْ شَدَدْتُ
بَطْنِي؛ أَمَّا عَنْ دِينِ مُحَمَّدٍ، فَلَيْسَ لِي مِنْ مَحِيدٍ»

الملحق

من قول «حمّو يـ امعظور» :

«أوا بخّينن ووسّان، وادّ يرزّون اسيدّ ور ـ ت وفين.
أوا نكّ اذ الّخ، اوا !
وا لاّ تدّوخ ڭ تيلاّس؛ ماني يْلاّ وبريد اتـ تّ نيسين ؟!
أوا نكّ اذ الّخ، اوا !»

ومن قوله أيضاً :

«أوا توف انخ توذا نّم آيّو، ؤما نكّ اسّا وْر لّيخ
أوا نكّ اذ الّخ، اوا.
أوا ذ ـ ا نكّس ثامارث، ور يقّيم وشنظار ات تّن اسيخ.
أوا نكّ اذ الّخ، اوا.»

من قول «حدّو وْ عمّوياس» :

«أوا يِيزم لـ لْغْواري يْهوّد ـ دّ يتّمنذار،
أوا يْسّوحلي وْغريب يعمايي !

أوا يرزا يِفـــــــاظيصن، وعسّـــــــا يِمعظـــــــــار
أوا يسّوحلي وْغريب يعمايي.»

جواب «حمّو يـ امعظور» :

«أي آسنــــوس بظــــو ذ ـ يـــــزّكّـــــارّ، يكّر وكّضرور.
أوا يْسّوحلي وْغريب يعمايي.
أوا وْر غـــــــــــورون اشّيـــــــــــوْن، قّيات كّـ وكّرور.
أوا يْسّوحلي .وْغريب يعما يي.»

توبيخ الشاعر الشيخ لِكِلاَ الرَّجُلَيْن :

«أدّا يْسكّــــــــد وينّـــــــا اس يـــــولين يـ «بـــــو يْبــــلان»؛
أوا يْسّوحلي وْغريب يعما يي.
أذ اون يكَر تيبـــــــــــــارذيــــــــــــوين، أمّ يسرذان،
أوا يْسّوحلي وْغريب يعمايي.»

الشاعر الزّاياني يدعو «المكّلديّة» للخروج :

آ وْلت مكّيلـــــــد، فّـــــغ ا ـ تّـــــانّيث يمحـــــزان؛
ا ـ تّـــانّـــايث ثـــاخـــامث نّـــا يّـــان يظـوظـــان.

جواب الشاعر المكّيلدي :

آ وْلت مكّيلـــــــد، فّـــــغ ا ـ تّـــــانّيث يحيـــــذاس؛
أ ـ تّـــانّـــايث ثـــامـــارث نْـ وا يْـزرين بّـــاس !

الشاعر الحديدّيوي يشكو الجوعَ :

«أوا يـ ادّا اس سحيلّيلخ يـ لاز الّـ اس تّينيـخ هـانّ يمنسي يتّـوكّـا؛
أوا يناس يـ «ريشان» ماني يُزرين «الشّابّو»
أوا يُـدّ يمنسي اي ذـيكّـا وْنّـا يُـدّان ادّ حشّـان وميّز نـ تـوكّـا ؟!.
أوا يِناس يـ «ريشان» ماني يزرين «الشّابّو».

اللوازم الثلاث التي عورضت بها لاَزِمَةُ «القُبَّعَة» :

أ ـ أوا ريـخ اذ سّـآراخ، ريـخ اذ سّـاراخ، ثـلاّ لـوْليعث ذييّي.
ب ـ أوا ريـخ اذ سّـآراخ، ريـخ اذ سّـاراخ، يُـ دّونيث يس ثغـوذا.
ج ـ أثـا رْول آميـونـا، أثـا رْول آ ميـونـا، يْسمّيـظ ومـاريْ ذييّي.

قول الشاعر المرغاضي :

«أدّاي يتّيني «القبطـان» دّو غر ذاث آ وْمرغـاظ، كّيـ ذ منيـذي !
أواريخ اذ سّآراخ، ريخ اذ سّاراخ، ثلاّ لوْليعث ذييّي.
مر اس نغيْ يـ وْكُبري ور اش تّينيـخ «مـوجـور» آ مّيس نـ «ديـدي» !
أوا ريخ اذ سّآراخ، ريخ اذ سّاراخ، ثلاّ لوْليعث ذييّي.

قول الشاعر المُسَوِّدِ للمخزني أمام «البيرو» :

«لاّ تكّـاخ أركّـاز، الّ نّـ اوْظـخ يمي لُـ لبيرو يـ اغـولـخ ذـوذاي.
أوا ريخ اذ سّآراخ، ريخ اذ سّاراخ، ثلاّ لوْليعث ذييّي.
أدّاي يِكّـاث ومخـزني، الّ اس تّينيـخ سيـذي، سيـذي وْرـث يكّي.
أوا ريخ اذ سّآراخ، ريخ اذ سّاراخ ثلاّ لوْليعث ذييّي.

الشاعر العيّاشي (مِنْ أيت عيّاش) يتعرّض لِهَجْوِ خَصْمٍ لَهُ :

«أوا يـــــان اوْن ثـــــابـــــاردا، ثـــــوسيم يـــــزْوران.
آ وْر ذا يْنتّل واوال ادّاي ـ ث ينيخ يـ شا !
أوا لاّ تكُّـــــــذخ اسّـــــــا وْر اش ييّي وي يْـــــزلان.
آوْر ذا يْنتّل واوال ادّاي ـ ث ينيخ يـ شا !»

جواب الشاعر العيّاشي :

«آوْر ذا تّـــويـــــاگّـــــا ثـــوْركّيت خس يـ وْيمـــــار؛
آ وْر ذا يْنتّل واوال ادّاي ـ ث ينيخ يـ شا.
أي ومـــــا شـــــكّ اي اغْيـــول يقّـــغ ـ ش ونـــــزْووم
آ وْر ذا يْنتّل واوال ادّاي ـ ث ينيخ يـ شا.

قصيدة الشاعر المطيري أو الكُرْواني (؟) :

آ ربّي، يـــــا ربّي، ثينّش اي يّـــــانت ثنبـــــاظين؛
أينّـــــا مي وْر ثـــــوثييْت اذ تّـــــوتّين گُ اشــــال.
أي مّـــــا، شمّ ذ ـ بـــــابــــا، أوي شـــــاث اخ الرّيظــــا؛
وْنّــــا ثــوسيث گْ ول نّم، هـــــاث ور يگّيــــذ يـ وافـــــا.

. . . .

أذ سمـــــوتّيـــخ أوال ينْـــو أمّ وغـــــانيم گْ وامـــــان.

. . . .

كّيـخ ـ ذ جـاج نـ مكنـــاس اسّـــا، يـولا نـخ وول ال يتّـودّوم.
زريـخ ـ نّ يســـاطّن يـ وبريـــد، وذمــــاون تـولي ثن ثينيشث؛
لاّ يْكّـــاث سـ وكّـــزّيم، الّ يتّسمســـاســـا سـ «لبـــالا».
يفـــاسّن يـــان اسن ثيلفـــاغ؛ واحـــزنـــاث اي يبـــودّاس !
وْر نميـــاكاز ذ واراو نـ شّرفـــا، يّـــان «لبـــوليس».

ئـــــدّا آخ وكَلّيـــــذ، ينسلمن، مـــــا اس نتكّــــا شــــا ؟!
ؤمــــا يْرومين مش يـــــدّا ؤكَـــــاكّـــز رارين - ذ ويس سين.
. . . .
آعـــــــالي هــــــزّا ذْ يخف نش، ا-تّــــــــانيث دّونيث !
أي اشفيـــــع، آ بــــو فـــــاظما، نـــــلاّ يـ اون كّ ومــــور !

من شعر «علي نـ تيريتّ» البوعزّاوي :

القصيدة الأولى :

أوا ثنّــا ذ-يســارّ يـ يْازيغن، مـــاشـــا ذ-امـوتّـل نّــا تشـــان يمـزْوورا.
أوا مـولاي حْفيـــظ، شّريف يكّلّين، سنــــاذان - ت يرومين ايْمّــــاظ ينّ.
أوا سيــــذي رحّـو، لّي شفـــان اكْبري، أوا حـــارصن - د يرومين سـ ووزّال.
أوا زكُّيس يّــــــــوث ومغــــــــــاراكّ يـــــــــوويْ ثيميزار.
أوا يـوؤي ثـامـــازيرث، يّـان اس اثكّــار نّس، اهـــا يّين يـزرْوان يـ ثريرا،
ينّـــــــــــا اش نرا ا-نّكرز اذ يــــــــــذون نْي ادجـــــــــارّ !
أوا سـ شّيــــــل نْـ وولاون اس اخ غمـــــــان يظـــــــوظــــــان؛
أوا يْنّـــــــا اش شفــــــاث سّـــــلام أهـــــــا ثــــــــاذرم يـ والّن
اسّا تبظـــــام ذْ - ووزّال !

. . . .

أواي ثـــــوليث آ طّــــالب لعـــــاليم يـ لشثـــوب الّ سفليــــــذخ،
مــــــا انــــخ يـــــودجــــــا نّبي لــــــوصييـــــــاث يغـــــوذان؛
أوا يْنّــــــا اش زّالاّث، ثــــــــازومم، هـــــــا تحظــــــوم ابريــــــذ،
أوي نّـــا آخ يحوبّـــــان !

القصيدة الثانية :

آي اوا مر ثـانّيث فـاس جـديـد ائِنّـا ذييْس يسمنـالا ذـ يـووذار !
آي اوا يْيّـا ذييْس يغرمـان يسگّـوث اسن يفلْـوان نْ ووزّال.
آي اوا يّـان طّيّـارا، يـان اس افريـوْن، يـان اس لمـوتـور،
ثـاگّ يـ واشـال ور يقّيم مـاگّ تّيني وْحـذادي !
آي اوا لاّ تكّم اي يـازيغن ذيس يلّي وصيـوان نّي اون اي يفـولّـوسن
ها ذا الّ تقّـرم امّـاس نـ توگّـا !

. . . .

آي اوا يـا ثـاسـا نْـو، اغن دييّي يْحمـودجـا !
آي اوا ثيلي ثـاولا ذييّي لاّ ثـزّاظ ـ ي !

. . . .

من قصيدة «علي وْ الحُسَيْن» :

ذ ـ ادّ يـاوظ يـا نْـ واسّ،
ؤر تّيلين يخـامن، ذا ـ ادّييْس سّيلين قّـاح مـدّن يغرمـان،

ثـادّارث نّيْ نْ ثـادّارث الّ ثـاليْ سـ يثران !
لّي ازدّوغ ينْـو، آـ ربّي، يّـاتّ گـ يسنظـال؛
ثـاظفي وْر ثقّيم يْـ دّويْث؛ ئيـا بنـاذم ثيـدّا وْفـولّـوس !

. . . .

ذ ـ ادّ ياوظ يا نْـ واسّ
اـ دّييْس يـارْو واشـال يرذن يگّـوثن، هـا يـارْو ثيمـزين،
ادّاي دـ كّسن امْـور يسرْوث شـا، يّين ثيرّاش،
يـانّي ثن ينجـذي، يْنّـا آش : غـالـخ يسـدّ اذرار !
مّـا نْـو ! اسّنّـا، گّـذخ ور تّيلي ثْيـاوانت !

. . . .

قول الشاعر الذي هجا «تاوڭرات» :

«ئنـــــاس يـ ثْـــوڭرات ولت عيسى : آ ثيمــزكَيــــــذا نْـ واوال،
آ ثيمعصيث نـ ربّي ! جــــــاهنّـــــــام اي نّـ يـــــلاّ وْزدّوغ نّم !»

«تاوڭرات» تهجو «موحا وْرّيبان» :

1 - «أي امزيل، آ موحا وْ رّيبان، لّي اون تاغ احذاذي، مـاي غورس يـاغولّ اذ اسين تاريشث مريدّ يس ور تـ يبّيْ «واسّو» ذْ - وينّا يْقّيمان ثاما نّس ؟!».

2 - «أي امـزيـل، آ مـوحـا وْ رّيبـان، شـكّ اي ذ-يـومسن اقبيـل؛ ثْييت تـارْولا نَـ ووْثول كّْ وامّاس نْـ ووصّكاين؛ أوا قّيم سـ الوظ، غاس لفحم اكّ ڭان وينّون !».

«تاوڭرات» تهجو كلَّ من زار» مَكْتَبَ الرُّومِيِّ» :

مـــــــاني يتّـــــــــاغـــــــول اذ يِيّ انسلم
وْنّا يْكّـان يـاذ «لبيرو» اـتّ يزمّم وروميْ !

«تاوڭرات» تستصرخ النِّساءَ :

«دّان - د يرومين، سْوان اخ كّْ وغبـالـو نْـ ثـاسـافث؛ وْر ڭّيـذن، قّنّ ييْسـان، أهـــــا دزين تيـــوّاس؛ نّــــــان اش اـنّميـــودجـــــــار كّ يخـــــــامن !».

☆

☆ ☆

«ثـــــــاوْكَ آـيْطّـــو، غر يـ ذ يـ تـــوذا ذـيْـــزّا؛ ثيـــوْثمين أمي - ذ ييّــــــا لحـــــــال اذ اسنيت يــــــلافن ! ئمـــــــازيغن يمش كّــــوثن ذامّي وْر لّين !».

☆

☆ ☆

«ثـــامـــا زيرت انـخ ذـودجـــان يمـويـــاس سـ وبـــورز، ؤر اسن ثلّي يـْ وي ذا يُتزالاّن خف يبليس؛ يمش نغــــــــان سْـ واسّ، غر يـــــــظ اـتّـــن تـــزّع ثاويكـــث ينـــو !»

«تاوگْرات» تُفَضِّلُ أَكْل البَلُّوطِ أو شَدَّ البَطْنِ... :

«اذ تشخ ثيبّي، تشخ يذرنـان، اسّخ ثـاذيست، يمش اخ ينغـا لاز؛ آـدّين نـ موحمّـاد ور-ث زريخ !»

ابن الخطيب وكتابه
«الوصول لحفظ الصحة في الفُصول»
(القِسْم الثاني)

محمد العربي الخطّابي

قَدَّمت في العَدد الثالث من هذه المجلة تعريفاً بمؤلفات أبي عَبْد الله ابن الخطيب السّلماني في الطبّ، وتكلّمت بصفة خاصة على كتابه «الوُصول لحفظ الصحة في الفصول» ثم قدَّمت منتخباتٍ من الجزء الأول الذي سَمَّاه المؤلف بجزء «التّعريف» وتناول فيه علمَ الصحة من جوانبه النّظرية وضمَّنه رسالةً مستقلّةً في أحوال النّوم واليَقظة اتّضح لي فيما بعد أنه استوحى فكرتَها من أبي القاسم الحسين بن محمد الشّهير بالرّاغب الأصفهاني (ت 502 هـ / 1108م)،[1] وهي رسالة لا تَخْلو من طرافة أَطْلَق فيها ابن الخطيب العِنَان لخياله وأغْرق ما شاء له الإغراق.

وسأقدِّم في هذا العدد منتخباتٍ من الجُزْء الثّاني من كتاب «الوُصول» وهو الذي سَمّاه المؤلف بجزء التّصريف ـ أي القسم العملي المتعلّق بحفظ الصحّة ـ وقد تَكلّم ابنُ الخطيب في هذا الجزء كلاماً مُفَصَّلاً على اختلاف الأمزجة ـ بحسب مذهب الأقدمين في ذلك ـ ثم انتقل إلى ذكر علامات الامتلاء والعلامات الدّالّة على اقتراب أمراض يُتَحفَّظ منها قبل وقوعها، ثم تكلّم على تدبير الأبدان بحسب فصول السَّنة واختلاف

1) كتاب «الذريعة إلى مكارم الشريعة» للراغب الأصفهاني، بيروت 1400 هـ / 1980 م، ص 24 ـ 25.

الأمزجة (المزاج المعتدل، والدموي، والصفراوي والسوداوي)، وقد اقتصرتُ فيما انتخبته من هذا الباب على الفصول المختصَّة بتدبير بدن أصحاب المزَاج المعتدل لاتّصاله بموضوع حفظ الصحة على الأصحاء، كما لَخَّصتُ الأَبوابَ المتعلّقة بتدبير صحّة الأطفال والشيوخ وراكبي السُّفن.

وقد سبق القول أن ابنَ الخطيب ألحق بكتاب الوصول معجماً لتفسير الألفاظ الطبية واللغوية الواردة في الكتاب، رتَّبها على حروف المُعجم بترتيب أهلِ المغرب، ووضعها على الصيغة التي وردت بها في سياق مؤلّفه من غير مراعاة أصليٍّ ولا مزيد.

وقد جَرّدت المصطلحات الطبية الواردة في هذا المعجم مع مصطلحات الأغذية والأدوية المركّبة والألبسة وأثبتُّها في آخر هذا التّلخيص مع تفسير ابن الخطيب لها مضافاً إليه تفسير كلّ من أبي القاسم الزّهراوي منقولاً من المعجم الذي تضمّنه كتاب «التَّصريف»[2] وتفسير أبي جعفر أحمد ابن الحشا من كتَابه «مُفيد العلوم ومبيد الهموم»،[3] وقد أفاد ابنُ الخطيب من هذا المُعْجم كما يُفهم من كلامه في آخر كتاب «الفُصول» أمَّا الألفاظ الأخرى التي فسَّرها ابنُ الخطيب فلم أُثْبتها لكونها من مألوف اللُّغة وليست من قبيل المُصطلحات الطبّية والعلاجية وما في معناها.

وحيث إنَّ ابنَ الخطيب لم يفسّر أسماءَ الأدوية المفردة الواردة في تَضاعيف كتابه، فقد شرحتها باختصار ووضَعْتُ قُبالتها اسمَها العلمي اللاّتيني المُصطلح عليه كي أوفِّر على القارئ مشقَّةَ البحث والتَّقليب.

---

2) كتاب «التصريف لمن عجز عن التأليف» لأبي القاسم خلف بن عباس الزهراوي المتوفى بعد عام 400 هـ / 1009 م؛ وقد ورد المعجم في المقالة 29 بعنوان «شرح الأسماء الواقعة في كتب الطب»، وقد اعتمدنا في نقلها على المخطوطات المحفوظة بالخزانة الحسنية بالرباط (انظر المجلد الثاني من فهارس الخزانة الملكية الحسنية ص 71 ـ 79).

3) انظر الطبعة التي نشرها جورج س. كولان ورنو؛ مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، الرباط 1941؛ وقد رجعنا إلى النسخة الخطية من كتاب ابن الحشا المحفوظة بالخزانة الحسنية رقم 2996، وبذلك صححنا بعض ما جاء في طبعة الرباط من تصحيف.

قِسْم التَّصريف

القاعدة الأولى

علامات الامتلاء :

إنّ الامتلاء يكون على نَوعين : إما امتلاء بحسب الأَوعية والتَّجاويف التي في بدن الإنسان، وذلك بأن تَكْثر كَميّة الفضول ومقاديرها حتى تَملأ الأوعية والعروق، وتكون الأرواح مع ذلك صالحة في أحوالها تعمل عَملها المعتاد، وإمّا امتلاء بحسب القوة، وهو أن لا تكون الإذايةُ من زيادة الأخلاط المذكورة والفضول في كمّياتها حتى تقهرَ القوةَ وتُرهقها، ويكون صاحب الامتلاء الأول مستعداً لم يبادِر بالاستفراغ لانصداع العروق وأمراض كالسكتة والخُناق، وصاحب الامتلاء الثاني مستعداً ـ إن لم يُخفَّف عن الأرواح ـ لأمراض العفونة كالحمّيات.

وعلامات الامتلاء : ثِقَلُ الأعضاء والكَسل عن الحركات واحمرارُ اللَّون وانتفاخُ العروق وتمدُّد الجلد وامتلاءُ النَّبض وانصباغُ اللون وثَخَنُه وكَلال البصر وقلّة الشّهوة والأحلام، إلاّ أن الامتلاء بحسب القوة لا تكون العروق فيه مالئة ولا الجلد متمدّداً فيجب التّفرقة بينهما، والخِلْط الغالب يُستَدَلّ عليه بدلائله حتى يُعلَم جنسُ الامتلاء فيبادَر الأول منها بالفصد والثاني بالاستفراغ، ويُلْجأ إلى الحِمْية في الكلّ.

علامات تدل على اقتراب أَمراض يُتَحَفَّظ منها قبل وقوعها.

فمن ذلك اختلاجُ الوجه إذا دام أنذر بلَقْوة قد قرب حدوثها، وإذا كَثُر أيضاً في البَدن أنذر بتَشَنُّجٍ وحمرة الوجه والعينين وظهور العروق والحُمرة فيهما. وسيلانُ الدموع يُنذر بالبرسام والدُّوار. والكابوس إذا كثر أنذر بالصَّرع؛ والغمّ الدائم الذي لا يُدْرَى له سبب ويوحِش النفسَ يُنذر بحدوث المالنخوليا. والخيالات أمَام العينِ تدلّ على نزول الماء. وتواترُ الزّكام والنّزلات يَعقُبه السلّ والرَّبو. والعَرَق الكثير الدائم

يـدلّ على الامتلاء فَلْيُحـذر حـدوثُ الحُمَّيـات. كُـدْرة الحواس مع عـلامـات الامتـلاء يُخاف منه حدوث السّكتـات. الثّقَلُ في نـاحيـة اليمين عنـد الضّلوع القصـار يتقـدّم مرضَ الكبد. البراز الكثير الصّبغ بخلاف العادة يُخاف عَقِبه اليَرقان. وانتفاخ الوجـه والأجفان والأطراف يتقدّم الاستسقاء. نَتن البول والبِراز يـدلّ على عفونـة الأخلاط. الإعياء والتكسُّر مع سقوط الشَّهوة منذرٌ بـالحُمَّى. وذهـاب الشهوة مع الغَثي والرّيـاح منذرٌ بالقولِنْج. البول الحادّ يُحْذَر معه تقرُّح مجـاري البول. الخِلْفَـة التي تُحرق تُنْـذر بحدوث السَّحْج. حُكاك المَقعدة يُنذر بطروء البَواسير. الدَّماميل يُخاف عند ظهورهـا من حدوث خُراج. البَهَق يتقّى أن يصير بَرصاً. حُمرة الوجه مع البُحَّة وفَساد الشّعر يدلّ على حدوث الجُذام.

فإذا ظهر شَيْءٌ من هـذه العلامـات الـدَّالـة على الأمراض وجبَ على من يُعنى بحفـظ الصحَّة أن لا يُهْمِلَها وأنْ يبادر بما يَجِبُ من فَصْـد وإسهـال وتنقيـةٍ وحِمْيـة حسبمـا يوجد في غير هذا الموضع من كُتب العلاج.

القاعدة الثانية

التَّدبير بحسب الفصول الأَربعة[4]

تدبير البدن المعتدل

في فصل الربيع :

لما كان البدن الـذي نَروم تـدبيرَه هو المعتـدل بـالنسبـة إلى غيره ممـا سنـذكره، وكان الفصل الذي نُدبِّره فيه ـ وهو الربيع ـ هو أيضاً المعتدل بالنّسبة إلى غيره من الفصول

4) تناول المؤلف في هذه القاعدة الثانيـة من قسم التصريف كيفيـة تـدبير مختلف الأمزجـة في فصول السنـة الأربعة، وقد اخترنا من ذلك الباب الذي يتكلم على تدبير أصحـاب المزاج المعتـدل كنموذج لمنهج المؤلف في هـذا الصـدد، وقـد تنـاول المؤلف فيا بعـد تـدبير مختلف الأمـزجـة في الفصـول الأربعـة على مـذهب الأقدمين.

كان بَيْن هذا البدن وبين الفصل مناسبةٌ ومواتاة يَحصل بها الغرضُ المراد من غير تَعَنٍّ ولا مشقّة.

فأول ذلك حالُ صاحب هذا المزاج من جهة تَدبير الهواء المُنْتَشق لنفسه المحيط ببدنه الذي منزلته منه منزلة الغدير من السَّمك.

والمختار منه ـ بحسب الاعتدال ـ أَصفاه وأَلطَفُه الذي ليس فيه بُخارات كثيرة ولا ركود واحتقان، بل يوجد متحرّكاً متزحزحاً لهبوب الرّياح لذيذَ المَنْشَق مسرعاً إلى البدن كلّما غابت الشَّمس... وأفضله ما اخترقته الرّياح الهابَّة من ناحية المشرق الصّيفي إلى المشرق الشّتوي، وبعدها الهابّة من حدّ المغرب الشّتوي إلى المغرب الصّيفي، ومهما اضْطُر إلى انتشاق هواء بخلاف هذه الصفة عُدِّل له بما يقاوِم ما لا يُحْمَد من أوصافه كالمشموم الذي يُضَادّ الكيفيةَ غير الملائمة والبخور وفتح الأبواب إلى جهةٍ وسَدِّها عن أخرى، وتبديد الهواء تارةً بإجراء الماء ورَشّ الطّيوب وتسخينه بفُرُشِ المجالس وإنشاء الأدخنة الموافقة والانتقال من محلّ إلى أصلح منه.

وأما الحالُ في المجالس والمساكِن والمراقد فيُختار له من المجالس والمساكن في هذا الفصل ما اتَّصف هواؤه بالاعتدال وبناؤه بغير التخَرُّقِ والاتِّساع، ووضعه بحيث لا تَلِج عليه ريحُ الجنوب فتُوخِمه ولا تفجأه الشّمال فتهيج بساكنهِ الزّكام والنّزلات، ولا يبلغ به الحرّ في هذا الفصل أن يَرشح ويَعرق، ولا البرد أن يَحْصَفَ ويَقْشُفَ، ولا تكون أرضه نَديّةً رطبة ولا تربته يابِسةً شَعِثة، وما كان بهذه الحال عُدِّلَ ودبِّر، أما النَّدي الرَّطب فبأَنْ يُقصَد بالسكنى الأعالي والغُرَف أو توضع بالنَديِّ الأسفل الكراسي والأسِرَّةُ الخشبية، وأما اليابس الشَّعث فبِأن يُرَشَّ حتى يزول يُبْسه وشَعَثه ويَذْهب غباره ويُزاح هواؤه. فمثل هذه الأحوال تُصلِح المساكنَ للأبدان المعتدلة الطّبائع، ويُقَدَّر التّدبير بما ذكر فيما توسَّط من فصلِ الربيع ويُمال به إلى تَدْبير الشّتاء والبَرد يسيراً فيما قَرُب من حدود فَصْل الشّتاء، وكذلك يُمَال به إلى تَدْبير فصل الصَّيف والحرّ فيما قَرُب من حدود فصل الصيف إن شاء الله.

وأما حاله من جهة ما يُؤكل ويُغْتدى في هذا الفصل فلتَعْلَم أنه لما كان القصدُ إبقاءَ المزاج المعتدل بحاله وحفظه على هَيْئَته لحصول الرِّضى بها وجب أن يُشَبَّه به الغذاءُ فيُجعل لطيفاً حَسَن الكَيْموس سريعَ الاستحالة إلى الدم،[5] ولا أولى بهذه الأوصاف من معتدل ماءِ اللّحم والمِحاح من البيض وبَعْده الخبزُ النقيُّ السليم المُحْكَم عَجْناً واختماراً وطبخاً؛ واللّحمُ المتّصف بالاعتدال لحومُ الحِملان الفَتِية اللّذيذة والدّجاجِ من الطير الفتيّ غير المهزول وصغارِ الجدي وربما لحقت بذلك رُضَّعُ العجاجيل تتناولها حِيَل العلاج مُهَيّئَةً لها لمقتضيات الشّهوات غير الضّارة من مَشْوي معتدِل وسليق وزيربَاج وسكباج وما أشبه ذلك مما يَقِلُّ فيه التكلُّف.

وإن احتاج إلى ما يَغسل أعضاء الهَضْم ويعدّل في الأسحار والغدوات فلا أفضل من كِشْك [دشيش] الشعير وسويقه.

وإن اضْطُرّ إلى غليظ الطَّعام جعله في أعقاب الرياضة وقبل النّومِ وأصلحه بما تقرر في مُصْلِحاته.

وأما الحلاوات فالمعتدلةُ كيسير الخَبيص واللَّوزينج والفانيد السَّاذج أو مُلَـذَّذاً بلباب اللّوز الحُلو مُصْلَحاً ـ عند الاحتياج للإصلاح ـ بخلّ اللّيم وحامض الرمّان ومُرّه، وإن اجْتَنَب الحلاوةَ أصاب.

ويتوفر هذا التدبير فيما توسّط من فصل الربيع، ويمال فيما قَرُب من حدود فصل الصيف إلى تدبيرِ الصّيف من تبريدِ الطبيخ من اللحوم بالبقول الباردة كالخَسّ والقَرع وتحميضِها بالخلول وتناوُلها باردة بالفعل؛ ويمال فيما قَرُب من حدود فصل الشتاء إلى تَدْبير الشّتاء من تسخينِ المطعومات بالأفاويه المُعْتدلة والبقول المسخّنة كالجَزَر وأصناف اللّفت وتناولها مسخَّنة بالفعل.

---

5) يرى الأطباء القدامى أن الغذاء ـ بعد انهضامه واستحالته ـ يصير جزءا من أعضاء الجسم متشبها به بفضل سريان الدم المصفى في العروق. وقد شرح ابن الخطيب ذلك في قسم التعريف من كتابه هذا عند الكلام على الغذاء. (انظر العدد الثاني من مجلة الأكاديمية، ص 141).

ومن حيث كان فصل الربيع مَثاراً للأخلاط وطُغْيان الكَوْن وتَحرّك الموادّ وَجَب تقليل كَمّية الطعام والتّخفيف عن البدن وبَعض الزّهد في اللّحم والشراب واجتناب التملي (الامتلاء أو التملأ).

وأما حاله من جهة ما يُشرب - وأولا في الماء - فالمقصود منه الاعتدال منه في بَرده ومقداره بعد إعطاء العوائد حقَّها؛ واختصاصُ ما قَرُب من حدود الصّيف أولى بالمتناهي البَرد والثّلج وبما يُبَرَّد بالثّلج.

وأما غير الماء فالمُسكر قد أضربنا عن ذكره في هذا الموضوع إجلالاً لمن خصصناه به وكنّا قد أجرينا الحكمة فيه في كتابنا المسمَّى بعَمَل من طَبَّ لمن حَبّ،[6] فمن ساغ له نَظَر ذلك حيث ذُكِر.

أما ما يقوم مقامَ الشَّراب من النّقوع والأنبذة فأَوْفَقُه الفُقّاع المتَّخذ بالشَّعير والخمير والماشت؛ وشرابُ الجُلاَّب مُوافِقٌ.

وأما حالُه من جهة الاستفراغ والاحتقان فيجب إخراج الدَّم بالفَصد - إذا ظَهَر ما يوجب ذلك من العلامة - ونقص ما يَجِب نَقْصُه استعداداً لفصل يَتَأَيَّد به.

وأما حالُه من جهة ما يتناول من أشربةِ العلاج فَبما يُبَرِّد باعتدال كشراب الورد وشراب اللّيمون وشراب السكنجبين بالسكّر وشراب البَنفسج وشراب الإجَّاص عند الاحتياج إلى التَّليين، يَتَناول من ذلك ما غلب عليه الخلّ فِيا قَرُب من حدِّ الصيف ممزوجاً بالثّلج، وبحاله فيا تَوسَّط من الفصل، وفيا قَرب من فصل الشتّاء بالمزَاج المعتدل والنّقصان من كمّيّة الخلّ.

---

6) كتاب «من طب لمن حب» من مؤلفات ابن الخطيب في الطب، وقد أشرنا إليه في مقدمة هذا التلخيص؛ (انظر العدد الثاني من مجلة الأكاديمية، ص 126).

وأمَّا حاله في الحَمّام فَيُفسح له عند الضرورة في الحَمّام المعتدل في مائه وهوائه إلى التّبريد.

ولما كان الحَمَّام يُقصَد به تعديلُ المنحرف من الأمزجة ترطيباً لليابس وتَيْبيساً للرَّطب وتسخيناً للبارد وتبريداً للحارّ كان المزاج المعتدِل في الفصل المعتدل أغنى الأمزجة عنه إلاَّ من حيث الزّينة والتظرُّف، وتُنَقَّى الأبدان فيه بالحُوَّارَى والتّين وحَشْوِ البطيخ والنُّخالة.

وأمَّا أحواله في الملابس فيُقصد بها قصدَ الاعتدالِ ما بَين بردِ الكتّان ولينه وحرّ القطن وجمادته، ويمال فيما قَرُب من حدود فصل الصيف إلى الكتّان وإن كان مضاعفاً، وفيما قَرُب من فصل الشّتاء إلى الكتّان مضافاً إليه القُطن وخفيف أثوابِ الصوف والمشفوع والمرعزا، والفِراء من الشيزاب والأفناك مَوْصوفةٌ بالاعتدال.

وأما حاله في الجِماع فتجري على الأمور المعتادة له، وأفضلها في الأوقات المعتدلة من ليل أو نهار حيث لا تكون الأبدان نَشفة بالغدوات والأسحار ولا مصبوبة العَرَق في الظهائر وبعد استواءِ الهضوم وتوفّر الحاجة شَبَقاً واهتياجاً... وهذا المِزاج يبعد تَضرُّره بالجماع إذا لم يجف.

وأما حاله في النَّوم واليَقظة فيُقصَد به الاعتدال والاعتياد فيهما ويَتوفّر بالنّوم على محلِّه الطبيعي - وهو الليل - ويَخْتِم بيقظةٍ يسيرة تُتْحِف الروحَ ببَلَجِ السَّحَر وتَهَيُّئه للالتذاذ ببرده، وما فَضل عن نوم الطبيعة ليلاً استُدْرِك في محلِّه من توسُّط اليوم ومن بَعْد الغداء.

والمُجْتَنَب من النَّوم ما يُكْسِل ويُثْقِل ويُبَرِّد، ومن اليقظة ما يُجَفِّف ويُشَوِّش ويُحَلِّل؛ ويراقد الجَواري المعتريات من الثّياب النّواعمَ المعتدلات ذوات النعمة والطيب المعتدل.

وأمَّا حاله من جهة الرِّياضة فأولاها به ما لم يخرج عن الاعتدال في الجسم كلِّه مَشْياً أو ركوبَ آلة بَرّاً وبحراً، وصِراعاً أو مثاقفة بحسب ما يَسْهُل أو يُعْتَاد، تستعمل الإناث من المركوبات في الرياضة دون ذكورها، وتختار منها الحُمْر والصُّفر إلى أن يربو البدن وتَحْمَرّ البَشَرة.

والقراءةُ بين الجهر والخفية رياضةٌ لآلات النُّطق والتنفُّس، والنّظرُ إلى الخضرة والمياه ومطالعةُ الخطوط المعتدلة رياضةٌ للعين، والاستماع إلى الألْحان والأصوات المُجَالَة في معتدل الطبقات ما بين المواخير الثّقيلة والحادّات رياضة للسّمع.

أما حاله من حيث المُجالسات والمحادثات والمفاوضات وأرباب المِهَن والصنائع فخير جلسائه في هذه الحال من النُّدماء الظرفاءُ أولوا الأخلاق المعتدلة ومن يُفيض من الأحاديث السارَّة غيرَ المزعجةِ ولا المُوحشة من فنون الشريعة والعلوم الإلهية وفي وظائف القوة النَّاطقة، ويُنْشِدُ من الشعر في فنِّ الحكمة والوعظ والتصوُّف والأمداح غير المتَضمِّنة غرض البسالة، ويجالس من أرباب الصَّنائع من لا يَصْحَب صناعتَه الدويُّ والحركات كالخياط والراقم والكاتب؛ وحاله فيما يجتنب : فيجتنب اللَّهوَ واللعب والفرح المُفرِط والتّعب ويَحذَر الدَّسِمَ والحِرِّيف.

في فصل الصيف :

ينبغي أن يُمال تدبير صاحبِ المزاج المعتدل إلى التَّبريد فَقَط، أو التبريد والترطيب بمقدارِ ما عارض المزاجَ المعتدل من حَرِّ الفصل فقط، إذ كان ميزان هذا المزاج قد أمالت كَفَّتَه صَنْجتا حَرِّ الفصل والمزاج في بعض الفصل فقط فيكون الحالُ في الهواء أَقْصدَ إلى الأماكن الباردة؛ والمساكنُ إلى الجبال ومحالّ البرد أقرب، وإلى الجهات التي تَهُبُّ فيها الرياحُ الباردة أسرع.

ويكون الحالُ في المأكول أقصدَ إلى التَّبْريد بأن تتخلّل اللحومَ البقولُ الباردة والمُزَوَّرَات[7] والسمك العذب الطريّ، وتُقَلّل بها الأبازر وتذكى بالخلول من الليمون والحِصْرم وخلّ العنب والرمّان، ويُقتصر من اللحوم على خفيفها كالجدي وصغير الدّجاج ويستعمل من ألوان الطبيخ الحِصْرميات والمُصوص والمَصْل. ويُقْبَض العنان في هذا الغرض فيما قَرُب من حدّ فصل الربيع ويُرْخَى في متوسّط الصيف، ويستزاد منه في التّرطيب فيما قرب من حَدِّ الخريف.

وتكون الحالُ فيما يُشْرَب في هذا الفصل أميلَ إلى التّبْريد وأطْلَق للمَقَدِّ[8] فيتناول الماءُ المُبَرَّد بالثّلج قبل الطعام إن كانت المعدة ملتهبةً تحتاج إلى التّعديل قبلَه وفي أعقاب الهضم، وتُجعَل أواني الشراب الفخّار الرقيق من التّراب العَطِر الأحمر أو الجلود، ويُكْثَر مزاجُ الأنبذة ويُنْحَطّ بدرجاتٍ عن قويّها، ويُتَناول من الفقّاع والأقْشمة ما كان الغالب عليه الحُمْضة المعتدلة والمزازة.

وتكون الحالُ فيما يتناول من الأشربة الطبية فوق ما تقدّم منها في فصل الرّبيع كالجُلاّب والحِصْرم والسكنجبين الساذج وشراب الحُمَّاض المتعارَفِ وشراب الرمّان المرّ، وعند الحاجة إلى التليين شرابُ الإجَّاص وشرابُ البَنَفسج.

وتكون الحالُ في النُّقل[9] وفي الفاكهة والحلاوة أميلَ إلى البرد كتناول القِثَّاء والكُمثري والإجَّاص[10] والخِيار والتفّاح والسَّفرجل والخوخ، وكل ذلك بغير إفراط ومع مراعاةِ الإصلاح.

7) يقصد بالمزورات الأطعمة السادجة المتخذة من البقول من غير لحم.
8) المقد (بفتح الميم) : هو المسلك والطريق.
9) النقل ما يطيب به طعم الفم.
10) يطلق الأندلسيون الإجاص على البرقوق الأسود المعروف عندهم أيضا بعيون البقر، وأما الكمثري فهو عندهم الإنجاص (بالنون).

والحال في الحمَّام أوجبُ لابتغاء يَسِير التّبريدِ والترطيب فيُقتَصر منه على الاستحمام بالمياه الفاترة أو الباردة بحسب تَمَكُّن الفصل أو غير ذلك.

وأما الحال في الحَمَّام فيُقصد به إيقاعُه في الأوقات الساكنة المُعتدلة التي لا تَثُور به فيها الأخلاط، وتُواقَع وتضاجَع المنزلات والبدائن والمرطوبات.

وأما الحال في النَّوم واليقظة فيتوفر الحرص على رجحان النَّوم على اليقظة من غير أن يؤدي ذلك إلى ضرر، ويُختَار من المراقد ما ناله ضوءُ القمر ويفتح إلى الشرق والشمال.

وأما الحال في الرياضة فيلزم أن يقلل من حيث أُمِر بتقليل المأكول الذي احتيجت الرياضة لتحليل ما يَفْضل منه.

وقد تبين في الحكمة مذهبُ الطبيعة في إعفاء الحيوان الغالب عليه قوى التّحليل من الرياضة في فصل الصيف فتراه يقصد الظِّلال والراحةَ سيما ما يعتريه من إسقاط الريش والشعر والأظفار.

ويُختار للرياضة الأوقات التي تليق بها من أطراف الأزمنة ويُجْتَزَأُ منها باليسير. وتكون الدوابُّ المباشَرة للركوب في هذا الفصل إناثُ الخيل والبِغال والحُمُر المصرية، ويجعل الصيد إلى صيد البحر والأنهار أميلَ منه إلى صيد البَرّ.

وأما الحال من جهة ما يُشَمُّ فالأزهار الباردة والرياحين من الورد والخِلاَف والبنفسج والنَّيلوفر وزهر الآس، والطيوب المُعتدلة المخلوطة بما يُبرِّد كلخالخ العنبر المشوبة بقوى الكافور والأدهان التي تُفتَّق به وكالبنفسجيات والصَّندليات وما أشبه ذلك.

وأما أحواله من جهة الملابس فلْيَلْبس المتخلخل النسيج فيما اشتدَّ من فصل الحرّ والمصقول، ويكون التختّم باللؤلؤ والفضّة، والنعال من الجلود المتَّخذة من الحيوان البارد أو المعتدل.

وشأنه في سائر ما تقدّم من المجالسة والمذاكرة ومباشرة أولي المهنة شأنه مع مزيد المراعاة في اجتناب ما يحرِّك الباطن أو يُشَوّش الحواسّ بما يثير حرارةً زائدة.

ويقتصر من الغناء على نغماتِ الثّقيل وأنواع الحُداء والتّرتين.

في فصل الخَريف.

ينبغي أن يُمالَ بالمزاج [المعتدل] إلى التَّرطيب إذ كَفَّة المزاج مائلة بضَجَّة اليُبس إلى إحدى الجهتين بمقدار ما فضل على الاعتدال من انحراف الفصل.

فأما الحالُ في ذلك من جهة الهواء فبسدِّ طرق الأهْوية الشَّمالية اليابسة وسكْنَى البلاد البَحرية أو نصف المجالس إلى جهة الجنوب، وتَلَقِّي البقَع المبخّرة ما لم يكن الفصل يُتَوَقَّع فيه الوباء.

وأما الحالُ في ذلك من جهة المأكول فبأن يمال في أصناف الأَغذية إلى الرَّطْب دون اليابس والغليظ دون المحترق والرقيق [دون الغليظ] لا سيما فيمن كان ملتهب المَعِدة ومَن يُسرع إليه احتراقُ الأغذية الرّقيقة من أمراق الطير والأحساء اللطيفة فتُستعمل الثّرائد والرّشتات دسمةً رطبةً والأغذية الوَدِكة واللّحوم السمان ولا كلّ ذلك إذ لا معارض للبدن في شيء من أجزاء تركيبه وإنما هي مقاودة الفصل، وتتنوَّع الحال فيما قَرُب من فصل الحرّ أو من فصل البرد، وهذا الفصل لا يحتمل الخطأ في التّدبير بخلاف فصل الشتاء ولا التّهاون بالحِمْية، ومجتنباتُه كثيرة كالتعرُّض للشمس

نصفَ النّهار والماء البارد والاغتسال به والقيء - فإنه يجلُب الحمّى - ومصابرة الجوع والتملي [الامتلاء] ضَرْبة، ويُجْتَنَب كلّ ما يُبَرِّد المأكولَ من بَقْل وخَلّ ويجعل عوضَ ذلك الأمورُ الحلوة والفواكه المعتدلة كاللّوز والدهن والبقول المعتدلة كلسان الثّور.

وأما الحالُ في الأشْربة فَيُقلٌّ من برد الماء والثّلج ويَمْزِج به السكّر ويَستعمل من الأنبذةِ السائغِ استعمالها ما يَكْثُر فيه المِزَاج، ويتناول من الفقّاع والأقشمة وجميع الأشربة ما تَغْلب فيه الحَلاَوة والتّفاهة وتقع فيه الأدوية المُفْرِحة المعتدلة.

وأما الحال في النُّقْل والفاكهة فيُستعمل منها فيما قَرُب من فصل الصيف الخِيارُ والرمّان الحلُو والعنَّاب، وفيما قَرُب من فصل الشتاء التّين والعنب بشرط ذلك والخوخ الحلو والموز وذاوت اللّبوب.

وأما الأشربة المتناوَلة على سبيل الإصلاح والعلاج فالمُفْرِحَة من الباذرنبويه والنُّعْنُع. وأفضل الكلّ شراب اللّسان،(11) ويُطْلَق الطبع بشراب التّين والإجَّاص والبنفسج.

وأما حاله في الحَمَّام فيَقْصِد فيه التَّرطيبَ ويَسْتَعمل ثانيَ البُيوت المعتدل الحرّ، ويُكْثر فيه البَخُور من غير إفراط، ويراعى في الخروج منه التدرُّجَ لشتات أجزاء فصل الخريف وبرد غدواته وحر ظهائره، وليكن في الأبْرَدَيْن من أزمانه، ويترخ بالدّهن المرطّب من بَعْدِه.

وأما حاله في الجماع فالخريف أبعد الفصول منه مناسبةً وإن كانْ ذلك أخفّ في المزاج المعتدل، فليكن وقوعه عند توفر نشاطٍ كبير وداعية شديدة تَظهر فيها حاجةُ الطّباع إليه.

---

11) يقصد باللسان : النبات المسمى بلسان الثور، وسيأتي شرحه في مكانه.

وأما حاله من جهة النّوم واليَقظة فهو أحوج إلى النَّوم من جميع ما تقدّم من الأحوال وأشدّ تضرراً باليقظة أيضاً.

وأما حالُه من جهة الطِّيب والمَشموم فكلّ حارٍّ باعتدال إما من الأزهار كالنّرجس والسوسن والبَهار وزَهر الياسمين والنِّسرين والأقحوان، ومن الرَّيحان كالباذرنبويه وأصناف الأحبقة والمُفْرِحات، والأسخن منها يعدل رشّاً بمياه الطيوب الباردة كماء زهر الورد وزهر الآس والطّيب بالأزهار العَطِرة من البَانِ وأمثاله واللخالخ المتّخذة من العنبر.

وأما الحال في الرياضة فباليسير لِمَكان فصل الخريف وما يستلزم من اليُبس.

وأما الحال في الملابس فما مالَ إلى الاعتدال من ثياب الصُّوف المُلْحَمة بالحرير والكتّان المختَلط بالقطن والمرعزا وفِراء السِّنجاب وصغير الخرفان، وتجعل الخَواتم فيه من الياقوت والعقيق.

وأمَّا المناظر فالحُمْر والملوّنة والحلي والجواهر والذّهب والوجوه الحسان، والمفاوضة في الأدب والطُّرَف والتاريخ والأخبار، ويوافقه من الغناء المُلْهي غير المُحِزن، ومن الشعر الغَزَل والأوصاف.

في فصل الشّتاء.

ينبغي أن يقابَل بتدبير التَّسخين، فأما ما تكون عليه أحوال صاحبِ المزاج المعتدل في الهواء المستَحبّ لاستنشاقه ومباشرة بدنه فأن يختار له الأمكنة الكثيرة الدفء من الأغوار التي تصاحبها الشمس عامَّة اليوم ولا تَطرقها الرياح الباردة والهواء الذي لا يجاوِر جبال الثلج ولا تحرِّكه الرّياح الشّمالية ويقصد به الأرياف والسواحل والعُروض الجنوبية.

وأما حاله من جهة ما يؤكل من الأطعمة فيفسح له في اللّحوم من الماشي والطائر وقد مسَّتها التَّوابل والأبازير بغير إفراط، وتُجْتَنَب البقول بجملتها إلا ما كان من بعض الأدوية الغذائية كالحمّص والثّوم والبصل فلا بأس باستعمالها في الطعام، ويُعْدَل عن ذوات الأمراق إلى القلايا والمَشويات والأنواع المتّخذة في الكباب المبزّر والمَحشُوات. وتُسْتعمل الأطعمة مسخَّنة بالفعل مبخَّرة، وإن تُنوول منها المزدردات تنوولت مُصْلَحَةً وبعد جوعٍ ورياضةٍ وقبل نومٍ وسكونٍ ثم حركة.

وأما حاله في المشروب ـ وأولا في الماء ـ فينبغي أن يُقلّل منه في الكيف برداً وفي الكمّ مقداراً، وربما خَلَط به العسلَ ورُبَّ العنب قومٌ صلُحت عليه حالهم، ويشرب في الخشب والفَخّار المزجَّج والحديد وآنية الشمع.

وأما الأنبذة فما حلا ووقعت به الهاضومات والمُجَشِّيَات(12) من كَرفس ويسير سَذاب وأفاويه ويقلل مزاج ما كان يستعمل ممزوجاً.

وأوفق ما استُبْدل به المشروب ماءُ العسل الموصوف في كتب الأطبّاء.

وهذا ما تقدّم من أمر المأكول يُغيا(13) فيه أو يُتوسَّط أو يُقصر بحسب استحكام الفصل أو طرفيه كما مرَّ في غير ذلك.

وأما حاله من جهة ما يتناول من أشربةِ العلاج فعند الحاجة إلى التّليين يتناول الجُلُنْجَبين (مربّى الورد بالعسل) بالماء السخون وشراب الغاريقون ومَعْجون الكابلي المربّى والسكنجبين العَسلي بالماء الحار عند الغسل والتَّنقية، وعند الحاجة إلى الإمساك يتناول بعض السّفوف الممسك والأشربة التي تُقَطِّع وتُلَطِّف.

وفصل الشتاء يَحتمل الخطأ في التّدبير فلا يكاد يُمْرَض فيه إلا من خطإٍ عظيم.

12) المشجيات : المآكل التي تستدعي الجشأ.

13) يغيا : من أغيا : أي بلغ الغاية في الشيء.

وأما حاله في الاستفراغ والاحتقان، قالوا : يُتَوقّى فيه الإسهال المفرط إلا في حمياته إذ هي امتلائية.

وأما الحال في الفَواكه والنُّقل فيُفْسَح له في التّين اليابس والزّبيب واللّوز والفُستق والجوز والحلاوات المتّخذة من السكّر والعسل مفردةً ومركَّبةً باللُّبوب والبزور وقصب السكّر وأنواع الفوانيد، ويراعى في سذاجةِ ذلك أو استعمالِ الأفاويه فيه توسُّطُ الفصل وميلُه إلى الأطراف كما تقدَّم.

وأما حالُه من جهة الحَمَّام فليكن الاستحمام بالماء الحارّ وفيما يَقْرب من البيت الأول بالمياه الحُلوة وما يكون مِلْحاً، وحدّ المُقام رَبْوُ الأعضاء ودرور العَرَق ثم الخروج بالتّدريج والتحفّظ من بَرد هواءِ الفَصل الشتوي لما يُخاف من العَصْر [إفراز العَرق] والنّزلات واستحصاف المسامّ،(14) وإن كان ماءُ الحمام مِلْحاً أو كبريتاً لم يكن به كل البأس، والتَّضَحّي في هذا الفَصلِ بمقدارٍ لا يُضِرُّ صالح.

وأما حاله من جهة الجماع فمتوسط الحال مختار له أواخرُ الهضوم وبعد دفْءِ الأعضاء ليلاً بالدّثار ونوماً بعموم إشراق الشمس في الظّهيرة وما بعدها وعند الحاجة ووفور الشَّبَق، ويضاجع ذوات الأمزجة الحارّة من النساء والغُلاميات(15) غير المُسِنّات والصّغار القريبات العهد بالبلوغ.

وأما حاله من جهة النَّوم واليقظة فإيثار اليقظة على النَّوم في هذا التّدبير واجبٌ لطولِ اللّيل ولْنُرْزَأ(16) منْه حصةً متى خفَّت على الطّباع السماحةُ بها، وتعمر ببعض الحركات الرّقيقة.

---

14) الاستحصاف : هو تقبض الجلد وانسداده.

15) الغلاميات : الجواري المتشبهات بالغلمان.

16) ولنرزأ منه حصة : المقصود بالرزء هنا النقصان من حصة النوم المعتادة.

ومن الـواجب إصـلاحُ المراقـد والتحفّـظُ من الأنــداء وبلـوغ بَرْد العُنْصر الأرضي إلى الأعصاب والعضلات، وصونُ الأدمغة من أن تنكشف باستغراقِ النّوم إلى مباشرة برد الهواء فيمن لم يَعْتَد ذلك، وتغشيـةُ الحِيطـان بـاللُّبود[17] والوقَـايـات، وتسبيب أشعـة الشّمس إلى مُبَاشرة المراقد والمضاجع نهاراً وصونها عن أشعة القمر ليلاً.

وأما حاله من حيث الرِّياضة فوجوب الرّياضة في هذا الفصل يتـأكّـد لكثرة الغِـذَاء وإن كان باطنُ الأبدان أسخنَ وهضومُها في هـذا الفصل أقوى فقوى التّحليل أضعف والمسامّ أحصف.

فينبغي أن تُستعْمَل الرياضةُ التي تليق بالبدن المدبَّر بحسب مـا يَصلُح لـه من سعيٍ وإحضـارٍ وصراعٍ ومشيٍ وركوبِ ظهرٍ وبحرٍ وسريرِ حَمْل وأرجـوحـة وحركـةِ صيـدٍ وثقاف ولعب بسلاحٍ إلى أن يظهر ثقل ذلك على الطّباع وبلوغ المقصود منه.

وتُفَضَّل فيه ظهورُ المراكب الذّكور من الخيل والبغال والحُمُر المصرية لحرارة أنفـاسهـا وأبخرة أبدانها ونهضة حركاتها.

وأما حاله في اللّباس فموافقٌ للفصل من صَوْن الأبدان بثيابِ القطن والوَبَر من الملف وسائر لباس الأصواف اللّينة والفِراء المتّخذة من صغـار الغنم وكبـارهـا وسـائر ذوات الأوبار الحارّة كالثعالب والسِّباع. ويقع التدرُّج في جميع ذلـك بحسب أطراف الفصل ووسطه، ويُتَختَّم بالعقيق والياقوت، وتُتَّخَذ النّعال مُغشَّاةً بـالخِرَق السخنـة من الملف واللُّبود.

---

17) اللبود، جمع لبد (بكسر اللام) : وهو البساط، والمقصود به هنا ما يعرف في المغرب بالحيطي، وهو ثوب من المخمل أو نحوه تغشى به جدران البيوت.

وأما المشموم من الأزاهر والطيب فكل حارّ باعتدال من عَنْبر وعودٍ رطبٍ وجميعِ النّدود والصّموغ الطبية وما يستعمل من الغوالي واللّخالخ المذفرات ومياه الأزاهر الحارّة كالنارنج والنّسرين والياسمين والخيري والقرنفل وجَوْزبُوا والبسباسة والأدهان العطرة من البان والبَلَسان مفتوقة بالمسك والعنبر، واستعمال المسك الفائق، كل ذلك يراعَى فيه توسُّط الفصل وطرفاه.

وأما حاله فيما يَسْمَع ويَنظر إليه فأولى الألوان بنظره إليه الحُمْر والصُّفْر وما اجتمع منها، وسماع الأصوات المائلة إلى الحدّة، والإيقاع المتدارك من جنس التّحريك؛ وأولى الأحاديث بسمره أحاديثُ الغيرة والحماسة وما في معنى ذلك من الشِّعْر، وأَوْلَى أُولِي الصنائع بَحضره أولوا الحركات غير العنيفة من النقّاشين ومحاولي تذويب المعادن وأمثالهم.

وقد أتينا على تدبير المزاج المعتدل في الفصل المعتدل بما تَيَسَّر ليكون قانوناً يُقاس عليه، ولو تتبَّعنا الجزئيات لم نقف عند هذه الغاية.

القاعدة الثالثة

الباب الأول

تدبير الأطفال

تدبير الطفل من لَدُن الولادة :

قالوا : يُبْدَأُ أولاً بقطع سُرَّته فوق أَربع أصابع من الأَصل ويُربط بخيطِ صوفٍ مُحْكَم الفَتْل لطيفه، ويُجْعَل على موضع القطع خرقةٌ مُنْقَعة في زيت أو يُذَرّ عليها دم الأخوين والأنزروت والمرّ مفردة أو مجموعة ويُذَرُّ من بعد سقوطها رماد الصَّدف والرصاص المُحْرق أو رماد عرقوب العجل، ويُتَحرَّز من تَوَرُّمها، ثم الغسل وتَنْظيف بدنه.

ومنَ النَّاس من يَجْعل المِلْحَ في الماء ويَغْسل بـه ليَصْلُب وتجفّ رطوبتـه التي ألزقتـه، ويُكَرِّر [الملح] إذا كان كثيرَ التَّلويث والوَسخ، ثم يُغسل بـالمـاء الفـاتر وتُـدَعْـدَع[18] منافـذه بـالخنصر والفتل اللطيفـة من أذن وأنف ودُبُر، ويُقمـط بـالرّفق بعـد سقوط السرّة وتسوَّى أعضاؤه بلطف بأن تعمل فيه الأنامل وبـاطن الكفّ فيُعرض العريض ويرقق الحـادّ وتُعـدّل المفـاصل وتُسوَّى العظـام ويُحكم شكل الرأس وتُمسح العينـان ببواطن الأنامل وطبقاتها بلطف الحرير، وتُغْمزُ المثانة ليسهل انـدفـاعُ البول، وتُفرش يداه وتلصق ركبتاه، ويصان رأسُه بقلنسوة أو خرقةٍ وثيقـة من بعـد أن يُنثَر الـدواءُ القـابض على يـافوخـه من الكُنْـدُس والشيـان ومثلِها، ويُنَوم في بيت لا يسطع فيـه شعاع، ويُجعل رأسُـه أرفعَ يسيراً من جسـده، ويُحَمَّ مرتين أو ثلاثـاً في اليوم بـالمـاء المائل إلى السخانة شتاءً ومعدَّلا صيفاً بمقدار مـا يَحْمَرُّ بـه البـدن، ويقلب في الغسل بـاليـد اليُمنى على الـذّراع اليسرى معتمـداً على صـدرهِ ثم ينشف بخِرَق لينـة مـلائمـة، ويُضْجع على بطنه ثم على ظهره ويُنظَّف ويشدُّ ويُرضع.

الإرضاع :

قالوا : يرضع بلبن الأم ما أمكن فهو أسرع لِنَشْأته وأوفق لطباعه.

وزعموا أن لِحَلَمةِ ثَدْي الأم خاصيةً عظيمة جـداً في دفع مـا يطرقـه، حكمـة من الله اللّطيف الخبير.

ويُتَدرَّج في الإرضاع من الأقل إلى الأكثر، ويُظَنُّ به عند البكاء والسَّهر الحـاجـةُ إلى اللبن غالباً، وعند القئ والتخلّل ضده.

وأقلّ مرّاتِ الإرضـاع اثنتـان في اليوم وأكثرهـا ثـلاث. وإن ظهر تَجَبُّنُ اللّبن أُلْعِق عسلاً قبل الإرْضاعِ، ويُعَدَّل مزاج بدنه وطبيعةُ نفسه برياضةِ التّحريـك اللّطيف في

18) التّدعدع : هزّ الشيء ليرصص كما يعمل بالكيل.

الأَسِرَّة والُمهود المعلّقة والغناء اللذيذ والتّرنين الشجيّ، ويحرص على تنوّعه طبعاً وعلاجاً ففي النّوم صلاحه ونَشْأُه بإذن الله، فإن تعذَّر إرضاع الأمّ إياه اختير له في الُمرضعات بعد مراعاة شروط في السنّ والسّحنة والأخلاق والهيئة والجنس[19] وحال اللّبن المعتبر، والقصد منه أن يكون في لونه وقوامه بريئاً من الألوان الغريبة والروائح الُمريبة، متشابهَ الأجزاء.

وقد ثبت في غير هذا من كُتُبنا وسائر كتب الأطبّاء في العلاج من الأدوية لإدرار اللّبن وإصلاح مزاج المرضعات ما يَنظره هنالك من أراده، ويكون اللّبن بكل محمود معين على اللّبن من الحِنْطة النقية والخَنْدروس ولحوم الجديان والخرفان والسمك الغَضّ والبيض واللّبن واللوز، والخس من البقول شديدة الموافقة.

في الفِطام :

قالوا : والمدّة الطبيعية للفِطام سنتان، وإذا اشتهى غيرَ اللبن أعْطي ما لا مئونة عليه فيه من اللبن الحليب والأحساء اللينة والفُتات بالَمرَق، وعُلّلَ عند ادّكار الثّدي بالبلاليط المتّخذة من الخُبز والسكّر، وإن أَلَحَّ في طلب الثّدي والحنين إليه استُعمل عليه طِلاءٌ موحش اللون مُرّ من حنّاء أو نحو ذلك مما يُزَهّده فيه.

فإذا نهض وتحرك وُكِّلَ به ومنع من الحركة العنيفة والَمشْي، ونُقل في مقاعدَ أَنْطاعٍ وعَجَلِ خَشَبٍ[20] ومجالس وأبعد من المهاوي والنّيران والُمدَى والسّكاكين والأخِلّة والَحيوانات السَّبُعية.

19) ما أرى ابن الخطيب يقصد بالجنس إلا الإنتساب العرقي كالعرب والبربر والصقالبة والزنوج وما إلى ذلك.

20) يقصد بمقاعد أنطاع : بُسُطاً من الجلد؛ والعجل (جمع عجلة).

وإذا نبتت أسنانه مُنِع من مباشرة ما فيه صلابة، وأعينت الأضراس على الخروج بأدمغة الأرانب وشحم الدّجاج.

وإذا شَرَع في الكلام دُلِكَ أسفلُ لسانه بالملح والعسل، وأُكثرت حركتُه وأَخذت دَايَتُه[21] في مناغاته ومكالمته وتلقينه لفظاً سهلاً خفيفاً إلى أن ينتقل إلى طورٍ بعد هذا.

في الأخلاق :

ومن الواجب أن يُعنى بإصلاح أخلاق الأطفال لارتباط صلاحِ الجسد بصلاح النّفس، فيُجتنب لهم مظانُّ الغضب والخوف والغمّ حتى لا يلجئوا إلى إيقاع ذلك أو وقوعه بمعاملتهم في كلّ وقت بما يلائم الوقت، فيُقَرَّب من شيء ويُحْجَب عن شيء، ويُغرى بشيء ويُسلى عن غيره.

ومن الصواب أن يُجَمَّ بعد النوم شيئاً يسيراً ثم يخلى بينه وبين اللعب، ثم يُطعم يسيراً ويُترك بعده للعب أطول ثم يُستَجّم ويُغذّى ويقلل من شرب الماء على الطعام ويدفع بعد ستّ سنين أو سبع إلى المكتب، ويتدرج على قهره من غير مغالبة عنفية ولا إكراه إلى إن يأنس به، وإلى هذا ينقص إجمامه ويزاد تَعبه شيئاً فشيئاً قبلَ الطعام ثم يُفسح له في الماء البارد اليسير إلى زمن الرَّعرعَة،[22] وإذا بَلغ حدّ البلوغ تناوله التدبير المقرّر.

---

21) الداية : المربية.

22) الرَّعرعة، ترعرع الطفل : شب واستوت قامته عند بلوغه العاشرة من عمره.

الباب الثّاني
في تَدْبير الشُّيوخ

يُحـذَى في تـدبيرهم حَـذْو مـا يسخِّن ويُرطِّب من الأغـذيـة والميـاه والأشربـة والاستحمامات وإطالة النّوم في الفُرش الناعمة وإدرار البول وتنْقية المِعَد من البَلغم وكذلك الأمعاء والمثانة، ويُلَيِّن الطبعُ ويُسْتَعمل الـدَّلـك والحركـة الملائمـة، واستعمال الطيب المعتدل والتمريخ بالدُّهن ثم الحركة الضعيفة.

ويجب أن يكون غذاؤهم بحيث يَخِفّ على الهضوم ويَكثُر الانتفاع به مع قلّة كمّيتـه، قال الرئيس [ابن سينـا] :[23] ويُعطَى في مَرّات مـا كان يُعْطَى في مَرّة كأن يطعموا الخُبْزَ الطيب والعسل في ثاني الساعات من اليوم ثم السـابع من بعـد الحَمّام مـا يلين البَطن، ثم عند الليل الطّعام المحمود من اللحوم الفتية من الحملان. والجِداء والـدّجـاج ومِحـاح البيض؛ واللّبن أوفـق الأغـذيـة بكل اعتبـار لمن يستمرئـه منهم، وأفضلـه لبن الماعز، ويوافقهم من البقول السّلق والكَرفس؛ ومعتاد النَّوم منهم ينتفع بـه، وخير مـا لُيِّنَت به طبائعهم من البقول : اللّبلاب، ومن الفواكه : التِّين شتاء والإجّاص صيفـاً، ويُطبخ التّين بالعسل ويعطى يابساً بحاله قبل الطّعام، وربما لينوا بَمرقـات الـدّيوك الهرمة أو بماء الكرنب أو ماء القُرْطم في كِشك الشعير عند الضرورة.

ويصلح لحلاواتهم وتفكّهاتهم الزّنجبيل المُرَبّى ومثلُه كالجِزر والشاقل والقرصعنـة، فكل ذلك صالح، والحلاوات كلّها موافقة.

ويَجتَنب الشيوخُ كلَّ مولِّـد للسَّوداء والبَلْغم وكلّ حـارّ وحرّيف من كوامخ وتـوابـل وطعام مِلْح وقَديدِ وباذنجان ولحم صيد وسمك محفور.

ويُتَعاهدون بتليين الطَّبع بالفُتُل، والحُقَنُ اللينة موافقةٌ لهم جداً.

23) انظر كتـاب «القـانـون»، التعليم الثـالث، الفصـل الثـاني، ج 1 : 176 ـ 177، نقـل منـه ابن الخطيب بتصرف.

وأما أحوالهم في الرّياضة والدّلك فمُقَدَّرة بحسب الاعتدال وبَعْد مراعاة أمزجتهم وأعضائهم وعوائدهم، ويكون الدَّلك معتدلاً في الكمّ والكَيْف عادلاً عن الأعضاء الضعيفة والمتألمة مقداراً في مرات، وهذا المقدار كافٍ مع التَّدبير المفصَّل في علاج ذي المزاج السوداوي في فصل الخريف.(24)

تدبير المسافر في البحر :

قال الأطباء : ينبغي أن لا يُحْبَس قَيءُ من مادَ في البحر بل يترك حتى يتقيّأ إلا إن أفْرَط، وربما وقع الاستعداد بتناول الحامض، ويُقَوّى فَمُ المعدة بتناول الفواكه الموافقة لذلك من السفرجل والتفاح والرمّان، قالوا : وبِزْر الكَرفس إذا شُرِب منع الغثيانَ أن يَهيج وسكَّنه، والأفسنتين كذلك والطّعام الذي يمْنع الأبخرة أن تصعد إلى الدماغ كالعَدس بالخلّ والحِصْرم وقليل الفُوذنج والحاشا، قالوا : ويمسح أنْفه بالاسفيذاج داخل الأنف.

وقد أجبت بعضَ من سألني عن المَيْد بجواب يجري على مذاهب الحكمة على عادتي في مثله من سؤالات طبية قُيِّدت عنّي بما نّصه :

أعلم أن بدنَ الإنسان المشتمل على رطوباته وأمشاجه تَحْدُث فيه بالحركات الاضطرارية والتَّدَعْدُع الذي يستلزم ركوب البحر حالةٌ مَخضية تطفو لأجلها الأخلاط اللطيفة إلى فم المعدة الذي من شأنه أن تَطفُو إليه في البحارين عندما تَدفع الطباع بالقيء كما يطفو الزُّبْد لكونه ألطفَ ما تحتوى عليه القربة المخوضة، فإن كان فُمُ المعدة شديدَ الحسّ بطبعه وضعيفاً في وضعه، وكان البدن المخوضاتُ رطوباته مستعِداً والرّطوباتُ اللذاعةُ متوفرةً وأعان ذلك السنّ ـ الذي هو مَظنَّة

---

24) يشير المؤلف هنا إلى فصول سابقة تناول فيها تدبير المزاج السوداوي في فصل الخريف، وهو مزاج يغلب على صاحبه البرد واليبس.

ذلك من الشباب أو ما قَرُب منه ـ والمزاج الغالب عليه المِرار أو الرطوبات البُورَقية كان العارض هائلا عظيماً وتَبِعه من الغَشْي وأعراض الموت ما يَتْبع المرضَ المسمّى عند الأطباء بمرض الفؤاد، وربما خيف لعنف الاندفاع والانعصار أن يقع في بعض الأحشاء تَفَرُّقُ اتّصالٍ أو تَنْصدع العين؛ وإن كان الأمر بالعكس من قوة فم المعدة والدماغ ومعاصاتها والانفعال عما يطفو إليه والبدن نقياً بحيث لا يُبْرِز المَخْض والدّعداع منه طافياً معتبراً، كان الأمرُ بالعكس من عدم الإحساس بحالة المَيْد؛ وجريان الأفعال الطبيعية في سَفَر البحر كجريانها في سفر البرّ، وحال من كان بين الطرفين بحسب مَيله إلى أحدهما.

ولأجل ما بَيَّنا يَكثر الميد في الشبّان ويقلُّ في الشيوخ وفي ذوي الأمزجة المرارية ويقلّ في أضدادها.

حرف الألف

أجوف : أحد عروق الكبد (خ).

اختلاج : اضطراب العضو أو جزء منه لريح مستكِنَّة فيه، منقول من خلجه واختلجه إذا جلبه من موضعه وانتزعه (ح).

ـ اختلاج : تَحرُّك موضعٍ من جلد البدن حركةَ ارتعاش (خ).

اخلاط : (ج خِلْط) : أجسام رطبة سيالة يستحيل إليها الغذاء، وهي أربعة : الدم والبَلْغم والمِرَّة الصفراء والمِرّة السوداء (خ).

إزْلاق : زَلْقُ المَنِيّ من الرّحم (خ).

---

25) أضفنا إلى تفسير ابن الخطيب للمفردات الطبية الواردة في كتابه «الوصول...» ما وجدناه من تفسير أبي القاسم خلف بن عباس الزهراوي في كتابه «التصريف» (المقالة 29) وتفسير ابن الحشا للمفردات نفسها في كتابه «مفيد العلوم ومبيد الهموم»؛ وقد رمزنا للزهراوي بحرف (ز) ولابن الحشا بحرف (ح) ولابن الخطيب بحرف (خ)، وكذلك فعلنا في القسم الذي أفردناه لتفسير مصطلحات الأدوية المركبة والأغذية والملابس وغيرها، هذا والعبارات الموضوعة بين معقوفين هي إضافات توضيحية مأخوذة من المراجع اللغوية والطبية وما إليها.

استِحصاف : تَقبُّض الجلد وانسداده (خ).

استعداد : الاستعداد أن يتهيأ شيءٌ لحالةٍ ما كما يستعدّ الفتيل إلى قبول النّار بالسخانة ثم بحالة الدّخانية إلى قبول صورة النار (خ).

استمراء : جَوْدة هضم الغِذاء وحمل مغبته (ح).

- استمراء : هضم الطعام (خ).

أَسْطقُس : هو أصل الشيء (ز).

- هو الأصلُ لكلِّ مُكَوَّن (خ).

انكباب : انقباض (خ).

حرف الباء

بُحْران : إذا كانت المصارعةُ بين الطبيعة والمرض وكانت الغَلَبةُ والقهرُ للطبيعة دَفَعت ذلك المرضَ إما بإسهالٍ أو بقيءٍ أو بعَرَق أو برُعَاف أو تورُّمٍ أو بول أو باثنين منها أو أكثر فيكون بذلك سلامةُ العليل من العَطب ويكون ذلك بُحراناً محموداً، وإن كانت الغَلَبة والقهر للمرض تَلِفَ العليل (ز).

- بُحران : معناه في اللسان اليوناني يوم المناجزة بين المتَغالبين، ويراد به في الطبّ اليوم الذي تكون فيه المناجزة بين المَرض وطبيعة المريض؛ واليومُ الباحوري هو اليوم الذي تقع فيه المناجزة (ح).

- بحارين (جمع بحران)، هو الفصل الذي يقع بعد خصام الطبيعة مع المرض لها أو عليها (خ).

[البحران هو ما يسمى في الطبّ الحديث : الأزمة Crisis].

بَردَة : هي إدخال الطعام على الطعام المذموم شرعاً [والبَرَدة هي التخمة].

بَرْسام : معناه بالفارسية ورم الصدر، وعلى هذا يوقعه الأطبّاء، ويَلْحَقُه في الأكثر اختلاطُ الذِّهن، وهو في الفارسية بضم الباء، وقد عُرِّب بفتحها، وأَوْقَعته العرب على اختلاط الذّهن من أيِّ سبب كان (ح).

- بَرْسام : ورم في الصدر يتبعه هَذَرٌ واختلاط (خ).
بَوَّاب : اسم لفَم المعدة الأسفل المتّصل بالمِعَى، متعارَفٌ عند الأطباء (ح).
- بَوّاب : باب المَعدة الأسفل (خ).
بُوْرَقِية : رطوبة مالحة منسوبة لطبع البُورَق من أصناف الأملاح (خ).

حرف التاء

تجويف : الخلاء في باطن الجسم (خ).
تَخَلْخُل : ضدّ التلزُّز في الأجسام، وهو ارتخاءٌ وعدم اجتماعٍ في أجزائها (خ).
تُخْمَة : هو من المرض المسمى بالبَشَم عند أهل المغرب، ويسمى بالمشرق القذف، وأصله **وخْمة** من الوخامة وهو الثِّقَل وسوءُ المَغَبّة فأُبدِلَت الواو تاءً (ح).
- تخمة : هو الذي يعبر عنه الناس بالبشم (خ).
ترائب : عظام الصّدر (ز).
- التّرائب : الأضالع (خ).
تَرَهُّل : استرخاء (ز).
- ترهل :[26] كثرةُ اللّحم والاسترخاء (ح).
- ترهل : استرخاء اللّحم واضطرابه (خ).
تشريح : إعطاء صور الأعضاء (خ).
تَشْكيل : حصول صورة الشكل واستتباع أجزائها (خ).
تَشَنُّج، التّشَنُّج والشَّنَج : التقبُّض، يقال منه شَنِج وأشْنَج وتَشَنَّج وشَنَّجَه، ويَخصُّ الأطباءُ به انقباضَ العضو إلى جهةٍ فلا يزول عنها، وبهذا المعنى وَقَع في سائر الكتاب المنصوري إلاَّ في الفَصْل العاشر من المقالة العاشرة فإنَّ معناه هناك المَعْنى العامّ وهو التّقبّض والتقصُّر، وكذلك في الفصل الأول من المَقالة الأولى (ح).
- تشنج : الالتواء والتقبض (خ).
التَّضحِّي : هو الانتصاب أو القعود للشمس (خ).

---

26) في طبعة كولان ورونو : تربل، وهو تصحيف.

تعريق : تكلُّف إخراج العَرَق (خ).

التفشي : تفشَّت الأبخرةُ تحلَّلت من المسامّ التي كانت محصورةً تحتها (خ).

تَفِه : يقال : تَفِه الشيء تفهاً وتفوهاً وتفاهة فهو تَفِهٌ وتافه إذا قلَّ، ويَعنون به الشيءَ الذي لا يظهر له طعمٌ لخفاء طعمه ولقلَّته (ح).

تَفِهٌ : ما لا يظهر له طعم كالماء وكالخِيار وغيره مما لا يوصف بحلاوةٍ أو حموضة أو ملوحة أو غير ذلك (خ).

تقلُّص : هو الانقباض والتّراجع (ح).

ـ تَقلّص : زوالٌ وتقبُّض مع ارتفاع (خ).

تلطيف : ترقيق الغليظ وتهيئته (خ).

تماسُك : عدم الانقياد إلى الحركة الداعية (خ).

تمطَّى : امتدَّ (ز).

ـ التمطّي : هو مدُّ اليدين في المشي زهواً وتجَبّراً، ويعني الأطباء به وجمهور النّاس مدّ اليدين الباعث من الطبع لنفض البخار عن البدن، ولم أجد لهذا المعنى اسماً في اللغة فيما رأيت، ويَبْعد أن تترك العربُ هذا المعنى غُفْلا من التسمية فيُشبه أن يكون النَّقَلَة خصصوا ما ليس بخاصّ، إذ كانت هذه المادّة تدل على الامتداد (ح).

ـ التمطِّي : مدُّ الذراعين مع تكسُّر (خ).

تهيج (الوجه) : انتفاخه (ز).

ـ التهيج : انتفاخ رخو في العضو أو في البدن (ح) (خ).

حرف الثاء

ثُفْلٌ : ما لا منفعة في كل ما يصفَّى أو يُعتَصر بعد أخذ صَفْوِه (ح) ما يبقى بعد التَّرويق والاستصفاء (خ).

حرف الجيم

جرثومة : (ج جراثيم) جَدَرة الشيءِ وأَصله (خ).

جَمام : الجَمام : الراحة من الحركة (خ).

جوهر : يريد به الأطبّاء الأجسامَ كلَّها كالحديد والخشب والحجارة والأرض وزيد وعمرو، ويريدون به أيضاً قوى الأشياء وطبائعُها مثل حرارة الفلفل والزنجبيل وبرد الأفيون والخشخاش وما أشبه ذلك (ز).

- جوهرُ كلِّ شيء : أصله، والمراد هنا جملة البدن المؤتلفة من مادّته وصورته (ح).
- جوهر الشيء : أصله، ويطلق على حقيقةِ الشيء المؤتلفة من المادّة والصورة (خ).

حرف الحاء

حاسّة (ج حواس) : هي المعروفة للإنسان وبها يحسُّ بصراً وسمعاً وشمّاً وذوقاً ولمساً (خ).

حَلَمة (الثدي) : هي رأسه الناتئ الذي يرتضع منه (ح).

- حلمة : طرف الثدي الذي يلتقمه الراضع (خ).

حرف الخاء

خامّ : الشيء الذي لم يَنْضج (ز).

- الخامّ : هو غير المحكم التامّ من كل شيء، غير عربي، فهو في البَلغم الصّنفُ الفجّ البعيد من النّضج، وفي غيره بالمعنى العام (ح).

- الخام : الشَّيء غير المقصور، وصف به صنف من أصناف البلغم (خ).

خَرَز : هي الحجارة التي تُنْظَم منها القلائد، وخَرَز الظهر هي الفقارات، وهي العظام التي يَسْلُك فيها النخاع، منقول، متعارف في اللغة (ح).

خَصَر : هو البرد الشديد، يقال منه : خَصِر يَخْصَر (ح).
ـ الخَصَر : تأثير البرد في البدن (خ).
خفوت : انقطاع النَّفَس وضعفه (خ).
خِمْن (ج أَخْمان) : تكاريش تكون في بعض الأعضاء المجوفة كالمَعِدة (خ).
خَيْش (ج خيوش) : مناديل وثياب معمولة من المشاقّة غلاظ (ز).

ـ خيش : الخيش كِلَّةٌ تنسَج كالطنفسة من كتان خَشِنٍ أو نباتٍ رهيف وتُحشَى بما تَقف به وتُعَلّق في عرض البيت ويوكل بها من يَجْذبها حتى ترتفع ويُرسلها إلى الجهة التي يراد ترويحها من البيت عملاً متتابعاً فتحمل ريحاً كثيرة، وتُنْقَع بماء الورد وغيره فتُطَيِّب الهواءَ مع التّبريد (خ).

حرف الدال

الداية : المربية للولد (خ).
دماغ : هو الجسم الأبيض الذي في داخل القِحْف خاصّةً، وقد يسميه بعضُ العرب مُخاً (خ).

حرف الراء

رتق : الرتق أن يجمع الفتق حتى يلتئم (خ).

حرف الزاي

زَبَب : كثرة الشعر في البدن (خ) (خ).
زُجاجي (بَلغم) : صنف من أصناف البلغم، سمي بذلك لشبهه الزجاج (خ).
زَعارة : شراسة الأخلاق (ز).
ـ زعر : هو قلة الشعر في البدن (ح).
[وأصله من زعِر الشعر يزعر بمعنى قل وتفرق].

ـ زعورة : قلة الشعر على الجسد (خ).
الزمانة : هي الآفة اللازمة، وأكثر ما يصرف مطلقاً على آفة الرِّجلين ويقيد في غيرهما (ح).
ـ الزَّمانة : المرض لا يَبْرأ (خ).
زنجاري : صنف من أصناف الصفراء، أخضر في لون الزنجار (خ).
زَهَم (بفتح الهاء) : ثِقَل الرائحة، يقال زهِمَ الشيء فهو زهيم، والزّهْم (بسكون الهاء) الدَّسَم، وهو الزُّهمة والزّهومة (ح).

ـ الزُّهم (بضم الزّاي) : هو الشحم (ح).
ـ زهومة : رائحةٌ ثقيلة منتئة (خ).

حرف السين

ساذج : بسيط لم يُخالطه غيره (خ).
سَوغ : هو سهولة البلع، يقال منه : ساغ الطعامُ يسوغ وساغه سوغاً وسيغاً، وهو يتعدى ولا يتعدى، وأساغه الله إليه (ح).

ـ ساغ : جاز، وهو من ابتلع، ومنه : يتجرَّعه ولا يكاد يَسيغه (خ).
سبات : هو أن يكون الإنسان كالنائم مُلْقَى، يقال منه : سُبِت فهو مسبوت على ما لم يُسَمَّ فاعله، وحكى الجوهري : سَبُت الرجل (بضم الباء) على البناء للفاعل فيقال على هذا : أسبته غيره فهو مُسْبَت، وأكثر ما يصرفه الأطباء على هذه اللغة (ح).

ـ سُبات : حالة مرضية يكون الإنسان فيها كالنائم (خ).
سحنة : (بفتح الحاء وتسكينها) : هيئة البدن من السِّمَن والهُزال، ويقال : سَحْناء (بالمد) وسحْنى (بسكون الحاء) (ح).

ـ سَحْنَة : البَشَرة في كلّ عضو، ويقال الهيئة (خ).
سخافة : السخافة والسّخف (بفتح السين وضمها) : رقة العقل، هذا هو الأصل ثم قيل : ثوبٌ سخيف أي رقيق النَّسج، ويستعار للعضو ويراد تَخَلْخُلُه (ح).

ـ سخيف : معتاد متخَلْخِل (خ).
سَدَر : التحيرُّ والدُّوار (ز).
ـ سَدَر : هو في اللغة تحير البصر حتى لا يكاد يبصر، يوقعه الأطباء على ذلك، وقد يوقعونه على الدوار مرادفاً له، وهما متقاربان (ح).

ـ سَدَر : نوع من الدوار (خ).
سُلاميات : هي العظام التي تتكوَّن منها الأَصابع مركَّبة ما بين عُقْدَة وعقدة (ز).
ـ سُلاميات (ج سُلامَى) : هي عظام الأصابع (ح) (خ).
سل : هو في اللغة ذبول البدن وذهاب لحمه على أي سبب كان، وهو في اصطلاح الأطباء اسم لقرحة الرئة فيتبعها لا محالة ذبول البدن (ح).
ـ سل : مرض من أمراض الصدر والرئة (خ).
سَهك : منْتِن (ز).
ـ سَهَك : السهَك زهَم الرائحة و ثقلها من كل شيء وخصّ به بعضهم الموت وصدأ الحديد (ح).
ـ سهوكة : رائحة زهمة (خ).
سَوْرَة (الشيء) : شدته وسلطانه (خ).

حرف الشين

شَبَق : شدّة الحرص على الجماع (ح).
ـ شَبَق : اشتهاء الجِماع (خ).

حرف الضَّاد

ضَرَس : ما يصيب الأَسنان من أكلِ الحامض (خ).

حرف الطاء

الطبائع : العناصر والاستقصات (خ).

حرف العين

عَصَب : هو جسم أبيض لدن عَلِك ينبت من الدماغ والنخاع وينفذ في جميع البدن فيفيده الحس والحركة؛ والعرب لا تعرفه وإنما توقع اسم العصب على رباطات المفاصل التي تسمى عَقِباً (ح).

ـ عصبانية : أعضاء شبيهة بالعصب (خ).

حرف الغين

غثيان : تقلب المعدة للقيء والتهوع ثم يأتي القيء بعده (ز).

ـ غثى : تَحرُّمُ المعدة للقيء (ح) (خ).
[يقال : الغثي والغَثيان].
غريزية (حرارة) : طبيعية (خ).

حرف الفاء

فَتْق : هو من الأمراض انفتاق صِفاقِ البطن وبروز المِعَى أو الثّرب تحت عَضَل البَطن وجلده، وأصله من اللغة الخَرْق، نقله الأطباء وتعارفوه. والفَتْق من الطيب أن تسطع رائحته أو رائحة الدواء المركَّب بما يختلط به من الروائح الذكية الساطعة، يقال : مِسْك فتيق (ح).

قيفال : العِرْق الذي تسميه العامة عرق الراس وموضعه من الـذّراعِ الجهـةُ [اللّحمـة] التي إلى خارج، والعِرْق الباسليق من الذراع إلى داخل والأكحل في الوَسَط (ز).

ـ قيفـال : هـو العِرْق الـذي يُفتَصَـد من وحشيِّ الـذراع وتسميـه العـامـة عرق الراس (ح).

ـ قيفال : هو العِرْق الذي يُفصَد، وتسميه الناس عرق الراس (خ).

حرف الكاف

كُرَّاثيٌّ : الكُرَّاثي من أصناف الصفراء يشبه لونُه لونَ ورق الكُرَّاث (خ).

كنّاش : (ج كنانيش) : ما لم يتعدَّد أسفاره من الكُتُب العلمية (خ).

كيلوس : الرطوبة التي في الحيوان وفي النَّبات قد خالطها اليُبس فغلظت العُصارة مثل ماء الشعير إذا طُبِخ وغَلُظ سُمّيَ كيلوساً، وكذلك صفُو الطعـام الـذي يتخثر في المعدة ويَمرّ إلى الكبد يسمى كيلوساً (ز).

ـ كيلوس : الطعام إذا انهضم في المعدة وصار مثل كِشْك الشعير يسمى كيلوساً (خ).

كيموس : الأخلاط الأرْبعة : المِرَّتان والبَلغم والـدم، قـال جـالينوس : الكيموس هي [الكيفية] المُدْركة بالمَذاق (ز).

ـ الكيموس هو الدم المستحيل عن الغِذَاء (خ).

حرف اللام

لذع الدواء : إذا أحس الإنسان بحدّته أو مرارته أو حَرافته (ز).

ـ اللّذع : إحراق النار ويستعار لكل وَجع بحرقة.

ـ اللذع : إحراق النار، يستعمل لكلّ ما يحرق (خ).

ليف : هو الشُّعَب الخيطية التي يتشعب إليها اللحم كأنها شُعَبُ ليف النَّخل، منقول متعارَف، وقوله ـ أي الرازي ـ «ليف يُتَّخَذ من صُفْرٍ» يريد كبَّةً من خيط النُّحاس (ح).
ليف : اللِّيف شُعَب خيطية يتشعَّب إليها اللحم شبيهة بليف النخل (خ).

حرف الميم

مادّية : يقال في الأمراض الامتلائية التي لها موادّ (خ).
مالنخوليا : هو فساد الفِكْر وسوء الظنون وميلٌ إلى الخوف من غير مُخيف (ح).

ـ مالنخوليا : هو المرض السوداوي (خ).
مجاسَّات : المواضع التي يقع عليها الجسُّ (خ).
محرور : مَنْ غَلَبَه المزاج الحارّ (خ).
محّ : هو ما في داخل العظام القَصبية، وقد يسمِّي به بعض العرب الدماغَ، وتَقدَّم التنبيه عليه، والمراد به في الطبّ ما في العظام (ح).

محّي : منسوب إلى المحّ (أصفر البيض)، من أصناف الصفراء (خ).
مريء : مَسْلك الطّعام إلى المعدة (ز).
ـ مريء : هو مجرى الطعام والشراب من الفم إلى المعدة (خ).
مزازة : هو طعم قليل الحموضة مَشوب بيسير حلاوة (ح).
ـ مزازة : طعم بين الحلاوة والحموضة (خ).
مسام البدن : الثقوب الصغار التي في الجلد يرشح منها العرق ويخرج البخار (ز).
ـ مسامّ : ثُقْبٌ في الجلدِ خفيةٌ يتروح منها ويدفع البخار (خ).
مسيخ الطَّعم : أي لا طعم له وهو التَّفِهُ، مأخوذ من المسخ (ز).
ـ مَسيخ : من أصناف الطعوم في أصناف البَلْغم (خ).
مُشْطٌ : عظامٌ في قَدَم الرِّجل واليَد (خ).

مُغَثٍّ، المُغَثِّي هو المُحَرِّكُ للقَيْءِ (ح).
ـ المُغَثّي : هو الذي يُحرك المعدة للقيء (خ).
مَلَكَة : الملكة أن يتصرف الإنسـان في الشيء ـ علماً كان أو غيره ـ من غير تكليف، ويحتمل فوق هذا (خ).
مُـوَرَّب : المُـوَرَّب هـو المـوضـوع على التـدبب وهـو الميـل أو التحريف بين الطـول والعرض (خ).
ويقال : على التأريب، والمراد به عند الأطبّاء : على التحريف.
موضِرَة : مدنسة، والوَضَر : الدَّرَن والدَّسم (خ).
موضوع : هو الذي يكون فيه نظرُ الصانعِ وتصريف الصنعـة مثل الخشب للنجّـار وبدن الإنسان للطبيب (خ).

حرف النون

نحافة : قلة لحم البدن (ح) (خ).
نزوع : حركة النَّفْس عن الشيء منتهية، ويقال في الحركة إلى شيء (خ).
نَفْض : هو دفع فضول البدن من مجاريها (ح).
ـ نَفْض : أعضـاء النَّفْض في البـدن هي الأعضـاء التي تَنْفض الفضلات كالمَثـانـة والكُلْيَة (خ).

حرف الهاء

هضم : انهضم الطعام : طبخ وانصرف عن المعدة (خ).
الهندام : الاحتيال والاتقان في نقل الأشياء وتأليفها المحكم بالحيل (خ).

حرف الواو

الوباء : الموتان (خ).
وخامـة : هي الثقل، يقـال رجل وخيم ووخم، ووخيم، من الأغـذيـة التي لا توافق ولا تحمد مغبته (ح).
ـ الوخامة : الثقل في هواء أو غيره (خ).

تفسير مصطلحات الأغذية والأدوية المركبة والألبسة وأنواع العلاج (باستثناء الأدوية المفردة)

أسبذاج (أو أسفيذاج) : هو البياض المعروف ببياض الوجه (خ).
[وأسفيذاج الرصاص : مادّة بيضاء تحصل من ذوبان الرصاص في الخلّ، وقد ذكرها ابن البيطار ووصف طريقة عملها، وهي كربونات الرَّصاص].

استِطراف : أخْذُ الشَّيء بالأطراف وعدم المبالغة فيه (خ).
استِنْقَاع : معنَاه المُشْرَب بالماء وغيره من الرُّطوبات التي تَبِلُّ وتَنْقَع (خ).

إسفنج البحر : رغوة الحَجّامين، وبالعجمية الإسبونجة (ز).
[ويسميها الأسبان في هذا العصر إسبونخة Esponja بالخاء].
ـ الإسفنج : هو الشّيء المنتفش الموجود في البحر المسَّى جفافة، سمِّي بذلك لشبَهه بالإسفنج في انتفاشه (خ).

اسفيذباج : لونٌ من الطبيخ أبيض، لأن **اسفيذ :** أبيض، **وداج :** لحم (ز).

ـ اسفيذباج : معناه بالفارسية : لون أبيض، وهو الطبيخ المسمّى بالمغرب التفايا البيضاء، وطُرُقُها كثيرة بحسب توابلها (ح).

ـ اسفيذباج : هو اللون المسمى بالمغرب **التفايا البيضاء** (خ).

أَسْمَنْجونية : لون منسوب إلى الأَسْمَنجون، وهو زهر الإيرسا، نباتٌ معروف يسمّى اللؤلؤ (خ).

[والإيرسا نوع من البنفسج].
أقْشِمَة : شراب يستعمل ببلاد المشرق يشربه النَّاس لمنافع من تبريد أو هضم أو غير ذلك، معروف بها (خ).

بلاليط : ما يُعمَلُ على شكل بلّوط من طعام أو دواء (خ).
بَنفسجية : طيبٌ يدخل فيه زَهْر البنفسج (خ).
بَهَطَّة : طعام يتَّخذ من الأُرْز واللَّبن الحليب والسكّر، وقد يتَّخذ من مَرَق الدجاج وقد لا يتّخذ بها، وبالجملة هو من صنف الأطعمة لا من صنف الحلواء كما وقع في الكتاب المنصوري (ح).

ـ بَهَطَّة : طعام يتَّخذ من الأُرز واللَّبن الحليب والسكّر على مَرق الدجاج، مشرقي الاستعمال (خ).

الجُلاّب : (فارسي معرب) : هو ماءُ الورد (خ).
[غالباً ما يطلق الجلاب على شَراب الوَرْد].
جُلنجبين : مُرَبّى الورد العسلي (خ).
جوذابة (ج جوذابات) : خُبْز يُسقى في الفُرن بوَدَكِ الشّواء، أو في غير الفُرْن (خ).

حرِّيف (من الحَرافة) : ما يَلْذعُ اللسان من الطعوم ويحرقه كالفلفل (خ).
حِصرميات : ألوان من الطعام يُجعل فيها خَلُّ الحِصْرم (خ).
الحَلُّ : اسم عربي لدُهْن السِّمْسِم كالزَّيت لدهن الزيتون، وقيل هو دُهْن السِّمْسم بقِشْره (ح).

ـ الحَلُّ : دهن الجُلْجلان (خ).
حَمَئِيَةٌ : مياه منسوبة للحَمَأ (خ).
[ومياه حامِّية منسوبة للحامَّات، وهي المياه التي تخرج من الأرض حارَّةً بالفعل].

حنتم : الفخَّار المزجَّج (خ).

الحُوَّارَى : الدَّرْمَك، وخبزُ الحُوَّارى هي خبز الدَّرْمَك (خ).

[والدَّرْمَك هو الدقيق الأبيض الخالص].

خَشاش : صغار الحيوان كبنات وردان ومثلها، وخشاش كلّ صنف صِغاره (خ).

خَشْكار : الخَشكار من الخبز ما لَمْ يُسْتَقْصَ طَحْن دقيقه ولا طبخه (خ).

خندوس : دواءٌ يَزِيدُ في اللَّبَن (خ).

دروح، وذراح (ج ذراريح) : وهو حيوان مخطط على قدر الجرادة، منه ما يطير ومنه ما لا يطير، يستعمله البياطرة (ح).

- ذراريح : حيوان من جنس الخشاش ينمو بقرح المثانة (خ).

الراتينج : الصمغة المسَّاة بالرِّجينة (خ).

زلابيا : حلاوة من حُوَّارَى مختمرة تُقْلَى بعد أن يُصَبَّ سائلها من أُنبوب وتُتّخذ أشكالاً وشبابيك ثم تُجْعل في العَسل ثم تمتلئ أنابيبها منه (خ).

[تسمى في المغْرب بالشّبَّاكية].

زيرباج : صنف من الحلوى يعمل بالزّبيب والسكّر، وقيل معناه لَون الكّمون، لأن **زير** بالفارسية هو الكّمون (ز).

- زيرباج : صِنْف من الحلوى يتَّخذ من سكر ولوز وعسل (خ).

[وقد يُطلق لفظ زيرباجة على طبيخ لحم أو نحوه في الماء من غير أفاويه].

سامر : وعَاءٌ مثقب الأعلى يُجعل فيه السراج ليلاً (خ).

سَبخة : أرض رخوة مملوحة (خ).

سكباج : لون من الطعام يسمّى في المغرب بالمخلّل (خ).

السُّمَّاقيات : أطعمة يطبخ فيها حَبّ السُّمّاق (خ).

سُيور (ج سَيْر) : جلود متقطِّعة طوال (خ).

فقاع : شراب يتخذ بالمشرق من الحبوب ومن الجبن بأفاويه، يسمى فقاعاً لما يعلوه من الزبد في غليانه (خ).

قريض : لون من ألوان الطعام بخلّ (خ).

قطائف (ج قطيفة) : صنف من الطعام يسمى في المغرب المشهَّدة (خ).

قَلايا : الأطعمة التي تقلى (خ).

قيموليا : الطَّفَلُ الذي تُغسل به الرؤوس (خ).

كُمّثري : هي الثَّمر المعروف عندنا بالإنْجاص (خ).

لَخَالِخ : (ج لخلخة) وهو طيب مجموع يُتَضَمَّخُ به (خ).

لوزينج : حلواء تتَّخذ من اللوز والسكّر (خ).

ليمون : هو الثّمر الحامض الذي يسمى بالأندلس اللِّيم (خ).

ماشت : اللَّبن الرائب الذي لم تَشْتَدَّ حمضته (خ) واللفظ معرب.

المرعزا : [المرعزى] : ثيابٌ رفيعة من الصوف ـ وربَّما أضيف إليه غيره ـ كانت تُجْلَب من أرض الرُّوم (خ).

المزدرد (من الطعام) : الذي يُبْلَع من غير مضغ (خ).

مُزوَّارات : طعام ساذج متَّخَذٌ من الفول (خ).

المشفوع : ثياب من كتانٍ مخلوط في المنسج بغيره من حرير أو قطن كان معروفاً بالأندلس (خ).

المُصْلُ : بنادق شعير تُسقَى باللَّبَن الحامض (خ).

[والبنادق جمع بُنْدقة، تطلق على أقراصٍ من الحلوى أو نحوها تكون على قَدْر البُنْدُقة].

مفتوقة بالعنبر أو المسك أي جُعِلَ فيها ما يُخْرِج الرائحة من دُهْنٍ أو غَيْره (خ).

المقور : السَّمك المملوح (خ).
النِّزُّ : ما يُتَحلَّب من الأرض من الماء (خ).
نَقوع : ما تنقع فيه أدوية أو غيرها (خ).
صندليات : طيوب متَّخذة بالصَّندل (خ).
الهاضوم : مأكول يُعين على الهَضْم (خ).

تفسير الأدوية المفردة[27]

الأفْسنتين : نباتٌ من فصيلة المركَّبات، له أنواع كثيرة، يعرف في المغرب باسم الشِّيبة، وقد يُطلق عليه شيب العجوز.

Artemisia absinthum
(Compositae)
E. Wormwood.
F. Absinthe.

الأنزروت (ويقال العنزروت بالعين) : هو صمغ شجرة تشبه شجرة اللُّبان من الفصيلة القرنية.

Astragalus sarcocolla
(Leguminosae)
E. Sarcocolla.
F. Sarcocolle.

الباذرنبويه : هكذا ورد عند ابن الخطيب، والشائع الباذرنجبويه كما في مفردات ابن البيطار، واللفظ فارسي ومعناه رائحة الأترج، ويسمّى أيضاً البَقلة الأتْرُجِّية، وهو من الأحباق، رائحته ذكية وله زهر أبيض. وورقه كورق المرددوش، وهو

---

27) وردت في كتاب «الوصول» أسماء عدد من الأدوية المفردة، النباتية على الخصوص، وقد رأينا من تمام الفائدة أن نفسر ما يحتاج منها إلى تفسير، مع إثبات اسمها الاصطلاحي اللاتيني وفصيلة كل منها، وترجمتها إلى الإنجليزية التي رمزنا لها بحرف (E) والفرنسية التي رمزنا لها بحرف (F).

نـوعـان : صغير الـورق ويعرف بــالحَبـق القَرنفلي، وكبير الـورق ويعرف في المغرب بالحبق البربري. وهو من فصيلة الشفويات.

Melissa officinalis
(Labiatae)
E. Lemon balm
F. Mélisse, citronnelle.

البسبـاسـة : قشر جوزة الطيب أو جوز بَوًّا وهي شجرة لهـا بـزور وأغلفـة بـزور عطرية منبِّهة، من فصيلة الطيبيات.

Myristica fragrans
(Myristicaceae)
E. Nutmeg – tree.
F. Muscadier.

البَلَسان : شجرة صغيرة تنبت في مصر خاصة تعلو نحو القـامـة، لهـا حبّ يُستخرج منه زيت البَلَسان ودهنه، وهي من فصيلة البرسريات.

Commiphora opobalsamum.
(Burceraceae)
E. Balm of Mecca.
F. Baumier.

البهار : هو الأُقحوان الأَصفر، من فصيلة المُرَكَّبات.

Anthemis arvensis
(Compositae)
E. Corn chamomile.

جَوْزبوا : يطلـق على ثمرة شجر جـوز الطيب، وقـد تقـدم الكـلام عليـه في مـادة «بسباسة».

الحاشا : هـو الصعتر البري، نبـات عطر الرائحـة، ويعرف بصعتر الحمير، ينبت في المواضع الصخرية، وهو من الفصيلة الشفوية.

Thymus copitatos
(Labiatae)
E. Headed thyme.
F. Thym.

الحماض : نبات عشبي من الفصيلة البطبـاطيـة وأنواعـه كثيرة، منـه بري وبستـاني، ويعد من البقول.

Rumex acetosa
(Polygonaceae)
E. Garden sorrel.
F. Oseille.

الخلاف : شجر يعرف أيضاً بالغَرَب، وهو من الفصيلة الصفصافية.

Salix babylonica
(Salicaceae)
E. Weeping willow.
F. Saule pleureur.

الخيرى : جنس نبات من الفصيلة الصليبيـة، لـه زهر أزرق أو أصفر، ذكيّ الرائحـة. تسميه بعض المراجع بسراج القطرب، فالخيرى الأزرق اسمه اللاتيني :

Cheiranthus incanus
(Cruciferae)
E. Queen's stock.
F. Giroflée des jardins.

والأصفر من الفصيلة نفسها، واسمه اللاتيني :

Cheiranthus cheiri

(مأخوذ من اسمه العربي).

E. Water – flower.
F. Giroflée jaune.

دم الأخوين : صمغ شجرة الشيان أو عصارتُها، والشجرة من فصيلة الزنبقيات وسياتي ذكرها في حرف الشين.

الزّاج : من الأمْلاح المعدنية، وهو سُلْفَات الحديد والنّحاس والرصاص، ومنه أبيض وأخضر وأزرق، والأخضر منه يسمى القَلْقَديس.

E. Sulphate, Vitriol.
F. Vitriol.

الزنجبيل : يعرف في المغرب باسم سكنجبر، وهو نبات تَـدِبُّ عروقه تحت الأرض، من الفصيلة الزنجبيلية.

Zingiber officinalis
(Zingiberaceae)
E. Ginger.
F. Gingembre.

السَّذاب : نبات بستانيٌّ من فصيلة السَّذابيات، زَهره أصفر مُشَرَّف حادّ الرائحة، يعرف في بعض جهات المغرب بالرُّوطة، وهو الاسم اللاّتيني لهذا النبات. ومنه نوع بريٌّ يعرف بالفَيْجَن.

Ruta hortenis
(Rutaceae)
E. Rue.
F. Rue.

السِّلْق : بَقل معروف من فصيلة السرمقيات، يؤكل.

Beta vulgaris
(Chenopodiaceae)
E. White – beet.
F. Bette.

الشَّقاقُل : نبات من فصيلة الخيميات له قضبان رقاق وورقه يشبه ورق الجلبان وزهره أصفر يظهر في آخر الربيع، يخلفه بزر أسود مدحرج على قدر الحمّص، وله أصول في غلظ السبابة طوال، وقد يسمى جَزراً بَرِّياً.

Pastinaka schekakul
(Umbelliferae)
E. F. Secacul.

الشيان : شَجر يُستَخرج منه الصمغ الذي يعرف بدم الأَخوين (انظر هذه المادّة)، وهو من فصيلة الزّنبقيات، وقد يطلق الشيان على الصَّمغ نفسه.

Dracaena cinnabari
(Liliaceae)
E. Dragon – tree.
F. Dragonnier.

العُنَّاب : شجر شائك يَعْظم ويطول، يُعرف في المغرب بالزّفزوف، ويطلق العُنَّـاب على ثمر هذا الشجر وهو أحمر حلو الطعم.
والعنَّاب من الفصيلة السِّدْرية.

Zizyphus sativos
(Rhamnaceae)
E. Jujube.
F. Jujubier.

الغاريقون أو الأغاريقون : جنس من الفُطُر من الفصيلة المتعدّدة المسامّ، والأبيض منه هو المستعمل في الطبّ وهو المقصود هنا.

Polyporus officinalis
(Polyporaceae)
E. Agaricus albus.
F. Agaric.

الفـوذنـج (لفـظ فـارسي معرَّب) : نـوع من الأحبـاق، يسمَّى بـالعربيـة الفصيحـة الضّـومِران، ويُعرف في المغرب بـاسم مشيشترو أو تِيمجَّـا بحسب المنــاطـق، وهـو من فصيلة الشفويات.

Mentha Puligium
(Labiatae)
E. Pennyroyal.
F. Menthe pouliot.

القِرْصَعْنَـة : ذكر الشِّهـابي في معجمــه الـزّراعي أنهــا جنس بَقـل عشبي معمر من الفصيلة الخيمية... فيها أنواع برية وأخرى للتزيين.

Eryum
(Umbelliferae)
E. Eryngo.

القِرطِم : جنس نبات من فصيلة المركَّبات، ومنه نوع مشوك جداً أحمر الزهر، ونوع آخر أصفر الزهر وشوكه قليل. ويعرف القرطم في المغرب بالعصفر.

Carthamus tinctorius
(Compositae)
E. Safflower
F. Carthame

الكَبَر : جنبة من الفصيلة الكَبَرِية تتدوح وتمدُّ قضبانها في كل اتجاه، زهرها أبيض، ولها شوك وتعرف أيضاً بالراوند الجبلي، له ثمر يُعدُّ من التَّوابل يؤكل كما تؤكل جذوره وسوقه.

Capparis spinosa
(Capparidaceae)
E. Caper Plant.
F. Câprier.

الكُنْدُس : نبات من فصيلة القَرنفليات، يعرف في المغرب بتغيغشت، وهو بمثابة صابون يُغسل به الصوف.

Gypsophila struthlum
(Caryophillaceae)
E. Soap roat.
F. Saponaire.

لسان الثور : بَقل من فصيلة الحِمْحميات، يشبه ورقه ورق الخسّ إلا أنّه خشن، وله زهر مُشَرَّف إسمانجوني اللون وبزره في قدر حب الكرسنَّة، وله أصل كالجزرة، يسمى أيضاً الكحيلاء وبَقل تونس.

Borrago officinalis
(Borraginaceae)
E. Borage.
F. Bourrache.

المر : يطلق على صمغ شجرة من فصيلة البرسريات.

Commiphora myrrha.
(Burceaceae)
E. Myrh – tree.
F. Arbre à myrrhe.

النسرين : نبات من فصيلة الورديات، شائك كالعليق له زهر شبيه بـالورد، طيب الرائحة، كثيرا ما يستنبت في الزروب.

Rosa Mosechata
(Rosaceae)
E. Musk – rose.
F. Rosier musqué.

النيلوفر : نبـات ينبت في ميـاه البِرَك والأنهـار ونحـوهـا، وهـو أنـواع كثيرة، من الفصيلة النيلوفرية.

Nynphaea
(Nynphaceae)
E. Water – lily.
F. Nénuphar.

كتاب الماوردي في نصيحة الملوك

محمد علال سيناصر

أورثنا أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب **الماوردي** ثلاثة أعمال رئيسية، أشهرها **الأحكام السلطانية.** يليه ويكمله **أدب الدنيا والدين** الذي يحاول تأسيساً لنظريةٍ في سلوك الفرد وفي ضميره الأخلاقي. يربط بين العملين اجتهاد ثالث، **نصيحة الملوك**، الذي نحن بصدد تحقيقه. **وللماوردي** عملان آخران دقّقا جوانب إضافية من الرؤية التي تعبر عنها مآثره الأساسية في علم السياسة من وجهة نظر الشريعة الإسلامية في فترة حاسمة من تاريخها وتجربتها : **تسهيل النظر وتعجيل الظفر** من جهة، **وقوانين الوزارة وسياسة الملك** من جهة أخرى. وتجدر الإشارة إلى التحقيق الذي قام به **الأستاذ رضوان السيد** لـ**«قوانين الوزارة»** وإلى الدراسة المطولة التي قدم بها تحقيقه والتي تدل على سعة في الاطلاع التاريخي يجعل منها مرجعا أساسيا لدراسة **الماوردي** دراسة علمية لم يحظ بها إلى الآن رغم الاهتمام المتجدد به، وبأعماله، في أوساط الاستشراق وفي غيرها من مراكز البحوث العربية. آية ذلك أن **نصيحة الملوك** لم تُحقَّق، على حد علمنا، رغم أن النسخة الفريدة التي بقيت منها بالخزانة الوطنية بباريس، كانت معروفة لدى بعض الباحثين المهتمين بالمخطوطات العربية. وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على الاتجاه العشوائي في نشر التراث، على سعته، دون مراعاة لمقاييس الفائدة، فلقد رجع بنا التاريخ ـ بعد أن أخمدت شعلة النهضة نيرانُ الأزمات ـ إلى نوع جديد من

الاغترار بالتكرار والتوسع فيما لا فائدة في التوسع فيه، دون الانتباه إلى ما يقضيه وقتنا من تركيز وتحديد وانتخاب واقتصاد في الجهد، حتى لايذهب سدى، ولا تنسى المقاصد المتوخاة منه.

الماوردي لا يُعرَّف دون ترديد المعروف في شأنه، وتكرير مألوف أخباره. ترجم له **القاضي شمس الدين** في **وفيات الأعيان** و **السبكي** في **طبقات الشافعية.** وغيرهما كثير. ففاقت مراجع ترجمته عشرات العناوين تتفاوت أهمية ويعدها المحققون لنصوص **الماوردي** عدّا دون سهو ولا نسيان. بيد أن **الذهبي،** وهو العلامة المدقق المحقق في علم التراجم، لخص أهم ما فيها، معتمدا على المعروف من الأُصول، في كتابه **سير أعلام النبلاء،**[1] فذكر اسمه، عمن حدث، ما جاء حوله في **«الطبقات»** وفي **«وفيات الأعيان»،** كتبَه، ترددَه في إظهارها، تهمته، كما ذكر **أبو عمرو بن الصلاح،** بالاعتزال، تهمة نزّهه عنها تعقيب **ابن حجر** في **لسان الميزان.** وجدير بالذكر أن ميل **الماوردي** للآراء القدرية ظاهر في تفسيره لبعض آيات القرآن الكريم وربما تعلق بها لأَن نظرته إلى الحكم والسلطان القادر على رد تجني الأيام وعلى سياسة بني الإنسان تقتضي الاقتدار الإرادي والعزم الجازم والتمكن من صناعة القرار الحاسم لأَنه يرى أن جور السلطان خير من ضعفه وأن الله يزع بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن كما يقال.

ورغم هذا، فإن نظرة علماء المسلمين إلى **الماوردي** لم تتعد أهميته في الفقه ومكانته في التاريخ السياسي. قل من ناقش آراءه السياسية الأصيلة وكثر من نقل عنه محيلاً إلى كتبه أو مقتصراً على ذكر أسمائها. ويبدو أن **إمام الحرمين** من القلة التي تصدت لدحض أفكاره في **الغياثي** وفعلا نقرأ في الفقرة 209 من هذا الكتاب ما يلي :

«والشكوى إلى الله ثم إلى كل محصل مميز، من تصانيف ألفها مرموق، متضمنها ترتيب وتبويب، ونقل أعيان كلام المهرة الماضين، والتنصيص على ما تعب فيه

---

1) تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي ـ مؤسسة الرسالة : 18 : 64 ـ 68.

السابقون، مع خبط كبير في النقل وتخليط، وإفراط وتفريط. ولا يرضى بالتلقب (بالتصنيف) مع الاكتفاء (بالنقل) المجرد، حصيف، ثم من لم يكن في تأليفه وتصنيفه على بصيرة، لم يتميز له المظنون على المعلوم، والتبست عليه مسالك الظنون بمدارك العلوم. وإنما جر هذه الشكاية نظري في كتاب لبعض المتأخرين، مترجم **بالأحكام السلطانية**، مشتمل على حكاية المذاهب، ورواية الأراء والمطالب، من غير دراية وهداية، وتشوف إلى مدرك غاية، وتطلع إلى مسلك يفضي إلى نهاية، وإنما مضمون الكتاب نقل مقالات على جهل وعماية. (وشر ما فيه)، وهو الأمر المعضل الذي يعسر تلافيه، سياقة المظنون والمعلوم على منهاج واحد. وهذا يؤدي إلى ارتباك المسالك واشتباك المدارك، والتباس اليقين بالحدوس، واعتياص طرائق القطع في هواجس النفوس».

رأى محقق **الغياثي** أن هذا التحامل يقصد **الماوردي** لأنه عاصر **إمام الحرمين** ولأن نسخة من نسخ الغياثي تحمل، على ما يبدو، الطرة الآتية :

«**يريد أبا الحسن الماوردي**». ولم ينتبه المحقق، إلى أن هذا الاستنتاج مجرد احتمال لورود عنوان «**الأحكام السلطانية**» عند غير **الماوردي** من المؤلفين في مسألة الإمامة، ولأن كلام **إمام الحرمين**، في غير هذا الموضع من فقرات الكتاب، لا يتطرق إلى مواضع خاصة **بالماوردي**. لذلك كان تعيين **الماوردي**، دون مزيد دراسة ومقارنات مع ما ينبغي الرجوع إليه من نصوص أساسية، لا يعتبر تعيينا إلا على حساب طرق التثبيت وسبل الاحتمال الأقرب المبني على المعطيات النصية الصريحة. لذلك، ولغيره من الأسباب، نرجيء هذه المناقشة إلى مناسبة أخرى تتفق وأهمية الموضوع، بقطع النظر عن صواب الإحالة أم لا.

أما علماء الغرب فإنهم يرون في **الماوردي** أسمى عبارة لتنظير الواقع السياسي الإسلامي من جميع مناحيه. فنشر **إنجر** (ENGER) كتاب **الأحكام السلطانية**، وسرعان ما ترجمه **فانيان** (FAGNAN) في أوائل هذا القرن. مذ ذاك أصبح الكتاب مدار البحث ومنطلق النقاش كنص أصلي أصيل يمثل قمة في الفكر السياسي العربي الإسلامي، وإن رأى **بروكلمان** (BROCKELMANN) في **الأحكام السلطانية**

مجرد نظرية بعيدة عن الواقع التاريخي، وجاراه في هذا الرأي جمهور المستشرقين ومن حذا حذوهم من الباحثين المسلمين.

وقد انفرد المستشرق **هاملتن جيب** برأي خاص يقول إن **الماوردي** راعى الظروف التاريخية، وأفتى فيها بآراء لم تقتصر على ترديد وجهات نظر تتصل بنماذج وبتجربة الخلافة الراشدة التي تحولت عند جمهور الفقهاء إلى مثل أعلى تقاس عليه، وتمتحن به، كل سلطة إسلامية لاحقة، مهما اختلفت ظروفها، وتميزت التحديات التي واجهتها في عملها السياسي.

ومما يلفت النظر في تطور هذا النقاش أن **أوستروروج (OSTROROG)** أشار في تحليله «**لحق الخلافة**» في نظر **الماوردي** إلى اعتبار الناحية الفقهية في كتابات «**أقضى القضاة**». فهو لم يكن موظفا في **البلاط العباسي** وحسب، بل كان من كبار الشافعية[2] ، من تلامذة **الأسفرائيني**، ملاحقا عن كثب الواقع الجديد الذي أفرزه تزامن **الخلافة والسلطنة**، وتواري سلطة خلفاء **بني العباس** واستبداد سلاطين **البويهيين** ثم **السلاجقة** بالأمر إلى درجة ضلّت فيها حيلُ الإنقاذ.

في هذه الظروف يمثل مجهود **الماوردي** في طلب المخرج لحل هذا المشكل محاولة أولها إقرار ما وقع، ثم إدراجه ضمن آراء «**أهل السنة والجماعة**». هو لعمري جهد فقهي جديد للتوفيق بين المبادئ الشرعية الثابتة ومتغيرات السياسة ومستجداتها من خلال ممارسة أو ممارسات طالما لجأت، في التعبير عن مبادئها، إلى ما أثر عن ملوك الفرس **كعهد أردشير** وغيره من النصوص الحقيقية أو المنتحلة التي غذّت كُتبَ المحاضرات والحكمة السياسية والتي اهتدى لدراستها دراسة مستفيضة في الأعوام الأخيرة، الأُستاذ فوشيكور في أخلاقياته*.

2) يشهد له كتاب «الحاوي» بالتبحر ومعرفة المذهب.

*) MORALIA FOUCHECOUR , Les notions morales dans la littérature persane.

وكان **الماوردي** واعيا بطبيعة مشروعه وبغرضه في أن تمشيَ النظرية بخطى الواقع، متفادية كل ما يؤدي إلى الطلاق مع العصر والواقع دون الحياد والابتعاد عن الفقه ومنهاجه. يقول **الماوردي** : «كانت الأحكام السلطانية بولاة الأُمور أحق، وكان امتزاجها بجميع الأحكام يقطعهم عن تصفحها... (و) أفردت لها كتابا امتثلت فيه **أمر من لزمت طاعته** ليعلم من مذاهب الفقهاء...»[3]

الجديد في **نصيحة الملوك** أضواء شتى تكمن وتشع من عبارته : **«من لزمت طاعته»**. تتجلى واقعية الفقية المنظر، أي الذي يفكر ويبني من منزلته كفقيه يمثل سلطة الفقه وظل الفقهاء السابقين الذين خصوا أنفسهم برآسة الأُمة، وخصصوا الخلفاء برآسة الدولة، معترفين بمنزلة الدولة ونوعية مسؤوليتها، وتفوق حكمتها، منطلقين من حكم الشريعة. فما أكثر ما يرددون ما قاله **الرشيد للأَصمعي** : «أنت أعلم منا ونحن أعقل منك»، أو «لا سائس مثل العقل». وإذا ردد الفقهاء هذه الحكم دون أن يأبهوا للمسافة التي تبعد الحاكم من المحكوم، ودون أن تجمع بها على صراط الشريعة طريق، **فالماوردي** بذل في نصيحة الملوك وغيرها من ذيول **الأحكام** وتكملتها جهدا واضحا لوضع قانون عام مستمد من الشريعة الإسلامية قادر على الربط بين مؤسسة الخلافة، راشدة كانت أو أموية أو عباسية أو غير ذلك، وواقع الاجتماع البشري، مشددا النبرة على الاستمرارية من **أبي بكر الصديق رضي الله عنه** إلى حكام زمانه، وموضحاً، من أجل ذلك، **ضرورة الملك عامة** كحتمية طبيعية، لا موضوعة ولا محدثة ولا منبعثة عن مجرد الاتفاق والهوا. فبين هذا الرأي، وما ألفناه مما ذاع وشاع عن فلاسفة السياسة والمذاهب الاجتماعية في بداية النهضة الغربية بُعْدٌ شاسع واسع. ولا شك أن لنظرية **الماوردي** جذوراً في المفاهيم الشرقية حول الرياسة والسياسة وفي الممارسات الفقهية وشتان بين مُشرِّق ومُغرِّب. ! مع أن الفارق وانعدام القاسم المشترك بين الاتجاهين لايفيد، في رأينا، حكما حول تفضيل

3) يقول روسُو، قرونا بعد الماوردي، ما معناه : لو كنت حاكما ما كتبت نظرية الحكم، فأنا أنظر لأني لا أعمل. والفرق بين المفكرين واضح.

نظرية على أخرى، أو تفوق مذهب على مذهب، فلكلا المذهبين عواقب مستمرة، وآثار متواصلة، وتاريخ لا يدرك آخره، ولا يطمئن إلى معنى نهائي له، لنسبية المقارنات العلمية، والمناهج الإنسانية، «كيفية المرء ليس المرء يُدركها».

يرى **الماوردي** في الحكم، في الملك، وإطلاقاً في الرئاسة، حدثا في مسار الطبيعة لا مانع للفقيه أن يقره إقراراً. أساسه تفضيل الإنسان على سائر الحيوان وتسخير المخلوقات لفائدة الجنس البشري. والأفضلية والتسخير مفهومان استقاهما من القرآن الكريم، ثم فسرهما بما جرى في محيطه العلمي من حكمة رائجة، وثقافة شائعة، فيها، كرجع صدى، ما يتصل بفكرة سلسلة الأحياء، بنزعتها التراتيبية، التي اقتبسها **الماوردي** عن الفلسفة الطبيعية غير مكترث بما يقوله الفلاسفة في **المدينة الفاضلة.** همه فهم التجربة السياسية، وتقعيدها الشرعي في **الأحكام**، وتقعيدها السياسي العام في **النصيحة**. فإن التجأ إلى ما جاء به علم الأحياء الأرسطو طاليسي من صور، فلتوظيفها في ما أزمع على تنظيره : واقع ورث عن الدولة الشرقية سبلا ومناهج تبناها العباسيون، في ظل الإسلام، وإطار تعاليمه، وفقهه السني وشريعته.

إلا أن تنظير **الماوردي** أعطى عن واقع موضوعه وموصوفه صورة متماسكة تَجلو نسقا معقولا. يشد عناصره بعضها بعضاً، إذا كان أهم ما في **الأحكام** إحكام علاقات ذات طبيعة دولوية بين الخلافة ومختلف السلطنات الفعلية القائمة، فأهم ما في **النصيحة** تأسيس الملك نفسه كظاهرة مستقلة، سواء ترجمتها الخلافة أو الملك، ولأن الرياسة وهي مفهومها العام، واقع مستمر لاينهض للتساؤل في شأنها والبحث فيها، إلا تفكير اجتماعي لا يزال هامشياً إلى اليوم. وإذا فالمشكل بالنسبة للرياسة، هو إصلاحها بالسياسة، وإتمامها بتوضيح سبلها، وتوفير طرق الإنصاف والكياسة فيها. وذلك ما لايتصور إلا في إطار الدين والأخلاق والأدب. وتلك مهمة **أدب الدنيا والدين** في المنتظم السياسي والنسق **الماوردي**.

وعالج **الماوردي** في كتبه الأُخرى وفيما أتبعه بها من تكملات وإضافات، العلاقات التي تربط بين الثابت والمتغير، أي الخلافة وأنواع السلطة الفعلية بين الدولة والفرد كما عرفتها الحياة السياسية في وقته. فلا سبيل للاستغناء عن أحد

الأبعاد الثلاثة : الخلافة، السلطنة أو الإمارة أو الملك، مجموع الأفراد، ولا عن الآراء النفسية النفيسة التي تسود مفهوم علاقاتهم بما فيها واجب الفرد وسلوكه وتصرفه في مجتمع يحتكم فيه إلى الشريعة المنزلة، وفقهها، في جميع الحالات والنوازل.

ولئن كان **الماوردي** متشبعا، في تحليلاته وحلوله، بالروح الشافعية، فإنه لم يطمح إلى جعلها نظرية عامة تتبناها الدولة. ولا يفيد هذا أنه ميال إلى التسامح، متساهل فيما اختلفت حوله المذاهب. لكنه - **وهذا جانب من رأيه جدير بالمقارنة مع ما ذهب إليه بعض المحدثين ممن عاصر نشوء ما يسمي بالدولة الوطنية** - يرى أن اختيار المذهب من صلاحيات الخليفة لأسباب ليس هذا موضع تفصيلها وإن ذكرنا، مجملين القول في ذلك، انصراف دول الإسلام عن فكرة التوحيد القانوني عامة. رغم إشارة عبد الله بن المقفع ورغبته في ذلك فلا شك أن مؤسسي الخلافة العباسية رأوا من الحكمة ترك المذاهب للناس لأن الخلاف فيها أهون من طلب ما انتهض له بعض وارثيهم، ممن لم يسلكوا مدارج أسلافهم، فحاولوا أخطر وأكثر من توحيد المذاهب، توحيد العقائد.

وإذا استتب الأمر للخلافة السنية مع ما استوعبته من تقاليد مقبولة، وتحصنت به من ممارسات مجربة، فقد سادت الميدان إذ ذاك نظريات أخرى، فيها محاولات لفقهاء الشيعة الإمامية، من بينهم مجادل قدير، غلب عليه مقصده في تأييد مذهبه وتعضيد مشربه، ذلك هو **الشيخ المفيد** الذي أفرد له **هانري لاوست** دراسة شجعت الباحثين المستشرقين على الاهتمام به وبتأثيره، وبمن استلهموا تفكيره من الفرق المتعددة في اتجاهاتها الجديدة بعد ظهور الفاطميين، وازدهار الباطنية وانتحال العنف لدى الإسماعيلية، التي تصدى لها نظام الملك في عمله وفضحها **الإمام الغزالي** في **كتابه المستظهري**.

من اجل هذا كله يمثل **الماوردي**، رغم تعقد الوضع بسبب مطامع البويهيين ومطامح السلاجقة، أقوى مجهود لتعزيز الفكر السني بكل جوانبه وفي جميع مناحيه، من نصيحة إلى السلطان، وترغيب الفرد في التأدب، إذ لا يتسق ملك صالح، في نظر **الماوردي**، حيث لا هينة لسلطان العقل، ولا عمل للملك الأعظم، **وهو أن**

يملك كل شهوته. فالتفكير السني في شؤون السياسة، لا يبدأ بدفع السلطة أو الإدبار عنها، بل يتخذ منها موقفا مميزا ومعتدلاً. فإذا أثرت، ترغيبا عن السلطان، أقوال من نوع مانسب لـ **ابن السماك** وغيره من الفقهاء والأُدباء، فلقد أثر من جهة أخرى كثير من الأقوال ترغيبا فيه نحو : «إن هذه الأُمة ثلاث وسبعون فرقة، إثنان وسبعون هالكة كلهم يبغضون السلطان والناجية هذه الواحدة التي مع السلطان». وأكثر من هذا فلقد ظهر تقدير للسلطان قد يجد فيه القارئ اليوم نغمة «هيجلية» من نحو : «إذا تغير السلطان تغير الزمان» أو «الناس على دين ملوكهم»، مما يذكر بأن الفكر السياسي لم يبدع شيئا كثيرا منذ صقلته تجارب الأمبراطوريات الشرقية وحواضر اليونان.

لا غرابة، في هذا المضار، أن يحتل سُني شافعي منزلةً عظيمة بين **الباقلاني والغزالي** في الاحتجاج لرأي متوازن شامل يخط نهجا ومنهاجا بين الآراء المغالية والمتعصبة، المحدثة للتقسيم الطائفي ولتكاثر الفرق على حساب التعددية الحقيقية. فعن صواب يعتبر الأُستاذ **رضوان السيد** فكر **الماوردي** إحياء سنيا ومقاومة لأفكار الشيعة وأهواء التقسيم والاعتماد على غير **مصحف عثمان**، فيما يمس فتنة ابن مسعود (**قوانين الوزارة** ص 66 ـ 68) مما أدى إلى تدخل الخلافة في النزعات بين السلاطين واستدعاء **الماوردي** للقيام بهذه المهمة. فأوفد الخليفة **القائم** (442 ـ 1031 / 450 ـ 1058) **الماوردي** إلى السلطان **أبي كاليجار** في الأهواز لحل قضية الألقاب فأفتى الفقيه بحل حافظ فيه على أسبقية الخلافة، ولكن دون جدوى، لأَن حله الشرعي لم يستأصل جذور الفوضى، فعج **العيارون** وضج الجند وتوسط **الماوردي** ثانية لدى **جلال الدولة** لصالح الخلافة رغبة في إخماد النزاع ووضع حد للفتنة. إلا أن الأُمور تفاقمت بعودة **جلال الملك** حانقا إلى طرح المشكل من جديد مطالبا مرة أخرى بلقب **شاهنشاه.** فوافق الخليفة وكان ما كان من توفيق **الماوردي** في الرأي والكتابة دون توفيق مسعاه في الميدان والمفاوضة.

ربما كانت هذه الأَحداث المفسر الأَول لتوزيع الفكر السياسي الماوردي بين مستويات ثلاثة : تقعيد الخلافة، ضبط علاقتها بالملك فواقع الفرد المتردي بينهما.

فإن ردد جمهور الباحثين أن الماوردي لم يجب الخليفة في استفتاء هـذا الأخير الفقهاء ورغبته في أن يعززوا موقفه بدون لبس، فهناك من يذكر باستجابته لهـذا الطلب، لكن في نفس الوقت، مع التنبيه بواقع أمر **جلال الدولة.** إن كان هـذا هكـذا فقد يعني كتاب **نصيحة الملوك** الذي بين أيدينا دعوة إلى الاعتراف بحقيقة الملك عن طريق التركيز على مفهومه، وبالتالي، إلى العمل على أن التعددية الفعلية التي ظهرت في ظل الخلافة تمثل حقيقة لا تنكر ولا تدفع، ولكن الحل المعروض تأخر عن موعده مع التاريخ. فأخمدت الأحداث ذكره وأدرجته بين كتابات الإسلاميين ومخطوطاتهم مما ينتعش به البحث الجامعي.

ولا يجدر بهذا التقديم المتواضع في حجمه ومقصده أن يحسم الموضوع المشار إليه ويحسم مضاعفاته الفكرية والتاريخية. على أن أمل استئناف التساؤل والتحليل مرهون بالتحقيق العلمي لمكتبة **الماوردي** التي ليست تكراراً لما يسمى **بمرايا الأمراء** رغم علاقتها العميقة بها. **فالأحكام السلطانية** و **أدب الدنيا والدين** و **نصيحة الملوك** في علاقات بعضها ببعض، كتب جامعة مانعة تنم عن فكر سياسي شامل متكامل وثيق الارتباط بالحياة السياسية والاجتماعية في عصر **الماوردي**، بما فيها من تضارب في الفكر، وفي المؤسسات وفي المصالح والمطامح.

والنسخة من **النصيحة**، التي بين أيدينا، وحيدة فيما نعلم، لم يرد ذكرها في المصادر التي نعرف إلا في قائمة **جورج فاجدا** (George Wajda) فإذا لوحظ فيها بعض الاضطراب، فلأننا نفتقد ما يصحح الأخطاء بالمقابلة ويدقق المعاني بالمقارنة. والمخطوط، لحسن الحظ، جيد الخط واضحه، إلا في مواضع قليلة جداً. كُتب على صفحته الأولى :

«كتاب **نصيحة الملوك** تصنيف الشيخ الإمام العلامة الفهامة القاضي الأجل أقضى القضاة **أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الشهير بالعلامة الماوردي** تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جنته بحمده وآله آمين».

وقد اختتم الكتاب كالآتي :

«رأينا أن نختتم هذا الكتاب الذي جمعنا فيه جمل ما أوجب إليه على ملوك أهل الملة وأمرائها وأئمتها وحلفائها وامتحنهم بها في أنفسهم (...) وفقهم الله وهدانا وإياهم سبيل الرشاد».

يلي هذه الكلمات كلمة الناسخ الأخيرة وتاريخ النسخ :

«تم كتاب نصيحة الملوك والحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده. وافق الفراغ من نسخ هذه النسخة المباركة يوم الأحد المبارك رابع عشر صفر الخير سنة 1007».

وبعد هذه السطور :

«علقه بيده الفانية العبد الفقير المعترف بالذنب والتقصير إسماعيل بن سليمان البيجوري خادم نعال السادة الخلوتية غفر الله للجميع».

ثم الاستكتاب :

«استكتب هذا الكتاب لنفسه ولينتفع به وليعتز بما فيه العبد الفقير إلى الله تعالى راقم الحروف كاتب علوان بن عبد النبي بن علوان القرماني الحنفي من كتبة الأعتاب الشريفة بالأبواب العالية... بديوان مصر المحروسة غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين والمسلمات آمين».

وليس تاريخ نسخ الكتاب دون أهمية. ففي نفس العصر ظهرت محاولات في تفكير سياسي لم تنته إلى النتائج التي كانت وراءها، إلا أنها تعبر عن استمرار وعي بضرورتها. وسنرى ذلك في ما بعد إن شاء الله، إذا تفضل المختصون مدلين على الخطإ في هذه المحاولة أو مصححين لزلل أو منبهين لنسخة أخرى من هذا الكتاب الجليل حتى يتسنى مواصلة البحث للتحقيق ابتغاء لإحياء تقاليد الفكر الإسلامي وجعلها فاتحة لجهود مجددة، وليس مجرد طرائف أدبية للترويح والتلهي ووعي الإذكار والأخبار والاستغراق في التاريخ دون القصد إلى فهمه ودون توخي الحلول التي أرادها دون أن يهتدي إليها والله ولي التوفيق.

نفسه قالوا وكان كسرى ابرويز يقول من لم يصلح لملكه مع تعلق
ضره ونفعه به لم يصلح لنفسه ومن لم يصلح لنفسه فلا خير فيه ففي
نصيحة السلطان نصيحة الكافة وفي نصيحة الكافة هداية الى
مصلحة العالم باسره ونظام امور الكل بجملته وعلى حسب ذلك رجا
باذلها لهم من ثواب العاجل والآجل وجزاء المحيا والممات ولهذا ما
جرت العادة في الانبيا ان يبعثهم الله الى ملوك الامم او الى جماعتهم
دون الواحد بعد الواحد من افرادها يا هم لان تخصيص الملك وحده يعني
بجميع من في ضمن مملكته وتحت سياسته ولان الراعي اذا مال الى مذهب
مال اليه الرعية والملك اذا زهد في شيء زهدت فيها العامة
وعلى هذا جرى امر اكثر المتنبين الذين راموا فساد الدنيا والدين
فكتبنا كتابنا هذا نصيحة للملوك واظهار المحبتهم واشفاقا لهم على
انفسهم ورعاياهم ورجونا ان من وقع اليه كتابنا هذا بما فيه من
صادق النصيحة وبليغ الموعظة واعطاه من عنايته حظه بالنظر فيه
والتدبر له والاصغا اليه علم انا من اعظم اوليايه له نصيحة وابلغ
خدمه واعوانه له معونة لانها نصيحة من قبلها وعمل بها من
الملوك والساسة وصل الله ملكه الامدي بالابدي في دار القرار
ومحل الابرار في ملك لا يبلى ونعيم لا يفنى ولذة لا يشوبها الم
وسرور لا يكدره غم وفرح لا يخالطه حزن وغنى لا يخشى بعده
فقرا وصحة لا يخاف معها سقما يبنا له فيه غاية المنى وكفاه المشتهى
ثم كفاه كثيرا من الجنود والاعوان والقواد والفرسان ووقاه كثيرا
من معرات الاعدا ومكايد اهل البغضا وكثر له من الاوليا واطلق
فيه وله السنة الثنا والدعا المعروض عليه والمرغوب فيه ثم جعل
مملكته عامرة وايامه غضة ناضرة وخواصه راضية ورعاياه
منقادة ساكنة وبلاده هادية وسبلها امنة واموال دارة وامور
مفهومة مجموعة وعزه في حياته ناميا وذكره بعده باقيا ثم اراح

الصفحة الثانية من مقدمة الكتاب

عنه فضول الاشغال وطرح عنه فوادح الاثقال فان اخطاه
في دنياه حظ يتمناه وفاته بعض ما يهواه عوضه الله عنه ما هو
اجل قدرا واعظم خطرا واوفى واهنى واكثر واسنى وعدا من الله حقا
وقولا صدقا والله لا يخلف الميعاد على انا لا ننفرد في كتابنا بارائنا ولا
نعتمد في شي نقوله على هوآينا دون ان نحتج لما نقوله فيه ونذكره بقول
الله جل وعز المنزل في كتابه وبتاويل رسوله صلى الله عليه وسلم المروية في
سننه واثاره ثم سير الملوك الاولين والائمة الماضين والخلفاء
الراشدين والحكما المتقدمين في الامم الخالية والايام الماضية
اذ كانوا ولاة في التقليد فيما قالوا والاتباع فيما سنوا والاقتدا
بهم فيما فعلوا ورأينا ان نجمع ما قصدنا جمعه من ذلك في عشرة ابواب

الباب الاول

في الحض على قبول النصائح

الباب الثاني

في الابانة عن جلالة شان
الملك والملوك وما يجب عليهم ان
ياخذوا به انفسهم من الخلال
التي تشاكل منازلهم وتضاهي مراتبهم

الباب الثالث

في الخلال التي من جهتها يعرض
الفساد في الممالك والملك

الباب الرابع

في فصول من المواعظ التي ينتفع بها
ويعالج قساوة القلوب ويجلوا ابها
من امراض الاهوا واسقام الشهوات

الباب الخامس

نهاية المدخل وتفصيل المواضيع التي يعالجها الكتاب

في سياسة النفس ورياضتها

الباب السادس

في سياسة الخاصة من الاهل

والولد والقرابة والخدم والجند

الباب السابع

في سياسة العامة وتدبير اهل المملكة

الباب الثامن

في تدبير الاموال جمعها وتفريقها

الباب التاسع

في تدبير الاعداء

الباب العاشر

في تقديم النيات وطلب التاويلات

فكثير مما يجري بيانه على ايدي الملوك

مما يكرهه كثير من الجهلا والعقلا

الباب الاول الحث على قبول النصايح وانه قد ذكرنا
ما يجب على اهل العلم والعقل والديانه والفضل الذين يوصون
على انفسهم وابراته وفرايضه واحكامه والواجب من نصيحة الملوك
والايمة وبينا ان ذلك مما يجمع نصيحة الكافة ويستصلح بها الخاصة
والعامة واوضحنا ان الله بعث انبياه وامر بها اولياه وحث عليها
بريته وحكا خليقته ليأتمروا به وانتهوا اليه وقدمنا ان احق من يهدى
اليه النصايح ويتحول بالمواعظ الملوك بان بهم انهم احرى الناس بقبول
النصيحة وسماع الموعظة لخلال منها انهم يتنزهوا عن شاكلة
اهل الغباوة والجهالة وسوا النشو والعادة الذين لا يميزون بين
منافعهم ومضارهم ولا يفرقون بين محامدهم ومذامهم ومن
مرتبة من يستحوذ عليه شهواته ويغلب عليه هواه حتى يرين على قلبه

بداية الباب الأول من «نصيحة الملوك»

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرست كتاب نصيحة الملوك للعلامة الماوردي وجمعه في عشرة أبواب رحمه الله

تمت الفهرسة المباركة بعون الله تعالى وحسن توفيقه

صفحة الفهرست من مخطوط «نصيحة الملوك»

الباب الثاني

فِي فَضَائِلِ ٱلْمُلُوك، فِي عُلُوّ مَرَاتِبِهِمْ وَمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَأْخُذُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ مِن ٱجْتِلاَبِ ٱلْفَضَائِلِ وَٱجْتِنَابِ ٱلرَّذَائِلِ.

1 ـ **فَضْلُ ٱلإِنْسَان عَلَى سَائِر ٱلمَخْلُوقَات وَفَضْلُ ٱلمَلِكِ عَلَى سَائِرَ ٱلبَشَر** أَمَّا تَفْضِيلُ ٱللهِ عَزَّ وَجَلَّ ٱلإِنْسَانَ عَلَى سَائِرِ ٱلْحَيَوَان، وَتَفْضِيلُ ٱلحَيَوَانِ عَلَى ٱلنَّوَامِي وَٱلجَمَاد، وَتَسْخِيرُ اللهِ جَلَّ ذِكْرُهُ لِلإِنْسَانِ جَمِيعَ مَا فِي ٱلعَالَمِ مِنْ سَمَائِهِ وَأَرْضِهِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ عِظَامِ خَلِيقَتِه، وَأَجْنَاسِ بَرِيَّتِهِ، فَشَيْءٌ لاَ يَنْبَغِي أَنْ يَعْرِضَ فِيهِ بَيْنَ أَهْلِ ٱلعُقُول شَكٌّ وَلاَ تَنَازُعٌ وَلاَ مِرْيَةٌ وَلاَ تَدَافُعٌ؛ لِمُشَاهَدَةِ ٱلجَمِيع إِيَّاهُ، وَمُعَايَنَةِ ٱلجُمْهُورِ لَهُ، وَٱتِّفَاقِ ٱلعُقَلاَءِ عَلَيْهِ. ثُمَّ لِقَوْلِ ٱللهِ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿**وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِي الارْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ**﴾[1] وَقَوْلُهُ : ﴿**وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ. وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ. وَءاتَيٰكُم مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ. وَإِنْ تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اَللهِ لاَتُحْصُوهَا**﴾[2] وَقَوْلُهُ : ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّن الطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾.[3]

---

1) الجاثية (45) 13.

2) إبراهيم (14) 32 ـ 33.

3) الإسراء (17) 70. الماوردي، **النكت والعيون**، الكويت 1982، ج 2 ص ص 445 ـ 446، حول معاني التكريم التي منها التفضيل والتسخير.

ثُمَّ فَضَّلَ اللهُ جَلَّ ذِكْرُهُ المُلُوكَ عَلَى طَبَقَاتِ ٱلْبَشَرِ تَفْضِيلَ ٱلْبَشَرِ عَلَى سَائِرِ أَنْوَاعِ ٱلْخَلْقِ وَأَجْنَاسِهِ لِجِهَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَدَلاَئِلَ مَوْجُودَةٍ، وَشَوَاهِدَ فِي ٱلْعَقْلِ وَٱلسَّمْعِ جَمِيعاً حَاضِرَةٍ مَعْلُومَةٍ.

مِنْهَا أَنَّ اللهَ جَلَّ وَعَزَّ أَكْرَمَهُم بِٱلصِّفَةِ ٱلَّتِي وَصَفَ بِهَا نَفْسَهُ فَسَمَّاهُمْ مُلُوكاً وَسَمَّى نَفْسَهُ مَلِكاً، فَقَالَ : ﴿**مَـٰلِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾[4]، وقَالَ : ﴿**فَتَعَٰلَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ**﴾[5]. وَقَالَ فِيمَا وَصَفَ بِهِ مُلُوكَ ٱلْبَشَرِ ﴿**إِنَّ ٱللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُم طَالُوتَ مَلِكاً**﴾[6]. وقَالَ : ﴿**إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكاً**﴾[7]. وَقَالَ فِي أَثْنَاءِ ٱلْمَعْنَى ٱلَّذِي بِهِ يَسْتَحِقُّ ٱلإِنْسَانُ أَنْ سَمَّى مَلِكاً إِيَّاهُمْ وَٱصْطِفَائِهِ لِنَفْسِهِ وَٱمْتِدَاحِهِ بِهِ ﴿**لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ، لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ**﴾[8]. وَقَالَ : ﴿**قُلِ اللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ، تُؤتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَآءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَآءُ**﴾[9]. وَقَالَ : ﴿**وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَـٰهُ اللهُ ٱلْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ**﴾[10] وَقَالَ : ﴿**وَءاتَيْنَـٰهُم مُّلْكاً عَظِيماً**﴾[11] فَآتَاهُ ٱللهُ مَنْ هَذِهِ ٱلصِّفَةِ مِثْلَ مَا آتَاهُمْ مِنَ ٱلإِسْمِ ٱلَّذِي رَضِيَهُ لِنَفْسِهِ، وَٱمْتَدَحَ بِهِ إِلَى خَلْقِهِ. ثُمَّ مَنَّ عَلَيْهِمْ بِهِ، وَأَبَانَ فَضْلَهُمْ فِيهِ. فَقَالَ : ﴿**نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ،**

---

4) الفاتحة (1) 4. **النكت** ج 1، ص 56 في الفرق بين الملك والمالك، مع الإشارة إلى أن كل ملك مالك، وليس كل مالك ملك.

5) طه (20) 14.

6) البقرة (2) 247.

7) المائدة (5) 20 **النكت،** ج 1، ص ص 454 ـ 455 ووجوه القول في ﴿**جعلكم ملوكا**﴾.

8) غافر (40) 16. **النكت،** ج 3، ص 483.

9) آل عمران (3) 26 **النكت،** ج 1، ص ص 315 ـ 316، في معنى الملك هنا : إما نبوة وإما إيمان وإما سلطان.

10) البقرة (2) 251. **النكت،** ج 1، ص ص 265 ـ 267، حيث يورد الماوردي أخبار طالوت وقصته.

11) النساء (4) 54. النكت، ج 1، ص ص 398 ـ 399، حول الأقوال في الملك العظيم.

لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِياً﴾[12] فَلَيْسَ أَحَدٌ فِي حُكْمِ هَذَا أَوْلَى بِالفَضْلِ، وَلاَ أَجْزَلَ قِسْماً،[13] وَلاَ أَرْفَعَ دَرَجَةً مِنَ ٱلْمُلُوكِ. إِذْ كَانَ ٱلْبَشَرُ مُسَخَّرِين[14] لَهُمْ، وَمُمْتَهَنِين[15] لِخِدْمَتِهِم، وَمُتَصَرَّفِينَ[16] فِي أَمْرِهِم وَنَهْيِهِمْ.

وَمِنْهَا أَنَّ اللهَ جَعَلَ المُلُوكَ خُلَفَاءَهُ فِي بِلاَدِهِ، وَأُمَنَاءَهُ[17] عَلَى عِبَادِهِ؛ وَمُنفِّذِي أَحْكَامِهِ فِي خَلِيقَتِهِ، وَحُدُودِهِ فِي بَرِيَّتِهِ. وَكَذَلِكَ مَا قِيلَ : «**السُّلْطَانُ ظِلُّ اللهِ فِي الأَرْضِ**» لأَنّ مِنْ حَقِّهِ أَنْ يُحْتَذَى مِثَالُهُ فِيهَا،[18] وَتُحْيَى رُسُومُهُ فِي

---

12) الزخرف (43) 32. النكت، ج 3، ص 533، يورد الماوردي وجهين في معنى «سخريا»، أحدهما «خدما» والآخر «ملكا» كما قاله قتادة.

13) هذا ينقسم «قَسْماً» فتح القاف إذا أريد المصدر و«قِسْمَين» بكسرها إذا أريد النصيب.

14) في الأصل «مسخرون».

15) ممتهنون.

16) متصرفون.

17) أمناء. فكرة الأمانة قرآنية المعدن. انظر الماوردي، **تسهيل النظر وتعجيل الظفر، (أمانة الله التي أمنه عليها).**

18) انظر الماوردي **أدب الدنيا والدين**، نشر مصطفى السقا، الطبعة 4، دار الكتب العلمية، بيروت 1982، ص 137. **وتسهيل النظر** ص 151؛

أ) ترد العبارة «حكمة» بلفظ «الملك خليفة الله في أرضه» منسوبة إلى أرسطو طاليس تارة، وأنوشروان تارة، وكعب الأحبار تارة أخرى. أنظر ابن الجوزي : **المصباح المضيء في خلافة المستضيء**، وزارة الأوقاف العراقية، 1986، وأسامة ابن منقذ : **لباب الآداب**، مطبعة الرحمانية، 1935 ـ ص 58.

ب) حديثا في **سراج الملوك** للطرطوشي، القاهرة 1306 هـ، ص 59، وفي الكتب المتأخرة مثل : **آثار الأول في ترتيب الدول**، للحسن ابن عبد الله، بولاق 1295 هـ ص 12.

ج) مزيدة بلفظ «السلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه كل ملهوف» أو «كل مظلوم» كما في الميداني : **مجمع الأمثال**. أو «السلطان عز الله في الأرض، فمن استخف به نابته نائبة، فلا يلومن إلا نفسه. وفي **المقاصد الحسنة** ص 150 حديثاً بلفظ «إنما السلطان ظل الله ورمحه»؛ وفي : **نهاية الأرب** للنبيري، ج 6 ص 12؛ وفي **عيون الأخبار** لابن قتيبة، ج 1 ص 3 بلفظ «السلطان وزعة الله في أرضه»، مع إسنادها في «النهج» لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه : **نهج البلاغة**، ج 3، =

سُكَّانِهَا. هَذَا مَعَ أَنَّهُ جَعَلَهُمْ عُمَّارَ بِلاَدِهِ، وَسَمَّاهُم رُعَاةَ عِبَادِهِ، تَشْبِيهاً لَهُم بِالرُّعَاة ٱلَّذِينَ يَرْعونَ السَّوَائِم والْبَهَائِم، وَتَمْثِيلاً لِرَعَايَاهُم بِالإِضَافَةِ إِلَيْهِمْ بِهَا.

2 ـ **مَفْهُومُ ٱلسِّيَاسَة وَفِكْرَةُ ٱلرِّئَاسَة** وَلِهَذَا ٱلْمَعْنَى سَمَّاهُمُ ٱلْحُكَمَاءُ سَاسَةً. إِذْ كَانَ مَحَلُّهُم من مَسُوسِيهِمْ مَحَلَّ ٱلسَّائِسِ مِمَّا يَسُوسُهُ مِنَ ٱلْبَهَائِمِ وَٱلدَّوَابِّ ٱلنَّاقِصَةِ ٱلْحَالِ مِنَ ٱلْقِيَام بِأُمُورِ أَنْفُسِهَا، وَٱلْعِلْمِ بِمَصَالِحِهَا وَمَفَاسِدِهَا. وَسَمَّوْا أَفْعَالَهُمُ ٱلخَاصَّةَ بِهِمْ **سِيَاسَةً**. وَكَذَلِكَ مَا كَانَتِ ٱلأُمَمُ ٱلْمَاضِيَةُ، فِي ٱلأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ، وَٱلْعَرَبُ خَاصَّةً،[19] نُسَمِّيهِمْ أَرْبَابَ ٱلأَرْضِ، وَٱلأَرْبَابَ مُطْلَقاً وَمُقَيَّداً. لأَنَّهُم كَانُوا يَتَوَقَّعُونَ مِنْهُمْ، وَيَرْجُونَ مِنْ قِبَلِهِمْ أَنْ يَقُومُوا لَهُمْ وَفِيهِمْ، مِنْ تَنْفِيذِ أَحْكَامِ ٱللَّهِ، وَإِمْضَاءِ حُدُودِهِ، وَإِقَامَةِ فَرَائِضِهِ وَسُنَنِهِ؛ وَفِي النَّظَرِ فِي مَصَالِحِهِمْ وَحَوَائِجِهِمْ، وَمَضَارِّهِمْ وَمَنَافِعِهِمْ، فِي ٱلشَّاهِدِ، مَقَامَ ٱلرَّبِّ ٱلذِي لاَ سَبِيلَ إِلَى إِدْرَاكِهِ وَمُشَاهَدَتِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى. وَبِهَذَا ٱلإِسْمِ مَا خَاطَبَ بِهِ **ٱلنَّابِغَةُ ٱلنُّعْمَانَ بْنَ ٱلْمُنْذِرِ** حَيْثُ

= ص 232؛ ولا يعزوها **العقد الفريد** لابن عبد ربه، ج 1، ص 7 إلى أحد؛ **وفي عيون الأخبار** لابن قتيبة صيغة أخرى للفكرة : «إن لله حراسا، فحراسه في السماء الملائكة وحراسه في الأرض الذين يأخذون الديوان». كل هذا يدل معنى ومغزى على خطر الدولة وأمورها في نظر المفكرين المسلمين قاطبة، على اختلاف مذاهبهم. لذلك نجد الأثر في الفكر الإنساني العالمي، عند ساسة الفرس وحكماء اليونان، انظر **الترجمة والنقل عن الفارسية**، ص ص 104 ـ 105 **ومختار الحكم** لابن فاتك، ص 190 : «العدل ميزان الله عز وجل في أرضه» حيث تعزى لأرسطو طاليس. وظهرت في أوربا، عند دانت (Monarchie I, XI p 646) ومن بعده من المفكرين دلالة عن أهمية الدولة وقيادتها حتى ذهب بعض منظري السياسة إلى فصل الشخص عن المبدإ، لتفسير أهمية الدولة المبدئية التي تثبت خلال جميع التغيرات والتطورات. ولقادة الدول أخطر دور في سير الحضارة كما نراه في تقدير هيجل وهيدجر وغيرهما لروح العالم المتجسدة في أبطال التاريخ، ومعظمهم قادة سياسيون.

وانظر في **التذكرة الحمدونية** تحقيق إ. عباس، ج 1 ص 286 تساوي فكرة الاقتداء والرئاسة : «ودلت الشرائع والعقول على وجوب مقتدى به...».

19) الخاصة.

يَقُولُ [من الطويل] :

سَتَبْلُغُ عُذْراً أو نَجَاحاً مِنَ ٱمْرِئٍ إِلَى رَبِّهِ رَبُّ البَرِيَّةِ رَاكِعُ[20]

وَقَالَ **عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ** [مِنَ الخَفِيف] :

وَتَفَكَّرْ رَبَّ ٱلْخَوَرْنَقِ إِذْ أَشْـ ـرَفَ يَوْماً وَلِلْهُدَى تَفْكِيرُ[21]

3 ـ **معنى الرِّئَاسَة** وَلِجَلاَلَةِ حَالِ الْمُلُوكِ مَاسَمَّى أَهْلُ اللُّغَةِ ٱلْمَلِكَ رَأْساً. إِذْ جَعَلُوا مَحَلَّهُ مِنْ رَعِيَّتِهِ مَحَلَّ الرَّأْسِ مِنَ ٱلْبَدَنِ، وَكُلُّ ٱلأَعْضَاءِ مُسَخَّرَةٌ لَهُ، وَمُهَيَّئَةٌ لِحَمْلِهِ. وَلأَنَّهُ لاَ بَقَاءَ لِلْجَسَدِ إِلاَّ بِهِ، وَلاَ قَوَامَ لَهُ إِلاَّ مَعَهُ. وَلأَنَّهُ ٱلْعُضْوُ ٱلَّذِي تَجْتَمِعُ

20) البيت لنابغة الجاهلية والمعلقات واسمه زياد بن معاوية، عده ابن سلام بعد امرء القيس وقبل زهير، وفضله **عمر بن الخطاب** على غَيْرِه كما أُثِر. انظر **الشعر والشعراء** لابن قتيبة ص 70 وص 160، وطبقات ابن سلام، ط أوروبا، ص 15.
وأبو قابوس النعمان بن المنذر اللخمي، ملك الحيرة، صاحب يومي البؤس والنعيم، مقصد الشعراء، نادمه النابغة، وصحبه عدي بن زيد، ومدحه فحول من شعراء الجاهلية. يقول ابن سلام «إنه كان عند النعمان بن المنذر ديوان فيه أشعار الفحول، وما مدح به هو وأهل بيته» انظر المصدرين المذكورين، **وأيام العرب،** ص 107. **وشعراء النصرانية،** المطبوع سنة 1790، ج 3، ص 446.
والبيت من قصيدة النابغة التي يعتذر فيها النعمان ومطلعها :
☆ عفا ذو حسا من فرتنا فالفوارع ☆
انظر الديوان، تحقيق الطاهر بن عاشور، تونس، 1976، ص 169. البيت لا يوجد في تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، 1977. وذلك أنه من رواية أبي جعفر وليس موجودا في رواية الأصمعي ولا في شرح عاصم بن أيوب.

21) عدي بن زيد بن حماد العبادي. من بني زيد بن مناة بن تميم. شاعر جاهلي نصراني، لازم النعمان بن المنذر فلان لسانه ورق، من حياته في الحيرة. انظر **طبقات** ابن سلام، ص 31 **الشعر والشعراء،** ص 111. **الأغاني،** ج 2، ص 97. **معجم الشعراء،** ص 239. والبيت من رائية مشهورة وإحدى قصائده الغر ومطلعها :
☆ أرواح مودع أم بكور ☆
أنظر **الشعر والشعراء،** ج 1، ص 112. **ديوان الحماسة** للبحتري ص ص 111 112.

فِيهِ ٱلْحَوَّاسُ، ٱلَّذِي لاَ بَقَاءَ لِلْحَيَوَانِ إلاْ بِهِ. وَلاَ فَرْقَ بَيْنَـهُ وَبَيْنَ ٱلْمَوَاتِ وَٱلْجَمَـادِ إلاَّ مِنْ جِهَتِـهِ. وَهُوَ مَعْـدِنُ ٱلْعَقْلِ وَٱلتَّمْيِيزِ ٱلَّـذِي فَضَّلَ[22] ٱللهُ ٱلإِنْسَـانَ بِـهِ عَلَى جَمِيـعِ ٱلْحَيَوَانِ، فَقَالَ فِيهِ ٱلشَّاعِرُ وَهُوَ يَمْدَحُ **حُمَيْدَ بْنَ عَبْدِ ٱلْحَمِيدِ** [مِنَ السَّرِيع] :

وَالنَّـــاسُ جِسْمٌ، وَإِمَـــامُ الهُـــدَى رَأْسٌ، وَأَنْـتَ العَيْـنُ فِـي الـرَّأْسِ[23]

وَقَالَ آخَرُ [مِن السرِيع] :

لَــوْ صَلُـــحَ الرَّأْسُ واسْتَقَـــامَ إذن قَـــامَ عَلَى العَـــدْلِ كُـلّ أَسَـــاسٍ[24]

وَقَالَ بَعْضُ ٱلفُضَلاَءِ مِنْ مُلُوكِ ٱلْهِنْدِ فِي عَهْدٍ لَـهُ إِلَى ٱبْنِـهِ : «وَٱعْلَمْ، يَـا بُنَيَّ، أَنَّ وَصِيَّتِي هَذِهِ إِيَّاك، وَعَهْدِي هَذَا إِلَيْكَ، بِمِثَـالِ رَجُلٍ حَيٍّ قَـائِمٍ. فَرَأْسُـهُ أَنْتَ أَيُّهَـا ٱلْوَالِي، وَقَلْبُهُ وَزِيرُكَ، وَيَـدُهُ أَعْوَانُـكَ، وَرِجْـلاَهُ رَعِيَّتُـكَ، وَٱلرُّوحُ ٱلَّـذِي تَقُـومُ بِـهِ عَدَالَتُكَ. فَصُنْ هَذَا ٱلرَّجُلَ صِيَانَتَكَ نَفْسَكَ. وَٱسْتَصْلِحْ أَوْصَالَهُ كَـاسْتِصْلاَحِـكَ أَعْضَـاءَ جَسَدِكَ»[25]

---

22) في الأصل «فصل».

23) للشاعر علي بن جبلة العكوك مع أبي غانم حميد بن عبد الحميد الطوسي الطائي، من كبار قواد المامون، علاقة معروفة. انظر بحث الدكتور أحمد نصيف العراقي، مجلد 31، ج 4 من سنة 1980، ص ص 221 ـ 245. والبيت من قصيدة مطلعها :

دجلة تسقـي وأبو غانـم يطعم من تسقـي من النـــاس

أنظر ترجمـة العكوك في **زهر الآداب**. البيت في : **طبقـات الشعراء لابن المعتز، والـديـوان،** وكتاب **البرصان والعرجان والعميان والحولان،** تحقيق عبد السلام هارون، دار الرشيد الجمهورية العراقية، 1982، ص، 125، أنظر كذلك **شعر علي بن جبلة الملقب بالعكوك**، ذخائر العرب 148، تحقيق د. حسن عطوان دار المعارف، 1982، ص. 28.

24) لم نجد البيت، وهو فاسد العروض، فيما بين أيدينا من المراجع الأدبية.

25) تشبيه عضوي (organique) لتفسير الرئاسة. ورد قبل تشبيه «عضوي» آخر يرتكز على تصور سلسلة الأحياء. قارن الفكرة، من جانب النفس، بما عزاه ابن فاتك لسقراط : قال : «وقال بعض الملوك لسقراط : اعمل لي كتابا فتكون فيه جمل من حكمتك أرجع إليها، فقال له : هيهات، الحكمة أعز من أن تخدمها إلا بنفسك». ومن جانب تجسيد علو تصويرها كرجل، أذكر أن بعض الفرق الدينية جسدت واجبات العبادة. انظر **الملل والنحل،** الترجمة الفرنسية وتعليقاتها حول الكيسانية.

4 ـ **السلْطَـان الحُجَّـة** وَلِجَـلاَلَـةِ شَـأْنِ ٱلْمَلِـكِ مـا[26] سُمِّيَ فِي ٱلـدِّينِ وَٱللُّغَةِ سُلْطَاناً. وَٱلسُّلْطَانُ فِي ٱللُّغَـةِ هُوَ ٱلْحُجَّـةُ. قَـالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿**أَمْ لَكُمْ سُلْطَـٰنٌ مُبِينٌ فَاتُواْ بِكِتَـٰبِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَـٰدِقِينَ**﴾[27] وَقَالَ : ﴿**لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَـدِيـداً أَوْ لأَذْبَحَنَهُ أَوْ لِيَاتِيَنِّي بِسُلْطَـٰنٍ مُبِينٍ**﴾[28] فَجَعَلَ ٱللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ٱلْعَـادِلِينَ مِنَ ٱلْمُلُوكِ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ. وَكَذَلِكَ ما صَرَفَتِ ٱلإِمَامِيَـةُ مَـا رُوِيَ عَنِ ٱلنَّبِيِّ ﷺ - أَنَّ «**الأَرْضَ لاَ تَخْلُوا مِنْ حُجَّةٍ**» ـ إِلَى ٱلإِمَامِ ٱلْمَعْصُومِ ٱلَّـذِي يَـدعُونَـهُ وَيَلْهَجُونَ بِذِكْرِهِ.

وَلِجَلاَلَةِ حَـالِ ٱلْمُلُوكِ مَـا سَمَّى ٱلْمُسْلِمُونَ ٱلسُّلْطَـانَ الأَجَلَّ فِي ٱلإِسْلاَمِ إِمَـاماً لإِنَّهُ مِمَّن يَجِبُ أَنْ يُؤتَمَّ بِهِ، وَيُقْتَدَى بِهِ فِي فِعْلِهِ، وَيُؤْتَمَرَ لَهُ بِأَمْرِهِ.

5 ـ **المَلِـك هُـو اسم للسّلطـان** فَهَذِهِ ٱلْمَعَانِي ٱلْجَلِيلَةُ مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ ٱلأَسَـامِي ٱلشَّرِيفَـةُ ٱلَّتِي خُصَّتْ بِهَـا ٱلْمُلُـوكُ. وَإِنْ كُنَّـا ٱخْتَرْنَـا أَنْ نُعَبِّرَ، فِي كِتَابِنَا هَذَا، مِنْ هَذِهِ ٱلأَسَامِي كُلِّهَا، بِالْمَلِكِ، إِذْ هُوَ ٱلإِسْمُ ٱلأَشْهَرُ ٱلأَعَمُّ، وَالأَجْزَلُ ٱلأَمْحَضُ.

وَمِنْ جَلاَلَة شَأْنِ ٱلْمُلُوكِ وَفَضَائِلِهِمْ عَلَى ٱلرَّعَايَـا وَطَبَقَـاتِ ٱلنَّـاسِ أَنَّ كُلَّ مَنْ تَحْتَ يَدَي ٱلْمَلِكِ مِنْ رَعَايَاهُ، وَإِنْ كَانُوا مُنَاوِعِيهِ فِي الصُورَةِ، وَمُشَابِهِيهِ مِنْ جِهَتِهَـا فِي ٱلْخِلْقَةِ، وَلَمْ يَتَكَلَّفْ هُوَ ٱقْتِنَاءَهُمْ وَلاَ شِرَاءَهُمْ، فَـإِنَّ مَحَلَّهُم مِنْـهُ فِي كَثِيرٍ[29] مِنَ ٱلْجِهـاتِ مَحَلُّ ٱلْمَمْلُوكِينَ. وَلِـذَلِـكَ مَـا قَـالَ ٱللهُ جَلَّ وَعَـزَّ فِي قِصَّـةِ سَبَـإٍ : ﴿**إِنِّي**

26) في الأصل «سمّي».

27) الصافات (37) 156 ـ 157. **النكت** ج 3، ص 429، حيث يرد معنى السلطان كحجة في قول ابن قتيبة وهو وجه من وجوه ثلاثة أحدها لقتادة بمعنى العذر، وآخر للكلبي بمعنى «كتاب بين».
انظر **كتاب العين للخليل بن أحمد** : «والسلطان في معنى الحجة... والسلطان : قدرة الملك [مثل قفير وقفران وبعير وبعران] وقدرة من جعل ذلك له إن لم يكن ملكا...».

28) النمل (27) 21. **النكت** ج 3، ص 113، حيث يرد وجهان، تفسير قتادة في معنى حجة بينة دون سند.

29) «في» سها عنها الناسخ فأثبتها فوق «كاف» «كثير».

وَجَـدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وأُتِيَتْ مِنْ كُـلِّ شَيْءٍ وَلَهَـا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾[30]. لأَنَّ «مَلَـكَ»، «يَمْلِـكُ» فِي أَصْلِ ٱللُّغَـةِ مِنَ ٱلْمِلْـكِ» لاَ مِنَ «ٱلْمُلْـكِ». وَلأَنَّهُمْ بِـأَجْمَعِهِمْ يَنْقَسِمُونَ قِسْمَيْنِ : بَيْنَ مَنْ مَحَلُّهُ مِنْهُ مَحَلُّ ٱلْمَادَّةِ؛ وَبَيْنَ مَنْ مَحَلُّهُ مِنْهُ مَحَلُّ الآلَـةِ. فَهُوَ يَسْتَعْمِلُهَا فِي مَادَّتِهِ عَلَى مَا يُرِيدُهُ وَيَهْوَاهُ، وَيُحِبُّـهُ وَيَرَاهُ. ثُمَّ تَخْرُجُ لَـهُ صُورَةُ عَمَلِهِ عَلَى مِقْدَارِ حِذْقِهِ بِٱلصِّنَاعَةِ وَإِصَابَتِهِ فِي ٱلْغَرَضِ وَٱلنِّيَّةِ. هَـذَا مَعَ مَـا أَخَـذَ ٱللهُ عَلَى كَافَّةِ ٱلْخَلْقِ مِنْ حُسْنِ ٱلطَّاعَةِ لِلإِمَامِ ٱلْعَادِلِ، وَٱلْمَلِكِ ٱلفَـاضِلِ، وَصِـدْقِ المُـآزَرَةِ وَٱلتَّعْظِيمِ لَـهُ، وَتَرْكِ ٱلخِلاَفِ عَلَيْـهِ مَـا أَطَـاعَ اللهَ، وَلَـزِمَ فَرَائِضَـهُ وَحُـدُودَهُ. فَقَـالَ : ﴿يَـٰأَيُّهَـا الَّـذِينَ ءامَنُـواْ أَطِيعُـواْ اللهَ وَأَطِيعُـواْ الرَّسُـولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[31]. وَقَـالَ ٱلنَّبِيُّ ﷺ : «أَطِيعُوا ٱلإِمَـامَ وَلَـوْ كَـانَ عَبْـداً حَبَشِيـاً مَـا أَطَاعَ ٱللهَ فِيكُمْ»[32]. وَقَالَ : «مَنْ سَعَى إِلَى سُلْطَانٍ لِيُذِلَّهُ أَذَلَّهُ اللهُ».[33]

---

30) النمل (27) 23 **النكت**، ج 3، ص 194.

31) النساء (4) 59. **النكت**، ج 1 ص ص 400 ـ 401. يفسر الماوردي هـذه الآيـة فيقول : «يعني أطيعوا الله في أوامره ونواهيه، وأطيعوا الرسول» ويورد قول الرسول ﷺ «من أطاعني فقـد أطـاع اللـه، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصاني فقد عصا اللـه، ومن عصـا أميري فقـد عصـاني» وروى الحـديث أنس بن مالك وأبو هريرة كما أخرجه الدارقطني. ويقول الماوردي إن في طـاعـة الرسول قولين : اتبـاع سنته وهو قول عطاء، وإن كان حيا، وهو قول ابن زيده، وفي أولي الأمر يذكر أربعـة أقـاويل : قولا يرى فيهم الأمراء، وقولا آخر إنهم العلماء والفقهاء، وثـالثـا يعتبر أنهم أصحـاب الرسول ﷺ والرابع أن الآية تعني أبا بكر وعمر. ورأى الماوردي أن اللـه تعـالى يعني الأمراء إلا أن طـاعتهم محـددة إذ تلزم في طاعة الله دون معصيته، ويروي حديث «على المرء الطاعة فيما أحب أو كره. إلا أن يؤمر بمعصيـة فلا طاعة».

32) حـديث رواه الـدارمي في سننـه. انظر تـوكيـد المعنى في **أدب الـدنيـا والـدين وفي الأحكام السلطانية. لاحظ أن مفهوم الماوردي للسلطة باعتبارهـا وسيلـة لعمارة الأرض أوسع من رأي سيـاسي محض.** يروي عن أبي هريرة : «سُبَّت العجم بين يـدي رسـول اللـه ﷺ **فنهى عن ذلـك وقـال : لا تسبوها فإنها عمرت بلاد الله تعالى، فعـاش فيهـا عبـاد اللـه تعـالى» أدب الـدنيـا والـدين** ص 91 ثم ص 137. وهـذه العلـة تـذكر بـأهميـة الطـاعـة إذ «السلطـان في نفسـه إمـام متبـوع، وفي سيرتـه دين مشروع...».

33) حديث رواه الإمام أحمد بلفظ «من أكرم سلطان الله في الدنيـا أكرمـه اللـه يوم القيـامـة، ومن أهـان =

فَهَـذَا قَلِيلٌ مِنْ كَثِيرٍ مِمَّـا أَبَـانَ ٱللَّهُ بِـهِ مِنْ فَضَـائِلِ ٱلْمُلُـوكِ، وَعُلُـوِّ مَنَـازِلِهِمْ، وَٱرْتِفَاعِ مَرَاتِبِهِمْ، وَجَلاَلَةِ أَقْـدَارِهِم، وَبُعْـدِ أَخْطَـارِهِم، وَجَلِيلِ نِعَمِ اللهِ عَلَيْهِمْ، وَفُنُونِ أَيَادِيهِ لَهُمْ.

6 - **وَاجِبُ الطَّاعَـة والشكر** فَالْوَاجِبُ فِي جَمِيعِ أَبْوَابِ ٱلْقَضَايَـا أَنْ لاَ يَكُونَ أَحَدٌ أَشْكَرَ لله، وَأَحْسَنَ قِيَاماً بِأَدَاءِ فَرَائِضِهِ وَأَوَامِرِهِ، وَرِعَايَةً[34] لِمَا ٱسْتُرْعِيَ، وَحِفْظاً لِمَا ٱسْتُحْفِظَ مِنْهُمْ. إِذْ كَانَ هَـذَا هُوَ ٱلْمَعْهُودُ مِنْ أَفْعَـالِهِمْ بِمَنْ مَلَّكَهُمُ ٱللَّهُ أُمُورَهُمْ مِنْ عَبِيـدِهِمْ وَخَـدَمِهِمْ.[35] وَلأَنَّهُمْ إِذَا ذَكَرُوا نِعَمَ اللهِ عَـزَّ وَجَـلَّ عَلَى أَضْعَفِ خَلْقِـهِ، وَإِحْسَانَهُ عَلَى أَقَلِّ عَبِيـدِه، حَظّـاً مِنْ نِعْمَـةٍ لَمْ يَجِـدُوا لإِحْسَـانِ ٱلْخَلْقِ، بَعْضِهِم إِلَى بَعْضٍ، فِي جَنْبِهِ، خَطَراً، وَلاَ بِٱلإِضَافَةِ إِلَيْهِ قَـدْراً. مَعَ أَنَّهُم إِذَا أَعْطَوْهُم أَعْطَوْهُمْ مَـالَ

= سلطان الله في الدنيا أهانه الله يوم القيامة» ورواه الترمذي بلفـظ «من أهـان سلطـان اللـه في الأرض أهانه الله». قارن **عيون الأخبار** ص 23، بلفظ، «ما مشى قوم قط إلى سلطان الله في الأرض ليذلوه إلا أذلهم الله قبل أن يموتوا» ومن المتأخرين **آثار الأول وترتيب الدول**، البـاب الرابع : فيما يجب للملوك على الرعية وما للرعية على الملوك. يقابل هذه الأحاديث تأكيـد مسؤوليـة السلطـان عنـد ابن الحداد في **الجوهر النفيس** لابن رضوان، دار الطليعـة، بيروت 1983 وغيره ممّن رووا عن النبي ﷺ أنه قال : «أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل أشركه الله في سلطانه فجار في حكمه» وكتب ابن الحداد «في زمن عرف كثيراً من أسباب الضعف والتشرذم».

وعلى أي فالطـاعـة لا تعني محبـة القلوب في كل الأحيـان، بل الاحتراز من الفتن، فهي عنـد المـاوردي بمفهومها الشرعي لا النفسي.

34) في الأصل «رعاياه».

35) مفهوم العبد والعباد إسلامي، ومفهوم الخدمة مما أثر عن الامبراطوريات الساسانية وغيرها، حيث يعتبر كل من رجـال الـدين والاشراف والكتـاب وغيرهم خـدمـا للملـك. قـارن س .د. جـواتين GOITEIN **دراسات في التـاريخ الإسلامي**، الكويت 1980 ص 58 هـامش 1 ونُولـدك Nöldcke, Geshichte der Perser.. 1879, p 246 et S q q.

وتصحيح رأي المستشرقين في **عهد أنوشروان**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر 1967 فقرة 13 : «فمن ألفى الرعية منكم بعدي وهي على حـال أقسـامهـا الأربعـة التي هي أصحـاب الـدين والحرب والتـدبير **والخدمة**» فالخدمـة هنـا صنف خـاص. فيجب التمييز بين الخـدمـة كمفهوم عـام، والخـدمـة كصنف من أصناف الطبقات الاجتماعية.

غَيْرِهِم وَدِيعَةً عِنْدَهُمْ؛ أَوْ أَشْرَكُوهُمْ فِي سُلْطَانٍ مَنْ سِوَاهُمْ عَارِيَةً فِي أَيْـدِيهِمْ؛[36] بَلْ أَعْطَوْهُمْ سَرِيعَ ٱلـزَّوَالِ، قَرِيبَ ٱلإِضْمِحْـلاَلِ، وَٱلَّـذِي رُبَّمَـا ضَرَّهُمْ وَلَمْ يَنْفَعْهُمْ، وَرُبَّمَـا يَكُونُ هَلاَكَهُمْ دُنْيَا وَدِيناً، وَآخِرَةً وَأُولَى. ثُمَّ لَمْ يَرْضَوْا مَعَ ذَلِـكَ مِنْهُمْ إلاَّ أَنْ يَكُونَ، كُلَّ مَـا كَـانَتْ نِعَمُهُم عَلَيْـهِ أَكْثَر، وَأَيَـادِيهِمْ لَـدَيْـهِ أَظْهَرَ، لَهُمْ أَشْكَرَ، وَإِلَى طَـاعَتِهِمْ أَسْرَعَ، ثُمَّ يَكُونَ أَعْظَمَ عِنْدَهُم بَلاَءً، وَأَحْسَنَ بِحُقُوقِهِم قِيَامـاً، وَعَلَى أَوَامِرِهِمْ وَنَوَاهِيهِمْ مُحَافَظَةً. وَرَأَوْا مَعَ ذَلِكَ أَنَّ مَنْ قَصَّرَ فِي شَيْءٍ مِنْهُ، أَوْ غَيَّرَ أَوْ بَـدَّلَ، أَوْ كَفَرَ نِعْمَـةً، أَوْ غَمَطَ صَنِيعَةً، كَانَ قَـدِ ٱسْتَحَقَّ مِنْهُمُ ٱلْمَقْتَ وَٱلْحِرْمَـانَ، وَٱلْعُقُوبَـةَ وَٱلْخِـذْلاَنَ؛ وَلاَ سِيَّمَـا مَنْ أَصَرَّ عَلَى ذَلِـكَ إِصْرَاراً، وَأَتَى ٱلْمَعْصِيَّـةَ جِهَـاراً. وَهَـذَا مِيزَانٌ يَجِبُ عَلَى ٱلْعَاقِلِ أَنْ يَزِنَ كَثِيراً مِمَّا يَقَعُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَالِقِهِ بِهِ؛ وَمِثَالٌ يَنْبَغِي أَنْ يَحْتَذِي عَلَيْهِ.

وَإِذَا كَانَ هَذَا فِي ٱلشَّاهِدِ عَلَى مَـا ذَكَرْنَـا، وَمُعَـامَلَتُهُمْ مِنْ تَحْتِ أَيْـدِيهِمْ عَلَى مَـا بَيَّنَّـا، وَجَبَ عَلَيْهِمْ، إِذَا ذَكَرُوا نِعَمَ اللهِ عَلَيْهِمْ وَآلاَءَهُ لَـدَيْهِمْ، فِي تَفْخِيمِ شَـأْنِهِمْ، وَإِعْزَازِ سُلْطَانِهِمْ، وَتَفْوِيضِهِ إِلَيْهِمْ سِيَاسَةَ عِبَادِهِ، وَعِمَارَةِ بِلاَدِهِ،[37] وَنَـدْبَـهُ إِيَّـاهُمْ إِلَى مُلْكِ ٱلأَبَدِ، وَٱلنَّعِيمِ ٱلسَّرْمَدِ، مَعَ عَامَّةِ نِعَمِهِ ٱلَّتِي لاَ تُحْصَى عَدَداً، وخَـاصَّتِهَـا* ٱلَّتِي لاَ تُوصَفُ عِظَماً، أَنْ يَخَافُوا عَاقِبَةَ ٱلْكُفْرَانِ، وَجَزَاءَ ٱلْعِصْيَانِ.

36) العـاريـة أو العـارة : مـا تـداولـوه بينهم (اللسـان). انظر في **مختـار الحكم** لابن فـاتـك، مـا أثير عن الاسكندر : «اعلموا أيها المغرورون باسم الملك وحليته أنه طالما غرني منكم ما غركم، وأن اسمه عـاريـة عندكم، وإن العارية مرتجعة منكم مؤداه إلى معيرها إيـاكم، قليل صحبتهـا لكم، وشيـك انتقـالهـا عنكم إلى غيركم، كما ارتجعه معيره إياي عن قلة امتناع مني به أَوْرَثْتُمُوكَه من بعـدي. وإنهـا سمـة سريع امّحـاؤهـا عنكم، كما امّحت عَنِّي قبلكم، وإنكم مرتهنون بما كنت مرتهنـا بـه، مسلوبون مـا سلبتـه. ثم لن تستطيعوا امتناعا مما استسلمت له. ولعل مـا مكن لي فيـه ليس بـدون مـا مكن لكم منـه إن لم يكن فوقـه». من البين أن هذا النص يوافق تحرير الفقر الماوردية التي نحن بصددها موافقـة مـدهشـة، لا لأن المـاوردي ينقل أفكارا شائعة فحسب، بل لأنه، إلى ذلـك يكتب للملوك ويبتعـد عن غير المـألوف من الكلام. إذ الملوك لا تحب «غوامض وغرائب» اللغة كما قال الرشيد للأصمعي في قصة تداولها الأدب السياسي.

37) عمارة، بكسر العين، ما يعمر به المكان. قال صاحب اللسان : قال تعـالى : ﴿**هو أنشـأكم من الأرض واستعمركم فيها**﴾ أي أذن لكم في عمارتها.

*) وخاصَّهَا.

هَـذَا وَمِنَ ٱلْـوَاجِبِ عَلَى مَنْ يَرْغَبُ فِي الـزِّيَـادَة، وَيَطْمَـعُ فِي الإِمْهَـال[38] وَالْمُدَّة، وَيَتَمَنَّى حُسْنَ ٱلتَّوْفِيقِ وَٱلْمَعُونَةِ فِي ٱلْعَاجِلِ، وَحُسْنَ ٱلْمَثُوبَةِ فِي ٱلآجِلِ، أَنْ يَدْأَبَ وَيَجْتَهِدَ فِي ٱلشُّكْرِ وَٱلطَّاعَةِ، وَيَجْتَنِبَ ٱلكُفُورَ وَٱلْمَعْصِيَةَ، فَإِنَّ جَزَاءَ ٱلشَّكُورِ ٱلإِحْسَانُ وَٱلْمَزِيدُ، وَجَزَاءَ الكَفُورِ ٱلْعِقَابُ وَٱلتَّنْكِيرُ، وَٱلْخِذْلاَنُ وَٱلتَّعْيِيرُ.

هَذَا ٱلَّذِي يَلْزَمُ ٱلْعَارِفِينَ بِـاللهِ، وَيَجِبُ عَلَى ٱلْمُقَرَّبِينَ بِـهِ، وَٱلـذَّاكِرِين لآلاَئِـهِ، وَٱلْمُعْتَرِفِينَ بِحَقِّ كِتَابِهِ وَآيَاتِه. فَإِنَّ ٱللهَ جلَّ وَعَزَّ يَقُول : ﴿**لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُم إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ**﴾[39] وَيَقُـول : ﴿**إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾[40]. وَيَقُولُ : ﴿**وَبَدَّلْنَـٰهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَـٰهُم بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ يُجَـٰزَىٰ إِلاَّ ٱلْكَفُورُ**﴾[41].

7 ـ **المَلِك قُدْوَة فِي الدِّين وَالأَخلاَق** ثُمَّ مَا يَجِبُ عَلَى ٱلْمَلِـكِ مِنْ غَيْرِ هَـذَا ٱلطَّرِيـقِ أَنْ يَكُونَ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ تَرَفُّعاً عَنِ ٱلدَّنَاءَةِ، وَتَنَزُّهاً عَنِ ٱلْخَسَاسَةِ، وَتَعَالِياً عَمَّا يَشِينُ ٱلْعِرْضَ، وَيُفْسِدُ ٱلْمُرُوءَةَ، وَيُؤْذِنُ بِخَرَابِ ٱلْمَمْلَكَةِ، وَيُبْقِي قُبْحَ الأُحْدُوثَةِ، وَيُخِلُّ بِجَلاَلَةِ ٱلْمَكَانَةِ، وَرَفْعِ ٱلْمَنْزِلَةِ؛ وَأَنْ خَاصَّهَا يَخْتَارَ مِنَ ٱلسُّنَنِ أَشْرَفَهَا وَأَعْلاَهَا، وَيَرْتَاضَ مِنَ ٱلأَفْعَالِ بِأَرْفَعِهَا وَأَسْنَاهَا؛ ثُمَّ يَرْتَكِبُ كَثِيراً مِنَ ٱلْمُؤلِمِ ٱلْمَكْرُوهِ، وَيْجَتَنِبُ كَثِيراً مِنَ ٱلْمُلِذِّ ٱلْمَحْبُوبِ، لِيَنَالَ ٱلسِّيرَةَ ٱلَّتِي تُشَاكِلُ رُتْبَتَهُ، وَتُضَاهِي مَنْزِلَتَهُ.

---

38) في الأصل «الإهمال». والإمهال هو المراد. قال تعالى : ﴿**أمهل الكافرين أمهلهم**﴾.

39) إبراهيم (14) 7. **النكت**، ج 3، ص 342.

40) الرعد (13) 11.

41) سبأ (34) 16 ـ 17. **النكت** ج 3، ص 356.

وَقَدْ قَالَ أَرْدَشِير : «اعْلَمُوا أَنَّ دَوْلَتَكُمْ تُؤتَى مِنْ مَكَانَيْنِ : أَحَدُهُمَا غَلَبَـةُ بَعْضِ ٱلأُمَمِ ٱلْمُخَالِفَـةِ لَكُمْ؛ وَٱلآخَرُ فَسَـادُ أَدَبِكُم»،(42) ثُمَّ مِنَ الوَاجِبِ عَلَى المَلِكِ الفَاضِلِ، وَالسَّائِسِ العَادِلِ، أَنْ لاَ يَكُونَ عَلَى أَحَدٍ مِنْ رَعِيَّتِهِ، وَلاَ مِمَّنْ فِي ضِمْنِ مَمْلَكَتِهِ، وَجُمْلَةِ حَاشِيَتِهِ، فِي تَحْسِينِ أَدَبِهِ، وَقَمْعِ شَهَوَاتِهِ ٱلْمُفْسِدَةِ ٱلضَّارَةِ، أَقْدَرَ مِنْهُ عَلَى نَفْسِهِ.(43) فَإِنَّ مَنْ عَجَزَ عَنْ سِيَاسَةِ نَفْسِهِ، وَتَقْوِيمِ أَخْلاَقِهَا، كَانَ خَلِيقاً أَنْ يَكُونَ عَنْ

---

42) انظر **عهد أردشير،** فقرة 7 : «واعلموا أن دولتكم تؤتى من مكانين : أحدهما غلبة بعض الأمم المخالفة لكم، والآخر فساد أدبكم. ولن يزال حريمكم من الأمم محروسا، ودينكم من غلبة الأديان محفوظا، ما عظمت فيكم الولاة، وليس تعظيمكم بترك كلامهم، ولا إجلالهم بالتنحي عنهم، ولا المحبة لهم بالمحبة لكل ما يحبون، ولكن تعظيمهم تعظيم أديانهم [وعقولهم]، وإجلالهم إجلال منزلتهم من الله، عز ذكره، ومحبتهم محبة إصابتهم وحكاية الصواب عنهم». قارن هامش (63) وفقرة 12 من نفس **العهد.** لاحظ أن الماوردي يوظف أفكار العهد في اتجاه مختلف يؤكد على الجانب الأخلاقي، ويعمل على «أخلقة» (Moralisation) النص بينما يوجه أردشير كل اهتمامه إلى تعظيم الولاة، واحترام تصنيف المجتمع. «فلا يكونن أشد اهتماما منه لإحياء تلك الحال وتفتيش ما يحدث فيها من الدخلات»، فعلى الولاة تأديب العامة، أو كما يقول في الفقرة 12 ص 62 : إذ «يتولد من جبن الولاة عن تأديب العامة تضييع الثغور التي فيها الأمم من ذوي دين وبأس : لأن الملك إن سد الثغور بخاصته المناصحين **خلت** به العامة المعادية الحاسدة المنافسة. وإن التمس سد الثغور بالعامة الحاسدة لم يعد بذلك تدريبهم في الحرب وتقويتهم بالسلاح وتعليمهم المكايد مع البغضة، فهم عند ذلك أقوى عدو وأضره وأخنقه، ولابد من استطراد هذا كله إذا أضيع أوله». ولا علاقة بين هذا التأديب والنظرية الأخلاقية عند الماوردي الذي تهمين على تفكيره قيمٌ فوق نظرية همُّها مجرد القيادة والتدبير. فإن كتب الماوردي «فساد رأيكم» عوض «فساد أدبكم» كما في **عهد أردشير،** فلأنه يرى في سوء الأدب فسادا في الرأي وضعفا في الإرادة. الوازع الأدبي الأخلاقي عنده عنصر مستقل تتطلبه النظرية نفسها، فيما يرى أردشير في **الأخلاقيات** وسيلة من وسائل الحكم لا غير.

43) انظر **أدب الدنيا والدين،** ص 148 : «لا ينبغي للعاقل أن يطلب طاعة غيره ونفسه ممتنعة» للفكرة صياغتان إيجابية في تأديب المرء نفسه. أثر عن أرسطو طاليس «اصلح نفسك يكن الناس تبعا لك» **مختار الحكم،** ص 193. وعن أفلاطون : «ينبغي للملك أن يبتدئ بتقويم نفسه قبل أن يشرع في تقويم رعاياه» نفس المصدر، ص 140. وتوثر تعابير مماثلة عن صولون، نفس المصدر، ص 39. وعن علي كرم الله وجهه، **نهج البلاغة،** نشر صبحي الصالح، ص 480 **والتذكرة الحمدونية،** تحقيق إحسان عباس، ج 1 ص 287 : من نصب نفسه إماماً فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه...» وفي **روض** =

تَقْوِيمِ غَيْرِهِ أَعْجَزَ. وَلاَ يَكُونُ ٱلإِنْسَانُ قَادِراً عَلَى نَفْسِهِ مَا لَمْ يَكُنْ يَقْدِرُ عَلَى تَغْلِيبِ ٱلْعَقْلِ عَلَى الطَّبْعِ، وَٱلرَّأْيِ عَلَى الهَوَى. بَلْ يُحَكِّمُ ٱلْعَقْلَ عَلَى الطَّبْعِ لِيَخْتَارَ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ ٱلْعَقْلُ عَلَى مَا يَمِيلُ إِلَيْهِ ٱلطَّبْعُ. وَيُؤْثِرُ مَا يُشِيرُ إِلَيْهِ ٱلرَّأْيِ عَلَى مَا يَصْبُو إِلَيْهِ ٱلْهَوَى. ثُمَّ يُقَابِلُ بِمَحَاسِنِهِ مَسَاوِئَهُ، وَبِمَحَامِدِهِ مَذَامَّه، حَتَّى يُعَوِّدَ نَفْسَهُ ٱلأُمُورَ ٱلْفَاضِلَةَ، وَيُرَوِّضُهَا ٱلرِّيَاضَةَ ٱلْمَحْمُودَةَ، وَيَكْتَسِبَ ٱلْخِلاَلَ ٱلَّتِي تُشَاكِلُ حَالَهُ، وَٱلأَفْعَالَ ٱلَّتِي تُشَاكِهُ(44) مَرْتَبَتَهُ. وَلاَ يَثْقُلُ هَذَا عَلَيْهِ فِي جَنْبِ مَا يَرُومُهُ مِنْ فَضِيلَةِ ٱلْعَاجِلِ وَٱلآجِلِ. وَيَقْصِدُ مِنْ تَقْدِيمِ ٱلأَجْرِ وَتَخْلِيدِ ٱلذِّكْرِ.

8 - **الصبر على المَكْرُوه ورياضة النّفس** فَإِنَّ مِنَ ٱلْمُتَقَرِّرِ فِي ٱلْعُقُولِ، وَٱلْمُتَمَكِّنِ مِنَ ٱلنُّفُوسِ، أَنْ لاَ تُنَالَ ٱلْمَعَالِي إِلاَّ بِتَجَرُّعِ ٱلْمَكَارِهِ، وَلاَ يُدْرَك أَطْرَافُ ٱلْفَضَائِلِ إِلاَّ بِتَحَمُّلِ ٱلْمَشَاقِّ. قَالَ ٱللهُ جَلَّ وَعَزَّ: ﴿**لَنْ تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾(45)، وَقَالَ: ﴿**إِنَّ اللهَ ٱشْتَرَى مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ**﴾(46).

= **الأخبار المنتخب من ربيع الأبرار**، طبعة وادي النيل المصرية. ص 25 : الملك الأعظم أن يملك الإنسان شهوته.

ولفهم المعنى السياسي لهذا المبدأ، خاصة في باب الملك والرياسة، انظر **عهد أردشير**، ص 57 «الملك فوق كل واعظ : لا ينبغي للملك أن يعترف للعباد والنساك والمتبتلين أن يكونوا أولى بالدين ولا أحدب عليه ولا أغضب له منه [...] ولا يطمعن ملك في إصلاح العامة إن لم يبدأ بنفسه».

وفي الرأي فكرتان : الأولى ضبط النفس وانضباطها. والثانية أن يبدأ المرء بتأديب نفسه. والفكرتان متطلب واحد بالنسبة لمن يجب عليه ألا يلجأ إلى الآخرين لتأديب نفسه. أما بالنسبة للناس جميعا «فهناك اعتراض عبر عنه عمر بن عبد العزيز قائلا : «لو أن كل آمر، لا يأمر بالمعروف حتى يلزم نفسه بذلك، لما كان هناك أمر بالمعروف ولا نهي عن المنكر... ولقل الواعظون والساعون لله بالنصيحة».

انظر كذلك **التذكرة** في المرجع المذكور ص 286 : «ودلّت الشرائع والعقول على وجوب مقتدىً به».

44) شاكه : شابه وقارب (القاموس المحيط).

45) آل عمران : (3) 92. **النكت**، ج 1، ص ص 333 - 334.

46) التوبة : (9) 111. **النكت** ج 2، ص 168.

وَقَالَ ٱلرَّسُولُ ﷺ : «حُفَّتِ ٱلْجَنَّةُ بِٱلْمَكَارِهِ وَٱلنَّارُ بِالشَّهَوَاتِ[47]». وَقَالَ **عَمْرُو ابْنُ عَبَيْدِ** :[48] «لَقَدْ رُضْتُ نَفْسِي رِيَاضَةً لَوْ أَرَدْتُهَا عَلَى تَرْكِ ٱلْمَاءِ لَتَرَكَتْهُ»[49].

وَقَدْ كَانَ غَلَبَ عَلَى **ٱلْمَأْمُون** أَمِيرِ ٱلْمُومِنِينَ شَهْوَةُ ٱلطِّينِ ـ فَكَانَ يَأْكُلُهُ ٱلْكَثِيرَ ـ وَٱجْتَمَعَ ٱلأَطِبَّاءُ يُعَالِجُونَهُ بِكُلِّ عِلاَجٍ، وَيَحْتَالُونَ لَهُ بِكُلِّ حِيلَةٍ. فَلَمْ يَصْبِرْ عَنْهُ. فَدَخَلَ عَلَيْهِ **ثُمَامَةُ بْنُ أَشْرَس**[50] وَرَآهُمْ عِنْدَهُ يَتَشَاوَرُونَ فِي أَمْرِهِ، وَيَتَآمَرُونَ[51] فِي عِلاَجِهِ. فَقَالَ : «يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ، فَأَيْنَ عَزْمَةٌ مِنْ عَزَمَاتِ ٱلْخِلاَفَة ؟» فَقَالَ ٱلْمَأْمُونُ : «قُومُوا فَقَدْ كُفِيتُمُ ٱلْعِلاَجَ»[52]. وَلَمْ يَعُدْ إِلَى ذَلِكَ.

---

47) حديث رواه الشيخان والترمذي وأحمد بن حنبل، وفي **صحيح مسلم**، حديث رقم 2822.

48) بن عبيد (الله) في الأصل.

49) أبو عثمان عمرو بن عبيد بن باب، مولى بني العدوية، من بني تميم، ولد سنة 80 هـ، توفي بمران سنة 144 هـ، كان صديقا لأبي جعفر المنصور، فرثاه رثاء لم يوثر عن خليفة فيمن دونه، قال :

صلى الإلـه عليـك من متوسـد	قبرا مررت بـه على مران
قبرا تضمن مومنـا متخشعـا عبـد	الإلـه ودان بـالقرآن
لـو أن هـذا الـدهر أبقى صـالحـا	أبقى لنـا عمرا أبـا عثمان

وعمرو بن عبيد من متكلمي المعتزلة، انظر **الفهرست** لابن النديم، طهران، ص 203 له نظرية في الإمامة، وكالمعتزلة، في الإرادة انظر : Van Ess, EI vol IV, p. 387

ومسائل الإمامة ص ص 44 ـ 46، خاصة فقرة 20 من نص الناشئ الأكبر.

الفكرة عند الماوردي، في تسهيل النظر، ص 35 : «لينقل [النفس] بالتدريج عن أحوال متقاربة إلى غاية متناهية، فرائض الفيل الوحشي يقوده بالتدريج إلى ضد طباعه».

50) ثمام بن أشرس النميري، زعيم الثامية، فرقة من فرق المعتزلة بلغ حدا أقصى في الإيجاز والسهولة فيما شهد به الجاحظ قتله الخزاعيون في طريق مكة سنة 213. انظر **الملل والنحل**، مادة الثامية. **طبقات المعتزلة** لابن المرتضى ص ص 62 ـ 67. الترجمة الفرنسية للملل والنحل ص 245 ـ 248 وهوامش المترجم.

51) ويتوامرون.

52) انظر **محاضرات الراغب** ج 1، ص 428، نفس الأثر بلفظ يختلف.

9 - **ذَمُّ الهَـــــوَى** وَلاَ شَيْءَ أَغْلَبُ عَلَى نَـــاقِصِي ٱلْعُقُـولِ وَٱلْحَـــزْمِ مِنْ إِفْرَاطِ ٱلْحُبِّ عِشْقاً. وَقَدْ قَالَ فِيـهِ أَحَـدٌ مِمَّنْ جَرَّبَـهُ وَأَكْثَرَ ٱلْقَوْلَ فِيـهِ وَٱلْوَصْفَ لَـهُ : [المنسرح]

اَلْحُبُّ مُهْرٌ أَنْتَ رَاكِبُـــــــــهُ فَـــإِذَا صَرَفْتَ عِنَـانَـهُ ٱنْصَرَفَـــا(53)

وَقَالَ آخَرُ : [مِنَ البسيط]

قَدْ عَذَّبَ ٱلْحُبُّ هَـذَا ٱلْقَلْبَ مَـا صَلُحَـا فَـلاَ تَعُـدَّنَّ ذَنْبَـاً أَنْ يُقَـالَ صَحَـا
بَقِيَّـــةٌ فِي لِتَقْـوَى ٱللهِ بَـــاقِيَـــةٌ وَلَمْ أَكُنْ كَحَرِيصٍ لَمْ يَـدَعْ مَرَحَـا(54)

وَقَالَ آخَرُ : [مِنَ الطَّوِيل]

لَعَمْرِي لَقَـدْ أَوْفَيْتُ هَمِّي مِنَ ٱلْهَـوَى عَلَى الشَّيْبِ إِلاَّ أَنَّ مَرْكَبَـهُ صَعْبُ(55)
فَقَـارَبْتُ حَتَّى قِيـلَ لِي هَكَـذَا ٱلْهَـوَى وَبَـاعَـدْتُ حَتَّى قِيلَ لِي هَكَـذَا ٱلصَّبُّ
وَإِنِّي لَسِلْمٌ لِلْهَـــــــوَى غَيْرَ أَنَّنِي لِنَفْسِيَ فِيمَـــا لاَ يَحِـلُّ لَهَـــا حَرْبُ

وَقَالَ ٱلآخَرُ فِي ٱلْمَعْنَى ٱلأَوَّلِ : [مِنَ الطَّوِيل]

فَـــإِنَّ عَلِيَّـــاتِ ٱلأُمُـورِ مَشُـوبَـــةٌ بِمُسْتَـوْدَعَـاتٍ فِي بُطُـونِ ٱلأَسَـاوِدِ(56)

---

53) لم نجد مصدرا لتعيين صاحب البيت. وكتب الناسخ «ظهر» عوض «مهر».

54) نفس الملاحظة.

55) نفس الملاحظة.

56) أورده **العقد الفريد** بلفظ مختلف منسوبا إلى كلثوم العتابي، ج 3، ص 208. **وعيون الأخبار**، ج 1، ص 231. **والتمثيل والمحاضرة** ص 83 **وكتاب الحيوان**، ج 4، ص 266 **والاعجاز والإيجاز** بلفظ «منوطة» عوض «مشوبة» طبعة الجوائب، ص 50.

وَقَالَ آخَرُ [مِن البسيط] :

لَنْ يبْلُغَ ٱلْمَجْـدُ أَقْوَامـاً وَإِنْ كَرُمُـوا حَتَّى يَـذِلُّـوا وَإِنْ عَـزُّوا لأَقْـوَامِ[57]
وَيُشْتِمُـوا فَتَرَى ٱلأَلْـوَانَ مُشْرِقَـةً لاَ عَفْـوَ ذُلٍّ وَلَكِنْ عَفْـوَ أَحْـلاَمِ

وَقَالَ أَحَدُ المُلُوكِ : *طلاب العلى بركُوب العزر*[58]. وَقَالَ أَبُو تمام فِي المعْتَصم يَذْكُر مَسَاعِيَهُ فِي غَزْوِ الرُّومِ وَتَحَمُّلَهُ مَا تَحَمَّلَ مِنَ المَشَاقِّ فِي فَتْحِ عَمُّورِيَة [مِن البسيط] :

خَلِيفَـةَ ٱللهِ كَـافَى ٱللهُ سَيْفَـكَ عَنْ جُرْثُومَـةِ ٱلـدِّينِ وَٱلإِسْلاَمِ وَٱلْحَسَبِ[59]
بَصُرْتَ بِـالرَّاحَـةِ ٱلْكُبْرَى فَلَمْ تَرَهَـا تُنَـالُ إلاَّ عَلَى جِسْرٍ مِنَ ٱلتَّعَبِ

فَبَانَ بِهَذِهِ ٱلأَخْبَارِ ٱلْمَأْثُورَةِ، وَٱلآيَاتِ ٱلمَسْطُورَةِ، وَٱلأَبْيَاتِ ٱلسَّائِدَةِ ٱلْمَشْهُورَةِ، أَنَّ ٱلْفَضَائِلَ لاَ تُدْرَكُ إلاَّ بِمُجَاهَدَةِ ٱلطَّبْعِ، وَٱلْحَمْلِ عَلَى ٱلْبَدَنِ وَٱلنَّفْسِ فِي قَمْعِ ٱلشَّهَوَاتِ ٱلْمُوبِقَةِ، وَٱلأَهْوَاءِ ٱلْمُخْتَلِقَةِ[60] لِلأَعْرَاضِ أَوِ ٱلأَدْيَانِ.

---

57) انظر **أدب الدنيا والدين،** ص 245 بلفظ «لا يبلغ المجد...» عوض «لن» والبيت الثاني :

ويشتمو فترى الألوان مسفرة لا صفح ذل ولكن صفح أحلام

والبيتان في **غرر الخصائص،** ص 328 **وعيون الأخبار،** ج 1، ص 287 **والعقد الفريد،** ج 2، ص 279. وهما لإبراهيم الصولي. انظر **معجم الأدباء،** ج 1، ص 260. **ووفيات الأعيان،** ج 1، ص 25.

58) صدر بيت عجزه ☆ ولا ينفع الحذرين الحذر ☆ منسوب لأكثم بن صيفي في **الأشباه والنظائر،** ج 2، ص 9.

59) من القصيدة المشهورة التي مطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب ☆ في حده الحد بين الجد واللعب

ديوان أبي تمام، ج 1 ص 206.

60) من معاني الخلق الكذب والابتداع والانتحال. قال تعالى : ﴿**وتخلقون إفكا**﴾ المعنى : الأهواء المفسدة للأعراض والأديان.

وَإِنَّ أَكْثَرَ مَا يَشُقُّ عَلَى ٱلإِنْسَانِ تَرْكُهُ وَفِرَاقُهُ، مِنَ ٱلأَفْعَالِ ٱلْمَذْمُومَةِ، لَحَاجَاتٌ وَشَهَوَاتٌ، وَمَنْشَأُ سُوءِ ٱلْعَادَاتِ، وَمُسْتَوْلَدٌ مِنْ إِمْرَاجِ[61] وَإِهْمَالِ ٱلطَّبْعِ. وَإِنَّ مَنْ أَرَادَ ٱلانْتِقَالَ مِنْ مَذْمُومِهَا إِلَى مَحْمُودِهَا، وَمِنْ مُسْتَقْبَحِهَا إِلَى مُسْتَحْسَنِهَا، كَانَ مِنْهُ مُمْكِناً، وَعَلَيْهِ قَادِراً. وَمَنْ تَعَوَّدَ ٱلْخَيْرَ سَهُلَ عَلَيْهِ إِتْيَانُهُ؛ وَمَنْ تَعَوَّدَ ٱلشَّرَ صَعُبَ عَلَيْهِ ٱلانْتِزَاعُ مِنْهُ. وَمَا أَحْسَنَ مَا مَدَحَ بِهِ ٱلْعِطْوِي، آلَ بَرْمَكٍ، حَيْثُ يَقُولُ فِيهِم : [مِنْ الوَافِر]

إِنَّ ٱلْبَرَامِكَةَ ٱلْكِرَامَ تَعَوَّدُوا ... فِعْلَ ٱلْجَمِيلِ فَعَوَّدُوهُ ٱلنَّاسَا
كَانُوا إِذَا غَرَسُوا سَقَوْا، وَإِذَا بَنَوْا ... لَمْ يُوهِنُوا لِبِنَائِهِمْ آسَاسَا
وَإِذَا هُم صَنَعُوا ٱلصَّنَائِعَ فِي ٱلْوَرَى ... جَعَلُوا لَهَا طُولَ ٱلْبَقَاءِ لِبَاسَا[62]

وَقَالَ آخَرُ : [من الطويل]

تعَوّدتُ مُرَّ الضَرِّ حتى أَلِفتُهُ ... وَأَسْلَمَنِي مُرُّ اللَّيَالِي إِلَى الصَّبْرِ
وَوَسَّعَ صَدْرِي لِلأَذَى كَثْرَةُ ٱلأَذَى ... وَقَدْ كُنْتُ أَحْيَاناً يَضِيقُ بِهِ صَدْرِي[63]

وكانت العرب تقولُ : «**ٱلْخَيْرُ عَادةٌ، وَٱلشَّرُّ لَجَاجَةٌ**».[64] وَتَقُول : «**ٱلْعَادَةُ أَمْلَكُ بِٱلأَدَبِ**».[65] وَقَالَ كَثِيرٌ مِنَ ٱلْحُكَمَاءِ : «**ٱلْعَادَةُ طَبِيعَةٌ خَامِسَةٌ**».[66]

---

61) الإمراج : الإفساد (اللسان).

62) الأبيات منسوبة للعطوي في **وفيات الأعيان**. وترد كذلك في **ديوان أبي نواس**، ص 582.

63) انظر **ديوان أبي العتاهية**، ص 175. **وجمهرة الأمثال**، ص 185. **وعيون الأخبار**، ص 190 بدون عَزْو.

64) يقول صاحب **الجامع الصغير**، ج 1، ص 639 : «الخير عادة لعود النفوس إليه، وحرصها عليه من أصل الفطرة. والشر لجاجة لما فيه من العوج، وضيق النفس والكرب» وروي الحديث عن معاوية بإسناد لا بأس به. قارن **عيون الأخبار**، ج 3، ص 157، **والتمثيل والمحاضرة**، ص 28.

65) انظر **الجمهرة في الأمثال**، ج 3، ص 79، **والعقد الفريد**، ج 3 ص 79، منسوبا لأكثم بن صيفي. **رسائل الجاحظ**، ج 1 ص 112.

66) كلام ذكره الثعالبي في ما جرى مجرى الأمثال في **التمثيل والمحاضرة**، ص 179. أما الطبائع الأربع هي المرة السوداء، والبلغم، والمرة الصفراء، والدم. وهذه العناصر تعود إلى الأرض فالماء، فالنار، فالهواء. =

10 - **الأخلاق الملكيـة** وَإِذَا كَانَ هَذَا عَلَى مَا بَيَّنَـا، فَلاَ أَحَـدَ أَحقُّ بـاخْتِيَـارِ ٱلمَحَـامِـدِ وتَعَوُّدِهَـا مِنَ ٱلْمُلُوكِ. لأَنَّـهُ لاَ يَكُون مُؤَدِّيـاً حَقّ جَلاَلَتِـه، وعَـارِفـاً بِفَضْلِ مَنْزِلَتِـه، حَتَّى يَتْرُكَ كَثِيراً مِنْ شَهَوَاتِ ٱلنَّفْسِ، وَلَـذَّاتِ ٱلْبَـدَنِ، فِي جَنْبِ ٱلْفَضَـائِـلِ ٱلَّتِي يَجِبُ عَلَيْهِ حِيَازَتُهَا. فَيَختَـارُ ٱلشُّكرَ عَلَى ٱلكُفْرِ، وَٱلتَّـدَيُّنَ عَلَى ٱلتَّهَتُّـكِ، وَٱلْعِلْمَ عَلَى ٱلْجَهْـلِ، وَٱلْعَقْـلَ عَلَى ٱلْحُمْـقِ، وَٱلشَّجَـاعَـةَ عَلَى ٱلْجُبْنِ، وَٱلْجُـودَ عَلَى ٱلْبُخْـلِ، وَٱلْصَّبْرَ عَلَى ٱلْجَزَعِ، وَٱلْحَمْدَ عَلَى ٱلذَّمِّ، وَٱلْحِلْمَ عَلَى ٱلطَّيْشِ، وٱلرَّزَانَـةَ عَلَى ٱلْخِفَّـةِ، وَٱلصِّـدْقَ عَلَى ٱلْكَـذِبِ، وَٱلتَّوَاضُعَ عَلَى ٱلتَّكَبُّرِ، وَٱلْعَـدْلَ عَلَى ٱلْجَوْرِ، وَٱلصَّوَابَ عَلَى ٱلْخَطَإِ، وَٱلْحَزْمَ عَلَى ٱلتَّهَوُّرِ وَأَمْثَالَهَا.

فَـإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ مِنَ ٱلْمَـذَامِّ ثَمْرَةً مَـذْمُومَـةً؛ وَلِكُلِّ شَيْءٍ مِنَ ٱلْمَحَـامِـدِ عَـاقِبَـةً مَحْمُـودَةً. فَيَجِبُ عَلَى مَنْ أَحَبَّ ٱلْخَيْرَ أَنْ لاَ يَفْعَـلَ إِلاَّ ٱلْخَيْرَ، وَمَنْ كَرِهَ ٱلشَّرَّ أَنْ يَتَجَنَّبَ ٱلشَّرَّ. مَـعَ أَنَّ مَنِ ٱرْتَكَبَ ٱلْمَخَـازِيَ مِنَ ٱلأُمَرَاءِ وَٱلْمـذَامَّ مِنَ ٱلْمُلُـوكِ، كَـانَ فِي مُلْكِهِ كَالْمُزَوَّقِ ٱلْمُفْتَعَلِ، وَكَالْمُسْتَعَارِ ٱلْمُمَوَّهِ. وَحَقٌّ لِلْمَلِكِ ٱلْفَاضِلِ أَنْ يَتَرَفَّعَ عَنْ هَذِهِ ٱلـدَّنِيئَـةِ، وَيتَنكَّبَ هَـذِهِ ٱلرّذِيلَـةَ، وَلاَ يَرْضَى أَنْ يَكُونَ حَظُّـهُ مِنْ جَلاَلَتِـهِ أَنْ يُسَمَّى بـالإِسْمِ ٱلشَّرِيفِ، وَيَشْتَهِرَ بـالْفِعْلِ ٱلسَّيِّءِ ٱلقَبِيـحِ. فَـإِنَّـهُ إِذَا فَعَـلَ ذَلِـكَ كَـانَ كَالْمُتَشَبِّعِ بِمَا لاَ يَمْلِكُ، وَكَلاَبِسِ ثوبَيْ زُورٍ. فَمَا أَبْلَغَ فِي هَـذَا ٱلْمَعْنَى قَوْلَ ٱلْقَـائِلِ حَيْثُ يَقُولُ : [من الطويل].

إِذَا رَكِبُوا ٱلأَعْـوَادَ قَـالُوا فَـأَحْسَنُـوا   وَمَـا خَيْرُ قَـوْلٍ لاَ يُصَـدِّقُـهُ فِعْـلُ ؟[67]

= ورأى أفلاطون في القوة الناطقة طبيعة خامسة. انظر **أفلاطون في الإسلام**، ص 337. من الفلاسفة المعاصرين من يرى في العادة أصلافي الكيان البشري الذي يعد مجموعة لعادات أولية ناتجة عن عوامل شتى (habitudes primaires). انظر : G. Deleuze. **Différence et répétition** P. 99

« Nous sommes de l'eau, de la terre, de la lumière et de l'air contractés », mais aussi des synthèses. p. 101). synthèses. (p. 101).

67) البيت لشاعر الأمويين عبد الله بن الزبير. انظر **معجم الشعراء**، ص 439. **الديوان**، ص 106.

ولَقَدْ بَلَغَنَا أَنَّ **عبدَ ٱلْمَلِكِ بْنَ مَرْوَان** خَطَبَ يَوْماً بمكَّةَ. فلما صَارَ إلى مَوْضِعِ العِظَةِ قَامَ إلَيْهِ رجُلٌ منْ **الصوحان**.[68] فَقَال: «مَهْلاً مَهْلاً.[69] إنَّكُمْ تَأْمُرُونَ وَلاَ تَأْتَمِرُونَ، وتَنْهَوْنَ ولا تَنْتَهُونَ. أَفَنَقْتَدِي بِسِيرَتكُم فِي أَنْفُسِكُمْ، أَمْ نُطِيعُ أَمْرَكُمْ بِأَلْسِنَتِكُمْ؟ فإنْ قُلْتُمْ: اقْتَدُوا بسِيرَتِنَا، فَأَيْنَ، وَكَيْفَ، وَمَا ٱلْحُجَّةُ، وَمن ٱلنَّصِيرُ منَ ٱللَّهِ فِي ٱلاقْتِدَاءِ بسِيرَةِ ٱلظَّلَمَةِ ٱلْجَوَرَة، الذين أَكَلُوا أَمْوَالَ اللَّهِ دُوَلاً، وَجَعلُوا عِبَادَ ٱللَّهِ خُوَلاً؟ وَإِنْ قُلْتُم أَطِيعُوا أَمْرَنَا، وَٱقْبَلُوا نَصِيحَتَنا، فَكَيْفَ يَنْصَحُ غَيْرَهُ مَن يَغُشُّ نَفْسَهُ؟ أَمْ كَيْفَ تَجِبُ ٱلطَّاعَةُ لِمَنْ لَمْ تَثْبُت عَدَالَتُهُ؟ وَإِنْ قُلْتُمْ خُذُوا ٱلْحِكْمَةَ مِنْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهَا، وَٱقْبلُوا ٱلْعِظَةَ ممَّنْ سَمِعْتُمُوهَا، فَعَلاَمَ قَلَّدْنَاكُمْ أَزِمَّةَ أُمُورِنَا، وَحَكَّمْنَاكُمْ فِي دِمَائِنَا وَأَمْوَالِنَا؟ أَمَا عَلِمْتُم أَنَّ فِينَا مَنْ هُوَ أَفْصَحُ بفُنُونِ ٱلْعِظَاتِ، وَأَعْرَفُ بِوُجُوهِ ٱللُّغَاتِ مِنْكُمْ؟ فتلَحْلَحُوا عَنْها لَهُم! وَإِلاّ فَأَطْلِقُو عِقَالَهَا، وخَلُّوا سَبِيلَها، يَبْتَدِرُ إلَيْهَا[70] ٱلَّذِينَ شرَّدْتُمُوهُمْ فِي ٱلْبِلاَدِ، وَنَقَلْتُمُوهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ. أَما لَئِنْ بَقِيَتْ فِي أَيْدِيكُمْ لانقِضَاءِ ٱلْمُدَّةِ، وَبُلُوغِ ٱلْغَايَةِ، إنَّ لِكُلِّ قَائِمٍ يوما لا يعدُوهُ، وَكِتَاباً بَعْدَهُ يَتْلُوهُ، لا يُغَادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلاَّ أحصَاهَا، **﴿وَسَيَعْلَمُ الذين ظَلَمُوا أيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُون﴾**.

وَمما وُجِدَ فِي كِتَابِ **آيين نامه** الملوك[71]: «لِيَكُنْ عَمَلُكَ أَحْسَنَ مِنْ قَوْلِكَ، فَإِنَّ حُسْنَ ٱلقَوْلِ مُفْرَداً إعْرَابُهُ، وَحُسْنَ ٱلْعَمَلِ إحْرَازُ ٱلْبُغْيَةِ.* وَلَقَدْ قَرَأْنَا فِي عَهْدِ

68) آل رسول الله ﷺ.

69) قارن بالنص الوارد في **نهاية الأرب**، ج 7، ص 249. بزيادات منها «يا بني مروان». بعد «مهلا مهلا».

70) انظر كتاب **الاشتقاق**، ص ص 329 ـ 330: «وكانت لبني صوحان صحبة لعلي بن أبي طالب عليه السلام وخطابة» والخطبة كما أسلفنا في **نهاية الأرب**، ج 7، ص 249.

71) ممن نقل كتاب **آيين نامه** من الفارسية إلى العربية عبد الله بن المقفع، انظر **الفهرست**، ص 132، والمسعودي إذ قال: «إنه رأى كتابا عام 303 يصطخر يشتمل على علوم كثيرة من علوم الفرس وأخبار ملوكهم وأبنيتهم وسياستهم مما لم يوجد في كتب أخرى مثل **خداي نامة وآيين نامه» وعهد**

*) هذه العبارة مضطربة مضاف «البغية» في المخطوط «إفراد» ولا معنى له.

لِبَعض مُلُوكِ ٱلْهِنْـدِ إِلَى ٱبْنٍ لَـهُ : «لاَ يُرِيبُـكَ رَأْيُـكَ أَنَّـكَ إِذَا أَحْسَنْتَ ٱلْقَـوْلَ دُونَ ٱلْفِعْلِ فَقَدْ أَبْلَغْتَ إِلَى ٱلسَّامِعِينَ مِنْكَ، دُونَ أَنْ يُصَـدِّقَ قولَـكَ فِعْلُـكَ، وَيُحَقِّقَ سِرَّكَ عَلاَنِيَتُـكَ. فَـإِنَّ زَعِيمَ ٱلْهِنْـدِ ٱلَّـذِي يُـدْعَى ٱلْبُوذَا(72) قـال : «لن يبلغَ ألف رجُـلٍ من إِصْلاَحِ رَجُلٍ وَاحِـدٍ بِحُسْنِ ٱلْقَوْلِ دُونَ حُسْنِ ٱلفِعْلِ مَـا يَبْلُغُ رَجُلٌ وَاحِـدٌ مِنْ إِصْلاَحِ أَلْفِ رَجُلٍ بِحُسْنِ ٱلْفِعْلِ».

وَقدْ كَـانَ أَمِيرُ ٱلْمُؤمِنِينَ **عَلِيٌّ** رَضِيَ ٱللَّـهُ عَنْـهُ يَتَعَوَّذُ بِـاللَّـهِ مِنْ أَلْسِنَـةٍ تَصِفُ، وَقُلُوبٍ تَعْرِف، وَأَعْمَالٍ تُخَالِفُ.(73)

وَلَقَدِ ٱفْتَتَحَ بِهَذِهِ ٱلْمَعَـانِي أَوْ عَـامَّتَهَـا **سَـابُورُ بْنُ أَرْدَشِير**(74) ٱلْمَلِـكُ عَهْـدَهُ ٱلْجَلِيلَ ٱلْخَطَرِ، ٱلْعَظِيمَ ٱلقَدرْ فِي بَابِهِ، إِلَى ٱبْنِه حَيْثُ قَـالَ : «أَمَّـا بَعْـدُ، فَـإِنَّـكَ قَـدْ

= **أردشير**، ص 33. تعني كتب «الآيين» سير الملوك ورسوم الحياة الملكيـة، «آيين» في الأصل شرح وبيـان كيفية إجراء القانون واللوائح الإدارية. «نامة» تعني رسالة أو كتاب. في اهتام العرب بالتراث السيـاسي الفارسي، أنظر **طبقات الأمم** لصاعد الأندلسي، ص 62.

72) انظر **الملل والنحل**، الفصل المخصص بأصحاب «البدد» والبد الرجل الـذي لا يخضع لشهوات الإنسـان، لا يولـد، ولا ينكح، ولا يطعم، ولا يهرم، ولا يموت. انظر **الفهرست** حول مـا صنف في العربيـة عن مذاهب الهند، ومنها كتاب في ملل الهند وأديانها بخط يعقوب بن إسحاق الكندي. استكتبـه إيـاه يحيى ابن خالد البرمكي. قال ابن النديم في **الفهرست**، ص 408 : «قال محمد بن إسحاق الذي عني بأمر الهنـد في دولة العرب، يحيى بن خالد وجماعة البرامكة (ويوشك أن تكون هذه الحكاية صحيحة إذا أضفنـاهـا إلى ما نعرف من أخبار البرامكة) واهتمامها بأمر الهند وإحضارهـا علمـاء طبهـا وحكمـائهـا». انظر ذلـك **الملل والنحل**، الترجمة الفرنسية، المقدمة ص ص 13 ـ 12.

73) اتفـاق السر والعلانيـة والعمل للضمير يرد كثيرا في كلام علي بن أبي طـالب كرم اللـه وجهـه : «من لم يختلف سره وعلانيتـه، وفعلـه ومقـالتـه، فقـد أدى الأمـانـة»، **نهج البلاغـة**، تحقيق صبحي الصـالـح، ص 382، في حين أن **عهد أردشير**، فقرة 22، يضع نصب عينه قيا أخرى : التدبير الحسن والفعالية.

74) سابور بن أردشير (241 ـ 272) ثاني ملوك الدولة الساسانية انظر :

(A. Christensen, L'Iran sous les Sassanides, Copenhagen 1944 Page 226 et s q q)

له قصة مع ماني كا ذكره صاحب الفهرست، ص 392، في قوله عن «المناينة».

وَلَّيْتَ أَمْراً لاَ يَفُوقُهُ أَمْرُ شَيْءٍ مِنْ أُمُورِ ٱلدُّنْيَا، وَبَلَغْتَ غَايَةً لَيْسَ **وَرَاءَهَا مَجَازٌ** لأَحدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ. فَاسْمُ بِنَفْسِكَ إِلَى مَا يُلائِمُ ٱلْخَطَرَ ٱلَّذِي أَصْبَحْتَ عَلَيْهِ مِنْ خِصَالِ ٱلفَضْلِ. وَتَمَسَّكْ مِنَ ٱلْعَدْلِ بعصْمَةٍ يَصِلُ لَكَ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ غَضَارَةِ ٱلْعَيْشِ وَزَهْرَتِهِ بِٱلنَّعِيمِ ٱلَّذِي لاَ زَوَالَ لَهُ، وَلاَ ٱنْقِلاَبَ لَهُ. وَيَبْقَى لَكَ حُسْنُ ٱلأُحْدُوثَةِ، إِذَا وَدَّعْتَ مَا أَنْتَ بِسَبِيلِهِ. فَإِنَّكَ مَورُوثُ مَا أَنْتَ فِيهِ، وَمَسْلُوبُه، وَخَارِجٌ مِنْهُ إِلَى ثَوَابِ مَا تُقَدِّمُ لِنَفْسِكَ أَوْ عِقَابِهِ».

ووُجِدَ لِبَعْضِ ٱلْحُكَمَاءِ مِنْ مُلُوكِ ٱلْهِنْدِ فِي عَهْدِهِ إِلَى ٱبْنِهِ : «يَـابُنَيَّ، إِنّي قَدْ وَلَّيْتُكَ مِنَ ٱلأَمْرِ جُسُماً،[75] وَعَصَّبْتُهُ[76] بك. فَخُذْ لَهُ نَيْلَهُ،[77] وَٱقْبَلْهُ بِقَبُولِهِ. وَلاَ تَكُونَنَّ غَرُوراً،[78] وإِنْ كَانَ مِنْكَ لِعَاجِلٍ يَقَعُ، وَلاَ لِنَيْلِ شَهْوَةٍ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَوْخَمُ مَا أَنْتَ نَائِلٌ مِنْهُ أَوْ بَذْلُ مَا أَنْتَ مَصِيبٌ بِهِ. فَإِنْ نَازَعَتْكَ شَهْوَتُكَ إِلَى تِلْكَ ٱلأُمُورِ فَٱتَّهِمْهَا أَشَدَّ ٱلاتِّهَامِ، وَغَالِبْهَا أَشَدَّ ٱلْمُغَالَبَةِ.[79] فَإِنْ أَظْفَرَكَ ٱللهُ بِهَا دَفَعَ عَنْكَ شَرَّهَا، فَلْيَكُنْ فَرَحُكَ بِذَلِكَ أَشَدَّ مِنْ فَرَحِكَ بِمَن ظَفَرْتَ بِهِ مِنَ أَعْدَائِكَ. فَإِنَّ مَا أَنْتَ تَارِكٌ لِلَّهِ مِنْ هَوَاكَ، عَلَى مَا أَنْتَ مُصِيبٌ مِنْ لَذَّتِهِ وَسُرُورِهِ، كَفَضْلِ ثَوابِ اللهِ أَهْلَ ٱلْجَنَّةِ، عَلَى مَا تَقَسَّمَ لِلنَّاسِ مِنْ مَعَايِشِهِمْ فِي ٱلدُّنْيَا.

75) جُسُما : الأمور العظام (اللسان).

76) في الأصل «عصبته» والصحيح ما أثبتنا. يقول ابن منظور في **اللسان** : ويقال للرجل الذي سوده قومه : قد عصبوه. ومنه قول المخبل في الزبرقان : رأيتك هربت العمامة، بعد ما أراك زمانا حاسرا لم تعصب. وهو مأخوذ من العصابة، وهي العمامة. وكانت التيجان للملوك، والعمائم الحمر للسادة من العرب، وما زالت تسمية العمامة بالعصابة متداولة في قبائل الشاوية بالمغرب إلى الآن.

77) في الأصل «ملة».

78) رسم الحرف الأول للكلمة ليس واضحا في الأصل.

79) فغالبها أشد مغالبة، **مختار الحكم** ص 188.

11 ـ إِمَامَةُ الفَاضِلِ وَقَدْ أَوْجَزَ **عَمْرُو بْنُ عُبَيْد** حَيْثُ قَالَ لِـ **لأَبِي جَعْفَرَ** ٱلْمَنْصُورِ : «إِنَّ اللهَ لَمْ يَرْضَ أَنْ يَكُونَ أَحَدٌ مِنَ ٱلنَّاسِ فَوْقَكَ، فَلاَ تَرْضَ أَنْ يَكُونَ أَحَدٌ أَشْكَرَ مِنْكَ».(80)

وَمِمَّا يَجِبُ عَلَى ٱلْمَلِكِ أَنْ يَكُونَ مَا فِيهِ مِنَ ٱلفَضْلِ وَٱلشَّرَفِ فِي أَفْعَالِهِ وَخِصَالِهِ وَعَقْلِهِ وَكَمَالِهِ مُوَازِياً كُلَّ نُقْصَانٍ فِي رَعِيَّتِهِ. لأَنَّهُ إِنَّمَا ٱسْتُرْعِيَهَا لِيَرْعَاهَا، وَٱسْتُحْفِظَهَا لِيَحْفَظَهَا، وَلِيَسُدَّ خُلَّتَهَا، وَيَجْبُرَ فَاقَتَهَا، وَيَدْفَعَ نُقْصَانَ مَنْقُوصِهَا، وَيَسْتُرَ عَيْبَ مَعِيبِهَا، وَيُقِيمَ مُتَأَوِّدَهَا(81) وَيَذُبَّ عَنْ حَرِيمِهَا، وَيُنْصِفَ مَظْلُومَهَا مِنْ ظَالِمِهَا، وَيَحْمِلَهَا عَلَى شَرَائِعِ دِينِهَا، وَفَرَائِضِ مِلَّتِهَا، وَحُدُودِهَا وَأَحْكَامِهَا. وَإِذَا كَانَ هَذَا هَكَذَا، فَكَيْفَ يَكُونُ سَائِسُهَا ٱلنَّاقِصُ ٱلْجَاهِلُ، وَٱلظَّالِمُ ٱلغَاشِمُ، أَوِ ٱلْمُتَهَتِّكُ ٱلْمُضَيِّعُ ؟ وَمَنْ يَكُونُ فِي رَعِيَتِهِ مَنْ هُوَ أَجْمَعُ لِخِصَالِ ٱلْخَيْرِ، وَأَحْرَزُ لأَسْبَابِ ٱلفَضْلِ مِنْهُ ؟ فَكَيْفَ يَنْقَادُ لَهُ ٱلْفَاضِلُ ٱلْمُتَدَيِّنُ، وَٱلْعَدْلُ ٱلْمُتَثَبِّتُ إلاّ قَهْراً وَٱضْطِهَاداً، وَجَبْراً وَاضْطِرَاراً، يَتَوَقَّعُ زَوَالَ ٱلْمِحْنَةِ عَنْهُ بِزَوَالِهِ، وَدَفْعَ ٱلظُّلْمِ عَنْهُ بِارْتِفَاعِهِ ؟ وَإِذَا كَانَ هَذَا هَكَذَا، كَانَ ذَوُو ٱلْفَضْلِ مِنْ رَعِيَّتِهِ أَعْدَاءَهُ، وَذَوُو ٱلخَصَائِلِ مِنْ أَهْلِ وِلاَيَتِهِ أَعْوَاناً عَلَيْهِ. وَأَخْلِقْ بِهَذَا ٱلْمُلْكِ أَنْ يَكُونَ سَرِيعَ ٱلزَّوَالِ، وَشِيكَ ٱلاضْمِحْلاَلِ.

---

80) في الأصل متافدها. والصحيح ما أثبتنا وأقام الأود والمتأود من انآد، ينآد، وانئيادا فهو منآد إذا تثنى وأعوج، يقيم بمعنى أصلح الاعوجاج، كما في قول النابغة :

فظل يعجم أعلى الروق منقبضا ☆ في حالك اللون صدق غير ذى أود

يعني غير ذي الاعوجاج. **ونهج البلاغة**، مثلا : إني لعالم بما يصلحكم، ويقيم أودكم. أما المتأود فهو المتثني بتحريك النسيم له كقول النابغة :

☆ الغصن في غلوانه المتأود ☆

إلا أن الزمخشري في أساس البلاغة ذكر لأود وتأود نفس المعنى، يقول وأود الشيء وتأوّد وفيه أود أي اعوج.

81) انظر هامش (39). وعمر بن عبيد من القائلين بإمامة الفاضل، أي ليس بعد النبوة منزلة أفضل من الإمامة. انظر **مسائل الإمامة**، ص 51 من النص العربي، فقرة 85.

وَقَدْ قَالَ **أَرْدَشِير**، الْمَلِك فِي عَهْدِهِ : «اعْلَمُوا أَنَّ قِتَالَكُم الأَعْدَاء مِنَ الأُمَم قَبْلَ قِتَالِكُم سُوءَ ٱلأَدَبِ مِنْ أَنْفُسِ رَعِيَّتِكُم لَيْسَ بِحِفْظٍ، وَلَكِنَّهُ إِضَاعَةٌ. وَكَيْفَ يُجَاهِدُ ٱلْعَدُوُّ بِقُلُوبٍ مُخْتَلِفَةٍ وَأَيْدٍ[82] مُتَعَادِيَةٍ ؟» وَقَالَ فِي فَصْلٍ آخَر : «اعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ لِلْمَلِكِ أَنْ يَبْخَلَ[83] لأَنَّهُ لاَ يُقْدَرُ عَلَى ٱسْتِكْرَاهِهِ. وَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَغْضَبَ لأَنَّ ٱلْغَضَبَ وَٱلْقُدْرَةَ لِقَاحُ ٱلسَّرَفِ وَٱلنَّدَامَةِ، وَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَلْعَبَ وَلاَ يُعَبَثَ، لأَنَّ ٱللَّعِبَ مِنْ عَمَلِ ٱلْفُرَّاغِ. وَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَفْرُغَ لأَنَّ ٱلْفَرَاغَ مِنْ أَمْرِ ٱلسُّوقَةِ. وَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَخَافَ[84] لأَنَّ ٱلْخَوْفَ مِنَ ٱلْمعْوِزِ. ولَيْسَ لَهُ أَن يَسَّلَّطَ إِنْ هُوَ أَعْوَزَ».[85]

وَقَالَ **الإِسْكَنْدَرْ الحَكِيم** : «مَنْ عَجَزَ عَنْ تَقْوِيمِ نَفْسِهِ فَلاَ يَلُومَنّ [من] لاَ يَسْتَقِيمُ لَهُ».[86] وَدَخَلَ أُسْقُفُ نجرَان عَلَى **(مُصْعَب بْنِ ٱلزُّبَيْر)**،[87] فَكَلَّمَهُ بِشَيْءٍ، فَغَضِبَ،

82) في الأصل : «أيدي».

83) في الأصل : «ينحل». نفس المرجع، فقرة 180 : «ثم اعلموا أنه ليس للملك أن يبخل (لأن البخل لقاح الحرص وليس له أن يكذب) لأنه لا يقدر (أحد) على استكراهه» قارن **رسائل البلغاء** لمحمد كرد علي : «وليس للملك أن يبخل فإنه لا يخاف الفقر، وإذا عرف بالبخل انقطع الرجاء من خيره فانسلت الأيدي من طاعته ولا يجتهد أحد في خدمته، وانحلت النيات عن مناصحته...»

84) في الأصل «يجد».

85) قارن **عهد ادرشير** ص 60، فقرة 111، حيث تبرز فكرة نية الدولة، أو مشروعها كما يقول وقتنا : «واعلموا أن قتالكم الأعداء من الأمم قبل قتالكم الأدب من أنفس رعيتكم ليس بحفظ ولكنه إضاعة، وكيف يجاهد العدو بقلوب مختلفة وأيدٍ متعادية، وقد علمتم أن الذي بني عليه الناس وجبلت عليه الطبائع حب الحياة وبغض الموت... فلا صبر ولا محاماة إلا بأحد وجهين : إما بنية، والنية ما لا يقدر عليه الوالي عند الناس بعد النية التي تكون أول الدولة، وإما بحسن الأدب وإصابة السياسة».

86) انظر هامش 55، وقارن بالمثل «من غلب نفسه أمّره قومه» مما يبين على أن الصبر والعادة مفهومان أساسيان في **النصيحة** وما من الكتب في موضوعها، انظر المرادي : **الإشارة إلى أدب الأمامة**، دار الطليعة، تحقيق رضوان السيد، بيروت، 1981. ص 172، المقام واحد والمقال مختلف اختلاف السياق، وفي نفس المعنى **تسهيل النظر وتعجيل الظفر**، ص 46 ـ 48 والهامش 4 للناشر. قارن ما قال علي : «أعجز الناس من عجز عن إصلاح نفسه»، وابن المقفع : «من نصب نفسه إماما فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه وتقويمها في السيرة (....) فيكون تعليمه بسيرته أبلغ من تعليمه بلسانه»، **الأدب الصغير**، ص 49.

87) مصعب بن الزبير بن العوام بن خويلد الأسدي، ولي إمارة العراقين، ناصر أخاه عبد الله بن الزبير،

فَضَرَبَ وَجْهَهُ بِٱلقَضِيبِ وَأَدْمَاهُ. فَقَالَ لَهُ ٱلأُسْقُفُ : «إِنْ شَاءَ ٱلأَمِيرُ أَخْبَرْتُهُ بِمَا أَنْزَلَ ٱللّٰهُ عَلَى **عِيسَى** وَلاَ يَغْضَبُ». قَالَ : «قُلْ». قَالَ : «يُوجَدُ فِي **ٱلتَّوْرَاةِ** : لاَ يَنْبَغِي لِلإِمَامِ أَنْ يَكُونَ سَفِيهاً، وَمِنْهُ يُلْتَمَسُ ٱلحُكْمُ، وَلاَ جَائِراً وَمِنْهُ يُلْتَمَسُ ٱلْعَدْلُ».(88) وَفِيمَا كَتَبَ بِهِ **أَرسطاطاليس** إِلَى **الإِسْكَنْدر** : «وَقَدْ يَجِبُ عَلَى ٱلْمَلِكِ أَنْ يَخْتَصَّ بِأَحْسَنِ ٱلخَوَاصِّ. وَذَلِكَ أَنَّهُ عَلَمٌ يُشَارُ إِلَيْهِ، وَغَرَضٌ يُقْصَدُ نَحْوَهُ(89)». وَٱلآفَةُ ٱلصُّغْرَى فِي ٱلْمَلِكِ مِقْدَارُهَا غَيْرُ صَغِيرٍ. وَكَذَلِكَ ٱلْفَضِيلَةُ فِي ٱلْمَلِكِ أَضْوَأُ وَأَطْرَى وَأَكْثَرُ مِقْدَاراً. وَفِي هَذَا ٱلْمَعْنَى يَقُولُ ٱلشَّاعِرُ : [مِنَ البسِيط]

لاَبُدَّ لِلشَّاةِ مِنْ رَاعٍ يُدَبِّرُهَا … فَكَيْفَ بِٱلنَّاسِ إِنْ كَانُوا بِلاَ وَالِي
وَإِنْ أُضِيفَ إِلَى ٱلأَذْنَابِ أَمْرُهُم … دُونَ ٱلرُّؤُوسِ فَهُمْ فِي حَالِ إِهْمَالِ(90)

وَقَالَ آخَرُ : [مِن البسِيط]

لاَ يَصْلُحُ ٱلنَّاسُ فَوْضَى لاَ سَرَاةَ لَهُمْ … وَلاَ سَرَاةَ إِذَا جُهَّالُهُمْ سَادُوا(91)

قتله عبد الملك بن مروان سنة 71 هـ انظر **تاريخ الطبري**، ج 6، ص 151 **وطبقات ابن سعد**، ج 5، ص 135.

88) قارن **ربيع الابرار**، ج 4، ص 224، **وبهجة المجالس** لابن عبد البر ج 1، ص 339 مع اختلافات لفظية.

89) أنظر **السياسة في تدبير الرئاسة**، ص 77، مع اختلاف في ألفاظ ومعنى العبارات الأولى «أول ما يجب على الملك في خاصة نفسه، أن يختص باسم علم مشهور يعرب عنه ويخاطب به، ليشرف به على ما سواه...» ثم يرد التعبير الذي عند الماوردي أوضح.

90) قارن **تسهيل النظر وتعجيل الظفر** حيث يورد الماوردي البيتين منسوبين لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر (ابن الحسين الخزاعي) الذي ولد ببغداد سنة 223 هـ، وولي شرطتها، وبها توفي سنة 300 هـ **انظر وفيات الأعيان**، ج 2، ص 304.

91) نسبه الزمخشري في **ربيع الأبرار**، ج 1، ص 572 إلى الخثعمي (نسبة إلى خثعم)، وربما كان لعباس بن حنيفة الخثعمي، وهو من الشعراء المحدثين.

وَلِـذَلِـكَ مَـا قَـالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ فِي بَعْضِ ٱلْمُلُوكِ وَرَآهُ رَكِيكاً مُتخَلِّفـاً : [مِن المتقَارب]

خَنَـازِيرُ[92] نَـامُـوا عَنِ ٱلْمَكْرُمَـاتِ فَنَبَّهَهَمْ قَـــــدرٌ لَمْ يَنَم
فَيَـــاقُبْحَهُمْ فِي ٱلَّـــذِي خُـوِّلُـوا وَيَـــــاحُسْنَهُمْ فِي زَوَالِ النِّعَمْ[93]

وَقَالَ آخَرُ : [من الطويل]

إذَا لَمْ يَكُنْ صَـدْرَ ٱلْمَجَـالِسِ سِيِّـدٌ فَـلاَ خَيْرَ فِيمَنْ صَـدَّرَتْـهُ ٱلْمَجَـالِسُ
وَكَمْ قَـائِـلٍ مَـالِي رَأَيْتُـكَ رَاجِـلاً فَقُلْتُ لَـهُ مِنْ أَجْلِ أَنَّـكَ فَـارِسُ[94]

وَرَوَى الأَعْمَشُ[95] عَنْ شَقِيق بْنُ سَلَمَةَ[96] أَنَّهُ قَالَ لَـهُ : «يَـاسُلَيْمَـان وَٱللَّهِ مَـا عِنْـدَ هَـؤُلاَءِ وَاحِـدَةٌ مِنْ اثْنَتَيْن : مَـا عِنْـدَهُمْ تَقْـوَى أَهْـلِ ٱلإِسْـلاَمِ وَلاَ أَحْـلاَمَ أَهْـلِ

92) رسم الكلمة «خيارير» وهي تصحيف لخنازير التي نثبتها من **ربيع الأبرار**، انظر هامش 91 أعلاه.

93) نسبة للأفوه الأودي، شاعر الين وحكيمه، أورده الماوردي في **الأحكام السلطانية** ـ الباب الأول. وترجم في **الشعر والشعراء**، ص 110. **والأغـاني**، ج 11، ص 77. **وشعراء النصرانيـة**، ج 1 ص 70 يرد البيت في **البيـان والتبيين**، ج 3، ص 325. **والعقـد الفريـد**، ج 2، ص 228. ومن كتب الآداب السياسي **آثار الأول في ترتيب الدول**، ص 12. **والشهب اللامعة** ص 57 وغيرها.

94) انظر **يتيمة الدهر**، ج 1، ص 109، حيث ورد البيتان منسوبين لابن عبد الله الحسين بن خالويه. وترجمته في **وفيات الأعيـان**، ج 1، ص 433. ابن خالويه همداني استوطن حلب. قال الثعالبي : «صاربها أحد أفراد الدهر في كل قسم من أقسام العلم والأدب».

95) الأعمش : هو الإمام أبو محمد سليمان بن مهران، مولى بن كاهل. أصله من الري، وفاته بالكوفة عام 148 هـ. انظر **طبقات ابن سعد**، ج 6، ص 237 **وفيات الأعيان**، ج 2، ص 136.

96) شقيق بن سلمة ممن روى عنهم الأعمش. من الثقات توفي سنة 82 هـ. أنظر **طبقات ابن سعيد**، ج 6، ص 125.

ٱلْجَاهِلِيَّـةِ». فَكَيْفَ يُعَظِّمُ ٱلْعُلَمَـاءُ وَٱلْحُكَمَـاءُ مَنْ كَـانَ مَحَلُّـهُ عِنْـدَهُمْ هَـذِهِ ٱلْمَحَـالُّ ٱلْمَوْصُوفَةُ، إلاَّ ضَرُورَةً وَٱقْتِسَاراً[97]».

وَإِذَا قَدْ وَفَّيْنَا هَذَا ٱلْبَابَ حَقَّهُ مِنَ ٱلْخِطَـابِ، وَدَلَّلْنَـا عَلَيْـهِ عَلَى مَـا ذَكَرْنَـاهُ، وَأَخْبَرْنَا بِهِ مِنْ كِتَـابِ ٱللهِ، وَسُنَّـةِ رَسُولِـهِ، وَشَوَاهِـدِ ٱلْعُقُولِ، وَآثَـارِ ٱلْحُكَمَـاءِ، فَنَحْنُ خَاتِمُوه وَصَائِرُونَ إِلَى ٱلْبَابِ ٱلَّذِي يَتْلُوهُ فِي تَرْتِيبِ أَبْوَابِ ٱلْكِتَابِ، لِنَقُولَ فِيـهِ مَـا يَحْضُرُنَا بِعَوْنِ ٱللهِ وَتَوْفِيقِهِ.

97) الاثر في **ربيع الأبرار**، ج 4، ص 214. مع بعض الاختلاف. عن الأعمش : «قال لي أبو وائل، شقيق بن سلمة : يا أبا سليمان ليس لنا من أُمرائنا واحدة من ثنتين : لاتقوى في الإسلام، ولا حلم من أحلام الجاهلية».

ثبت مصادر التقديم والتحقيق

I) **أعمال الماوردي**

- **الأحكام السلطانية**، القاهرة 1327 هـ / 1909، تصوير دار الكتب العلمية، بيروت 1982.
- **أدب الدنيا والدين**، الجوائب 1899، تحقيق مصطفى السقا، القاهرة 1955.
- **أدب الوزير والوزارة**، القاهرة 1929، الإسكندرية 1976 بعنوان الوزارة ثم بتحقيق ودراسة الدكتور رضوان السيد، تحت عنوان : **قوانين الوزارة وسياسة الملك**، دار الطليعة، بيروت 1979.
- **أدب القاضي**، تحقيق محي هلال السرحان، منشورات رئاسة ديوان الأوقاف، بغداد 1971.
- **تسهيل النظر وتعجيل الظفر**، دار النهضة العربية، بيروت 1981.
- **النكت والعيون**، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت 1982.

II) **التراجم والمعاجم :**

أ) **التراجم :**

- ابن أبي يعلى، **طبقات الحنابلة**، تحقيق محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة 1952.
- ابن حجر، **لسان الميزان** حيدر آباد 1331 هـ.
- ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.
- الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، تحقيق الشيخ ش. الارناؤوط، 1 ـ 23، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1981 ـ 1986.
- السبكي، **طبقات الشافعية الكبرى**، تحقيق الطناحي والحلو، القاهرة 1964.
- **دائرة المعارف الإسلامية**، الطبعة الأولى لندن 1913، الطبعة 2.

ب) **المعاجم :**

- ابن دريد، **الاشتقاق**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، الطبعة الثانية، دار المثنى، بغداد 1979.
- ابن دريد، **تهذيب الأسماء واللغات**، إدارة الطباعة، المنيرية، تصوير دار الكتب العلمية، بيروت.
- ابن منظور، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت 1955.
- الزمخشري، **أساس البلاغة**، دار صادر، 1979.
- الفيروزابادي، **القاموس المحيط**، تصوير دار الجيل.

III) تخريج آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية :

- محمد فؤاد عبد الباقي، **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم** دار مطابع الشعب.
- أ. ي. فينسنك، **المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي**، مطبعة بريل، ليدن، 1936.
- **صحيح البخاري**، المطبعة الميمنية، مصطفى بابي الحلبي، مصر.
- **صحيح مسلم**، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة 1955.
- **سنن ابن ماجة**، نشر محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة 1952.
- **سنن أبي داود**، تعليق أحمد سعد علي، القاهرة 1952.
- **سنن الترمذي**، (الجامع الصحيح) تحقيق أحمد محمد شاكر، مصطفى بابي الحلبي، 1937.
- **سند الإمام أحمد بن جنبل**، دار صادر والمكتب الإسلامي، بيروت 1969.
- **موطأ مالك**، نشر محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة 1951.
- **التيسير بشرح الجامع الصغير**، العلامة المناوي، بولاق 1286 هـ.

IV) الأدبيات :

- أحمد صفوت، **جمهرة خطب العرب**، مصطفى بابي الحلبي 1962.
- ابن حمدون، **التذكرة الحمدونية**، تحقيق إحسان عباس، معهد الإنماء العربي، بيروت 1983.
- ابن سلام، **طبقات فحول الشعراء**، تحقيق محمد أحمد شاكر، دار المعارف القاهرة 1952.
- ابن المعتز، **طبقات الشعراء**، تحقيقعبد الستار أحمد فراج، القاهرة، 1956.
- ابن الجوزي، **المصباح المضيء في خلافة المستضيء**، تحقيق ناجية عبد الله إبراهيم، وزارة الأوقاف، الجمهورية العراقية، 1976.
- ابن شمس الخلافة، **كتاب الآداب**، القاهرة 1930.
- ابن عبد البر، **بهجة المجالس وأنس المجالس**، تحقيق محمد مرسي الخولي، القاهرة 1962.
- ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، تحقيق أحمد أمين وآخرين القاهرة 1948 ـ 1953.
- ابن قتيبة، **الشعر والشعراء**، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة.
- ابن قتيبة، **عيون الأخبار**، دار الكتب المصرية 1924 ـ 1930.
- ابن منقذ (أسامة)، **لباب الآداب**، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة 1935.
- أبو العباس عبد الله بن الخليفة المعتز، **كتاب الآداب**، تحقيق صبيح رايف، مطبعة الحوادث، بغداد 1972.
- ابني هشام (أبو بكر محمد وأبو عثمان بن سعيد) **الاشباه والنظائر**، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1957.
- أبو تمام، **الحماسة**، تحقيق عبد المنعم أحمد صالح، وزارة الثقافة الإسلامية والإعلام الجمهورية العراقية 1980.

- أبو العتاهية، **ديوان أبي العتاهية**، تحقيق شكري فيصل، مطبعة جامعة دمشق، 1965.
- أبو الفرج الأصبهاني، **الأغاني**، دار الكتب المصرية 1 ـ 16 / 1963، 17 ـ 1968/24 ـ 1974.
- أبو نواس، **ديوان أبي نواس**، (الحسن بن هانيء)، تحقيق عبد المجيد الغزالي، دار الكتاب العربي، بيروت 1984.
- البحتري، **الحماسة**، ضبط كمال مصطفى، الطبعة الأولى 1929.
- الثعالبي، **التمثيل والمحاضرة**، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، القاهرة 1961.
- الثعالبي، **الإعجاز والإيجاز**، ضمن 5 رسائل، الجوائب 1301 هـ.
- الثعالبي، **يتيمة الدهر**، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، الطبعة الثانية، 1956.
- الجاحظ، **البيان والتبيين**، تحقيق حسن السندوبي؛ وتحقيق محمد عبد السلام هارون. القاهرة 1968.
- الجاحظ، **كتاب البرصان والعرجان والعميان والحولان**، تحقيق محمد عبد السلام هارون، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية 1982.
- الجاحظ، **رسائل الجاحظ**، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- **جمهرة خطب العرب** (انظر (أحمد) زكي صفوت).
- **ديوان الهذليين**، الدار القومية، مصر 1965.
- **الزمخشري، ربيع الأبرار**، تحقيق سليم النعيمي، وزارة الأوقاف الجمهورية العراقية، 1982.
- **شعراء النصرانية قبل الإسلام**، جمع لويس شيخو، الطبعة الثانية، دار الشرق.
- العكوك، **ديوان علي بن جبلة العكوك**، تحقيق أحمد نصيف الجنابي، وزارة الإعلام، الجمهورية العراقية، 1971؛ **شعر علي بن جبلة الملقب بالعكوك، د.حسين عطوان، دار المعارف، 1982.**
- المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت 1966 ـ 1979.
- المسعودي، **التنبيه والإشراف**، نشر دوغوي، ليدن 1894.
- الميداني، **مجمع الأمثال**، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السنة المحمدية، مصر 1955.
- الوطواط (أبو إسحاق) **غرر الخصائص الواضحة عن النقائض الفاضحة**، القاهرة 1284.
- النابغة الذبياني، **ديوان النابغة الذبياني**، تحقيق الشيخ الطاهر بن عاشور، تونس، 1976.
- النويري (شهاب الدين) **نهاية الأرب**، 1 ـ 22 دار الكتب، 1927 ـ 1977 والهيئة العامة للكتاب.
- **نهج البلاغة**، شرح الإمام محمد عبده منشورات المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة؛ وتحقيق صبحي الصالح، دار الكتاب اللبناني بيروت.

٧) مراجع للمقارنات التاريخية في النظرية الأخلاقية والسياسية :

- **أفلاطون في الإسلام**، نصوص مختلفة حققها الدكتور عبد الرحمن بدوي، الطبعة الثانية دار الأندلس 1983.

- ابن الجوزي، **المنتظم**.
- ابن فاتك، **مختار الحكم**، تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوي مدريد 1957.
- **البداية والنهاية**، ابن كثير، 1 ـ 14 بيروت 1966.
- **الأدب الكبير**، ابن المقفع، تحقيق أحمد زكي، 1916.
- **الأدب الصغير**، ابن المقفع، تحقيق أحمد زكي 1912.
- **رسالة الصحابة**، ابن المقفع، تحقيق شارل پيلا، ميزونوف ـ لا روز، باريس 1976.
- **يتيمة السلطان**، مع غيرها من نصوص ابن المقفع المذكورة أعلاه ضمن **رسائل البلغاء** لمحمد كرد علي، القاهرة 1946.
- ابن هذيل، **عين الأدب والسياسة**، مصر 1302 هـ.
- **الأحكام السلطانية**، أبو يعلى (القاضي ابن الفراء)، تصحيح محمد حامد الفقي بابي الحلبي، القاهرة 1380 هـ. سو آبايا، أندونسيا 1974.
- **التمهيد**، الباقلاني، تحقيق ماك كارتي، بيروت 1957.
- البغدادي (عبد القاهر)، **الفرق بين الفرق**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة 1963.
- **الترجمة والنقل عن الفارسية**، محمد محمدي، بيروت 1964.
- **غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم**، الثعالبي، أعيد عن نشرة زوتنبرغ بالأوفسيت، طهران 1963.
- **الغياثي**، الجويني، تحقيق عبد العظيم الديب، مديرية الشؤون الدينية بقطر، 1400 هـ.
- **منهاج اليقين في شرح أدب الدنيا والدين**، خان زاده، دار الكتب العلمية، بيروت 1980.
- **الملل والنحل**، الشهرستاني، الترجمة الفرنسية، اليونسكو ـ بيترس 1987.
- **عهد أردشير**، تحقيق إحسان عباس، بيروت 1967.
- **العهود اليونانية، في الأصول اليونانية للنظريات في الإسلام**، 1، تحقيق الدكتور عبد الرحمن البدوي، القاهرة 1954.
- **أخلاقيات**، فوشيكور، نشر أبحاث عن الحضارات، باريس 1986 (بالفرنسية).
- Henri Laoust, **Les Shismes dans l'Islam, Payot, Paris, 1965.** (لاوست ـ هانري).
- **pluralismes en Islam, Goethiner, 1985**
- **تهذيب الأخلاق**، مسكويه، دار مكتبة الحياة.
- **الحكمة الخالدة**، مسكويه، تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوي القاهرة 1952.

العُملة ودُور السكَّة في المغرب

عبد الهادي التازي

إذا أردت أن تعرف عن تاريخ أمةٍ من الأُمم فإن هناك عنصراً بارزاً من عناصر البحث يغنيك عن كل قول منقول أو حديث مكتوب... هذا العنصر هو ترصّد قطع العملة في ديار تلك الأُمة، فعلى أساس تسلسل حلقاتها تستطيع أن تحكم عليها أصالةً أو حداثة، تخلّفاً أو تقدما، تقطّعاً في الخطوات أو تتبّعاً محكم الصلات...

وعلى أساس تعدد دور السكة فيها كذلك تعرف عن حجم تلك الأُمة وبُعدها وهل إن رقعتها تنحصر في أطراف محدودة أم إنها أمبراطورية تترامى جنباتها عبر الجهات، فلها في كل جهة دار سكة، ولها في كل قاعدة ممثلها وأمينها....

وهكذا فإن العملة تعني التعبير عن التاريخ السياسي والاجتماعي والحضاري لكل أمة من الأُمم...

وقد كان ممَّا اهتم به المبعوثون الأَجانب هذه العملة المغربية التي ظلت على مر العصور تعبر عن تاريخٍ للمغرب متوالي الحلقات، وتترجم عن الملوك الذين تركوا بصماتهم بهذه الديار، كما تخلد أسماء المعامل التي كانت البلاد مزودةً بها شمالاً وجنوباً، وتساعد على اكتشاف التاريخ والفنّ معاً...

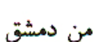
ولم تقتصر الخزينـة التي نمتلكهـا من النقـود، عبر الأحقـاب، على النقـود التي ضربت بـالمـدن المغربيـة ولكن أيضـا على طـائفـةٍ كبرى من العمـلات التي ضربت في أقصى المشرق وبلاد فارس... أردشير وكرمان والبصرة ومدينـة السلام ودمشق... ممَّـا يـدل على أن المغرب كان، كأي عاصمة كبرى، يقصدها الناس بأموالهم وما يمتلكون...[1]







من همدان



من دمشق





نقود من سابور

1) Eustache Daniel : Monnaies musulmanes Trouvés à Volubilis Hesp. 1956 T.2. TR. pp. 133 – 197



مهرِجَان قُذَف





نقود من واسط





نقود من مرو

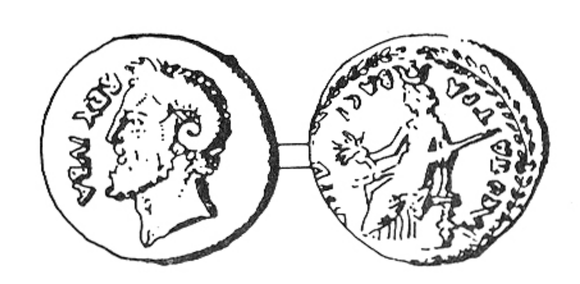


من هراة (خراسان)

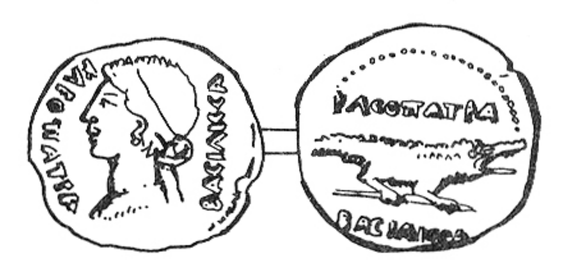
وعلاوة على نماذج من عملة يوبا الثاني التي حملت إلى المغرب شعار مصر : الصقر والتمساح والتي نقش عليها ـ لأول مرة رسم سيدة قبل قرون عديدة من حمل العملة لرسم زينب ملكة العرب ![2]



يوبا الثاني والصقر شعار مصر



عملة برونزية ليوبا الثاني مع زوجته كيلو باطرة سيليني



نقود يوبا الثاني تحمل شعارات مصر : التمساح

(2 Jean Mazard : Corpus nummorum Numidiae Mauretaniaeque, Paris 1955.



فلس ضرب في طنجة عهد الولاة الأُمويين

وعلاوة على الدراهم المضروبة في عهد الولاة... نجد طائفة من القطع التي ضربت في ميناء (غِسَاسة) شمال المغرب منذ سنة إحدى وسبعين ومائة، و(تدغة) جنوب المغرب منذ «خمسة وسبعين ومائة» ممَّا أمر به خلف بن المضا... وطائفة من النقود ممَّا ضرب بوليله التي احتضنت إدريس الأَول، وقد أرخت سنة إحدى وثمانين ومائة = 797 وكانت ممَّا أمر به إدريس، وفيها ما أمر به راشد بن قادم ؟ هذا إلى دار سكة بطنجة وسجلماسة على ما سنرى...





درهم يرجع لعهد ادريس الأَول بتاريخ 174م




ضرب هذا الفلس بوليلة، مما أمر به راشد بن قادم ؟

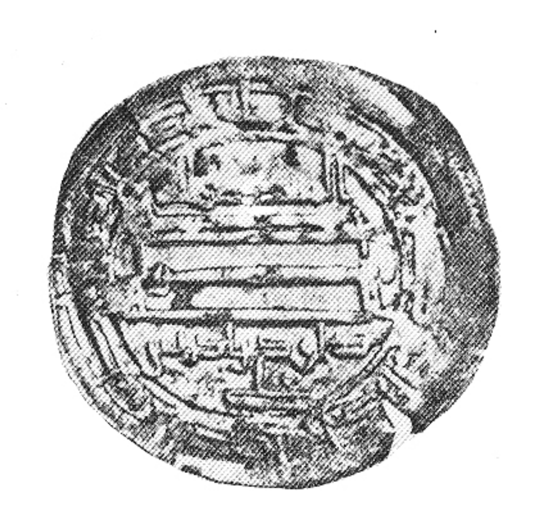
ولم تلبث مدينة فاس أن تبوأت المكانة الأُولى في ضرب النقود، وهكذا نجد المتخصصين يعتبرون دار السكة بفاس المعمل الوحيد الذي ساهم بصورة دائمة في ميدان سبك النقود...

لقد وجدت هناك حركة في بعض العواصم الأسيوية مثل بغداد، ودمشق والقواعد الإفريقية مثل الفسطاط والقاهرة... لكن السيطرة الخارجية سواء أكانت فارسية أو تركية عصفت بالطابع العربي المتميز في الخط والرمز والمقياس.

وقد اشتهر معمل فاس باسم (العالية) وهو الاسم الذي أعطاه الأدارسة للضفة الشمالية من وادي فاس التي سكنها ملوكهم.

وترجع أول عملة إدريسية ضربت بالعالية إلى سنة 167 ـ 813 بينما يرجع تاريخ آخر عملة بها إلى عام 250 = 864، ومع هذا فإن المتخصصين يميلون إلى الاعتقاد بأن العملة الإدريسية ظلت تضرب بالعالية ولو بصورة محدودة، إلى القرن الرابع الهجري.

وقد وجدت دراهم إدريسية مضروبة في واطيل...(؟) عام عشرين ومائتين وتحمل اسم داود بن إدريس،[3] كما وجدت دراهم مضروبة بمدينة البصرة المغربية ترجع إلى سنة 270 وأخرى إلى سنة 276 = 889 ضربت بوازقور.




من الدراهم الإدريسية، درهم داود بن ادريس الذي ضرب حوالي 320، وقد اكتشفت لوحة بجامعة القرويين تحمل اسمه وهي ترجع لتاريخ ذي القعدة 263 = 877.

وقد تقلّبت فاس - بعد ضعف الأدارسة - بين عدد من الولاة التابعين تارة للفاطميين وأخرى لأموي الأندلس على ما سنرى....

وقد عثر على نقد يعود إلى عهد مَدْيَن ابن موسى بن أبي العافية الذي كان حاكماً لفاس من سنة 315 = 927 إلى 319 = 931 يحمل اسمه واسم أبيه واسم الخليفة الأموي بالأندلس الناصر لدين الله (عبد الرحمان الثالث).

(3 Eustache Daniel : Corpus des dirhams idrisites et contemporains, Rabat 1970 – 71
Les Ateliers monétaires du Maroc, Hesp – Tam 1970 Vol XI Fas unique P : 95 – 102 I cart

عبد الهادي التازي : «الإمام داود بن إدريس من خلال الوثائق التاريخية» دعوة الحق أبريل 1960 ص 60. «تاريخ جامعة القرويين»، المجلد الأول ص 47، بيروت 1972 «التاريخ الدبلوماسي للمغرب»، ج 1، صفحة 122/121.




دينار بني مدرار ضرب بسجلماسة سنة 334 هـ

ونشير بهذه المناسبة إلى دينار لبني مدرار ضرب بسجلماسة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة باسم الشاكر لله...

وعندما احتل جوهر الصقلي، فتى المعز لدين الله، مدينة فاس سنة 348 = 858 باسم الفاطميين ترك بدوره أثراً في آخر السنة المذكورة ويتعلق الأمر بدينار يحمل اسم مليكه أبي تميم المعز لدين الله...

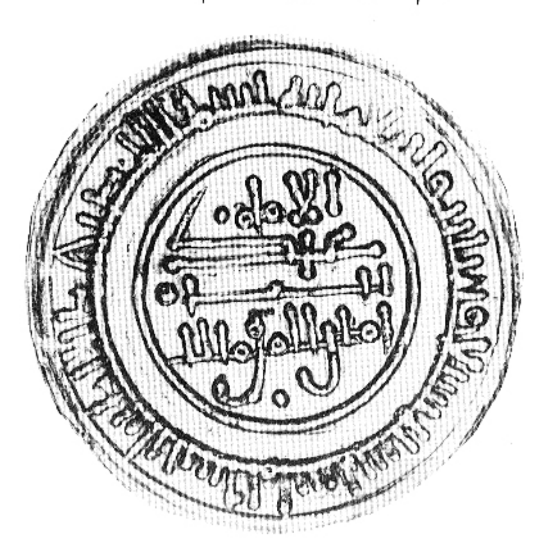
ولما عاد بنو أُمية لحكم فاس وجدنا درهماً لهم ضرب بهذه المدينة سنة 367 = 978 باسم هشام الثاني وحاجبه المنصور بن أبي عامر، وهي أول عملة أُموية عثر عليها ممّا ضرب بفاس، وفي عام 369 = 980 ضرب أبو الفتوح يوسف بن زيري نقوداً باسم ملك مصر العزيز بالله الفاطمي.

وقد احتلت فاس مرة أُخرى من قبل الأُمويين الذين استقروا أكثر من ثلاثين سنة عرفت جميعها بضربٍ منتظم للسكة : وهكذا وجدنا دراهم ضربت بالمدينة باسم هشام الثاني ترجع لتاريخ 370 ـ 371 = 981 وسنة 403 = 1013، وكانت تحمل أسماء ابن أبي عامر ثم اسم ولده من بعد موته : عبد الملك المظفر، على أنَّ هناك

دراهم أُخرى تحمل تاريخ 399 = 1009 باسم محمد الثاني وأُخرى بتاريخ 402 = 1012 باسم سليمان. وابتداء من سنة 398 = 1008 ظهر على بعض النقود اسم أمير مغراوة المعز بن زيري ابن عطية الذي حكم مدينة فاس باسم الأُمويين الذين كانوا فوضوا له في الحكم.

وقد ضرب هذا الأَمير أيضاً بمدينة فاس سنة 410 = 1019 درهماً باسم القاسم من بني حمود، حيث أمكن أن نلاحظ عودة فاس لحكم الأَدارسة... ولو أن التاريخ سجل دار سكة بمكناسة على ما يؤكده أرشيف بنك المغرب.

ولما احتل **المرابطون** مدينة فاس في شعبان 467 = 1075، كانت أول عملة ضربت بفاس ترجع إلى ثمان وعشرين سنة بعد ذلك التاريخ، وقد سكت في الفترة ما بين 494 = 1101 وسنة 539 = 1145 نقود ذهبية بصورة منتظمة وقد حملت عبارة ضرب بفاس كما حمل بعضها فيما بعد اسم إشبيلية وقد ضربت أيضا بفاس أجزاء من الدراهم الغير المؤرخة باسم يوسف بن تاشفين 480 = 1187، 500 = 1107.



دينار مرابطي
التاريخ الدبلوماسي 1، 124



دينار مرابطي
التاريخ الدبلوماسي 1، 124




دينار مرابطي ضرب باشبيلية سنة 541 هـ




عملة ذهبية ترجع لعلي بن يوسف (علي الثالث) ضرب بأغمات سنة 501 ـ 1107م)
نقوش ترجع لأبيه، لكن تحمل عبارة «أمير المسلمين» لنفسه في بادئ الأمر



دينار مرابطي
الإمام عبد الله أمير المومنين
انظر التاريخ الدبلوماسي



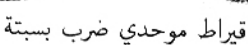
دينار مرابطي
يرجع لعهد يوسف بن علي بن تاشفين

وقد نقش اسم (المثقال المرابطي Maravedis) في كلّ ممـاليـك أوربـا وأصبح اسمـه ينم عن العملـة الصعبـة التي تكـون المفتـاح الرئيسي لكل الحـاجيـات في مختلف جهـات العالم...[4]

وقد ضربت بفاس **عهد الموحدين** قطع من نصف دينار فيا بين سنة 540 = 1145 و 558 = 1163 كما ضربت قطع من الـدينـار بنفس المـدينـة في 24 كارة، والجميع لا يحمل تاريخاً على مـا هي عـادة الموحـدين، هـذا إلى ضربهم أيضـاً للقيراط أي نصف الدرهم، وهو مُرَكَّن، وقد ضربوا أيضا نقوداً ذهبية إلى نهايـة حكم يوسف المستنصر بن محمـد (610 = 1213 ـ 620 = 1223)، وقـد عرفت ربـاط الفتـح على هـذا العهـد الموحدي دار سكة لها كذلك...







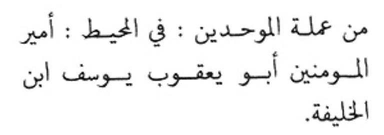
قيراط موحدي ضرب بسبتة

4) G. Host : Marokos und Fes, 1760 – 68 Copenhague 1781 p. 262. T.XXX. III
ابن زيدان : «اتحاف أعلام الناس» 3، ص 334، طبعة الرباط 1350 ـ 1931.



نموذج من العملة الموحدية





من عملة الموحدين : في المحيط : أمير المومنين أبو يعقوب يوسف ابن الخليفة.

ومن الملاحظ أن بعض القطع حملت في أواخر العهد الموحدي شعار «العباسي إمامنا» وهو يفسر حركة الانفصال التي ظهرت ليس فقط في بعض الإمارات الأندلسية، بل وكذلك في بعض أقطار غرب إفريقيا : في غانة وتلمسان وتونس، تلك الحركة التي ساعد على استفحالها ملوك قشتالة وأراغون الذين كانوا يريدون إضعاف المغرب واستنزافه حتى لا يستمر في تقديم مساعدته لمسلمي الأندلس !

وقد انتقل معمل ضرب السكة في عهد بني مرين من فاس القديمة إلى الجديدة التي بناها الملوك المرينيون في أعلى المدينة، كما ظهرت دنانير ودراهم منذ بداية العهد المريني، الذي نقرأ عنه هذه الكلمات : «...وقد نفذ أمره لأبي يوسف يعقوب بن عبد الحق أن يجعل من الدرهم الواحد منها (الدراهم المحمدية) ثلاثة دراهم صغيرة ليسهل التبايع بين الناس... وقدم أمينا وناظرا عليها بدار سكته بفاس جدّنا الحكيم علي بن محمد الكَومي المديوني... وذلك سنة أربع وسبعين وستمائة، وكانت هذه الدراهم محكمة العمل معتدلة الصفحة متقنة الخط...[5]

5) أبو الحسن علي بن يوسف الكَومي المديوني : الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة مما اقتضب من الروضة الغضة في معرفة أحكام الذهب والفضة...



دينار مريني ضرب بأزمور

وفي عهد أبي سعيد عثمان 710 = 1310 ـ 731 = 1331 وجدنا أسماء الملوك على النقود الذهبية المضروبة بمدينة فاس، وقد ضرب بفاس دينار يحمل عبارة «ما أقرب فرج الله» وهي العبارة التي استعملها الزيانيون بتلمسان والتي تصادف محاصرة بني مرين لتلمسان...

ثم ظهرت نقود تحمل شعار بني الأحمر : (لا غالب إلا الله) في عهد أبي الحسن علي، كما ظهرت أنصاف القيراط.

ولم تظهر نقود ذهبية في عهد الوطاسيين في حين عثر فيه على قطع لبعض العملات النحاسية المستديرة التي ضربت سنة 951 = 1544 بمدينة فاس في عهد السلطان أحمد الوطاسي 932 = 1526 ـ 952 = 1545، وقد يكون السبب في عدم ضرب عملة ذهبية أيام الوطاسيين وجود عملة ذهبية رائجة تكفي لسد الحاجة، ولا نعرف من هذا العهد إلا بعض القراريط المضروبة بمكناس وغيرها دون النص على المعمل.

وحين استولى الشريف السعدي محمد المهدي الشيخ على فاس في نهاية 955 = 1548 عرف معمل فاس الجديدة نشاطاً جديداً، وهكذا ضربت فيه سنة 956 = 1549 عملة ذهبية وفضية وبرونزية.

وفي أثناء حكم أحمد المنصور الملقب بالذهبي وجدنا معملا آخر لضرب السكة وهذه المرة كان بمدينة (المحمدية) القديمة، وهي بالذات تارودانت، وقد كان مما نقش عليها : «ضرب بالمحمدية حاطها الله، عام ستة وألف».




نقود لأحمد المنصور الذهبي ضربت بالمحمدية (تارودانت) حاطها الله عام ستة وألف




نقود للسلطان زيدان بن أحمد المنصور الذهبي



مثقال فضي سعدي ضرب بمراكش سنة 1016




نقود لأحمد المنصور الذهبي ضربت بمراكش، الأصل في المتحف البريطاني




من نقود أبي العباس أحمد المنصور

وفي أثناء تفكك حكم السعديين وسيطرة الدلائيين على فاس تعرفنا على بعض النقود التي ترجع لهذه الفترة، وهي عبارة عن دراهم من الفضة بتاريخ 1072 = 1662، وفلوس مربعة من البرونز تعرف باسم النقود «الأشقوبية»[6] عام 1068 = 57 ـ 1658، علاوة على النقود المعروفة باسم النقود الكُهُوفية لأنها كانت تضرب في إفران (ج إفري) الكهف...[7]

☆ ☆ ☆

وقد دشن المولى الرشيد ابن الشريف حكمه لفاس بضرب عملة فضية سنة 1079 = 1568 تحمل اسم الرشيدية، واستبدل النقود «الأشقوبية» بعملة مستديرة تشبه العملة السعدية، كما ضرب الموزونة التي كانت تساوي ثمانية وأربعين فلسا...




من نقود السلطان مولاي الرشيد (1079)
ضربت بسجلماسة

وجاء أخوه السلطان المولى إسماعيل الذي أعاد السكة الذهبية وضرب نقوداً فضية باسمه بحضرة فاس...

وقد لاحظ المبعوثون الذين وردوا على المغرب أيام السلطان المولى عبد الله، أن العملة البرتغالية كانت كثيرة التداول، حيث نرى السفير روسيل **(Russell)** يعتمد عليها في نفقاته ومعاملاته.

---

6) كانت العملة مربعة على نحو القاعدة العليا لحبة الذرة الحمراء، ويظهر أن اسم (أشقوبية) له صلة بـ (Segovia) عاصمة المنطقة التي غرست فيها الذرة باسبانيا (إقليم مدريد) عندما وردت عليها من جزء الغرايب (Caraibes) الكرايبي.

7) يوجد أكثر من عشرين عَلماً جغرافياً في المغرب تحت اسم إفران، والقصد هنا إلى مكان معروف جدا في الأطلس المتوسط في إقليم رَبَع نتُوزّمت (Rba‘ n – Tuzzumt)



عملة على عهد مولاي اسماعيل بتاريخ 1093 ـ 2 ـ 1681

وقد استئنفت السكة الذهبية من جديد في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله بمدينة فاس، في حين كانت فيه العملة الفضية موفورة، وقد اكتسب الدرهم وزنه القانوني للمعاملات، لكن العملة البرونزية كانت ضعيفة...



من النقود التي ضربها محمد الثالث بتطوان سنة 1195



مثقال ضرب بتطوان سنة 1195 يرجع لعهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله

ولا ننسى أن السفير عبد المجيد الأزرق عامل إقليم تازة، انتدبه العاهل المغربي في شوال 1191 = نونبر 1777 للبرتغال حيث وجدناه يقوم في البرتغال بزيارةٍ لدار السكة ويقترح إيفاد ستة من الخبراء في الموضوع : وردوا بالفعل على المغرب ومكثوا فيه ثمانية عشر شهرا استقبلهم أثناءها سيدي مُحمد بن عبد الله، قبل أن يبعث بسفارةٍ لاحقة برئاسة الطيب[8] بوهلال...

ومع هذا فقد استمر السلطان سيدي محمد بن عبد الله في إصدار العملة الذهبية إلا أن هذا العمل لم يستمر، فبعد سك هذه العملة في مدريد تحت اسم (الضبلون) سنة 1201 أعلن العاهل عدم رضاه عنها لتعارضها مع سيادة البلاد.[9]

8) R. Lourido – DIAZ : Le commerce entre le Portugal et le Maroc, Revue d'Histoire Maghrébine, Janv. 1976.

9) أحمد بناني : بنك المغرب، ص 26.




من نقود السلطان سيدي محمد بن عبد الله

(الضبلون) ضرب بمدريد 1201

وفي سنة 1209 = 1795 أيام السلطان المولى سليمان ظهر «البندقي» الذهبي كما ظهرت عملة برونزية تحمل نجمة يسميها المغاربة بخاتم سيدنا سليمان، ربما اختاروا تلك العلامة لأنها صادفت أيام السلطان المولى سليمان. كما ضرب المولى عبد الرحمن بحضرة فاس مجموعة رائعة من (البندقي). غير أن هذه السّكة توقفت مع ظهور السّلطان سيدي محمد ابن عبد الرحمان.



من نقود السلطان مولاي عبد الرحمن (البندقي)

ضرب بفاس 1241



بندقي ضرب بفاس 1209 على عهد

السلطان مولاي سليمان

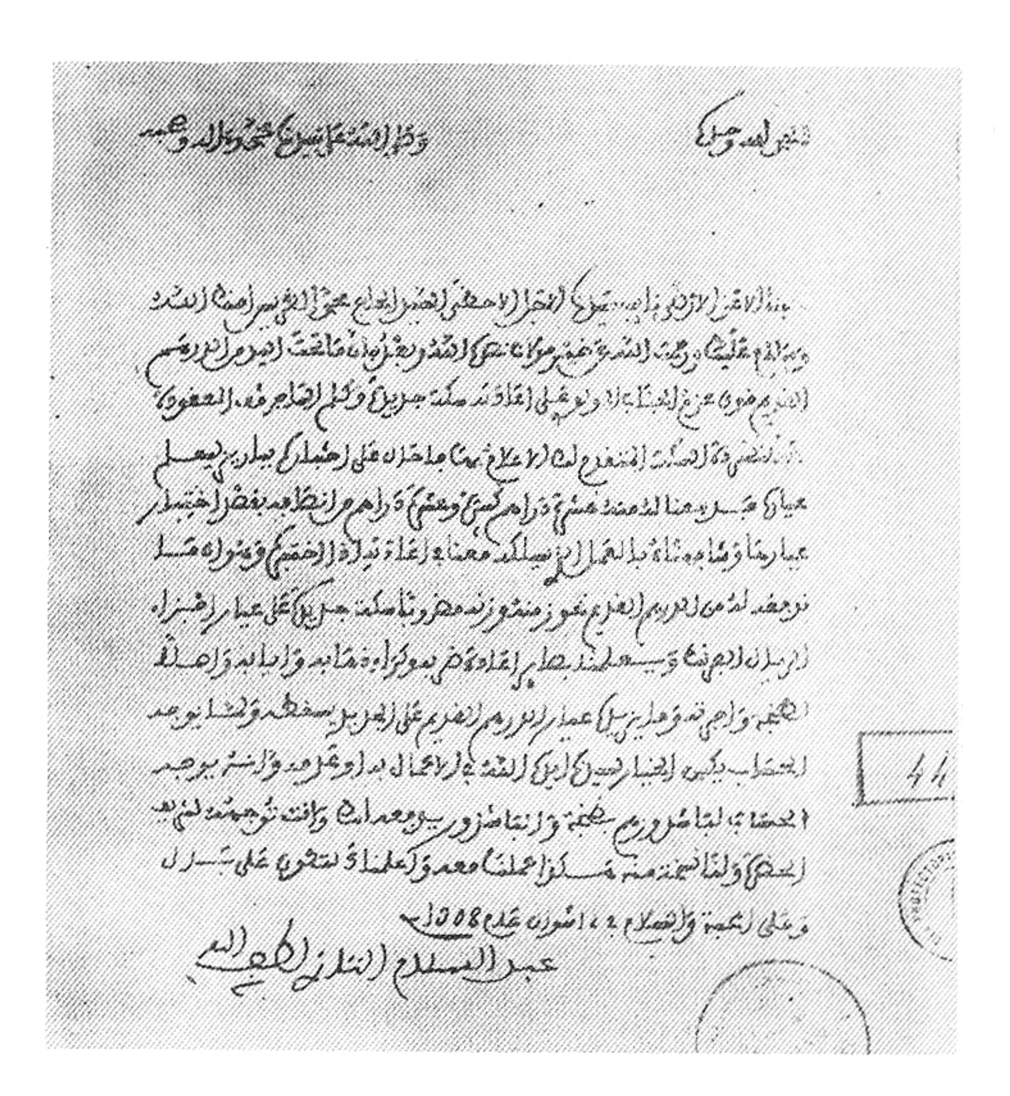
وقد كانت أزمة **تطوان سبباً** في انخفاض قيمة العملة الفضية التي أخذت محلها العملة البرونزية، حيث توقفت بدورها سنة 1291 = 1874 في أيام حكم الملك الحسن الأول عندما حلت محلها عملات ضربت في أوربا وفقاً لمواصفات العاهل الذي قرر التخلص من التبعية النقدية التي ما فتئت تتزايد، فاقتضى نظره «ضرب سكة على كيفية مخصوصة مبنية على أصل الدرهم الشرعي الذي كان في أيام جدّنا الأكبر مولاي اسماعيل، والمنصور السعدي وأبي الحسن المريني وغيرهم من ملوك المغرب...» على حد تعبير الرسالة المفصلة الهامة التي بعث بها العاهل إلى نائبه بطنجة السيد مَحمد فتحا بركاش،والتي كانت تحمل تاريخ 12 جمادى الثانية 1298 = 12 مايه 1881.

وقد كلف السلطان مولاي الحسن (الأول) أمين الأُمناء آنذاك محمد التازي بمتابعة الموضوع حيث نقف على ملف ضخم يتعلق بهذا الموضوع نقتبس منه هذه الرسالة الموجهة إلى الأمين بناصر غنام بتاريخ 10 ربيع الثاني 1282 = 1 مارس 1882 وهي تتحدث عن حلول بركاش وغنام بطنجة ومفاتحة نائب دار السكة في شأن تبديل طوابعها القديمة لعدم موافقتها الغرض الشريف مع ما وجد فيها من النقص، وأن المذكور كتب للشركة بذلك حتى يباشر الأمر على وفق المراد الشريف... كما يظهر من الرسالة أن النائب السلطاني كتب لمرسيلية والوندريز بالبحث عن أسعار الذهب والفضة، ولجبل طارق للبحث عن سعر الريال القديم والجديد...

وقد تابع أمين الأُمناء عبد السلام التازي تنفيذ المهمة التي كان السلطان مولاي الحسن عهد بها إلى أخيه الراحل، وهكذا نتوفر أيضا على طائفة من المراسلات المتصلة بالموضوع نذكر منها هذه الرسالة التي وجهها الأمين التازي إلى النائب الطريس وهي تحمل تاريخ 12 شوال 1308 = 21 مايه 1891 حول ما قر عليه عزم الجناب المولوي من إعادة ضرب السكة القديمة وجعلها على نحو السكة الجديدة.

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله

10 ربيع الثاني 1299 (1 مارس 1882)، رسالة من الأمين التازي للسيد غنام في شأن الاتصال مع نائب شركة السكة والكتابة إلى مرسيليا ولندن للبحث عن أسعار الذهب والفضة الخ.



رسالة بتاريخ 12 شوال 1308 (21 مايه 1891)، حول ما قر عليه عزم العاهل من إعادة ضرب السكة القديمة وجعلها على نحو السكة الجديدة.. عن أرشيف الخزانة الوطنية بتطوان.

وقد ضربت بماكنة فاس منذ سنة 1301 = 1884 أواخر أيام العاهل مولاي الحسن قطع جميلة من البرونز.




من نقود السلطان مولاي الحسن ضربت بماكنة فاس 1301



درهم يرجع لعهد الملك الحسن الأول، وقد ضرب بفاس 1311

...كما ظهرت قطع جديدة على عهد السلطان مولاي عبد العزيز وعهد السلطان مولاي حفيظ والسلطان مولاي يوسف بأوروبا وفق مواصفات قدمها أيضا المخزن...




من نقود السلطان مولاي عبد الحفيظ ضربت بباريز 1329




من نقود السلطان مولاي عبد العزيز ضربت ببرلين 1313





من نقود السلطان مولاي يوسف ضربت بباريز





من نقود السلطان سيدي محمد بن يوسف
(الملك محمد الخامس) ضربت بباريز 1344

وقد عرفت دار للسكة بفاس الجديد في بداية عهد العلويين كما عرفت أيضا فيما بعد بدار عديّل، وفي مكان ملحقٍ أيضا بفندق براس الشراطين حمل في الحوالات الحبسية القديمة اسم «درب السكة»...

وهذا، دون شك، غير المستودعات الاحتياطية التي كانت تزخر بالعملات الأجنبية من كل شكل، والتي كانت معدة للأيام العصيبة والنوازل الطارئة مما يكشف عن «المستودع» الذي اكتشف في بداية أيام السلطان مولاي عبد الحفيظ بمدينة مراكش والذي يحتوي على رصيد هام من العملة الأجنبية، وقد كتبت على ذلك «المستودع» هذه الكلمات : «بيت الكبريت على نية الجهاد»



بعض البعض من صور العملات الأجنبية التي اكتشفت في مخزن مراكش على عهد السلطان مولاي حفيظ وهي مأخوذة من مجلة «L'illustration» الباريزية عدد 18 يناير 1908.



بعض البعض من صور العملات الأجنبية التي اكتشفت في مخزن مراكش على عهد السلطان مولاي حفيظ

وبالرغم مما حاق بالمغرب من مصاعب ومتاعب أسلمته إلى معاناة عسيرة، فقد ظلت إصدارات دار السكة متوالية إلى أن تم في أعقاب مؤتمر الجزيرة الخضراء (يناير 1906) إنشاء «البنك المخزني» الذي استأثر بامتياز سكِّ القطع النقدية وإصدار الأوراق البنكية.

ومع ذلك فقد ظلت هذه الأوراق وتلك القطع تحمل شعار السيادة والكرامة، المتمثل في : الحرف العربي والتاريخ الهجري اللذان كانا يعبران عن التمسك والتعلق بالتاريخ الأصيل المكين للمغرب.

وقد تميز عهد جلالة الملك محمد الخامس رحمه الله - بعد استرجاع الاستقلال - بظهور مجموعة نقدية هامة، حملت لأول مرة رسم جلالته في مختلف فئاتها...



وقد واصل المسيرة جلالة الملك الحسن الثاني الذي أصبحت الخزينة في أيامه الزاهرة متحفاً رائعاً تضمن مجموعة نقدية تناولت ـ فوق أدائها لوظيفها كعملة ـ تخليدَ عددٍ من المناسبات الوطنية والأحداث الدولية التي عاشتها البلاد بعد استعادتها لاستقلالها...[10] على نحو ما وجدناه بمناسبة العيد العشرين للاستقلال والعيد الأول للمسيرة الخضراء، وبمناسبة مطلع القرن الخامس عشر الهجري والسنة العالمية للمرأة والطفل. وقد كان الحدث التاريخي «الذي أثلج صدور المغاربة هو ذلك الذي أعاد إلى ذاكرتهم كلَّ تلك الأصداء التي رددناها عن دور السكة طوال التاريخ وهو الذي تمثل يوم رابع رجب 1407 = الموافق يوم خامس مارس 1987 عندما قام جلالة الملك الحسن الثاني بتدشين دار السكة من جديد في المغرب فعاش المواطنون مع نشوة العودة لفترة الأوج وقمة الازدهار...





قطع نقدية بمناسبة ميلاد جلالة الملك الحسن الثاني أعزه الله

(10 Banque du Maroc : Corpus des monnaies 'alawites Par Daniel Eustache Rabat...





تخليدا لإنشاء دار السكّة بالمغرب من جديد





تخليدا للمسيرة الخضراء الظافرة



السنة العالمية للمرأة

مصادر تاريخ إفريقيا
من خلال المخطوطات المغربية

محمد إبراهيم الكتاني

كنت جمعت بطلب من اليونسكو بمناسبة اجتماع اللجنة التحضيرية لكتابة تاريخ إفريقيا، مجموعة من النصوص العربية الموجودة في المخطوطات المغربية، والتي لها أهمية علمية لمصادر تاريخ إفريقيا، وعلاقة مناطقها المختلفة ببعضها. وضمنت ذلك تقريراً علمياً يشتمل على مقدمة وثلاثة فصول :

الفصل الأَول

نصوص جغرافية

1) من الروض المعطار، في خبر الأَقطار، لعبد المنعم الحميري (الجزء الأَول) ونظرا لطبع الروض المعطار بعد ذلك، فلن أتحدث عنه الآن.

2) نصوص من مسالك الأَبصار، لابن فضل الله العمري الدمشقي قاضي مصر ورئيس ديوان الإنشاء، (700 هـ 1301م) وتقع المسالك في 32 مجلدا. والنصوص من جزء مصور على الورق بقسم المخطوطات بالخزانة العامة بالرباط

عن مخطوطة خاصة، ويتكون من 237 لوحة. ويحمل رقم د 2642 وفي هذا الجزء.

الباب الثامن عن ممالك المسلمين بالحبشة، وفيه 7 فصول (28 ـ 36) بالمرقنة.
والباب التاسع في ممالك مسلمي السودان على ضفتي النيل المتد إلى مصر وفيه فصلان، (ص 37 ـ 39) بالمرقنة.

والباب العاشر في مملكة مالي وما معها.
ولما كان الدكتور صلاح المنجد قد نشر هذا الباب في (كتابه مملكة مالي عند الجغرافيين المسلمين) نشر دار الكتاب اللبناني الجديد، بيروت 1963 من ص 43 ـ 70، فإني لم أورده.

الباب الحادي عشر مملكة جبال البربر : أهير، ودموسة، وتادمكة، (ص 39 ـ 40) بالمرقنة.

وتكلم في آخر الباب الثاني عشر الخاص بمملكة افريقية على السبْخة العظيمة المجهولة المسالك (ص 40).

وفي الباب الثالث عشر تكلم على مملكة بر العدوة وقال عن سجلماسة : وهي باب الصحراء إلى أرض السودان. وهي آخر العمران.

وقد قال في الباب الحادي عشر عن **مملكة جبال البربر** : وببلاد السودان ـ أيضاً ثلاثة ملوك مستقلين مسلمين بيض من البربر :
سلطان أهير.
وسلطان دموسة.
وسلطان تادمكة.

هؤلاء الملوك الثلاثة البيض : مملكة أهير، ودموسة، وتادمكة، ثلاثتهم ملوك مسلمون في جنوب المغرب، بين بر العدوة مملكة السلطان أبي الحسن، وبين بلاد مالي وما معها. وكل واحد منهم ملك مستقل بنفسه، لا يحكم أحد منهم على الآخر. وأكبرهم ملك أهير، وهم بربر، زيهم نحو زي المغاربة :

دراريع، إلا أنها أضيق، وعمائم بأحناك، وركوبهم الإبل، ولا خيل عندهم **ولا للمرينيين عليهم حكم**، ولا لصاحب مالي. وعيشهم عيش أهل البربر، من اللحوم والألبان، والحبوب قليلة عندهم.

وحدثني الشيخ **سعيد الدكالي** : أنه مر بهم في **بعض أسفاره** ولم يقم عندهم، وهم في قلة أقوات.

وحدثني **الزواوي** : أن لهؤلاء البربر جبالا عامرة كثيرة الفواكه، وقال : كل ما بأيدي هؤلاء الثلاثة يجيء قدر نصف ما لملك مالي أو أرجح بقليل، وأما ذاك أكثر دخلا لقربه من بلاد الكفار، وبها منابت الذهب، وهو قاهر عليهم، ودخله أكثر بهذا السبب، وبكثرة ما يباع بمملكته من السلع، وما يكتسبه من بلاد الكفار، بخلاف هؤلاء فإن بلادهم جدبة فلا يد تمدّ لهم إلى كسب. وغالب رزقهم من دوابهم.

ودون هؤلاء مما بينهم وبين مراكش جبال المصامدة. وهم خلق لا تعد، وأمم لا تحصى، وهم يفخرون بالشجاعة والكرم. فيهم أعيان الكرماء، وبهم تطل سواكب الدماء.

وقد كانوا لا يدينون لسلطان من سلاطين بر العدوة. ولا يقدر أحد من ملوكها يفتل له في غارب ولا ذروة.

ـ وهنا يأتي بالنبإ العظيم الذي أهمله المؤرخون المغاربة ـ فيقول :

«وقد وصلت إلينا الأخبار أنهم دانوا للسلطان أبي الحسن صاحب بر العدوة الآن.

وقد دخلوا تحت طاعته. وتقرب إليه كل منهم بما باستطاعته على أنهم لا يُمَلِّكُون لأحد قيادهم، ولا يُسلمون إليه بلادهم ! معه على كل حال. بين صحة واعتلال».

وترجع قيمة هذا الخبر، من جهة، إلى أنه مما لم يرد له ذكر عند المؤرخين المغاربة، ومن جهة ثانية إلى أنه يملأ حلقة مفقودة في تسلسل الصلات المغربية الإفريقية على مر العصور.

ففي عصر الخلافة الإدريسية، يذكر المسعودي في مروج الذهب أن قبائل صنهاجة (الملثمين) كانت تحت نفوذ الأدارسة، وكان دور المرابطين في نشر الإسلام في هذه الربوع عظيما، وكانت دولة المرابطين تشمل كلا من إفريقيا الغربية، وإفريقيا الشمالية والأندلس، وقال القاضي أبو بكر بن العربي المعافري : أن دولة يوسف بن تاشفين تمتد من حدود غانة إلى حدود مصر. وأنه يخطب باسمه على نحو ألف منبر.

وهؤلاء السلاطين البربر الذين ذكرهم ابن فضل الله العمري هم من سلالة المجاهدين المرابطين رحمهم الله ورضي عنهم.

ومن جهة أخرى، فقد ملأ أحمد المنصور السعدي ومؤرخوه الدنيا ادعاء أنه هو فاتح إفريقيا، وخبر ابن فضل الله يبطل هذا الادعاء !

الفصل الثاني

نصوص تاريخية سياسية

أوردت من (مناهل الصّفا) لعبد العزيز الفشتالي نصين :

1) رسالة السلطان أحمد المنصور السعدي إلى السلطان إسكيا.

2) رسالة المنصور إلى قاضي تمبكتو محمود بن عمر أقيت، وأوردت من «المنتقى المقصور» لابن القاضي ما كتبه عن غزو المنصور للسودان.

ونظرا إلى أن كلا من «مناهل الصفا» و«المنتقى المقصور» قد طبع فقد أصبح ما نقلته عنهما ميسورا لمن أراد الاطلاع عليه. وفقد بذلك قيمة كونه مخطوطا.

ثم أوردت نص **(الرسالة العجالة، الرائقة في العمالة)** التي وجهها من تمبكتو الشيخ المختار (الخليفة) بن محمد بن المختار (الكبير) الكنتي، المتوفى بتمبكتو، سنة 1268 هـ / 46 ـ 1847 لأمير المؤمنين عبد الرحمن بن هشام العلوي ملك المغرب (1822 ـ 1859) مع الوفد الذي بعثه السلطان إليهم برياسة بابا أحمد بن عبد الرحمن يطلب تآليف الشيخ المختار الكنتي الكبير وولده محمد.

والرسالة تقع فيما بين الصفحات 58 ـ 66، وتوجد منها مخطوطتان بالخزانة الحسنية بالرباط، إحداهما تحت رقم 2114 والثانية في الخزانة الزيدانية تحت رقم 3553 مؤرخة بشهر رمضان 1242 هـ والشيخ يصف السلطان بأنه أمير المومنين، وإمام الأمة. والخليفة المستخلف، وظل الله في أرضه.

ويذكر أن الوفد القادم عليهم من قبل السلطان ذكر من أوصافه ما يدل على أحقيته بالخلافة الحقية اليقينية.

ثم ذكر الكاتب السلطان بأن ما يجب له على عامة الأمة وخاصتها يجب مثله عليه لعامتها وخاصتها.

ثم أثنى على مولاي سليمان الذي استخلف المولى عبد الرحمن. ونصح السلطان بمجالسة العلماء، وصحبتهم، والدراسة والمطالعة، وبتخفيف الحجاب.

وجوابا عن طلب الوفد تأليف الشيخ المختار الكنتي وولده محمد، ذكر أنه أهداه أحد مؤلفات والده وجده.

وطلب من السلطان أن يبعث لهم «شرح الكلاعي»، و«شرح ابن حجر على البخاري» ويقصد بشرح الكلاعي شرح محمد بن عبد السلام بناني الفاسي لكتاب «الاكتفا في مغازي الرسول والثلاثة الخلفا» لأبي الربيع الكلاعي.

ويختم الرسالة بتوصية السلطان بتلامذتهم المنتسبين إليهم الكائنين تحت كنف ولايته خيرا وإحسانا.

قصيدة ابن إدريس في مدح الشيخ المختار (الخليفة)

وبعد (الرسالة العجالة) ترد في (المجموعة) قطعة من تسعة أبيات في مدح الشيخ المختار (الخليفة) وهي من نظم الوزير محمد ابن إدريس العمروي الفاسي المتوفى سنة 1264 هـ 8/1847 م وهي مذكورة في ديوانه، وقد بلغني أنه طبع في المدة الأخيرة.

مقتطفات من **رسالة أحمد البكاي** بن محمد بن المختار الكنتي، الذي تولى أمر الزاوية الكنتية أو البكائية أو المختارية بعد وفاة أخيه محمد المختار (الخليفة)، وتوفي البكاي بسيريدنا على النيجر سنة 1282 هـ / 1865 م.

وهي موجهة (إلى إخواننا أهل الغرب، الظاهرين بالحق من العرب، تعمّ عموما من ثم من النـاس. ثم تخصّ خصوصاً أهـل فـاس، ومكنـاس، مـع الأكابر من أهـل مراكش الأكياس، بعد رؤساء عامة الأجناس).

وهو يستهلها (بحمد الله. والصلاة والسلام على رسولـه، وعلى صحبـه وخلائفـه، وآلـه وذريته وعلى خليفـة عصرنـا... مولانـا عبـد الرحمن... بـارك اللـه عليـه وعلى بنيـه وبنيهم...) ثم (يحمد الله الذي أكرمنا بنبيـه ذي الكرم. وفضلنـا بـه على جميع الأمم، ثم وفقنا لاتباع سنته، وخصنا بتباعة عترته. فنحن ببيعتهم في بيعته).

ثم ذكر (إن الله تعالى **منّ علينا ـ أهل المغرب عامة**، وعليكم خاصة ـ بنعمتين :

أولاهما : أنه جعل بقاء الدين فينا...

ثانيتهما : أن جعل البيعة الدينية الشرعية النبويـة فينـا ولنـا، وأن جعل أولي أمرنـا منا، ثم من خيرنا أما وأبا، وأشرفنا نسبا، وأكرمنا حسبـا، وأفضلنـا منصبـا، من بيت نبينا... فعمنا اللـه بولايتهم، ونجـانـا ببيعتهم، أن نكون تحت ولايـة العجم وبيعتهم، لأنه قلّ من بقي من العرب ليس في بيعة العجم ويوصي المغاربة بكثير من الوصايـا ـ إلى جانب التمسك بطـاعـة إمـامهم وإمـامـه، كالجهـاد، والعمل بـالكتـاب والسنـة، وينتقد عليهم كثيراً من الخصال.

ويذكر ورود مولاي علي (؟) عليهم ـ كأنـه موفـد من قبل السلطـان ـ كما ذكر تعلق ولي عهد المغرب بطريقتهم.

وتضمنت الرسالة عبارة قصيرة ولكنها ذات دلالات واسعة عندما يقول :

(ونحن ـ وإن كنا مثلكم في بيعته ـ، فإن أرضنا بعيدة، فوضى في أرض سيبة !)

ـ كأن السلطة المركزية في فاس كانت عاجزة عن فرض وجودها في المنطقة بالقوة، نظرا لظروفها الخاصة، فكانت تقنع بهذه البيعة الشكلية. تاركة لرؤساء المنطقة أمر تسيير شئونهم، والتغلب على مشاكلهم ! وهذه الرسالة ـ الواقعة في 19 ورقة ـ توجد في خزانة خاصة بتطوان ومنها صورة على الشريط (ميكروفيلم) في قسم المخطوطات بالخزانة العامة بالرباط.

وتقع المقتطفات التي اخترنا منها فيا بين الصفحات 72 ـ 76 من (المجموعة).

قصيدة الشيخ أحمد البكاي

في مدح السلطان محمد الرابع، وفيها

46 بيتا، ومطلعها :

سلام كعرف الروض باركه المطر   لسيدنا بل سيد البدو والحضر

ومما جاء فيها :

ومن لم يَدِنْ منكم ببيعة سنة   فلا دينه يبقى ولا عرضه طهُر

وتوجد في الخزانة الحسنية ضمن مجموع رقمه 2114.

(نظم لقاء المسلمين والكافرين، في قرية بركلن في بلدسنكلا)

لناظم مجهول

وهو يتعلق بمعركة جرت سنة 1268 هـ / 1851 م بين جيوش المسلمين من (ڤولتا جالون) وبين سكان قرية بركلن.

وهو 48 بيتا، مهلهل مختل اللغة والوزن، تنحصر قيمته في تسمية بعض قادة المعركة، وهولها، وعتادها، وعدد الشهداء...

ويوجد في قسم المخطوطات بالخزانة العامة ضمن مجموع يحمل رقم د 4487 من ص 14 ـ 17.

بعض رسائل رؤساء السودان المغربي (غرب إفريقيا). إلى أمير المومنين الحسن الأول ملك المغرب يستغيثون به عندما هاجمتهم الجيوش الفرنسية.

في 14 شعبان 1311 هـ أصدر السلطان الحسن الأول رحمه الله ظهيرا لقضاة فاس الثلاثة السادة : محمد بن محمد العلوي، وحميد بناني، ومحمد ابن رشيد العراقي يخبرهم بأنه وجه لهم ـ على يد مولاي عمر ـ مكاتب أربعة وردت من عند **كبراء السودان وتنبكت :**

أحدها : لرئيسهم أحمد بن الحاج عمر.

وثانيها : لرئيس تنبكت يحي بن الكاهيا، وأعيانها.

وثالثها : للسيد البشير التلموذي وأعيان تنبكت.

ورابعها : للسيد أحمد بكار بن محمد المختار.

تضمنت الاعلام بما دهمهم من صدمة العدو، والاستغاثة في إنقاذهم والدفاع عن بلادهم وأولادهم.

ويأمرهم أن يحضروا **هم وعلماء فاس** المحروسة عليها، ويتأملوا فيها بالامعان والتدبر، **وما اقتضاه الشرع والطبع والمصلحة** في ذلك يجيبون به ويدفعون الجواب لمولاي عمر ليوجهه على يده.

وقد اطلعت ـ في مكتبة خاصة ـ على نسخ من الرسائل : الأولى، والثانية، والرابعة. وأقدمها تاريخا ـ وهي الثانية في المجموعة التي وقفت عليها ـ مؤرخة بضحوة الجمعة لأربع عشرة ليلة مضت من ذي القعدة، عام 1301 !

في أولها اسم أحمد الكبير بن الشيخ عمر الوالي الأغر...

وفي آخرها : (عبد ربه الحقّ البرّ أمير المومنين عمر بن سعيد بن عثمان ومن المؤكد أنه قد سقط من التوقيع اسم أحمد، فالصواب أحمد بن عمر الخ) هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن الرسالة مؤرخة عشر سنوات قبل رسالة السلطان، وقبل الرسالتين الأخريين ـ كما سيأتي ـ فهل لم تصل إلا بعد هذه المدة الطويلة، أو وصلت من قبل وانشغل السلطان عن الجواب عنها ؟ وعلى كل حال، فالرسالة مليئة بالمعلومات التاريخية المهمة جدا.

1 ـ فهو يذكر أن والده لما أقامه الله لتجديد شريعة ربنا وربك ـ الخطاب للسلطان ـ وأحيا، شريعة نبينا جدك، فرفع الإسلام على دعائمها، وأحكم بناءها وشيدها، أنهى إلينا الأمر، وقلدنا خطوبها (لعل الصواب : خطبها) الأَمَرّ، قمنا ـ لوجه الله بأعبائها، وتكلفنا كلفها، وتحملنا بالله ثقلها.

2 ـ ارتدت الكفرة بعد إيمانهم، ونبذوا ذممهم وعهودهم.

3 ـ فاستعنّا بالله على قتالهم، وقاتلناهم حتى غلبنا الله عليهم. تصديقا لوعد الله، وبركة نبيه، فوضعت الحرب بيننا وبينهم أوزارها، وألقت إلينا الأمر قيادتها، (كذا ولعل الصواب : الأمم).

4 ـ فلم يرعنا إلا مداخلتهم النصارى ! وراسلوهم، وواعدوهم على المعاونة وعلى تمليكهم البلاد !.

5 ـ وقد كانوا (أي الكفرة) أتوا إليهم ـ أي إلى المسلمين ـ عام 1280 هـ لابتغاء السلم فعاقدوهم عقودا وثيقة، وكاتبوهم.

ـ وأورد نص الوثيقة التي كتبوها، وهي وثيقة تاريخية مهمة بتاريخ أواسط ذي القعدة 1282. فأجابهم بخط العلامة الحاج ابن المقداد، بأنه قد قبل الشروط والتزم بها كلها.

6 ـ ثم أظهروا الخيانة ونبذو العهد وراءهم ظهريا، ثم أعلنوا الحرب.

ـ فانقلب إليهم البلاد بسكانها : ذميها وكثير من فجار مومنيها !

7 ـ فأخذوا بلاد فوت (1) وكوت (2) وسغ (3)، وبنددغ (4) وبنبغ (5) وفلدن (6) ودبرك (7) وباغة (8) غدراً وخيانة !

8) وبعدما استغاث بالسلطان، عدد الفظائع التي ارتكبوها ضد المسلمين فقال : (إن محبك عذبوا، **وبلادك** قد خربوا، **ورعاياك** قد شتتوا : فهم اليوم بين قتيل وأسير وطريد ومنهوب ومنتهك ستره).

وقد خربوا المساجد، وحرقوا المصاحف، وأذروا (كذا) كتب العلم منشورة على الفلوات. واتخذوا المصلى كنائس، وجعلوا النواقيس مكان التأذين. واتخذوا بنات الشيخ سراري ! وأولاده خدما، وقسموا أولاد المسلمين، بين صناديد المشركين، وتوغلوا في بلادك مسيرة شهر في شهر !.

وقال : **فإن الفرانسة أغدر خلق الله، وأكذبهم، وألأمهم، وأفجرهم.** وقد كاتبناهم ـ بعدما مضى ـ بمكاتب كثيرة ولم يسمعوا إلى شيء منها.

9) وهو يتفنن في إغراء السلطان والاستغاثة به، فيقول : والآن، الله، الله، الله، **يا خليفة الله في أرضه،** وخليفة رسوله في أمته يا ابن سيد المرسلين، دراكِ، دراكِ. دراكِ. سريعا !

ويقول : فانظر ماذا ترى ؟! **فأنا منك وإليك،** لا من غيرك، ولا نُنْسب **إلى أحد سواك.** فإن كوننا من تلامذة الشيخ التيجاني ـ رضي الله عنه ـ أظهر من كل ظاهر، وكوننا من أهل بيعته ظاهر جلي، وكون الشيخ التيجاني ـ رضي الله عنه ـ في بيعة جدكم المكرم، والشريف المعظم، أمير المومنين، مولانا سليمان أظهر من نار على علم.

فإذا كان الأمر كذلك، فالله، الله، الله، **يا أمير المومنين،** فانظر في هذا الأمر العظيم، والخطب الجسيم، واجمع له خيلك، ووجه إليه همتك، وأجلب خيلك ورَجلك، وسل له أسياف جدك، واركب لكشفهم عنا جواد عزمك، واكشف عن ساعد حزمك.

وقد استولى أعداؤك وحسدة جدك **على بلادك،** فأخرجهم عنها أذلة وهم كارهون، وحتى يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون !

ولا تقدموا على إخراج أعدائكم **من بلادكم** ـ بأية حيلة ـ وبكل أمر ممكن أمرا.

لعلكم تزدادون سعدا بإنجاء المومنين، وفك أسارى المسلمين، وتطهير بلاد الموحدين، من أعداء الله الملحدين.

أبقاكم الله ونصركم وقواكم، وأطال في نصرة الدين أيامكم، ورفع أعلامكم، آمين، آمين، آمين.

وقبل الانتقال إلى الحديث عن رسالة رئيس تنبكت يحي بن الكاهيا وأعيانها، ألفت ا لنظر إلى أن كلمة **بلادك** قد وردت في رسالة أحمد الكبير بن الحاج عمر الفوتي أربع مرات. كما وردت كلمة **رعاياك**، ومعنى ذلك، أن الحاج عمر وإن تلقب بأمير المومنين وورثها عنه ولده أحمد، فإنهم كانوا يعتبرون أنفسهم نوابا لأمير المومنين الحقيقي وهو سلطان المغرب، الذي سماه خليفة الله في أرضه.

ولا بأس من لفت النظر إلى الأسلوب العربي الفصيح السهل الواضح الذي كتبت به الرسالة، مما يعطي صورة عن مدى ازدهار الثقافة العربية وتقدمها في هذه المنطقة من السودان المغربي في هذه المرحلة.

رسالة يحي بن الكاهيا رئيس تمبكتو وأعيانها وهي بتاريخ 16 محرم الحرام عام 1311 هـ.

وقد ورد فيها : أن أعداء الله فرنصيص **كانوا قدموا علينا في العام الخامس من قرننا هذا** ـ (أي 1305)، وطلبوا **منا البيع والشراء والاستيطان في أرضنا**، فامتنعنا منهم ذلك (كذا) وأجبناهم **بأننا في طاعتك، وتحت بيعتك،** فقلنا لهم : **إن أتونا بكتابك أو أمرك بوفاق ذلك قبلناه، ورضيناه**، فاذاً ما وجدنا عندهم أمرك ولا كتابك، **وكتبنا لهم بما ذكرنا** وأجابونا بأنهم **الآن علموا الأرض لمن هي**، فالآن لا عهد بيننا وبينهم ولا أمان، ورجعوا، وكان ظننا بأن الكفاية لنا منهم في ذلك، حتى أتونا وغزوا أطراف أرضنا بقرب، **وقدموا لمدينة جنِ في 23 رمضان في السنة العاشرة**، بالحرب والقتال وأرادوا خديعتهم بما ذكرنا، فلم يقبلوا منهم الحرب والقتال. (كذا، والسياق يقتضي : إلا الحرب)

وتحاربوا معهم حربا شديدا، **وقد قتل من الفريقين مقتلة عظيمة وظفروا بعد** بأهل جنِ المذكور، **وملكوا مدينتهم، ودخلوها عنوة، ونهبوا جميع ما يملكونه من خيل وسلاح ومال، وسبوا نساءهم وذراريهم** وخرجوا من البلد، **وتركوا بعضا منهم فيها.**

وعبروا البحر، قاصدين أحمد بن عمر الفوتاوي ـ الذي كان متملكا على تلك النواحي كلها ـ **حتى بلغوا دار ملكه بينغي ففر منهم هاربا يطلب نجاة نفسه** وطلبوه على الإثر بعد الهرب حتى عجزوا عن طلبه. ورجعوا.

ومكثوا فيما ذكرنا من البلاد كلها، وقد أطاعهم جميعها. إنا لله وإنا إليه راجعون !

وبعد ذلك كتبوا لنا كتابا يطلبون منا مثل ما طلبوه منا أولا، مما ذكرنا فأجبناهم بما أجبناهم به سابقا، ولم يردوا جوابا بعد. وقد علمنا بأنهم قادمون إلينا بلا شك ولاريبة. وأن أقصى مطلبهم ملكنا وملك مدينتنا.

ولذلك كتبنا إليك، نشكو إلى الله ورسوله ثم إليك حالنا، وبما قد دهمنا ونزل بنا لتغيثنا، لأنه لا ملجأ لنا ولا منجا إلا إلى الله ورسوله ثم سيدنا المنصور بالله.

ووجهناه مع رجلين منا ليشافها سيدنا المنصور بالله بشكايتنا، يصحبهم (كذا) ما أمكننا من هدية سيدنا نصره الله. على قدر الطاقة، من ذهب مصوغ حليا، وعباءات من صنع السودان، مع أننا نعلم أن ذلك ليس بقدرك الرفيع، لكن هذا ما سمح به الحال ! وسيدنا أولى بالمعذرة لنا، لأننا في أرض بعيدة شاعت فتنها بين أهلها قبل. وذلك مما لا يخفى أنه يضعف الحال والمآل، مما يعلمه غير واحد من الواردين إلينا مما نحن فيه، ومما لاقينا منهم، وذلك مدّة اثنين وثلاثين سنة نارها ضارمة، والحرب فيها مشتبكة.

والآن، نريد من الله ثم من سيدنا أن يعجل إلينا إغاثته مما ذكرنا مما نزل بنا لأن كل من هنا من المسلمين قلوبهم تائقة لما يأتينا من الفرج والنصر والتأييد من قبل سيدنا المنصور.

ومما أفادتنا به هذه الرسالة أن الجيوش الفرنسية غزت الشيخ أحمد ابن الحاج عمر الفوتاوي بعد غزوها جِيٍ، وكان غزوهم جِي في السنة العاشرة (1310) وعليه فيكون تاريخ رسالة أحمد بن عمر إلى السلطان سنة 1301 غير صحيح ولعل تاريخها 1310.

رسالة أحمد بكار بن محمد مختار بن بالعمش وعبد الله بن العبد

وهي بتاريخ أوائل جمادى الأولى عام 1311 هـ.

وفيها يحلى السلطان ـ فيما يحليه به ـ : (من مهد لنا بعدله وسياسته جميع الأمور) (سلطاننا، وولي نعمتنا).

ويخبر السلطان (أنه يرد على حضرتكم... رجلان سودانيان من تنبكت بهدية من أهل مدينتهم، بعثوهما على عجل، وافدين لحضرتكم العلية بالله مستغيثين، بعلاكم ونصركم وحمايتكم متعلقين، مما حل بلادهم من كيد العدو اللعين، أفرانصيص ـ دمره الله ـ فقد استولى على أطراف السودان وخافوا من أخذه لتلك البلاد. فلتداركوا ـ سيدنا ـ حالهم، ولترعوا ضعفهم، فقد سبوا مما أخذوه نساءهم ورجالهم، فلا منقذ لهم مما حل بهم إلا الله ثم أنتم. فكلمتكم ولله الحمد نافذة في جميع البلاد، من حاضر وباد، وإلا فأنتم أدرى وأعلم بشؤون من قلدكم الله جميع أموره، في وروده وصدوره، ففي الحديث (كلكم راع ومسئول عن رعيته).

وقال في الآخير : (من نائبكم).

وهكذا نرى أن أهل تمبكتو كانوا يعتبرون أنفسهم من رعايا السلطان، وكان فيها إلى جانب رئيسهم ابن الكاهيا، نائب للسلطان.

وفي ظهير السلطان كبراء السودان وتنبكتو، فهي ليست في نظر السلطان من السودان.



الفصل الثالث
نصوص ثقافية

تتضمن بعض الصلات الثقافية بين المغرب وبعض الأقاليم الإفريقية وموضوع العلاقات الثقافية المغربية الإفريقية يستوعب (موسوعة كبيرة) تفتقر إليها كل من المكتبتين المغربية والإفريقية. والنصوص الواردة في هذا الفصل هي :

1) التعريف بأبي العباس أحمد اليمني نزيل فاس، وهو بقلم الإمام محمد بن أحمد بن المسناوي الدلائي ثم الفاسي.

2) التعريف بكتاب «مباحث الأنوار، في أخبار بعض الأخيار» تأليف أبي العباس أحمد بن محمد... ابن يعقوب الولالي ثم المكناسي.

3) التعريف بالشيخين عبد الله البرنوي وولده عمر. (عن مباحث الأنوار).

4) العربي بن أحمد ابن الحاج الفاسي نزيل تمبكتو. وأثناء التعريف به وردت رسالة موجهة إليه من إنشاء الفقيه الأديب المؤرخ أبي العباس أحمد بن محمد ميارة.

5) التعريف بكتاب «الإرشاد في الهداية إلى السداد، وحسن الاعتقاد» تأليف الشيخ المختار الكنتي (الكبير).

ـ 6) مقتطفات من «الإرشاد» تتعلق بصلة آبائه بالمغرب الأقصى.

7) التعريف بفهرسة شيوخ محمد بن المعطي السرغيني المسماة «حديقة الأزهار، في ذكر معتمدي من الأخيار».

8) قصيدة الشيخ محمد ابن دحو الأزموري في التعزية في شيخه الشيخ المختار الكنتي الخليفة.

1 ـ التعريف بأبي العباس أحمد اليمني ثم الفاسي

وهو بقلم الشيخ الإمام محمد بن أحمد بن المسناوي بن محمد بن أبي بكر الدلائي ثم الفاسي المتوفى سنة 1136 هـ 1724 م.

والوثيقة منقولة من خطه بواسطة ثقة، ضمن مجموع بالخزانة العامة بالرباط رقم $\frac{471}{6}$ د من ورقة 188 وجه إلى 189 وجه.

ويذكر المسناوي عن اليمني أنه : من قرية يقال لها (معلق) ـ بفتحتان وشدة اللام ـ بين أربجي وسنر، وأربجي مدينة بصحراء بين صعيد مصر وأرض الحبشة ـ بينها وبين سنر نحو خمسة أيام. وسنر مدينة بالصحراء المذكورة أيضا، وكلتاهما على النيل.

وكان خروج سيدي أحمد المذكور من بلاده سنة خمس وسبعين وألف ودخوله لفاس سنة تسع وسبعين وألف في ثامن وعشري جمادى الآخرة، وكانت إقامته بها 33 سنة، وتوفي في الليلة الأولى من رجب عام 1113.

وبعد ما ذكر والده وجده قال إنه من دار صلاح وبيت ولاية. وذكر شيخه الذي ينتسب إليه، وإن سنده يتصل بالشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه وذكر لليمني شيخا آخر أخذ عنه أيضا بمدينة أجي.

ومن شيوخ سيدي أحمد أيضا الشيخ سيدي عبد الله بن الإمام عبد الجليل بن عمر البرنوي الحميري نسبا، نزيل أكلنبر من عمل برنو من بلاد السودان، توفي في ربيع الثاني من سنة ثمان وثمانين وألف عن ثلاث وستين سنة في قتال البغاة من التوارگ.

دام عنده سيدي أحمد شهرين، وكان يحدث عنه بالعجائب !

وزاره مرة أخرى - بعد استقراره بفاس - فوجده قد توفي، وولده الشيخ عمر مكانه.

ومن شيوخ سيدي أحمد اليمني - أيضا - الشيخ أحمد - الصادق - بن الشيخ أبي محمد أويس بن عبد القادر التاركَي نسبا، بالكاف المعقودة. نزيل **اكَدز من بلاد التوارگ**، وطريقه سهرودية.

قال المسناوي : وأخبرني الثقة الصدوق سيدي أبو بكر بن محمد بن الخديم بن الشيخ سيدي أبي بكر بن محمد الدلائي : أنهم - حين ذهبوا مع سيدي أحمد اليمني من فاس لزيارة الشيخ عبد الله البرنوي - مروا في طريقهم على أكَدز بمنزل الشيخ الصادق المذكور - وكان قد توفي إذ ذاك - فوجدوا به أولاده فأضافوهم وذكروا لسيدي أبي بكر : أن والدهم كان يقول لهم : إن بالمغرب دارا من إخوانكم ! وعقب المسناوي بقوله : (وهو موافق لما لدينا سماعا من الأسلاف)، **إنهم من قبيلة لمتونة** - يعني التوارگ - انتهى.

وبالمناسبة اذكر أن في وادي درعة بالمغرب بلدة إسمها أگدز - بالكاف المعقودة - بين وارزازات وزاگورة.

ومن المعلوم أن القصر الملكي بالرباط يقع في حي اسمه (التوارگة) وهم الذين كانوا الحراس الخاصين لسلطان المغرب.

2) التعريف بكتاب «مباحث الأنوار في أخبار بعض الأخيار» تأليف أبي العباس أحمد بن محمد..... ابن يعقوب الولالي دفين مكناس، المتوفى سنة 1128 هـ 1714 م. وهو عالم كبير، صوفي، مدرس، مؤلف في : المنطق، والأصول، والبلاغة والتصريف، والتوقيت والمناقب. وقد فرغ من «مباحث الأنوار» **بفاس** عام 1109 هـ / 1698 م. ورتّبه على ثلاثة مباحث، وخاتمة.

المهحث الأول في مناقب شيخه الصوفي محمد بن عبد الله السوسي. نزيل مراكش والدلاء، ثم المدينة المنورة. المتوفى بمكة حاجا (عام 1079 هـ / 1669) ومناقب بعض أصحابه وهم 16 شخصا.

المبحث الثاني، في مناقب والد المؤلف، وأبيه، وأبي أبيه وشيوخهما (كذا).

الثالث فيمن لقيهم المؤلف - غير من تقدم - ممن يظن بهم الخير، وهم 7 أشخاص.

وذكر في (الخاتمة) المشاهير من أهل البيت، القاطنين ببلادنا المغربية. وقد ذكر الولالي أن شيخه محمد السوسي **مر في طريقه للحج بالسودان.** وأنه قال : إنه وجدهم أبعد الناس عن الخير ! ولكنه لم يزل واقفا عليهم حتى فتحهم ! (خ ع ق 342 ص 134).

هذا ولم يقف صاحب «فهرس الفهارس» على «مباحث الأنوار» مع ورود ذكره فيه، وتردد اسم مؤلفه فيه مراراً عديدة !

كما لم يرد له ذكر في (دليل مؤرخ المغرب الأقصى) ! وقال عنه ليفي بروفنصال في (مؤرخو الشرفاء) : ويظهر أنه يعتبر مفقودا ! (ص 291) (الترجمة العربية).

وقد عثرت منه على مخطوطتين :

1) في خزانة الجامع الكبير بتازة، وتقع في 403 ص. ونقلتها لقسم مخطوطات الأوقاف بالخزانة العامة بالرباط وتحمل رقم ق 342.

2) عثرت عليها في الخزانة الحسنية، وتحمل رقم 5617، وهي منقولة عن مبيضة المؤلف بتاريخ 1128.

3) ونقلت في (نصوص مختارة) عن «مباحث الأنوار» ترجمة الشيخ عبد الله البرنوي، وولده الشيخ عمر.

وقد تلقاها الولالي عن سيدي أحمد بن محمد اليمني الأصل نزيل فاس وهي ترجمة تضيف معلومات مفيدة لما تلقاه الإمام المسناوي عن سيدي أحمد اليمني في الموضوع. وفيها أن التوارك هجموا عليه في بيته فقتلوه وقتلوا معه كثيرا من أتباعه.

هذا ـ وقد نقل اليفرني في «صفوة من انتشر» (ص 177) عن شرح الأديب الصوفي الشاعر أبي العباس أحمد بن عبد الحي الحلبي نزيل فاس المتوفى بها سنة 1120 هـ / 1708 م على مناجات الشيخ عبد الله البرنوي.

ولعله الذي سماه في «سلوة الأنفاس» ج 2، ص 165 (ريحان القلوب فيما لسيدي عبد الله البرنوي من أسرار الغيوب) وقال إنه في مجلد.

وقد قلت عنه فيما كتبته لليونيسكو : إنه يعتبر مفقودا، ولكن المخطوط ورد من فاس بعد ذلك في (جائزة الحسن الثاني للمخطوطات).

هذا، وذكر الشيخ أحمد بن مبارك اللمطي في «الابريز» : أن الشيخ عبد العزيز الدباغ صلى الصبح في جامع باب عجيسة ـ بفاس ـ في أحد الأيام وهناك التقى بالشيخ عبد الله البرنوي ! وجرى بينهما حديث.

المجاعة بفاس

وتتحدث الرسالة عن (أحوال هذه المدينة الإدريسية وغيرها من الأعمال البعيدة والقريبة : (فقد هد الجوع أركانها، ومزق أوطانها، وأخلى رسمها، ولم يبق في الحقيقة إلا اسمها، وخرب منها الدور والحومات، **ومات من أهلها الثلثان والثلث الباقي أشرف على الوفاة**، مع ما انضاف إلى ذلك من **الفتن** والفوضى، والسيرة في الأمر المريج الذي لا يرضى، وتراكم أهوال الوقت، التي تجل عن الوصف والنعت...).

وذكر الكاتب عن نفسه : (أنه كان قبل هذه الساعة بقريب : متوفر المال والجاه، آخذا من كل علم نصيب، ثم لما اشتدت الأهوال والحسرات، **ونهبت الأموال** وغلت الأسعار والأقوات، أصابه من ذلك ما ترك الكف صفرا، وضاقت عليه الأرض من أجله برّاً وبحراً، فانتهى الأمر به إلى أن صرف عن تعلم العلم الشريف، وصيره الدهر نكرة في سياق النفي تحتاج للبيان والتعريف. فلما جهل بين قومه وأهله، وأنزله الفقر عن محله، رفع الشكوى لكاشف البلوى، وعالم السر والنجوى... فناداه مناد في الحال، ها نجل شيخنا ابن الحاج العظيم النوال، أبوه كان بالمغرب بركة الوجود، **وابنه بالسودان تضرب به الأمثال في الكرم والجود**، وتغشاه الوفود من كل مكان، وتخر لمهابته الجباه والأذقان، فاقصده يواسيك، ويعرف حالك وحال أبيك. فصرف الوجه للارتحال، وقال : الخير كله في الانتقال، **فلما عزم على المسير** أقعده هم العيال وعدم التيسير !

ثم أطال القول في السؤال نظما ونثرا.

«نزهة الأذكياء، في التعريف بمن كان بعد الألف من العلماء والأولياء»

وقال في آخر رسالته :

(وأنهي لسيدنا أني ألّفت تأليفاً سميته **«نزهة الأذكياء، في التعريف بمن كان بعد الألف من العلماء والأولياء»**، مرتبا على حروف المعجم، جامعا أعيان من أهل

القرن الحادي عشر إلى وقتنا هذا، ذكرت فيه ما ينيف على ستمائة رجل، وقد تم ترتيبه، وبقي تهذيبه. ومن جملة من تبركنا بذكره - وإن كانت شهرته تغني عن التعريف به) - سيدنا والدكم، قدس الله روحه، وأسكنه من الجنان فسيحه، وفيه أيضا ترجمة ولده سيدي محمد، وترجمة حفيده سيدي أحمد. وإن فسح الله في العمر يصلكم إن شاء الله).

قال الكاتب : ووجدت بعد هذه الرسالة ما نصه :

يقول كاتبه (**محمد بن أحمد ابن زاكور :** إن هذه الرسالة لما وصلت الفقيه سيدي الحاج العربي ابن الحاج المذكور، لمحروسة تنبكت، بعث للفقيه سيدي أحمد ميارة **«قرمي»** من الذهب، وقدره **ثلاثة وثلاثون مثقال وألف مثقال).**

مصدر هذه الترجمة

هذه الترجمة الحفيلة بالمعلومات المفيدة والغريبة، عثرت عليها في المجموع رقم ك 1264 بالخزانة العامة بالرباط وتقع في أربعة أوراق من 90 - 96 وهي من كتاب مجهول الإسم والمؤلف، وكتب عبد الحي الكتاني في أول المجلد أن هذه الأوراق بخط الشيخ الطالب ابن الحاج.

هذا وفي «سلوة الانفاس» ترجمة الشيخ أحمد ابن الحاج والد السيد العربي وترجمة أخيه محمد بن أحمد (ج 1 ص 153 - 155 وص 155 - 156). كما وردت فيها ترجمة الشيخ محمد ميارة - والد أحمد كاتب الرسالة (ج 1 ص 167 - 169).

6 - التعريف بكتاب «الإرشاد، في الهداية إلى السداد، وحسن الاعتقاد» تأليف المؤلف المكثر، الشيخ المختار (الكبير) بن أحمد أبي بكر الكنتي التنبكتي الولاتي. المولود بكثيب أفال سنة 1142 هـ / 1729 م / 30 م، دفين أزواد، 1226 هـ / 1811 م.

تكلم فيه على كثير من مسائل العقائد، والتفسير والحديث والسيرة النبوية، والتصوف، والكرامات، والمناقب والوعظ والاذكار وما أشبه ذلك.

توجد منه في الخزانة العامة بالرباط نسختان :

1) ك 2472، وهي ناقصة كثيرا ولا يوجد منها إلا 213 ص، وفيها تسمية الكتاب ومؤلفه.

2) ك 938 وهو الثالث ضمن مجموع، من ص 182 ـ 667. وهي أيضا ناقصة من آخرها، ولكن يظهر أن الناقص ليس شيئا كثيرا، وليس في هذه النسخة تسمية الكتاب ولا المؤلف، وإنما اهتديت إلى المؤلف أولا بأسلوبه الذي لا يخفى على من اطلع على مؤلفاته، ثم بالمقابلة مع النسخة الأخرى المشار إليها أولا.

والمقتطفات التي نقلناها منه تقع فيما بين ص 442 ـ 456 من النسخة الثانية، أما الأولى فإنها تنتهي قبل الوصول لهذا الموضع.

7) التعريف بالمقتطفات التي أوردنا من (الإرشاد). وهي تتضمن مأثوراتهم الشعبية الشفوية عن مناقب بعض جدودهم وفيها تنقلهم بين أقطار المغرب والصحراء. ومع أنها مكتوبة بروح منقبية لا تتقبلها إلا عقول شديدة السذاجة، فهي لا تستند إلى مصادر، ولا تخضع لنقد ولا تمحيص، الأمر الذي يجعلها أبعد ما تكون عن الروح العلمية والرواية المعقولة، فإنها لا تخلو من بعض اللمحات التي يمكن الاستيناس بها في بعض الأحيان.

فشيخهم وجدهم عمر الملقب بالشيخ، بن أحمد البكاي بن محمد الكنتي ذهب إلى الغرب الجواني من المغرب الأقصى فلم يجد من يفيده ! ثم جال في بلاد التكرور حتى لقي محمد بن عبد الكريم المغيلي وقد أقبل من بلاد هوص، **يريد التكرور بالمغرب**

الأقصى... فلازمه ثلاثين سنة، وحجا معا. ولما حضرت المغيلي الوفاة قال للناس : من يريد مني بركة أو علما فليطلبها من سيدي عمر الشيخ.

واستن عمر الشيخ بسنته في الدعوة إلى الله، وإرشاد الضال وتعليم الجاهل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الموسم ! والحيطة على الضعفاء والمساكين، وزجر الطغاة، والأخذ على أيديهم، وكان يأمر بنيه بذلك ويحضهم عليه، ويستعملهم في ذلك. ثم تجرد للعبادة **حتى مات وهو على رأس جبل من جبال السوس** ـ بالقرب من أق ـ رماه أحد قطاع الطرق ببندقية. وبني عليه أهل (أق) قبة، ونظموا صدقات لزائريه.

ومن تلامذة عمر الشيخ بن أحمد البكاي بن محمد الكنتي أبو بكر التوجي، وكان ملازما له حتى توفي فانتقل إلى سجلماسة على وجه التعبد والخلوة. وخلف عمر الشيخ بعد وفاته ابنه المختار (الشيخ).

وذهب إلى مراكش بقافلة جرارة من المساكين ـ وكان يرافقه أخواه : الوافي والفيرم ـ فوجد نصرانيا قد أخذه بعض الملوك (؟) السعدية وزيراً واذنه في الفساد ! فقتله السيد الوافي فبعث إليهم السلطان وهو غضبان فوعظه سيدي المختار الشيخ... ويروى أنه حسن سيرته من يومئذ. وكان من عادة المختار الشيخ إذا كان في مجلس التدريس أن لا يكلم أحدا ولا يرد السلام على أحد حتى ينفصل المجلس. وقد أدت عادته هذه إلى حرب بين قبيلة كناتة وبين قبيلة يقال لها أبناء عبد الرحمن... ثم انتقلوا بعد ذلك إلى البرابيش.

ومات سيدي **المختار بتوات** وقبره مشهور هناك يزار إلى أيام المؤلف. وخلفه ابنه أحمد، وولي خزانة أبيه، وكان يدرس كما كان أبوه يدرس قبله. وكان أحمد الملقب بالفيرم بن عمر الشيخ مدرسا أيضا وولده محمد الرقاد ـ وولده أحمد بن محمد الرقاد...

وقد نظم الولي الصالح... محمد بن محمد العلوي بعض مآثرهم. ثم عاد المؤلف إلى الحديث الطويل العريض عن أحمد البكاي (ص 109 ـ 113). وإنه انتقل إلى ولاتة وكان بها سبعون عالما متفننا. وكانت لما قدمها مدينة فاسدة فأمرهم بالحجاب فاستقاموا على السنة. وإنه انتقل من بلاد ولاتة إلى السودان إلى غانة.

8) التعريف بفهرسة شيوخ محمد بن المعطي السرغيني. المسماة حديقة الأزهار، في ذكر معتمدي من الأخيار.

وهو محمد بن المعطي بن أحمد الإدريسي العمراني السرغيني القبيلة، الفاسي رحلة، المراكشي الدار، الشهير فيها بابن المعطي. الفقيه العلامة الأديب المدرس المؤلف المشارك، الواعية، المتوفى سنة 1296 هـ / 1879 م فرغ من تبييضها 1288 هـ.

توجد مخطوطة بقسم المخطوطات بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ك 1287. تقع في 501 ص وقع الفراغ من نسخها عام 1322 هـ.

9) ترجمة محمد بن دحو الأزموري دفين المدينة المنورة وقصيدته في رثاء شيخه المختار (الخليفة) الكنتي.

ترجم محمد بن المعطي السرغيني في «حديقة الأزهار» لشيخه محمد بن دحو ـ بفتح الدال وضم الحاء المشددة ـ المقيم بثغر أزمور، والمتوفى بالمدينة المنورة سنة 1284 هـ / 1887 م/8 م. فبعد ما حلاه بالشيخ الإمام، الفخر البحر الهمام، شيخ الطريقة الجامع بين الشريعة والحقيقة... كان آية في الحديث والفقه، وطريق القوم أديبا شاعراً، أريبا ماهراً، جواداً سمحاً، وانتشر صيته في الأقطار والبلاد، **يلقن الناس الأوراد المختارية والناصرية.**

ذكر أنه لقي الشيخ الإمام سيدي المختار الكنتي الخليفة وأخذ عنه، ولقي أخاه الشيخ أبا العباس أحمد البكاي.

وأورد له قصيدة رجزية يعزي فيها أحمد البكاي في وفاة أخيه المختار (الخليفة) ومما جاء فيها :

قطب الوجود ! نخبة الأخيار   غوث العوالم ! أبي الأنوار
أستاذنا إمامنا النظار !   سيدنا عمدتنا المختار...

وقال عن أحمد البكاي :

بحبوحة العلم ودوحة الشرف   يا قوتة العرفان جوهر الصدف
كهف الأمان عصمة الأرامل   قطب الأنام ! عمدة الأفاضل

☆

☆ ☆

وبعد ـ فهكذا أكون قد أعطيت صورة مستوفاة عن (المجموعة المختارة) التي كنت قد جمعتها لليونيسكو حسب ما طلبته مني، ـ في نطاق بحثها عن المصادر الغربية المخطوطة لتاريخ إفريقيا والصلات بين بعض أقاليمها. فقد قمت بالبحث، ثم بالاكتشاف، ثم الاختيار، ثم بترتيب ما وقع الاختيار عليه، حسب الموضوعات في الفصول الثلاثة المذكورة.

وقد تجلى في بعض النصوص (المكتشفة) هذا الالتحام العضوي بين بعض المناطق الإفريقية (السودانية) وبين المملكة المغربية على تعاقب العصور. فقد أسست قبائل لمتونة المغربية (دولة المرابطين السلفية العقيدة المالكية المذهب، التي أسست

مراكش). وقضت على (المجوسية) البرغواطية الجاهلية، كما قضت على غيرها من الضلالات. وأنقذت الأندلس من ضياع مؤكد. مما زاد في عمر الإسلام بها عدة قرون، ووحدت في دولة واحدة بين إفريقيا الغربية، وإفريقيا الشمالية والأندلس، في نظام إسلامي مثالي.

وانشغل الموحدون عن (السودان المغربي) فلما استقر الأمر للدولة المرينية على عهد السلطان أبي الحسن ـ رحمه الله ـ سارع ثلاثة من سلاطين اللمتونيين بالسودان، وهم سلاطين أهير، وتادمكة، ودموسة لمبايعته من غير ضغط منه ولا إكراه. وهذه من أهم المكتشفات التاريخية التي كشفت عنها (مجموعة النصوص المختارة).

وعندما قامت دولة السعديين كتب السلطان إدريس سلطان برنوا إلى أحمد المنصور يبايعه، مما هو مبين عند الفشتالي واليفرني والناصري ـ وذلك قبل غزو المنصور السودان ـ. و(الرسالة العجالة) للمختار الكنتي الخليفة للسلطان المولى عبد الرحمن ورسالة أحمد البكاي لعموم المغاربة. ورسائل أهل تنبكتو للسلطان الحسن الأول يستغيثون به، كلها غنية عن كل تعليق.

وعلى المستوى الشعبي

يروي ابن فضل الله العمري عن الشيخ **سعيد الدكالي** الذي كانت له أسفار في (بلاد السودان المغربي)، وعن الزواوي. وللوزير ابن إدريس العمروي قصيدة في مدح المختار الكنتي (الخليفة) كما لابن دحو قصيدة يرثي فيها المختار (الخليفة) ويمدح أحمد البكاي كما يمدح أحمد البكاي السلطان محمد الرابع.

ويأتي أحمد اليمني من صعيد مصر إلى فاس، وفي الطريق يلتقي بالشيخ عبد الله البرنوي الحميري نسبا، بناء على نظرية نسابة المغرب في حميرية (البربر) ومنهم اللمتونيون ـ وعندما حدث أهل فاس عما شاهده من أحوال شيخه البرنوي كونوا وفدا وقصدوا زيارته في برنو !. وكان من أعضاء الوفد أحد الدلائيين الذي قال له أبناء الشيخ أحمد الصادق التاركي ـ أحد شيوخ اليمني أيضا ـ أن والدهم كان يقول لهم

إن بالمغرب داراً من إخوانكم ! وعقب على ذلك الإمام المسناوي النسابة بقوله : وهو موافق لما لدينا سماعا من الأسلاف، إنهم ـ أي التوارك ـ من قبيلة لمتونة ـ التي ينتسب إليها الدلائيون أيضا ـ. ويذهب الشيخ محمد السوسي للحج عن طريق السودان. وينتقل أبو المحامد العربي بن أحمد ابن الحاج الفاسي إلى تمكبكتو صحبة أولاده الثلاثة، للاشتغال بالتجارة، وممن كان معه بها من أهل فاس الطيب بن عبد الوهاب جسوس، والحاج أحمد بناني.

وتنزل ضائقة بالأديب أحمد بن محمد ميارة الفاسي ـ أحد طلبة والد العربي بن الحاج فيقرر الاستغاثة بولد شيخه ويفكر في السفر عنده إلى تمبكتو ! فيحول العجز بينه وبين السفر.

وتصور المقتطفات من (الإرشاد) تنقلات جدود (الكنتيين) بين المغرب الأقصى، والمغرب الجواني، وبلاد التكرور ـ التي يعتبرها من المغرب الأقصى ـ وأق ـ من بلاد السوس ـ وسجلماسة، ومراكش وتوات، وبلاد البرابش، ولواتة، وغانة من بلاد السودان. وختمت بقائمة لبعض المخطوطات المغربية التي لها صلة بتاريخ إفريقيا، والتي سبق نشرها وهي تسع.

هذا ـ ويلاحظ أن بعض المناطق الإفريقية لم يرد لها ذكر في (هذه المجموعة) ومرجع ذلك إلى أن المخطوطات التي رجعت إليها لم أجد فيها شيئا عن هذه المناطق. أو أن أخبارها تضمنتها كتب مطبوعة وهذه (المجموعة) خاصة بالمخطوطات دون المطبوعات ومن المناطق الإفريقية التي لها صلات قوية وعميقة بالمغرب (السودان المصري أو النيلي).

ولعله لا بأس بالإشارة في الأخير ـ إتماما للفائدة ـ إلى كتاب «فتح الشكور، لمعرفة أعيان علماء التكرور»، تأليف محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي الولاتي (215 ترجمة) (1056 ـ 1215 هـ) الذي أحضرت مخطوطته من نواق الشط وتعاونت مع صديقي

الدكتور العميد محمد حجي على تحقيقه ونبهت في المقدمة التي وضعتها له على ما ورد فيه عن العلاقات الثقافية بين المغرب وبلاد التكرور. وقد نشرته دار الغرب الإسلامي ببيروت بتاريخ 1981 ضمن منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر. ص 299.

وأختم بالإشارة إلى أن في الخزائن المغربية - عامة وخاصة - حوالي 114 مخطوط لسبعة عشر مؤلفا من علماء (السودان المغربي) منها :

26 لأحمد بابا

31 للمختار الكنتي الكبير

11 لولده محمد

و14 لحفيده أحمد البكاي.

وقد وضعت لها فهرسا يقع في 67 صفحة مرقونة.

وأضفت إليها وصف 7 مخطوطات بخطوط ناسخين سودانيين، وتحدثت عنها في (لجنة الشرق الأدنى والعالم الإسلامي) بمؤتمر الدراسات الشرقية الدولي السابع والعشرين، الذي انعقد بجامعة آن آربر ميشيغان بالولايات المتحدة، يوم 17 غشت 1967. ص 6. وقد نشرت في إسبيريس 1978 ص 57 - 63. ووردت الإشارة إليها عند جوزيف. م كوك. مجموعة المصادر العربية المتعلقة بإفريقيا الغربية من القرن 8 إلى 16. (بلاد السودان) ص 29*

* RECEUIL DES SOURCES ARABES CONCERNANT L'AFRIQUE OCCIDENTALE DU VIII^{eme} au XVI^{eme} SIECLE
(BILAD AL-SOUDAN)
Traduction et notes par Josef M. CUDO. Editions du Centre National de la Recherche Scientifique 15, quai Anatole France. 75700 Paris, 1985.

منهج البحث عن الحقيقة عند الغزالي
من خلال كتابه
المنقذ من الضلال

محمد فاروق النبهان

حظي الغزالي باهتمام الباحثين والدارسين الذين عكفوا على دراسة آرائه ونظرياته، وصياغة معالم فكره وتصوره، لأن تجربته الذاتية اخصبت فكره، وعمقت رؤيته، وأغنت آراءه بما لم يُعهد من قبله، واستطاع الغزالي الذي خاض مرحلة الشك والتيه والحيرة أن يصل إلى مرحلة الاطمئنان واليقين، وأن يقف على الضفة الآمنة بعد رحلة قاسية في محيط من الظلمات والتقلبات كادت أن تقعده مشلول الرؤية والنظر، حائرا مترددا، يبحث عن شاطئ السلامة فلا يهتدي إليه، وكان كتابه «المنقد من الضلال» من أهم كتبه التي عرض فيها رحلته تلك، متقلبا تائها...

وقد عبر الغزالي عن مرحلة شبابه، بقوله :[1]

«ولم أزل في عنفوان شبابي منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى الآن، وقد أناف السن على الخمسين، اقتحم لجة هذا البحر العميق، وأخوض غمرته خوض الجسور، لا خوض الجبان الحذور، واتوغل في كل

---

1) انظر «المنقذ من الضلال» ص 5، نشر المكتبة الثقافية في بيروت.

مظلمة، واتهجم على كل مشكلة، واتقحم كل ورطة واتفحص عن عقيدة كل فرقة، واستكشف أسرار مذهب كل طائفة، لا ميز بين محق ومبطل، ومتسنن ومبتدع، لا أغادر باطنيا إلا وأحب أن أطلع على بطانته، ولا ظاهريا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته، ولا فلسفيا إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته، ولا متكلما إلا واجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ولا صوفيا إلا واحرص على العثور على سر صفوته، ولا متعبدا إلا واترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته، ولا زنديقا معطلا إلا واتجسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته».

وهذا النص يلقي أضواء كاشفة على معالم شخصية الغزالي في مرحلة مبكرة من حياته العلمية فقد كان يبحث عن شيء ما لا يعرفه، ولا يعرف الطريق إليه، ولعل ما كان يبحث عنه هو اليقين الذي يوحي بالأمن والاستقرار النفسي، ولم يكن الغزالي يشعر بذلك اليقين، ولهذا كان يبحث عن شيء مجهول، ومما كان يساعده على ذلك الشعور ما طبع نفسه من جرأة ورغبة في اقتحام المجاهل المظلمة، وكان يريد أن يكون له معياره الذاتي في معرفة الحق والباطل، وهذا المعيار الذاتي لا يمكن استكشافه إلا عن طريق التجربة الذاتية، التي تشعر الإنسان باليقين أو ما يشبه اليقين...

ويبدو أن الغزالي كان يرفض في تلك المرحلة من حياته كلَّ المسلمات التي كانت قائمة في عصره، وانطلق من مرحلة الصفر يبحث عن الغاية ملتمسا المسالك المتعددة، معتمدا في ذلك على نفسه.

البحث عن الحقيقة

كان الهدف الذي يبحث عنه «الغزالي» هو «الحقيقة»، والحقيقة مطلب صعب المنال أمام سيل متراكم من المذاهب والآراء، الكلامية والفلسفية، والفقهية، وكل مذهب يدعي لنفسه ما يدعيه الآخر من أدلة ونصوص وعلل.

ويعترف الغزالي أن اختلاف الأئمة في الأديان والملل واختلاف الأئمة في المذاهب بحر عميق غرق فيه الأكثرون، وما نجا منه إلا الأقلون، ولهذا فقد كان يريد الوصول إلى العلم اليقيني، «**الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا ريب فيه**».

وهذا مطلب صعب، ومطمح عسير، ليس من اليسير على الإنسان الوصول إليه، والغزالي كان شديد الإلحاح على أن يصل إلى ذلك المطلب والهدف، ولهذا اختار منهجا متميزا انطلق فيه من نقطة البداية، وهو منهج «الفطرة الأصلية».

ويمكن ملاحظة تلك الفطرة الأصلية من الطفولة المبكرة حيث يولد المولود على الفطرة، ثم تبتدئ مرحلة «العقائد العارضة» عن طريق تقليد الوالدين والأساتذة، الذين يسهمون في تلقين الطفل مبادئ العقيدة العارضة، وليست الفطرية، فينشأ الطفل معتنقا الإسلام أو المسيحية أو اليهودية...

وكان الغزالي يريد ذلك العلم اليقيني، «**وأن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه، وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقيني**».[2]

ومن هذا المنطلق كان الغزالي يرفض منهج التقليد في الاعتقاد، لأنه لا يحقق له ذلك اليقين، ولأن الفطرة الأصلية لم تعد أصلية، وإنما سيطرت عليها العقائد العارضة التي يغذيها المربون، ويوجهون من خلال عقائدهم ذلك الشيء، تاركين خلفهم فطرة أصلية منبوذة، آخذين بعقائد عن طريق التقليد.

2) انظر «المنقذ من الضلال» ص 7.

اليقين من خلال المحسوسات :

بعد أن خاب الأمل فيما يقود إليه التقليد من حقائق وعقائد قد تتناقض كليا أو جزئيا مع الفطرة الأصلية، انطلق الغزالي وراء الحسيات، معتقدا في البداية أنها تحقق له أمانا محقَّقا لا غدر فيه ولا غائلة له، إلا أنه سرعان ما اكتشف أن ذلك الأمان لا يحقق اليقين، واندفعت من جديد ثورة الشك في نفسه، تلاحقه وتقض عليه مضاجعه، وتناديه بهمس :

«من أين الثقة بالمحسوسات وأقواها حاسة البصر، وهي تنظر إلى الظل فتراه واقفا غير متحرك، وتحكم بنفي الحركة، ثم بالتجربة والمشاهدة بعد ساعة تعرف أنه متحرك وأنه لم يتحرك دفعة بغتة، بل على التدريج ذرة ذرة، حتى لم تكن له حالة وقوف، وتنظر إلى الكوكب فتراه صغيرا في مقدار الدينار، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض في المقدار وهذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه، ويكذبه حاكم العقل ويخونه تكذيبا لا سبيل إلى مدافعته فقلت : قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضا».[3]

وتوقف الغزالي عند منعطف جديد، بعد أن غدر به ما اعتقده منقذا له من الحيرة والتيه وتساقطت أمامه أعمدة الحسيات، بعد أن أكدت التجربة أن ما تراه العين لا يعني كل الحقيقة بكل أبعادها وأحجامها، لأن العقل قد تصدى لتلك الحسيات فاسقط هالة القداسة التي كانت تطوق نفسها به، وجردها من كل أثواب اليقين، فبدت عارية كئيبة لا تقوى على مزاحمة سلطان العقل...

---

3) انظر «المنقذ من الضلال» ص 9.

اليقين من خلال العقليات

وتطلع الغزالي من جديد إلى العقليات، وهي لا تخطئ فالعشرة أكثر من الثلاثة والإثبات والنفي لا يجتمعان في الشيء الواحد، وحاول الغزالي أن يطمئن أو أن يوحي لنفسه بقدر من الاطمئنان، ومن جديد انطلقت بذور الشك تزرع الأرض بالحيرة، وتثير مشاعر الارتياب في كل شيء، لكي تتساقط أوراق الثقة بكل المسلمات، كما تتساقط أوراق الخريف، مخلفة وراءها أغصانا جرداء، عارية عن كل ستر، إلا أن الحقيقة سرعان ما تنبثق عن «لحظة العدم»، وهي لحظة قد تكون منجبة وولودة.

وقد عبر الغزالي عن ذلك الشك الذي طوق نفسه في لحظة سيطرة حاكم العقل عليه، واطمئنانه إلى حكمه، وارتفع صوت الشك مغالبا صوت اليقين، محذرا من غدر لا يقل أثرا عن غدر المحسوسات.

وصور الغزالي المحسوسات وهي تخاطبه محذرة :

«بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات، وقد كنت واثقا بي، فجاء حاكم العقل فكذبني، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي، فلعل وراء إدراك العقل حاكما آخر، إذا تجلى كذب العقل في حكمه، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه».[4]

ويبدو أن هذا الصوت الهامس المحذر أخذ موقعه من نفس الغزالي، واستوى قائما على رجليه، يؤكد الشك، وينثر حبات من الارتياب، ويضاعف الحيرة في النفس ويستشهد على ذلك بما يراه النائم في النوم من أمور، وما يتخيله من أحوال، يعتقد

4) انظر «المنقذ من الضلال» ص 9.

لها الثبات والاستقرار ولا يشك فيها في لحظة النوم، ولما يستيقظ تتكشف له الحقيقة، وأن كل ما رآه واعتقده ليس له أصل»[5]

يقين بعد رحلة ضياع

ووقف الغزالي في مفترق الطرق، بعد أن سدت في وجهه المسالك، وحاول عبثا أن يتابع رحلته في البحث عن اليقين إلا أنه وجد نفسه طريح داء عضال من الحيرة والشك، دام قريبا من شهرين، كان الغزالي كما يقول عن نفسه **«على مذهب السفسطة بحكم الحال لا بحكم النطق والمقال»**، لأنه كان يبحث عن الدليل فلم يجده، وكان يريد أن يكون دليله من العلوم الأولية التي اشتهر بها، إلا أنه عجز عن نصب الدليل...

وفجأة تفجرت ينابيع الأمل في النفس، وتشققت الأرض عن بذور ولودةٍ انجبت، ومدت الأجنة رؤوسها متطلعة للحياة، متوثبة، وكأن الخريف ما كان، وكأن الشك ليل يطارده النهار **«ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف»**.

وذلك النور الذي قذفه الله في صدر الغزالي أراحه وأدخل إلى نفسه الأمن والاطمئنان وقد وصف الغزالي ذلك النور بقوله :[6]

«ذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله تعالى الواسعة».

---

5) انظر «المنقذ من الضلال» ص 9.

6) انظر «المنقذ من الضلال» ص 11.

«وذلك النور ينبجس من الجود الإلهي في بعض الأحايين، ويجب الترصد له».

ومن حقنا الآن وبعد متابعة تلك الرحلة المضنية في فكر الغزالي من الشك إلى اليقين أن نتساءل بموضوعية عن مفهوم الشك عند الغزالي إلى مفهوم اليقين، ويمكننا تقسيم مراحل ذلك التطور إلى ما يلي :

أولا : مرحلة البحث عن الحقيقة

وهذه مرحلة البداية، فالشك لا يكون إلا في حالة البحث عن الحقيقة، ولكن... ما معنى الحقيقة ؟، وما المراد بها ؟ هل يراد بالحقيقة الصواب أم الماهية، أم يراد بها مطابقة الفكر لموضوعه...

وتبرز هذه المرحلة من خلال ما عبر عنه الغزالي من وصف دقيق لحالة البحث عن الحقيقة منذ عنفوان شبابه، **«وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديدني من أول أمري وريعان عمري، غريزةً وفطرة من الله وضعتا في جبلتي، لا باختياري وحيلتي.**[7]

وكان يبحث عن الحقيقة، متوغلا في المجاهل مقتحما كل ورطة، متفحصا عقيدة كل فرقة، مستكشفا أسرار مذهب كل طائفة، وكان يطلب حقيقة العلم، والعلم اليقيني في نظره **«هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك، بل الامان**

7) انظر «المنقذ من الضلال» ص 5.

من الخطأ ينبغي أن يكون مقارنا لليقين مقارنة لو تحدى بإظهار بطلانه مثلا من يقلب الحجر ذهبا والعصا ثعبانا لم يورث ذلك شكا وإنكارا».[8]

ثانيا : مرحلة الشك

وقد ابتدأت مرحلة الشك عند الغزالي بعد البحث عن الحقيقة، وهو شك ناتج عن تداخل الآراء والنظريات والأفكار، وليس مجرد شك ترفيهي يمارسه بعض أصحاب النزعات العقلية الذين يحلولهم أحيانا بدافع الفضول أن يستكشفوا الحقائق بأنفسهم، معتمدين في ذلك على قدراتهم العقلية.

وكان «ديكارت» من هؤلاء الذين كانت لهم نزعة الاكتشاف، دون الاصغاء لآراء الغير وحججه، وهذا الشك لا يعبر عن حالة شك منهجي، وإنما هو حالة البحث عن منهج، لأن الشك مجرد أسلوب فهم يمارسه صاحبه بعفوية، مبتدئا من الجزئيات الصغيرة، إلى أن يستطيع صاحب هذا الشك أن يكتشف منهجه في الشك، منتقلا بذلك من ذلك الشك إلى اليقين الذي يتطلع إليه...

ولا يمكن رفض منهج الشك في النفس الإنسانية، لأنه منهج البحث عن الحقيقة، ولا تكمن الخطورة في الشك، وإنما تكمن في طبيعة ذلك الشك وأثره في الموجودات، والإنسان لا يمكنه أن يتجاوز منهج الشك في تفكيره، إذا أراد أن يتأكد من الحقيقة، إلا أن الشك المحمود هو الذي يقود إلى اليقين، وهو شك باحث عن الحقيقة، ملتمس اليقين، وليس الأمر كذلك بالنسبة للشك الكلي الذي يرفض البحث ولا يلتمس الطريق إلى اليقين...

---

8) انظر «المنقذ من الضلال» ص 6.

والغزالي بالرغم من حالة الشك التي انتابته، فقد كان يبحث عن الحقيقة وقال في ذلك :

«ثم فتشت عن علومي فوجدت نفسي عاطلا من علم موصوف بهذه الصفة إلا في الحسيات والضروريات، فقلت : الآن بعد حصول اليأس لا مطمع في اقتباس المشكلات إلا من الجليات، وهي الحسيات والضروريات، فلابد من إحكامها أولا لأتيقن اثقتي بالمحسوسات وأماني من الغلط في الضروريات، من جنس أماني الذي كان من قبل في التقليديات... فانتهى بي طول التشكيك إلى أن لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات أيضا، وأخذ يتسع هذا الشك فيها».[9]

ثالثا : مرحلة اليقين

كان الغزالي بحاجة إلى اليقين، لأنه كما يقول قد سقط في السفسطة، ووصف حالته بالداء العضال الذي شفى منه بعد شهرين، وذلك لأن الشك قد تطور لديه إلى درجة تجاوزت الحدود المقبولة، فأصبح يشك في مدركاته العقلية ومدركات الحس، وكل شيء أصبح في نظره داخلا ضمن منطقة الشك، ولم يعد عنده شيء مسلم به، وهذه حالة خطرة، لأنها تقود إلى انهيار البنيان كله، ولا يمكن أن يكون الإنسان في حالة رفض كامل لكل ما يدركه عقله أو يصل إليه عن طريق الحس...

واليقين الذي وصل إليه الغزالي هو يقين روحي، لأن جدران المدركات العقلية قد تهدمت ولم تعد قادرة على إعطاء الأمل في اليقين، وكان لابد من يقين روحي يرمم به ذلك الكيان، ويعيد إلى النفس توازنها...

---

9) انظر «المنقذ من الضلال» ص 7.

ولم يكن ذلك اليقين كما يقول الغزالي : «**بنظم دليل وترتيب كلام، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر**» وهذا مفتاح اليقين بالنسبة للغزالي ومفتاح منهجه في المعرفة، فاليقين عنده هو يقين روحي إلهامي، يشعر الإنسان بأثره في النفس، وهو «مفتاح أكثر المعارف»، وهذا ما يحرص الغزالي على إبرازه في كتابه «إحياء علوم الدين» عندما يتحدث عن القلب ويوضح أمراض القلوب وما يعتريها من العلل والعوائق التي تبعدها عن إدراك الحقيقة واليقين...

مصادر اليقين عند الغزالي

والنور الذي أشار إليه الغزالي لم يوضح لنا ماهيته وطبيعته وكيفية الوصول إليه، واكتفى بالإشارة إليه، وقال عنه :[10] «**وذلك النور ينبجس من الجود الإلهي في بعض الأحايين ويجب الترصد له**».

ونجد كلمة «الجود الإلهي» ترد على لسان الغزالي في مواطن عديدة، وبخاصة في مواطن الحديث عن حسن الخلق، وأن ذلك يحصل عن طريق الاعتدال، وعندما يعرض لموضوع الاعتدال يشير إلى أن الاعتدال يتحقق عن طريقين :[11] **أحدهما :** الجود الإلهي والكمال الفطري، **والثاني** اكتساب تلك الأخلاق عن طريق المجاهدة والرياضة، والمراد بها حمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب...

والغزالي في حديثه عن اليقين يؤكد أن ذلك يكون عن طريق النور الذي يقذفه الله في الصدر، وأن مصدره الجود الإلهي، وهو التفضل الإلهي بالرعاية لمن خصهم بالرعاية، وهذه درجة ليست هي درجة الأنبياء، لأن النبوة تقوم على أساس معرفة السبب وهو الوحي ولا يكون الوحي إلا للأنبياء...

---

10) انظر «المنقذ من الضلال» ص 11.

11) انظر «إحياء علوم الدين» ج 3، ص 58.

وهذا ما أشار إليه الغزالي في حديثه عن الفرق بين الإلهام والتعلم، وقال إن العلوم التي ليست ضرورية يختلف الحال في حصولها، فتارة تهجم على القلب كأنه ألقى فيه من حيث لا يدري، وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم، ويطلق على الحالة الأولى صفة الإلهام، والحالة الثانية صفة الاعتبار والاستبصار.

وبعد ذلك يوضح الغزالي هذا الرأي بقوله :[12]

وحقيقة **القول فيه أن القلب مستعد لأن تنجلي فيه حقيقة الحق في الأشياء كلها، وإنما حيل بينه وبينها بالأسباب الخمسة، التي سبق ذكرها، فهي كالحجاب المسدل الحائل بين مرآة القلب وبين اللوح المحفوظ».**

ويؤكد الغزالي في مواطن أخرى أن القلب مرآة مستعدة لأن ينجلي فيها حقيقة الحق في الأمور كلها، إلا أن يمنع انعكاس الحقيقة على تلك المرآة التي هي القلب ما يتراكم على تلك المرآة من حجب، مثل نقصان الصورة، وكدورة المرآة، واختلال موطن الصورة في المرآة، ووجود حاجز يمنع انعكاس الصورة، والجهل في اختيار نقطة الانعكاس...

ولا يختلف الأمر في القلب عن المرآة، فالقلب تنعكس فيه الحقيقة كما تنعكس صورة الشيء في المرآة، والعوامل التي تحول دون انعكاس الحقيقة في القلب لا تختلف عن العوامل التي تحول دون بروز صورة الشيء في المرآة، وأهمها ما يلي :

1 ـ نقصان في القلب.
2 ـ كدورة المعاصي.

---

12) انظر «إحياء علوم الدين» ج 3، ص 19.

3 ـ انصراف القلب عن طلب الحقيقة.

4 ـ وحجاب مانع يصرف القلب عن قبول الحق.

5 ـ اختيار طريق العثور على الحقيقة وتلمس أسباب ذلك...

وهذا التشبيه شديد الدقة في تصوير معنى النور الذي أشار إليه الغزالي والذي اعتبره مفتاح اليقين، ومفتاح المعارف كلها.

وإن رحلة الغزالي من الشك الجزئي إلى الشك الكلي كادت أن تقضي عليه، وأن تسقطه في مستنقع السفسطة التي اعتبرها مرضا وداء عضالا، وسرعان ما وجد نفسه في لحظة اليأس في أحضان اليقين، يتلقاه النور، ويطوقه بمشاعر الأمن والارتياح، ويقوده من حيث لا يدري من تلك الهاوية الخطيرة إلى الأرض الصلبة التي يرى منها الشمس وهي مشرقة في كل صباح، تبشره بالأمل، وتوحي إليه باليقين[13]...

رحلة البحث عن الحق

تحدث الغزالي في كتابه «المنقذ من الضلال» عن المرض الذي أصابه في رحلته من الشك إلى اليقين، وسمي ذلك الشك بالمرض، ولما شفاه الله وعادت نفسه إلى الصحة والاعتدال انطلق في رحلة البحث عن الحق، ورأى أن الحق لا يعدو الأصناف التالية :

أولا : المتكلمون

وبعد دراسته لعلم الكلام ومطالعته لكتب المحققين وجد أن ذلك العلم لا يلبي رغبته ولا يحقق مطلبه، وقال واصفا ذلك : **فصادفته علما وافيا بمقصوده، غير واف بمقصودي.**[14]

13) انظر «إحياء علوم الدين» ج 3، ص 13 ـ 14.

14) انظر «المنقذ من الضلال» ص 14.

أما مقصود علم الكلام فهو : «**حفظ عقيدة أهل السنة، وحراستها عن تشويش أهل البدعة**» ذلك أن الله تعالى ألقى إلى الناس بالحق على لسان النبي ﷺ بما يؤدي إلى صلاح الدين والدنيا، إلا أن أهل البدعة انطلقوا في حركتهم لتشويش الحق وتزييف معالمه، وتشويه السنة السليمة، وعندئذ حرك الله قلوب طائفة من العلماء هم أهل الكلام، للقيام بالدفاع عن السنة، وتصحيح العقيدة، ومواجهة البدعة، «**واعتمدوا في ذلك على مقدمات تسلموها من خصومهم، واضطرهم إلى تسليمها إما التقليد، أو إجماع الأمة، أو مجرد القبول من القرآن والأخبار، وكان أكثر خوضهم في استخراج مناقضات الخصوم، ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم**».[15]

ولم يكن هذا المنهج مما يستقيم مع منهج الغزالي في رفض معظم المسلمات التي كان علماء الكلام قد استفادوها من خصومهم، وأخذوها عنهم ليردوا بها تلك الشبهات، التي حاول أهل البدعة أن ينشروها ويزيفوا بها الحق...

والغزالي لا يرفض منهج علماء الكلام، ولا ينكر فضلهم فيما قاموا به من عمل جليل، للدفاع عن السنة ومواجهة أهل البدعة، إلا أنه يعترف أن هذا المنهج لا يصلح له، ولا يمكنه أن يكون مقنعا، لأن المسلمات التي اعتمد عليها علماء الكلام لا يسلم بها الغزالي من الأساس وهو يريد أن يشفي مرضه عن طريق البحث عن شاطئ يوفر له الاطمئنان والأمن، ويساعده على التغلب على حيرته، وما طوق نفسه من مشاعر الشك والقلق...

ولم يكن الغزالي في هذه المرحلة معنيا بأمر علماء الكلام ومحاكمة منهجهم في الدفاع عن السنة، وقد أنصفهم عندما اعترف لهم بجميل المقاصد التي انطلقوا منها للدفاع عن السنة ومطاردة أهل البدع، إلا أنه اعترف صراحة أن غايته «حكاية حاله»،

---

15) انظر «المنقذ من الضلال» ص 15.

«**وأن أدوية الشفاء تختلف باختلاف الداء**»، وأن ما كان يعانيه من حيرة وقلق لم يكن ليعالج عن طريق منهج علماء الكلام، ولهذا فقد اضطر إلى تجاوزهم، لأنه لم يقنع بما وجده عندهم، ولم يجد فيما وجده ما يشفى علته...

ثانيا : الفلاسفة :

وقد شرح الغزالي قصته مع الفلسفة، ودوافعه إلى دراستها، وهي دوافع انطلقت من حاجته إلى معرفة «الحق»، ولا يمكن له أن يعرف جيدا صلاح أو فساد علم من العلوم إلا أن يدرسه دراسة متينة تمكنه بشكل جيد من الإحاطة بهذا العلم، لكي يكون في مستوى المتمكنين منه، المطلعين على دقائقه، المستوعبين لجزئياته.

وانتقد الغزالي مناقشة علماء الكلام للفلاسفة، وردودهم على حججهم، واعتبر إحاطة علماء الكلام بالفلسفة قاصرة، وهي ظاهرة التناقض والفساد.

وكان الغزالي كما يبدو من منهجه قوى الهمة، راجح الحجة، سليم المنطق، فلم ير في ردود أهل الكلام ما يقنع المتخصصين، بفساد الفلسفة، فانطلق في رحلة البحث عن علم الفلسفة واستمر لمدة سنتين مقبلا على دراسة علم الفلسفة، متفرغا لمطالعة كتب أهل الاختصاص، إلى أن تمكن من الإحاطة بهذا العلم، وأعطى لنفسه مدة عام بعد ذلك يتأمل ويراجع فكره، ويتفقد أسرار هذا العلم، ويستزيد من معرفة دقائقه.

وقال في وصف ما وصل إليه :
«**حتى اطلعت على ما فيه من خداع وتلبيس وتحقيق وتخييل، إطلاعا لم أشك فيه**»[16] وقال بعد ذلك مؤكدا إدانة مذهب الفلاسفة :

16) انظر «المنقذ من الضلال» ص 17.

«فأني رأيتهم أصنافا، ورأيت علومهم أقساما، وهم على كثرة أصنافهم يلزمهم سمة الكفر والإلحاد، وإن كان بين القدماء منهم والأقدمين، وبين الأواخر منهم والأوائل، تفاوت عظيم في البعد عن الحق والقرب منه»[17].

وصنف الغزالي الفلاسفة إلى الأصناف التالية :

الصنف الأول : الدهريون : وأراد بهم الزنادقة، وهم الذين ينكرون وجود الخالق وينظرون إلى الكون نظرة مادية بحتة، ولا يجدون ما يستدعي وجود خالق، لأن الكون يسير وفق قانون طبيعي، تتوالد فيه الحياة، فالحيوان يأتي من النطفة، والنطفة من الحيوان...

الصنف الثاني : الطبيعيون : وأراد بهم فئة أخرى من الفلاسفة آمنوا بوجود الله، واعترفوا بأن الله قد خلق الكون، ويسيّره بقدرته وحكمته، ووصلوا إلى هذا الاعتقاد بعد ملاحظتهم لعظمة ما أبدع الله في مخلوقاته من عجائب، إلا أنهم وقفوا عند هذه الحدود، ورفضوا الإيمان بالبعث وإعادة الخلق، وانكروا فكرة الثواب والعقاب، لانتهاء الحياة بالموت، لأن الموت هو انعدام الحياة : فإذا انعدمت الحياة فلا مجال لا يجادها من جديد وعندئذ تسقط فكرة الثواب والعقاب والجنة والنار...

الصنف الثالث : الإلهيون : وأراد بهم فئة الفلاسفة الذين آمنوا بفكرة الخالق، وتوصلوا في دراساتهم وآرائهم إلى فساد ما قال به الدهريون والطبيعيون، من إنكار الخالق، أو إنكار البعث، وردوا عليهم، وبينوا بطلان ما ذهبوا إليه، ومن هؤلاء الفلاسفة سقراط وتلميذه أفلاطون، وتلميذه من بعده أرسطو طاليس، الذي قال عنه

17) انظر «المنقذ من الضلال» ص 17.

الغـزالي بـأنـه «**رتب لهم المنطـق، وهـذب لهم العلـوم، وحرر لهم مـا لم يكن محررا من قبل، وانضج لهم مـا كان فجـا من علـومهم، وهم بجملتهم ردوا على الصنفين الأولين من الـدهريـة والطبيعيـة، وأوردوا في الكشف عن فضائحهم ما أغنوا به غيرهم» ص 20.**

وقسم الغزالي آراء الفلاسفة، من حيث الحكم عليها إلى ثلاثة أقسام :(18)

أولا : ما يجب تكفيره فيه.

ثانيا : ما يجب التبديع به.

ثالثا : ما يجب عدم إنكاره.

ولكي يتمكن الغزالي من تحديد حكمه على آراء الفلاسفـة الإلهيين الـذين «تنسب إليهم الفلسفة، والذين تأثر بهم عدد من فلاسفة الإسلام، وضل بعضهم بسبب ذلك التـأثر، وتلك المحاكاة لما ذهبوا إليه، فقد قسم آراء الفلاسفة من الناحية الموضوعية، إلى أقسـام متعددة، يبرز في بعضها الكفر والضلال، ولا يبرز في البعض الآخر، لابتعاد الموضوع عن قضـايـا العقيـدة، ومن المؤكـد أن يكون العلم الأكثر انحرافا عن منهـج العقيـدة الإسلامية هو ما يتعلق بالإلهيات.

أغلاط الفلاسفة في الإلهيات

قسم الغزالي علوم الفلاسفة إلى ستة أقسام : رياضيـة، ومنطقيـة، وطبيعيـة، وإلهيـة، وسياسية، وخلقية، ولا يتصور وجود أغلاط فيما يتعلق بالعلوم الرياضيـة، لأن هـذه العلوم لا علاقة لها بالدين والعقيدة، وإنمـا هي علوم ذات صلـة بـالعقل، وهي علوم برهانية، تستهدف توسيع مدارك العقول الإنسانية.

---

18) انظر «المنقذ من الضلال» ص 22.

وقد وصف الغزالي العلوم الفلسفية بما يلي :[19]

1 ـ **العلوم الرياضية :** وتتعلق بعلم الحساب والهندسة وعلم هيأة العالم، وليس يتعلق منها شيء بالأمور الدينية نفيا وإثباتا، بل هي أمور برهانية، لا سبيل إلى مجاحدتها بعد فهمها ومعرفتها».

2 ـ **العلوم المنطقية :** «فلا يتعلق شيء منها بالدين نفيا وإثباتا، بل هو النظر في طرق الأدلة والمقاييس وشروط مقدمات البرهان وكيفية تركيبها وشروط الحد الصحيح وكيفية ترتيبه».

3 ـ **علم الطبيعيات :** «ويبحث عن عالم السموات وكواكبها وما تحتها من الأجسام المفردة كالماء والهواء والتراب والنار، ومن الأجسام المركبة كالحيوان والنبات والمعادن».

4 ـ **السياسات :** «وجميعُ كَلامهم فيها يرجع إلى الحِكم المصلحية المتعلقة بالأمور الدنيوية والأيالة السلطانية، وإنما أخذوها من كتب الله المنزلة على الأنبياء، ومن الحِكم المأثورة عن سلف الأنبياء».

5 ـ **الخلقية :** «وجميعُ كلامهم فيها يرجع إلى حصر صفات النفس وأخلاقها وذكر أجناسها وأنواعها وكيفية معالجتها ومجاهدتها، وإنما أخذوها من كلام الصوفية».

وفي مجال الإلهيات ذكر الغزالي أن أكثر أغاليط الفلاسفة في مجال الإلهيات، لأنهم لم يستطيعوا الإتيان بالبراهين العقلية المؤدية لما ذهبوا إليه، مراعين في ذلك قواعدهم في المنطق التي انطلقوا منها في وسائل الاستدلال، ولهذا وقعوا في التناقض وكثر بينهم الاختلاف ورد بعضهم على البعض الآخر.

---

19) انظر «المنقذ من الضلال» ص 23.

وأفاد الغزالي أن مجموع ما غلطوا فيه يرجع إلى عشرين أصلا، يجب تكفيرهم في ثلاثة منها وتبديعهم في سبعة عشر، وقد ألف كتابه التهافت للرد عليهم في تلك المسائل العشرين، التي غلطوا فيها.[20]

والمسائل الثلاث التي خالف فيها الفلاسفة كافة المسلمين هي :

المسألة الأولى : قولهم : في عدم حشر الأجساد وقالوا : إنما المثاب والمعاقب هي الأرواح المجردة، وأن المثوبات والعقوبات روحانية لا جسمانية، وقال الغزالي معلقا على ذلك : «ولقد صدقوا في إثبات الروحانية، فإنها كائنة أيضا، ولكن كذبوا في إنكار الجسمانية، وكفروا بالشريعة فيما نطقوا به».[21]

المسألة الثانية : قولهم : إن الله تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات وقال الغزالي : وهذا أيضاً كفر صريح بل الحق أنه ﴿**لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَال ذَرَّةٍ فِي السَّمَـوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ**﴾.

المسألة الثالثة : قولهم بقدم العالم وأزليته، وقال الغزالي : «فلم يذهب أحد من المسلمين إلى شيء من هذه المسائل».

وأما القضايا الأخرى كقولهم بنفي الصفات، وكقولهم إن الله عليم بالذات لا بعلم زائد على الذات، فإن مذهبهم قريب من مذهب المعتزلة، ولا يجب تكفير المعتزلة بمثل ذلك...[22]

---

20) انظر «المنقذ من الضلال» ص 27.

21) انظر «المنقذ من الضلال» ص 28.

22) انظر «المنقذ من الضلال» ص 28.

والغـزالي فيما ذكره عن الفـلاسفـة الأقـدمين كان منصفـا كل الإنصـاف، وملتزمـا كل الالتزام بالموضوعية، فذكر آراءهم، وبيّن مواطن الخطأ والصواب، وموضحا مـا يـدخل ضمن الكفر وما يدخل ضمن التبديع...

ولم ينكر الغزالي منهج الفلاسفة ولم ينكر عليهم في جميع ما قـالوه، ولم يعترض عليهم ما أقاموه من صرح في مجال البراهين العقليـة والأدلـة البرهـانيـة، فيما لا يتنـاقض مع أصول العقيدة الإسلامية.

ولما أتم الغـزالي تحصيلـه من علم الفلسفـة أدرك أن ذلـك العلم «**غير واف بكمـال الغرض**» **لأن العقـل لا يمكنـه أن يحيـط بكل شيء، ولا أن يكشف الغطـاء عن جميع المعضلات، وبـذلـك طوى صفحـة الفلاسفـة كما طـوى من قبـل صفحة المتكلمين...**

ثالثا : الباطنية

انصرف الغزالي بعد أن فرغ من أمر الفلاسفة إلى دراسة آراء الباطنية، الذين يقولون بالإمام المعصوم، لعله يلتمس الحق عندهم، ومما ساعده على الاهتمام بـدراسـة آرائهم أنـه قـد ورد عليـه «**أمر جـازم من حضرة الخلافـة بتصنيف كتـاب يكشف عن حقيقة مذهبهم، فلم يسعني مدافعتـه، وصـار ذلـك مستحثـا من خـارج، ضميمة للباعث الأصلي من الباطن**».[23]

وقد ابتدأ الغزالي ذلك بجمع كتبهم ومقالاتهم، واستخرج آراءهم ورتبها ترتيبا محكما ثم استوفى الجواب عنها، حتى أنكر عليه البعض مبـالغتـه في إبراز حججهم، وقـالوا لـه : «**هذا سعي لهم، فإنهم كانوا يعجزون عن نصرة مذهبهم بمثل هذه الشبهات لولا تحقيقك لها وترتيبك إياها**».[24]

23) انظر «المنقذ من الضلال» ص 34.

24) انظر «المنقذ من الضلال» ص 34.

وذكر في معرض الرد على هـذه الأفكار، أن الشبهـات التي اشتهرت يجب الرد عليهـا بعد حكايتها وإيرادها، وأن مما دفعه إلى إيراد حججهم ما كان يسمعه منهم من عـدم فهم خصومهم لآرائهم، ويبدو أن الغزالي أراد أن يؤكد لهم استيعـابـه الكامل لآرائهم، ومعرفته التامة بحججهم، لأنه كما قال عن نفسه لم يرض أن يظن به الغفلـة عن أصل حججهم، والجهل بمعرفة حقيقتها واستيعاب كل ما يتعلق بها... ثم يقول بعد ذلك :

«المقصود أني قررت شبهتهم إلى أقصى الإمكان، ثم اظهرت فسادها بغـايـة البرهان» ص 35.

ويعلق الغزالي على النزاع بين الباطنيـة وخصومهم إلى أن سبب انتشـار تلـك البـدع يعود إلى ضعف المـدافعين عن الحق، لأنهم جـادلوا في كل مـا سمعـوه فـأدى ذلـك إلى تطويل النزاع، وانتشار البدع، وظن النـاس أن ذلـك يعود إلى قوة مـذهب أولئـك، وضعف مذهب المخـالفين لهم، ولا ينكر الغزالي الحـاجـة إلى معلم واشتراط العصمـة في ذلـك المعلم إلا أن المعلم المعصـوم هـو محمـد ﷺ، فقـد قـام بتعليم الـدعـاة وبثهم في البلاد.[25]

ونقل الغزالي بعض الشبه التي كان أهل التعليم يقولون بهـا، من حيث وجوب الإمـام المعصوم، لإكمال التعليم، وتعليم الدعاة، وأهمية العودة إليه في حـال انعـدام النص، ورد على تلك الشبه بمنطق عقلي، وبحجج واضحة، واستشهـد بنصوص، واعتمـد على أدلـة، وذكر الكثير من معتقـداتهم وآرائهم، وأفـاض في ذكر فسـاد مـا ذهبوا إليـه من فكرة المعلم المعصوم التي حاولوا استدراج العوام إليها، معتمـدين في ذلـك على مـا اتصف بـه العوام من ضعف العقول وصفاء النفس.[26]

---

25) انظر «المنقذ من الضلال» ص 34 ـ 35.

26) انظر «المنقذ من الضلال» ص 36.

وكلام الغزالي عن الباطنية الذين أطلق عليهم صفة أهل التعليم، ومناقشة آرائهم، ورد حججهم دليل واضح على ما كان عصر الغزالي يفيض به من صراع فكري ومذهبي، كان العوام يجدون صعوبة بالغة في تلمس معالم طريق الحق، والاهتداء إليه، وحسب الغزالي لفترة من الزمن أنه يمكن أن يجد عند هؤلاء ما كان يطلبه من معرفة ويقين، إلا أنه سرعان ما انكشفت له حقيقة آرائهم ومعتقداتهم، وقال معبرا عن خيبة أمله فيا وصل إليه «**فلما خبرناهم نفضنا اليد عنهم أيضا**».[27]

ولخص هذا المذهب بعد دراسة آرائه بقوله :

«والحاصل : أنه لا حاصل عند هؤلاء، ولا طائل لكلامهم، ولولا سوء نصرة الصديق الجاهل، لما انتهت تلك البدعة ـ مع ضعفها ـ إلى هذه الدرجة، ولكن شدة التعصب دعت الذابين عن الحق إلى تطويل النزاع معهم في مقدمات كلامهم، وإلى مجادلتهم في كل ما نطقوا به فجادلوهم في دعواهم الحاجة إلى التعليم والمعلم، ودعواهم «لا يصلح كل معلم»، بل لابد من معلم معصوم، وظهرت حجتهم في إظهار الحاجة إلى التعليم وإلى المعلم وضعف قول المنكرين في مقابلتهم، فاغتر بذلك جماعة، وظنوا أن ذلك من قوة مذهبهم وضعف مذهب المخالفين لهم، ولم يفهموا أن ذلك لضعف ناصر الحق وجهل بطريقه».[28]

رابعا : طريق الصوفية

تحدث الغزالي عن نفسه بعد تلك الرحلة المضنية والطويلة التي كان يبحث فيها عن الحق ولما فرغ من تلك العلوم التي انصرف إليها، أقبل بهمته على طريق الصوفية وقال معبرا عن ذلك :

27) انظر «المنقذ من الضلال» ص 43.

28) انظر «المنقذ من الضلال» ص 36.

«ثم إني لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتي على طريق الصوفية وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل، وكان حاصل عمَلهم قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله».[29]

وأول ما نلاحظه على الإمام في هذه المرحلة ما يلي :

أولا : اعترف الغزالي بأنه قد أقبل على طريق الصوفية **«بهمته»**، ولم يحدثنا عن سبب هذا الإقبال، هل لأنه اكتشف الصوفية قبل ذلك، ثم حاول الإقبال عليها لمعرفة حقيقتها أم أنه لم يكن يعرفها من قبل، وترك نفسه يكتشف معالمها، حتى إذا اطمأنت نفسه إلى طريقتهم استقر مقامه عندهم، ضيفا عزيزا مكرما، يناصرهم، ويدعم مواقعهم، ويبرز علومهم، ويدافع عن مسلكهم...

ثانيا : اعترف الغزالي بأن طريق الصوفية هو **«علم وعمل»**، وقد أقبل على العلم وهو أيسر عليه من العمل، فابتدأ بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم، مثل «قوت القلوب» لأبي طالب المكي وكتب الحارث المحاسبي والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلي وابن يزيد البسطامي، إلى أن اطلع كما يقول على **«كنه مقاصدهم العلمية»**.[30]

ومن حقنا الآن أن نربط هذه المرحلة بما اعترف به الغزالي في بداية كتابه «المنقذ من الضلال»، عندما كان يتحدث عن مرحلة الشك التي أوصلتهٌ إلى مذهب السفسطة والتي أطلق عليها صفة المرض، فقد اعترف في ذلك الموطن بأن الله تعالى قد شفاه من ذلك المرض عن طريق «نور قذفه الله تعالى في الصدر وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف».[31]

29) انظر «المنقذ من الضلال» ص 43.

30) انظر «المنقذ من الضلال» ص 43.

31) انظر «المنقذ من الضلال» ص 11.

وأتوقع أن الغزالي اكتشف طريق التصوف واختاره منذ تلك اللحظة، وهذا ما جعله يتحدث عن التصوف منذ البداية وكأنه قد عزم على أن يخوض غماره، وأن يسلك مسالكه، وأن يقتدي برجاله، وأن يستسلم لهذا الاختيار، والإقبال بالهمة دليل يؤكد ذلك التصميم والعزم...

والتصوف كما اعترف الغزالي لا يمكن الوصول إليه عن طريق التعلم، وأظن أن التصوف يحتاج أولا وقبل كل شيء إلى ذلك الاستعداد الفطري، الذي يلمسه الإنسان في كيانه، باحثا عن حقيقة ما، في رحم هذا الاختيار...

وأشار الغزالي إلى هذا عندما قال بعدم إمكان الوصول إلى التصوف عن طريق العلم، وإنما عن طريق «**الذوق والحال**»، وشبه ذلك بالفرق بين معرفة الصحة والشبع وأسبابها وشروطها، وبين أن يكون الإنسان صحيحا وشبعان... وكذلك الفرق بين معرفة حد السكر وحالة السكر...[32]

ولم يكن الغزالي في موطن بحثه عن التصوف محتاجا لمعرفة مسالكه العلمية، لأن أهل التصوف كما يقول «**هم أرباب أحوال لا أقوال**»، وأن العلم قد حصل عليه من جوانبه المتعددة واستوعب حقائقه، وأدرك كنهه، ولم يعد يخفي عليه ما يخفي على غيره من مسائله وقضاياه المعقدة...

ولم يبق أمامه إلا ما يكون الطريق إليه عن طريق الذوق والسلوك، لأن ذلك لا سبيل إليه بالسماع والتعلم...

32) انظر «المنقذ من الضلال» ص 45.

الغزالي في مرحلة محاسبة نفسه

ابتدأ الغزالي رحلته في عالم التصوف، عن طريق محاسبة نفسه، لأن الطريق إلى سعادة الآخرة لابد له من «**قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى**».(33)

وأول ما لاحظه الغزالي على نفسه أنه كان منغمسا في العلائق التي أحدقت به من كل جانب، وقال في ذلك.(34)

ولاحظت أعمالي وأحسنُها التدريس والتعليم فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة، ثم تفكرت في نيتي في التدريس فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت فتيقنت أني على شفا جرف هار».

ويبدو أن الغزالي قد عزم كل العزم على أن يسير في طريق محاسبة نفسه، وأغلق النوافذ الخارجية المطلة على علماء عصره ممن تصدى لهم بالنقد والتجريح، وفتح نافذة داخلية يطل منها على نفسه، منتقدا منهجه، منددا بسلوكه، شاكا بإخلاصه، وأظن أن الغزالي تعب وأرهق من تلك الرحلة الشاقة التي جعلته يلهث وراء الحقيقة، مكبا على وجهه، يتأمل أفكار عصره، ويتابع ذلك الخضم المتلاحق من التيارات الفكرية المتنازعة والمتصارعة التي تحاول أن تقف منفردة في وسط الساحة، رافعة راية منفردة، تتحدى بها جمهورا متعدد الانتماء متنافر الاستعداد...

وأول ما لاحظه الغزالي على ذاته أن نيته في التدريس ليست خالصة لوجه الله، وأن نفسه تتطلع إلى طلب الجاه وانتشار الصيت، فأنكر على نفسه ذلك التطلع، واعتبره من علائم الزلل.

33) انظر «المنقذ من الضلال» ص 45.

34) انظر «المنقذ من الضلال» ص 46.

ولا أدري هل كان الغزالي في محاسبته لنفسه محقاً أم مخطئا، لا أشك أن محاسبة النفس ضرورية، وهي طريق السداد والصواب، إلا أن من المؤكد أن التطلع إلى الجاه والصيت لا يعتبر في نظر غير المتصوفة من أنواع الزلل التي يحاسب الإنسان نفسه عليها، ولو انعدمت تلك الرغبة وذلك الاستعداد لحق لنا أن نتساءل عن سبب ذلك، وأن نصف من يوصف بعدم المبالاة بالإهمال...

صوت ينادي بالرحيل

كان الغزالي يسمع من الأعماق صوتا يناديه ويلح في النداء، وهذا الصوت يرتفع صداه يوما بعد يوم، كان في البداية هامسا ثم انطلقت الصيحة قوية مجلجلة ملحة...[35]

«الرحيل... الرحيل».
«فلم يبق من العمر إلا قليل وبين يديك السفر الطويل».
«جميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل».
«فإن لم تستعد الآن للآخرة متى تستعد».
«وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع».

تلك كلمات كانت يتردد صداها في أعماق الغزالي، وقد ذكرها في كتابه «المنقذ» وأوضح كيف كانت شهوات الدنيا تجاذبه بسلاسلها إلى المقام في بغداد، ثم يتجدد النداء بالرحيل...

ووقف الغزالي حائرا مترددا، يقدم ثم يحجم، يقرر الرحيل ثم يعدل عنه بعد برهة ويتجدد النداء في كل لحضة في أعماقه، يناديه، الرحيل الرحيل..

35) انظر «المنقذ من الضلال» ص 46.

ما أقسى ما كان يعانيه «الغزالي» في هذه المرحلة من حياته، صراع متجدد في أعماق نفسه، وتتنازعه أفكار، وتتجاذبه أصوات تكرر النداء، ويظن لحظة أنه قادر على الرحيل ثم ينظر حوله فيرى ذلك الجاه العريض وذلك الصرح الكبير الذي بناه وشاده وأعلى بناءه، فيتراجع ويعزم على أن يطارد ذلك الصوت الذي يلاحقه.

وفجأة.. يتوقف اللحن، ويتقرر المصير..

ولم يعد الغزالي فارسَ ميدان لا يقهر، ولم تعد ملكاتُه العلمية قادرةً على التعبير عما في النفس، فلقد توقف لسانه عن التعبير أو كاد، وأصبح يجاهد نفسه، تطييبا لقلوب المختلفين إليه من تلاميذه، ولكنّ لسانَه كان قد سبقه إلى التعبير عما جاش في النفس من إرهاق، وعما أحاط بقلبه من حزن، وعما ألم ببدنه من مرض...

وعندئذ التجأ إلى الله تعالى في لحظة ضيق، فاحس بالفرج، واطمأنت نفسه، وانشرح قلبه إلى الرحيل، وقرر الخروج من بغداد إلى الشام...

وقد عبر عن هذه المرحلة بقوله :[36]

«فلم أزل أتفكر فيه مدة وأنا بعد على مقام الاختيار أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوما، وأحُلُّ العزم يوما وأقْدِمُ فيه أخرى وأؤخر عنه أخرى، لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بُكرةً إلا ويحمل عليها جند الهوى حملة فتُفْتِرُها عشية فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها إلى المقام ومنادي الإيمان ينادي... الرحيل الرحيل...».

36) انظر «المنقذ من الضلال» ص 46 ـ 48.

«فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريبا من ستة أشهر، أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار إذ أقفل الله على لساني حتى أعتقل عن التدريس، فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوما واحدا تطييبا لقلوب المختلفين إلي، فكان لا ينطق لساني بكلمة واحدة، ولا أستطيعها البتة حتى أورثت هذه العقلة في لساني حزنا في القلب بطلت معه قوة الهضم ومراءة الطعام والشراب فكان لا ينساغ لي شريد ولا تنهضم لي لقمة وتعدى إلى ضعف القوى حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج، وقالوا هذا أمر نزل بالقلب ومنه سرى إلى المزاج فلا سبيل إليه بالعلاج إلا بأن يتروح السر عن الهم الملم، ثم لما أحسست بعجزي وسقط بالكلية اختياري التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له، فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه، وسهل على قلبي الإعراض عن الجاه والمال والأولاد، واظهرت عزم الخروج إلى مكة وأنا أدبر في نفسي سفر الشام».[37]

وهذا النص الذي يعترف فيه الغزالي بما أصابه من مرض وحزن يدفعنا إلى التساؤل عن طبيعة ذلك المرض، وهو مرض حقيقي لا مجال للتردد في قبوله، لأن الغزالي نفسه قد وصف ذلك بنفسه، وأبرز بطريقة واضحة أعراض ذلك المرض، وبالرغم من أن الغزالي يقول نقلا عن الأطباء أن ما أصابه هو «أمر نزل بالقلب ومنه سرى إلى المزاج».

تساؤلات ملحة

ومن حقنا الآن أن نطرح الأسئلة التالية :

أولا : ما أسباب المرض الذي أصاب الغزالي.

---

37) انظر «المنقذ من الضلال» ص 48.

ثانيا : ما حقيقة ذلك المرض، هل هو مرض عضوي أو مرض نفسي...
ثالثا : ما الوسيلة التي استخدمها الغزالي للشفاء من المرض.

من اليسير علينا أن نطرح احتمالات عقلية، نجيب بها على تلك التساؤلات، إلا أن تلك الاحتمالات لا يمكن أن تكون مقنعة كل الإقناع، فالغزالي طرح رأيه فيما أصابه، وذكر الأسباب ومن حقنا أن نطرح احتمالات أخرى لم يطرحها الغزالي، وقد لا يوافق عليها، لأنه قد وجه المرض الذي أصابه توجيها خاصا بما ينسجم مع رؤيته، إلا أن ذلك قد يكون قاصرا من الجانب العلمي عن الإقناع، لأن المنطق العقلي ينظر لهذه الظاهرة نظرة أخرى، ويحللها تحليلا قد لا يراه الغزالي صحيحا وقد يرفضه...

وأول سؤال يتبادر إلى الذهن يتعلق بطبيعة وصدق ذلك الصوت الذي كان يتراءى للغزالي من بعيد، يسمعه أحيانا يناديه بالرحيل، ولا يعني هذا أن الغزالي كان يسمع صوتا فعليا، فقد يكون الصوت هو نداء الضمير، ونداء الإيمان، وهو ما يمكن أن نسميه بالتوجه أو الاستعداد النفسي...

ويبدو أن ذلك الصوت كان مؤثرا في نفسية الغزالي، فلم يبق صوتا، يلح عليه في كل صباح أن يرحل، وإنما أضحى قوي الأثر في نفسه وجسمه، فلقد توقف الغزالي عن التدريس، ولم يعد قادرا عليه، واعتُقِل لسانه، وأصبح يجاهد نفسه، في مواصلة التدريس، تطييبا لقلوب المختلفين إليه، ومع هذا فقد عجز عن هذا الجزء اليسير مما كان يقوم به، وانعكس أثر ذلك على بدنه، فاعتل ومرض، وضعفت قواه، وحار الأطباء في تفسير حقيقة ذلك المرض.

هل هو أمر نزل بالقلب ؟ هذا ما قاله الأطباء، ولكن ما أسباب ذلك الأمر، ألمرض عضوي أم لمرض نفسي، كل ذلك لم يتحدث عنه الغزالي، وما أظن أننا قادرون على معرفة حقيقة ذلك.

وفي جميع الأحوال فلا خيار لنا في أن نعترف بوقوع المرض، وبانعكاس ذلك المرض على سلوك الغزالي وفكره...

وهنا نجد «الغزالي» الذي نشأ في أحضان التربية الدينية، على يد رجل تقي صالح، يتذكر تلك الطفولة الآمنة المطمئنة المستقرة، ويقف الغزالي بعد رحلة طويلة في صحراء الفكر مع نفسه وذاته، يتقلب تَقلُّب المؤمن، ويشعر بالاطمئنان في كنف الإيمان بالله، فتنقدح في نفسه شعلة النور، وتضيء قلبا أرهقته رحلة البحث عن الحقيقة واليقين، وكاد أن يضيع في صحراء مظلمة، بعيدة عن شواطئ الحق والإيمان، لولا أن منَّ الله عليه بذلك النور الذي أضاء به ظلمة قلبه، فاطمأنت نفسه بذلك النور، وهدأت عاصفة الشك التي كادت أن تدمر وجوده، وتقتلع من الأعماق جذور الصروح التي شادها بفكره وعلمه...

بداية الطريق إلى التصوف

وفارق الغزالي بغداد، ودخل الشام وأقام بها قريبا من سنتين منصرفا إلى العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة، مشتغلا بتزكية النفس وتصفية القلب، ثم عزم على السير إلى الحجاز لأداء فريضة الحج : وكان حريصا خلال ذلك على الاستمرار في عزلته وخلوته، وتكشفت له خلال ذلك أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها كما يقول، وأكدت له من جديد **«أن الصوفية هم السابقون لطريق الله تعالى خاصة وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئا من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلا، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة».**[38]

---

38) انظر «المنقذ من الضلال» ص 49.

وسار الغزالي في طريق التصوف، وأنِسَ في هذه الرحلة الطويلة التي تحدث عنها، معربا عن عجائب ما يولده طريق السالكين من مشاعر وأذواق، وما يراه السالك من مشاهدات ومكاشفات تُدرك عن طريق الذوق فمن لم يرزق الذوق يتيقنها عن طريق التجربة والتسامع...

وقفة مع الغزالي

وهنا نجد أنفسنا أمام وقفة ضرورية مع الغزالي في طريقه الجديد الذي اكتشفه بعد عناء والذي توصل إليه بعد جهد طويل وشاق، بحث خلال ذلك في جميع المذاهب والطرق التي كانت سائدة في عصره، ودرس كل مذهب، وعكف على معرفة كل طريق، ولم ينشرح صدره لكل ما اطلع عليه، ووجه ضالته في طريق التصوف...

وقد حكم الغزالي على الصوفية بأن سيرتهم أحسنُ السير وطريقَهم أصوبُ الطرق، وقال في ذلك كلاما قد نتوقف قليلا عنده، لا لكي نرده، ولكن لكي نناقشه مناقشة منطقية...

قال الغزالي عن الصوفية :

«فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة».

وأظن أننا بحاجة إلى أن نطيل الوقوف عند هذا الكلام، لأنه يحمل معاني قد نستغرب في البداية أن تصدر عن الغزالي، لأن الغزالي صاحب منهج متميز، والحكم المطلق يحمل الكثير من المبالغة، والقول بأن جميع حركات الصوفية وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة لا يمكن التسليم به على إطلاقه، لأن الصوفية هي طريقة، وقد نجد فيها بعض المواقف الإيجابية، وقد نجد في نفس الوقت مواقف سلبية، وأهم ما يؤخذ على التصوف أمران :

الأول : المبالغة في السلبية : والسلبية في التصوف ظاهرة لا يمكن تجاهلها، ذلك أن الصوفي ينصرف إلى ذاته، ويحاول أن يحاسب نفسه، وأن ينزهها عن الخطأ والانحراف، وأن يحاول السيطرة على سلوكه، إلا أن ذلك يدفعه إلى أن يبالغ في الانصراف إلى الزهد وعدم المبالاة بكل شيء، ويعيش وكأنه لا يعايش مجتمعه، وقد يدفعه ذلك إلى أن يكون خارج نطاق المجتمع.

الثاني : الانحراف في بعض مظاهر الفكر الصوفي، وهذا الانحراف قد يكون يسيرا عند البعض، وقد يلتمس الإنسان العذر لأصحابه فيه، وقد يكون انحرافا يتجاوز حدود المقبول والمعقول، مما لا يمكن التماس العذر لأصحابه، وبخاصة في بعض المواطن التي يلجأ فيها أهل التصوف إلى إضفاء صفة القداسة على شيوخ الطريقة، واعتبار ما يصدر عنهم من تصرفات منافية للشرع مما يلتمس لهم العذر فيه، لإطلاعهم على باطن القرآن.

وفكرة الباطن والظاهر في التفسير القرآني لا يمكن قبولُها، إذ لا يمكننا القول بفكرة باطن القرآن، لأن القرآن نزل بلغة عربية فصيحة، والدلالة اللغوية واضحة، ويمكن معرفتها بطريقة سليمة عن طريق معرفة معنى اللفظ العربي، ولا يجوز تحويل اللفظ العربي عن معناه اللغوي إلى معنى آخر غير مستفاد من النص، لخطورة هذا الاتجاه، ولأنه طريق يقود إلى الانحراف والضلالة.

ولا أشك أن الحالة النفسية التي عاشها الغزالي في مرحلة المرض الذي ذكره بنفسه تركت أثرا كبيرا في منهجه الفكري، وربما قادته تلك الحالة إلى مرحلة جديدة في تاريخ حياته تغيرت فيها نظرته، وأصبحت له مقاييس علمية وفكرية تختلف كليا عن مقاييسه في المرحلة الأولى من تاريخ حياته...

وليس من اليسير أن نفهم طبيعة المرض الذي أصابه، ومدى انعكاس ذلك المرض على نفسه وفكره، وأشك أن الغزالي كان يمكن أن يصل إلى ما وصل إليه لو كان يخضع لنفس المقاييس التي كانت توجه طريقه الفكري، في المرحلة الأولى من حياته...

ومن حقنا أن نستعمل نفس المقاييس التي اعتمد عليها الغزالي في مناقشته للمذاهب التي كانت سائدة في عصره، وأظن أن معظم معاصريه أو الذين جاءوا قبله أو بعده قد بحثوا كما بحث الغزالي عن المذاهب المختلفة، واختاروا منهجا مغايرا للمنهج الذي اختاره الغزالي مما يؤكد أن النتائج ليست واحدة، وتتحكم فيها عوامل مختلفة، بعضها نفسي، وبعضها استعداد ذاتي...

اثر الطفولة في شخصية الغزالي

ولو أننا بحثنا عن جذور الشخصية الصوفية في تكوين الغزالي لوجدنا أن طفولة الغزالي كانت متحكمة في منهجه الفكري، وكان اثر تلك الطفولة واضحا في توجيه استعداده، وقد غابت هذه الملامح في المرحلة الأولى من حياته عندما حاول دراسة الفلسفة، إلا أن تلك الطفولة كانت كامنة في أعماقه، وكانت تدفعه بطريقة ملحة إلى تلك الذكريات التي كانت حية في ضميره...

ويمكنني أن افترض، واعترف أن هذا مجرد افتراض، أن الغزالي كان يعيش حالة صراع نفسي بين اتجاهين، الأول هو الذي كان يعيش فيه مغلبا المنهج العقلي في التفكير، متصديا للفلاسفة، حاملا مشعل العقل ومسترشدا به، وكان هذا الاتجاه هو الذي غلب على الغزالي في المرحلة الأولى من حياته، وهو الذي دفعه إلى أن يكون في مقدمة علماء عصره، حجة وبرهانا وعلما، ثم وجد نفسه أسير طفولة كانت تشده بحنين كبير إلى ذكريات بيئة صوفية كان قلبه معلقا بها، متأثرا بمفاهيمها، ملتجئا إليها في بعض المواقف لتفسير أحداث ووقائع، والبيئة تلعب دورا في تكوين فكر

الإنسان، والتصوف عالم عجيب، يشد الإنسان، ويوجد لديه حنينا دائما إلى حياة التصوف، لأن التصوف هو عالم الذات، وفي لحظة انكفاء النفس على داخلها تجد نفسها حائرة أمام تفسير وتبرير ذلك الانكفاء، وتجد في المفاهيم الصوفية تفسيرا مقنعا ومريحا للنفس، تطمئن إليه النفوس، وتجد لذة في التفكير فيه...

والغزالي وجد نفسه بعد مرحلة الشك والحزن أمام بوابة وحيدة كانت، مشرَعةً أمامه، فاقتحم تلك البوابة في ليلة كانت قاسية عليه، بعد مرحلة صراع نفسي قاده من عالم العقل إلى عالم الذات والوجدان، وألقى أثقاله النفسية، وأغرق سفنه، واستقر به المقام على الساحل الذي كان يتطلع إليه منذ طفولته الأولى، وابتدأ بعد هذه الرحلة يعد نفسه للعالم الجديد الذي اختاره، وعكف على تأليف كتابه الهام «إحياء علوم الدين».

وهذا الكتاب من أروع الكتب المعبرة عن النفس الإنسانية، ولا أظن أن هذا الكتاب قد دُرِسَ الدراسة الوافية المستوعبة لهذه التجربة الإنسانية التي عاشها الغزالي، وهو كتاب يتحدث فيه الغزالي عن ذلك الصراع الرهيب والقاسي بين الإنسان ونفسه...

واعتقد شخصيا أن كتاب «الإحياء» هو الكتاب الذي يمكنه أن يلقي الأضواء الكاشفة على نظرية الغزالي الذاتية في النفس الإنسانية، وهي نظرية جديرة بالدراسة المستوعبة لكل فكر الغزالي، والمتضمنة لكل تجربته الإنسانية، في حياته المليئة بالمنعطفات الحادة التي أعطت أعظم الآراء في ميدان التربية النفسية...

ابن رشد رائد الفكر العلمي المعاصر

عبد العزيز بنعبد الله

منذ أواخر القرن الخامس الهجري أولى الموحدون عناية فائقة للعلم والعلماء، فكان من نتائج ذلك أن الفكر تحرر بصورة لم يسبق لها نظير بالمغرب. وقد استشهد الدكتور لوكلير[1] على هذه الظاهرة الفذّة بنبوغ أمثال ابن طفيل وابن باجة وابن رشد الذي هو في نظره أعظم فيلسوف أنجبته الأندلس.

ويظهر خلافاً لذلك ـ أن علوم الحكمة أو الفلسفة قد تقلص ظلها، بعد ذلك بقرن عندما عمد يعقوب المنصور الموحدي إلى تعقب الفلاسفة ومطاردتهم حتى الاضطهاد حيث أناط المنصور بابن زهر مأمورية تعقب الفلاسفة، ثقة به لأنه كان طبيباً غير فيلسوف، واتجه المنصور آنذاك إلى تدوين الأحاديث النبوية وترتيب الجرايات لحفظها فاتجه الناس إليها انجذاباً للمادة، كابن زهر الحفيد أبي بكر محمد بن عبد الملك الذي حفظ صحيح البخاري بالإضافة إلى ثلث شعر العرب والتعمق في الطب. ولم ينسق ابن رشد معهم في ذلك لأن المنصور اعتقله مع أبي جعفر الذهبي، فزاد ذلك الناس ريبة في مصير الفلاسفة. وليس معنى هذا أن ابن رشد لم يكن محدثاً فقيهاً أصولياً ضمن مشاركاته المتعدّدة، لأن مصنفاته في العلوم الإسلامية تشهد بهذه الضلاعة المتنوعة الأطراف، ولكنه أبى إلا أن يظلّ فيلسوفاً فقيهاً لعدم تنافي المعرفتين،

1) في كتابه حول تاريخ الطب العربي، ج 2، ص 72.

وبفضـل هـذا الصمـود انتصر الفكر العلمي الحر في عهـد المنصـور نفسـه خـاصـة عـام 595 هـ وهي السنـة التي مـات فيهـا ابن رشـد فـأعـاد الأمير المـوّحـدي الحظـوة إلى الرجلين (ابن رشد وزميلـه أبي جعفر) بعـد أن انتقل إلى تعقب الأطبـاء أنفسهم كابن زهر الذي مكث في سجن مرّاكش عشر سنوات مند عام 535 هـ حيث صنف كتابه (الاقتصاد) ثم هاجر إلى الأندلس فأدرك مرتبة في الطب جعلت ابن رشد يفضله بها على غيره من أهـل عصره فـاضطر المنصـور إلى استقـدامـه من الأنـدلس إلى مرّاكش للمرة الثانية عام 580 هـ حيث توفي في السنة التالية.

والغريب أن المنصور جرؤ على إدراج الأطبـاء ضمن من تعقبهم من الحكمـاء، بـدعوى أنهم استعانوا بالحكمة والمنطق لاستخدام التمحيص العقلي في تجـاربهم العلميّـة، انطلاقـاً من القياسـات ا لطبيـة. وكان ابن زهر قـد استعـاض عن التقليـد بـالمنهج التجريبي الرصين فـاستطـاع التفوق على سلفـه كابن سينـا في الممارسـات اليوميـة. وقـد أوغـل المنصور في هذا الاضطهاد فأرفقه بالنفي إلى الأندلس فكان من حـظ ابن رشـد الزج بـه في المجمع اليهودي بـاليسـانـة Lucena حيث تفتقت قريحتـه فبرز البعـد الحقيقي لمعارفه كعالم شمولي التكوين. وإذا كان الكنـدي هو أول فيلسوف ظهر عنـد العرب، فإن ابن رشد قد أصبح أب الفلاسفة المغاربة والمعلق الأول لأرسطو في أصالـة نـادرة أبرزها المؤرخ الألماني (ويستنفلد) الذي تتبع الكتب اليونانيـة المعربـة أو المنقولـة إلى السريانية والأرامية والفارسية، فاستطاع أن يتعرف على مدى العمق والأصالة لـدى ثلاثمائة طبيب عربي، أجلهم وأعلاهم ابن رشد. والمعلق غير المترجم لأن ابن رشـد كان أول من تجرأ على شرح فلسفة أرسطو والتعليق عليها أي نقدها. فابن رشد لا يرتكز على العقل وحـده كما يفعل أرسطو في الـدلالـة على وجود اللـه مثلاً حيث نهـج (ابن سينا) نهجـه في «رسـالـة الطير» وكـذلـك (ابن طفيل) في «رسـالـة حي ابن يقظـان» وبعـدهمـا «دوفوي DUFOE في روبنصن دو كروزوي» ROBINSON DE CRUSOE فقد أضـاف ابن رشـد إلى حجيـة العلل الأربع Les quatre raisons التي يستشهـد بهـا أرسطو ـ أي التمحيص العقلي الذي هو أساس الفلسفـة ـ التجربـة العلميـة التي تـدعو

إليها الشّريعة دعماً للحقيقة ـ كما في كتاب «فصل المقال» : لقول الله تعالى : ﴿**وَمَا يَعْقِلُهَا إلاَّ العَالِمُون**﴾ أي لازدواج العقل والعلم كأسيسة وقوام للوصول إلى الحقيقة، وقد استدلّ الله في القرآن على وجوده بالعلم المعزز بالعقل حيث قال: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَـٰوَٰتِ والأَرْضِ**﴾ والنور طاقة منها الكهرباء التي لم يستكنه العلم الحديث ماهيتها رغم محسوسيتها. فكيف بالذات الإلاَهية ؟ ولذلك عرف ابن رشد لأول مرة هذه الازدواجية التي شرحها (ابن تيمية) في كتابه : «موافقة العقل الصريح للشرع الصحيح» وهو أي الفصل الصريح ما توصل إليه الفيلسوف الألماني (كانط) KANT بعد قرون في كتابه (نقد العقل المحض) ومن هنا توصل ابن رشد إلى ازدواجية موازية وهي تواكب الفكر والوجدان أو العقلانية والسيكولوجية.

وقبل أن نحلل عطاءات الفلسفة الرشدية نتساءل إلى أي حدّ يمكن أن نعتبر أطباء وفلاسفة الأندلس مغاربة ؟ فهل مجرد مقامهم بالمغرب يسمح بادعاء هذا الانتماء لهم ؟ فقد حاول الإجابة عن هذا التساؤل مستشرقون مرموقون مثل الدكتور رينو[2] الذي حاول أن يدلّل على أن للمغرب الحق في تبني أمثال ابن باجة وابن طفيل وابن رشد الذين ساروا في أعقاب ملوك المغرب من إشبيلية أو قرطبة إلى فاس أو مراكش.

والواقع أن تراث المغرب والأندلس متداخل إلى حدّ يصعب التمييز بين عناصره لا سيما وأن الكثير من أطباء وفلاسفة الأندلس لم تنضج ملكتهم ولم تكتمل تجربتهم إلاّ في ظلال البلاط الموحدي بمراكش.

ومهما يكن فإن أهم ظاهرة في الرصيد العلمي لدى ابن رشد أنه جمع بين الطب والفلسفة كأتم ما يكون هذا الجمع فاكتملت عنده النظرة الكونية الشمولية، ولذلك

2) في كتابه «الطب القديم بالمغرب»، نشره معهد الدروس العليا بالمغرب عدد 1 ص 72.

تجلت رصانة هذه الازدواجية في تراثه أكثر مما تجلت عند ابن سينا، ولعل من أدلة هذا التسامي أن ابن رشد شرح أرجوزة ابن سينا المعروفة بـ (الكانتيكوم) فكان شرحه ـ حسب ابن زهر الأوسط ـ أفضل من كتاب (القانون) وقد ترجم الشرح إلى اللاتينية فأصبح من أبرز المراجع في أوروبا خلال العصور الوسطى بل والعصور الحديثة التي سجلت هذا التفوق في إقامة تمثال للفيلسوف المغربي في كلية الطب بمونبيلي.

وقد اقترح ابن رشد في هذا الشرح ما يصفه الأطباء اليوم وهو تبديل الهواء في الأمراض الرئوية، وقد أشار إلى جزيرة العرب وبلاد النوبة كمراكز شتوية.

ولعلّ من عوامل تفتق هذا الفكر الشمولي الموسوعي لدى ابن رشد اتقانه للغات العلم في عصره وهي الإغريقية واللاتينية بالإضافة إلى القطلانية. على أن التضلع في هذه اللغات العلمية لم يكن رهينا بطائفة من علماء الأندلس دون أخرى فقد لاحظ ابن حزم في جمهرته وهو من رجالات القرن الخامس الهجري أنه لم يعرف ولو رجلين بالأندلس لم يكونا يتقنان هذه اللغات بجانب تعمقهم في علوم لغة الضاد. ومعنى ذلك أن الإشراف على ناصية هذه الألسن العلمية كان شيمة كل علماء الأندلس مهما تنوعت معارفهم من فقه وأصول وحديث إلى حكمة وطب.

ولعل عودة ابن رشد إلى الأندلس قد أتاحت له حرية أوسع في البحث العلمي وإن كان الأندلس لم تكن آنذاك أقل خضوعا لدار الخلافة بالعدوة الجنوبية، غير أن المحيط الذي اختير له المقام فيه وهو (اليسانة) لم يكن محط تعقيبات المنصور الموحدي الذي كان يتحاشى التدخل في التأويلات التلمودية[3] والحد من الحريات التي خولها اليهود

3) التلموذ مجموعة تقاليد أحبار اليهود يؤولون بها (قانون موسى) وهو قسمان : (المشنا) أي مدونة التقاليد الشفوية و (الجمارة) وهي التعاليق على (المشنا).

لأنفسهم في مركز اليسانية وهو واقع بين قرطبة ومالقا، اتخذوه كمنتدى للثقافة اليهودية ومحور للمعاهد التلمودية. فقد وجد ابن رشد في (اليسانة) إذن مجالا تفتحت فيه عطاءاته العلمية وكان اليهود يمنعون دخول غيرهم (اليسانة)[4] ولكنهم سمحوا لابن رشد بذلك إعجابا بفلسفته التي نشروها بإيطاليا وفرنسا بعدما أجبروا على الخروج من إسبانيا، وكان أكثر تلامذة ابن رشد ـ على ما قيل ـ من اليهود والنصارى وقلّ من كان يقرأ عليه من المسلمين لرميه بضعف المعتقد. وكان التعليم بالأندلس آنذاك مشتركا بين المسلمين واليهود والنصارى في درس واحد كما وقع في (بياسة) Baeza عام 553 هـ / 1158 م حيث كان عبد الله بن سهل الغرناطي يلقي دروسا مشتركة[5] وكانت العربية لغة التدريس.

هنالك تتلمذ موسى بن ميمون لابن رشد، وقد ولد عام 530 هـ / 1135 م وتوفي بعد شيخه بست سنوات حيث أصبح داعية للفلسفة الرشدية التي تبلور فيها فهم جديد لفلسفة أرسطو وكان يدعو إلى الفكر الأرسطوطاليسي قبل ابن رشد فيلسوف طليطلي[6] توفي عام 576 هـ / 1180 م (أي قبل ابن رشد بـ 19 سنة) وقد أمست الفلسفة الرشدية مزيجا من المدركات العربية والعبرية لنظريات الفيلسوف الإغريقي سادت أوروبا بفضل تبني (اليسانة) لها ودعوة (ابن ميمون) لتعاليمها من منابر الأندلس غربا، ثم مصر شرقا ومعلوم أن طليطلة كانت فيما قبل مهبط رواد العلم من الأوروبيين وقد استنجد (ريموند) أسقف المدينة بعلماء العرب لعلاج الفقر اللاتيني وإذ ذاك بدأت ترجمة مصنفات العرب العلمية واستقر (جيرار دوكريمون) في طليطلة نصف قرن نقل خلالها من العربية إلى اللاتينية ستة وسبعين كتابا عربيا أو إغريقيا معربا. ولعل انتشار فلسفة ابن رشد وذيوع صيته بأوروبا قد حدا المنصور

4) الشريف الإدريسي ـ (وصف إفريقيا) ص 205 / (مسلمو إسبانيا) لدوزي، ج 3 ص 158.

5) الإحاطة لابن الخطيب، ص 222 / مخطوطة الأسكوريال، عدد 1673.

6) له دراسة فلسفية بالعربية معروف باسم (العبري) أي الإيمان العلوي (الموسوعة البريطانية، ج 1، ص 60).

إلى استدعائـه للعودة إلى المغرب، وكان (موسى بن ميمون) قـد هـاجر إلى فـاس منـذ عـام 556 هـ / 1160 م (أي قبـل وفـاة ابن رشـد عـام 595 هـ بنحـو أربعين سنـة) حيث سكن مـدة خمس سنوات بـدار (المجـانـة) بفـاس التي كانت آنـذاك مركزا لأول جامعة هي جامعـة (القرويين) التي أسست عـام 245 هـ وعرف مقرهـا بصيت علمي واسع حدا البعض إلى تسميتها (أثينة إفريقيا) لأن الكشوف العلمية تفتقت بحرية منذ بدأ ازدهـار جـامعـة القرويين في القرن الرابع الهجري حيث انتقل جيربير ـ على مـا قيل ـ إلى فاس لدراسة الرياضيات ومن خلال ما سمي بـالأرقـام العربيـة وقـد تولى جيربير البابويـة بـاسم (سلفستر الثـاني) عـام 999 م والواقع أن مكانـة فـاس العلميـة تزايدت أكثر فأكثر بعد أن قلصت الكنيسـة المسيحيـة عـام 589 هـ قـانون الأحوال الشخصيـة لليهود أي عهـد المنصور المـوحـدي نفسـه ولهـذا يمكن القـول بـأن حركـة (المكوك) ظلت موصـولـة بين (فـاس واليسـانـة) طـوال قرون حيث قـام الفيلسـوف اليهـودي سليـمان بن يحي بن جبيرول (أو جبيرون) منـذ عـام 450 هـ / 1058 م في كل من المركزين ـ بتدريس الأفلاطونية الحديثة.

وهنا يجب أن نحلل مدى البعد الموسوعي لدى ابن رشد حيث امتـاز عن معـاصريـه بمشاركة خاصة في تعاليم وعلوم مختلفة انضاف فيها إلى الفلسفة والطب والنبـات وعلم النفس علوم الأصول والفقه والحديث والتاريخ فضلا عن علوم الآلة.

فابن رشد الطبيب الفيلسوف النباتي قـد خلف لنـا تراثـا فريـدا من نوعـه يمكن أن نلخصه فيما يلي :

1) كتاب الكليات الذي توجد مخطوطة له بمكتبة مدريد عدد 132 وأخرى بمكتبـة ستراسبورغ عدد 124 وقد طبعت صورة هذه المخطوطة بالعرائش عام 1939.

2) شرح أرجوزة أو ألفية ابن سينا المعروفة بالكانتيكوم توجد نسخ منها في خزانة القرويين عدد 342 والأزهر 475 ودار الكتب المصرية (1239) طب) والمكتبة الحسنية بالرباط (أعداد 2090 ـ 2432 ـ 3825).

3) شرح كتاب الحميات (الاسكوريال 879).

4) مقالة في الترياق (الاسكوريال 879).

5) مقالة في المزاج (الاسكوريال 879).

6) جملة من الأدوية المفردة (الفاتكان 357).

7) رسالة في التفحص عن أسباب طول العمر وقصره.

8) شفاء السقام ومبرئ الآلام (المكتبة التيمورية 109 طب).

9) تهافت التهافت الذي رد به على تهافت الفلاسفة للغزالي. طبعة القاهرة 1303 وطبعة بيروت 1930.

10) الخاص المحصوص (Yeni 1179).

11) رسالة في إثبات أقاويل المفسّرين في علم النفس المطبقة لما قاله في العلم الطبيعي.

12) رسالة في النبات 1888 (éd. Teubner).

13) تلخيص كتب أرسطو الأربعة (المقولات والقضايا والقياس والبرهان) ـ القاهرة 52 رVI.

14) كتاب فصل المقال في الموافقة وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال.

15) كتاب فلسفة الفاضل (القاهرة 1313).

ولعلّ «فلسفة الفاضل» هذه قد واكبت نظرية (المدينة الفاضلة) للفارابي وكذلك (الجمهورية) لأفلاطون التي شحنها بمثاليات جماعية يمكن وسمها بالشيوعية، في حين ركز ابن رشد فضيلة المجتمع على العدالة الاجتماعية التي حللنا أبعادها في كتابين اثنين :

(l'Islam dans ses sources) – (La Pensée islamique et le monde moderne)

على أن تأثير أفلاطون على ابن رشد غير خاف لأنه تأثر بالفارابي الذي اعتبر المعلق على فلسفة كل من أفلاطون وأرسطو إلا أن انصياع ابن رشد للفكر الإسلامي قد كيف نظريته في المعرفة والمثاليات والماورائيات وغيرها تكييفا عميقا «على ضوء القرآن» - كما يقول «لوبوتي لاروس» المصور.

فقد سبق الفكر الإسلامي النظرية الماركسية منذ أربعة عشر قرنا في خصوص مبادئه الثلاثة وهي :

- الحد الأدنى (Minimum vital)

والتسوية الطبقية (nivellement des classes)

والمبدأ الماركسي الأساسي الذي عبر عنه (كارل ماركس) في كتابه Capital – Travail فهناك أحاديث أربعة مسجلة في كتب الصحاح طوال هذه المدة وهي : «أنا خصيم من لم يؤد أجرة الأجير قبل أن يجف عرقه» و«من أكل أجرة الأجير حبط عمله ستين عاما» ولو صلى وحجَّ وصام و«إن في المال لحقا سوى الزكاة»، وقول عمر بن الخطاب «لو استقبلت ما استدبرت لرفعت الفقراء إلى درجة الأغنياء» أما اعتبار عمل العامل هو رأس المال الحقيقي كما في كتاب (ماركس) فقد سبقه إليه ابن خلدون في مقدمته (باب الكسب رأس المال) وقد حللت هذا الفكر الإسلامي في محاضرة ألقيتها في موسكو خلال السبعينات بدعوة من أكاديمِيَّة العلوم السوفياتية ثم في المؤتمر الإسلامي المسيحي بقرطبة. أما في الفقه والأصول فهنالك (بداية المجتهد ونهاية المقتصد) - مكتبة الزيتونة 3202 / القرويين 1159/60 / المكتبة الحسنية بالرباط 2641/6161 وقد طبع بفاس عام 1327 والقاهرة عام 1329 - 1335 واسطامبول 1333.

وكتاب (البداية) يشهد بضلاعة ابن رشد في كل من الأُصول والحديث. ومعلوم أن تلميذ ابن رشد محمد الندرومي (من ندرومة قرب تلمسان) الذي ولد عام 580 هـ وكان طبيب الناصر والمنصور كان أصوليا اختصر كتاب (المستصفى) للغزالي، كما أن أبا جعفر بن هارون الترجالي طبيب يوسف بن تاشفين هو شيخ ابن رشد وتلميذ أبي بكر المعافري في علم الحديث، وقبل أن نحدد مزيدا من أبعاد الاتجاهات الجديدة في فلسفة ابن رشد نريد أن نبرز بعض مظاهر هذا التجديد في مجالات مختلفة. فابن رشد هو أول من وصف في كتابه (الكليات) بدقة (الدورة الدموية الكبرى) قبل (ويليام هارفي) وقبل ابن النفيس الذي لم يحدثنا في الحقيقة إلا عن الدورة الدموية الصغرى أي الرئوية، وقد تحدث عن هذا الاكتشاف الرشدي أطباء ومؤرخون أمثال إيرنيست رونان في كتابه «ابن رشد والرشدية».

وإذا كانت النسخ التي بين أيدينا من (الكليات) خالية من هذا الوصف الدقيق فهي ناقصة ولعل ما في النسخ الأخرى ما يفي بذلك.(7)

وأما (تهافت التهافت) فإنه كان تعقيبا على كتاب (تهافت الفلاسفة) للغزالي الذي توفي قبل ولادة ابن رشد بنحو العشرين سنة، فلم يكن الغزالي يقصد إذنْ إلا فلاسفة اليونان ومن نحا نحوهم وقد كان ابن رشد أول فيلسوف على الإطلاق أخضع الفكر اليوناني إلى النقد فاعترفت له أوروبا والعالم أجمع بأنه أول معلّق لأرسطو أي شارح ناقد لفلسفته فمقارنتنا وتنظيراتنا بين الرجلين يجب أن تنصب قبل كل شيء على المفاهيم الرشدية النابعة لا من كتاب (تهافت التهافت) وحده بل من مجموع رسائله الفلسفية على أن هذا لا يعني أن ابن رشد لم يدافع عن صميم الفكر اليوناني في مدركه الصحيح كما يفهمه هو لا كما يتجلى في ظاهره، وقد حدا هذا الدفاع الناقد المتبصر المدرسة الميمونية إلى تبني آرائه ونقلها للأجيال اليهودية ودحض انتقادات

7) مثل نسخة (الكليات) المدرجة ضمن كتاب (التذكرة) لابن زهر والموجودة في مدرسة اللغات الشرقيةبباريس ويرجع تاريخ طبعها إلى عام 1531م.

الكنيسة وجامعة باريس، وتتعزّز نظرية ابن رشد الفلسفية ببعد نظره في سبر أغوار الحقائق الكونية التي لا تدرك مغازيها إلا بالجمع بين الشريعة والحقيقة الكونية التي هي الحكمة.

فلذلك جاء كتابه «فصل المقال في الموافقة وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال» كدليل على قوام ثنائية الوجود مما حدا ابن ميمون إلى الاعتماد عليه في محاولة التوفيق بين الدين والفلسفة في كتابه «دلالة الحائرين» لتحديد الأركان الثلاث عشرة للديانة وهو كتاب من ثلاثة أجزاء مكتوب أصالة باللغة العربية.

وهذا الفكر الشمولي لدى ابن رشد قد حداه إلى الاهتمام بقضايا تاريخية واجتماعية، فإليه يرجع الفضل كمؤرخ وجغرافي إلى الكشف عن العالم الجديد وراء المحيط الأطلنطيقي كما اعترف بذلك (كريسطوف كولومب - إذا صدقنا ما أورده إيرنيست رونان - من أن (كولومب) لم يشعر بوجود قارة يابسة وراء المحيط حتى قرأ كتاب (الكليات) في نسخته اللاتينية.

ولعل تصنيفه لرسالة حول (الهبط) التي كانت عاصمتهافي عصره هي حاضرة (القصر الكبير) مما يؤكد اهتماماته الكونية لأن هذه المنطقة كانت منطلقا لمغامرات بحرية منذ أن أسس الفينيقيون مدينة (ليكس) التي عرفت في العهد الروماني ب(ليكسوس) عام 1101 قبل الميلاد، وتتصل هذه الظاهرة بحقيقة أخرى كتبت حولها عشرات المصنفات باللغتين الإنجليزية والأندلسية منذ الثلاثينات وهي أن المغاربة والفينيقيين إنطلقوا بعد أن هدم (سيبيون الإفريقي) مدينة قرطاج عام 146 ق.م. فوصلوا بعد جولة في المحيط دامت ثلاث سنوات إلى تأسيس مجمع في موقع البرازيل الحالي عام 125 ق.م. كما تشهد بذلك لوحة حجرية تحمل هذا التاريخ، وقد كتبت بلغة بونية تبين أنها هي اللهجة المغربية الحالية، وهذا يعزز نظرية (كوتيي) في كتابه (العصور

الغامضة في تاريخ المغرب) حول دخول العربية إلى المغرب قبل الإسلام بعدّة قرون على أن عدة مجلاّت أمريكية أبرزت هذه الحقيقة في فترات مختلفة من تاريخ المغرب قبل إبن رشد[8].

فهذه الشمولية الفذة قد طبعت المذهب الرشدي الذي انتشر بأوروبا طوال العصور الوسطى بفضل تواكب عطاءاته ومنطقية منهجه وجسارة نظرياته - مما أثار موجة من الانتقادات لدى فقهاء مسلمين ورجال دين مسيحيين، ولذلك حدانا الاضطراب الذي لا حظناه لدى مؤرخين معاصرين لتلك الفترة من تاريخ المغرب والأندلس - إلى الشك في كثير من المقولات التي اضطررنا إلى العودة للنصوص من أجل التأكد من مدى صحتها، ولنضرب مثلا لتناقض بعض النقاد في ذلك العصر بما أثير من شكوك حول ابن باجة أبي بكر محمد بن يحيى المعروف بابن الصائغ والمتوفى بفاس عام 533 هـ/1138م، وقبل عام 523 هـ أو 525 هـ (والأول هو الأرجح) مما دفع المؤرخ (مونك) إلى إنكار تلمذة ابن رشد له بحجة أن عمر ابن رشد كان 12 سنة عند وفاة ابن باجة، ولكن المهم هنا هو أن (الفتح بن خاقان) جمع بين المتناقضات عندما نسب ابن باجة في كتابه (قلائد العقيان) للتعطيل وانحلال العقيدة في حين حلاه في (مطمح الأنفس) في ذكر رجال الأندلس) بالخير والدين والاستقامة[9] وهذا هو نفس ما وقع لابن رشد الذي تأرجح نقاده بين مقدس ومكفر، وقد انصبت انتقادات الكنيسة عام 1260م والمجمع الكنسي الخامس للاطران عام 1513م في عهد البابا (ليون العاشر) على نظرية ابن رشد حول خلود المادة وخلود العقل الفعال، ونظرنا الخاص في هذا المجال أن فلسفة ابن رشد قد وقع انحراف غير قليل في إدراك مداها وفهمها على حقيقتها، فمكانة ابن رشد كعالم ديني لا تخفى، وقد انعكست عقيدته الصحيحة على الكثير من مصنفاته إلا أنه كفيلسوف يرجع إليه الفضل في الجرأة على تحديد المفهوم الصحيح لفلسفة أرسطو خاصة في الماورائيات، وكذلك غيره من حكماء

8) تحدثنا عنها بإسهاب في كتابنا «العربية اللغة الأم». (وهو ما زال مخطوطاً).

9) «سلوة الأنفاس» ج 3، ص 262.

(أثينة)، خاصة فيما يتصل بعالمي المادة وما وراء المادة، أو المادة والروح وخلودهما، فقد ارتكز ابن رشد في تاويلاته الأصيلة على مبدئين أساسيين يظن الكثير من الناس أنه لم يتم الكشف عن أهم مقتضياتها ولوازمها إلا منذ أوائل القرن العشرين، وهذان المبدآن هما مبدأ النسبية الذي نادى به اينشتين المتوفى عام 1955 والمبدأ الثاني هو الربط الوثيق بين المادة والروح. ففكرة النسبية قد انطلق فيها (ابن رشد) في مناداته بقدم العالم أي المادة الكونية من ازدواجية مفهوم القدم في شقيه : الوجود بالقوة والوجود بالفعل، فالوجود الأول أقدم من الوجود الثاني إذا استندنا إلى قاعدة النسبية على أن بعض الصوفية الذين حلَّلوا المفاهيم قد قالوا بهذه النظرية[10] بل حتى أئمة السنة لم ينكروا خلود الروح بل وخلود المادة المتبلورة في (عجب الذنب)، ومعلوم أن مبدأ النسبية مبدأ مسلّم به في الإسلام، وقد كان أساسا للاختلاف بين المعتزلة والأشاعرة في خصوص السمة النسبية للصفات البشرية التي برهنت الكشوف النووية على صحتها إثر تجربة تصعيد القطة البنت إلى القمر في سفينة فضائية وإبقاء أمها على وجه البسيطة حيث تجلت الأُولى بعد التحليلات العضوية أسن من أمها وهو ما أشارت إليه الآيتان الكريمتان : ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (وهو يوم الرب) وقوله تعالى : «فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُه خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (وهو يوم المعراج)، وقد ألقيت محاضرة حول النسبية في الإسلام أوائل السبعينات في قسم الفلسفة بجامعة الجزائر، على أن المناداة بتواكب الخلودين أو القدمين النسبيين وهما خلود وقدم المادة والروح (أي العقل الفعال الذي يقصد به الروح القدس) لا يمكن أن تنطلق إلا من فكر ثاقب في مثل ثقل ابن رشد ووزنه لمشاركته في العلوم الإسلامية والعلوم الكونية والدقيقة وإن دلت هذه البادرة العلمية الجريئة على شيء فإنما تدل على مدى عمق الفكر الرشدي وبعد مداه لأنه سبق ما وصل إليه اليوم الفكر المعاصر في إبراز الصلة الوثيقة بين عنصرين كان العلماء أنفسهم

10) فقد ذكر سيدي عبيدة الشنجيطي المتوفى عام 1284هـ في كتابه «ميزاب الرحمة» طبعة مكتبة القاهرة (1371 هـ/1951م، ص 88) ما نصه : «أما العالم من حيث إنه معلوم لله في الأول فهو قديم، وأما من حيث ظهوره بالوجود فهو حادث بإجماع، فمن قال إنه قديم مطلقاً أخطأ أو حادث مطلقا أخطأ».

قبل عصرنا هذا يرون تناقضها وتباعد لوازمها، وهما المادة والروح. فقد أبرز الأُستاذ (روبيرلينسن) في كتابه «روحانية المادة» فكرة التعارض الكلاسيكية بين الروح والمادة مؤكدا أن هذه النظرية أصبحت مهزولة مهزوزة لأَن الأُطروحة العلمية الجديدة تعرف الزمن كمظهر للحركة لا للمادة على أن هذه المادة نفسها ليست في نظر الفكر الجديد سوى حركة وهو ما يبرز الوحدة الحركية للعالم والوصلة العميقة بين الفيزياء والأَحياء من جهة، والسيكولوجية من جهة أُخرى، ويكون (الإلكترون) في ذلك هو الواسطة والرسول الواصل بين قطبي العالم وهما العنصر الرياضي من جهة، والعنصر النفساني والروحاني من جهة أُخرى، وهو ما أسموه بروحانية أو نفسانية الإلكترون (Psychisme de l'électron).

ولعل هذه الظاهرة تتجلى طبيا في العلاقة السببية بين الأَمراض السيكولوجية والأَمراض العضوية، وتظل الرياضيات في هذا المسار هي العامل الأَساسي الذي ينطلق منه الفكر العلمي المعاصر، أي أن هذه الرياضيات مزدوجة الطابع فهي رياضيات كونية ورياضيات ما ورائية، وقد أصبح العلماء يتجهون إلى هذه الأَخيرة معرفين إياها بأنها المنطلق لعلم الغد أي علوم المستقبل، فقد انعقد مؤتمر فيزيائي عالمي في (بيكين) عام 1966 للنظر في وجود أشكال لطيفة للطاقة، فتوصل إلى ما يستوجب اليقين بوضوح الدليل على ظهور بنية سيكولوجية عليا للعالم.

القسم الثاني

الملخصات

ما هو الوحي ؟
(تأملات)

محمد عزيز الحبابي

يطمح هذا البحث إلى إثارة التأمل حول الوحي انطلاقا من عدة تساؤلات :

- الذين ينكرون الوحي هل يفعلون ذلك باسم العقلانية والموضوعية والعلم، في هذه الحالة ما الذي يعطي مشروعية لذلكم النكران ؟

- بمراجعة التاريخ ألا يُلاحَظ أن العلم كان دائما تحت تأثير نزعة خبروية حتى ولو انعدمت العقلانية أو غابت الموضوعية ؟

- هل تجد «موضوعية» فِعلٍ أو «مؤشرات» مُعطىً تبريرها في نجاح التجربة أو تجده في تطبيقها وفق الغاية المتوقعة ؟

- حيث أن الإيمان من عمق التجربة الوجودية،لماذا نرفض أن يكون له حق الوجود في عالم الوقائع ؟

- عالم الوقائع يضم العقلي واللا عقلي، المحدود وغير المحدود، الموضوعي والذاتي، فما الذي يجيز نكران وجود الوحي والإيمان والتعالي ؟

ـ بما أن وظيفة العلم هي الإخبار عن العالم والإنسان، ألا يكون عليه أن يوضح حدوده ووظيفته ويرسم لنفسه غاية ؟

ـ ألا يجر ادعاء حياد العلم إلى مخاطرة إنشاء سلطة غير إنسانية ؟ (ومثال النازية دالّ في هذا المجال).

يهدف البحث، إذن، من خلال هذه التساؤلات إلى إثبات قضيتين :

1) ـ هناك وقائع ليست عقلانية وضمنها الوحي.

2) ـ إن الوحي، كمعطى واقعي، أكثر امتدادا مما هو عقلي أو قابل للعقلنة.

إحياء العلوم في العالم الثالث

أحمد عبد السلام

إن اتساع الهوة في المستوى المعيشي بين بلدان الشمال وبلدان الجنوب هي في الواقع فجوة علمية وتكنولوجية، وهي راجعة بالأساس إلى التفاوت الحاصل بين ما تصرفه بلدان الشمال على البحث العلمي والتكنولوجي وما تخصصه بلدان العالم الثالث لنفس الغرض.

فالشمال يوجه 2,25 ٪ من إنتاجه الوطني القومي إلى تطوير العلم والتكنولوجيا، بينما لا تخصص له بلدان العالم الثالث إلا 0,2 ٪ هذا، في الوقت الذي لا نجد فيه هذه النسبة من التفاوت عند مقارنة مدفوعات البلدان المصنعة والبلدان في طريق

النمو في مجالات الدفاع (5,6 ٪ مقابل 5,6 ٪) أو التعليم (5,2 ٪ مقابل 3,8 ٪) أو حتى الصحة (1,5 مقابل 4,8 ٪).

وهذه الهوة، وهي حديثة العهد، ناتجة عن عدة عوامل من بينها عدم التزام بلدان العالم الثالث بالتطور العلمي، والكيفية التي تدار بها مؤسسات البحث العلمي، وكذا عدم الالتزام بالاكتفاء الذاتي في ميدان التكنولوجيا.

أما في بلدان الشمال فإن سيادة العلم معترف بها سواء في مجال البحث في العلوم الأساسية، أو البحث في العلوم التطبيقية أو البحث وتنمية التكنولوجيا المتقدمة.

وتبلغ نسبة التمويل في المجالات الثلاث 1 ٪ و1 ٪ و2 ٪. وهذا يعني أن ما يقارب 4 إلى 10 ٪ من ميزانية التعليم تصرف على البحث الأساسي، ونفس النسبة على البحث التطبيقي، وضعف ذلك على البحث الأولي وتنمية التكنولوجيا.

وإذا اعتبرنا أن البنية الأساسية للبحث العلمي التطبيقي متوفرة في بلدان العالم الثالث فإنني اقترح أن تصرف هذه البلدان ما لا يقل عن 4 ٪ من ميزانية تعليمها على البحث العلمي الأولي (التكوين من أجل البحث، وتمويل المساهمات في النشاطات الدولية العلمية)، كما أوصي بأن تخول نفس النسبة للبحث العلمي التطبيقي، مع مضاعفة هذه في مجال تطوير التكنولوجيا المتقدمة.

البحث والاستعمال السلمي للفضاء الخارجي

روبير أمبرودجي

عندما يأخذ الإنسان مدارا في الفضاء الخارجي ينظر إلى كوكبه الأرضي فلا يُفَرِّق بين الدول ولا بين الشعوب، أي كلما ابتعد الإنسان عن الأرض إلا وازداد يقينا بأن هذا الكوكب المسكون تَكوَّن من شظية نار واحدة قبل خمسة عشر مليارا من السنين، وهذا يعني وحدة الكينونة والنَّسَب بين جميع البشر.

لقد أخذ الزمان أبعاداً جديدة بعد استكشاف الفضاء الخارجي، تفرض استعمالا سلميا للتقنيات الفضائية لصالح كل الدول وخاصة السائرة منها نحو النماء، عن طريق تعزيز دور منظمة الأمم المتحدة.

إلا أن إدراج الفضاء الخارجي ضمن التسابق نحو التسلح وتوسيع رقعته أمر يدعو إلى قلق المجتمع الدولي. من هنا فإن استعراض التقنيات الفضائية وتطبيقاتها يؤدي إلى خلاصة عامة وهي :

أن تطور تلك التقنيات ينطوي على فوائد جمة ولكن لبعضها آثار جانبية سلبية على الحياة الاقتصادية وخاصة بالنسبة للدول النامية، وهي آثار تدعو إلى الانزعاج.

الحل الذي يقترحه البحث هو القيام، تحت إشراف الأمم المتحدة، بدراسات للآثار التقنية والمجتمعية والاقتصادية والقانونية والبيئية المترتبة عن تطور تقنيات الفضاء الخارجي ووضع أسس تعاون دولي تسهم فيه كل المؤسسات القائمة وينطلق من اعتبار الفضاء بيئة يمتلكها جميع البشر.

اتجاهات جديدة للأبحاث في العلوم الاجتماعية

المهدي المنجرة

يتعرض البحث لتحديد وتحليل العوامل التي تتحكم في الحالة الراهنة والتطور المستقبلي للأبحاث في العلوم الاجتماعية، وهذه العوامل هي :

- التسارع التاريخي للعلوم الاجتماعية.
- التعقد المتزايد لهذه العلوم.
- التزايد الكمي السريع للمعارف وتقنيات معالجتها.
- التوجهات الجديدة للأبحاث حول إشكالية المصير البشري.

هذه العوامل أسفرت عن خضوع الأبحاث لتعدد الاختصاصات الذي أصبح يعني ارتباطها ببعضها البعض اعتمادا على فرضيات أو سيناريوهات للحلول في اتجاه تحقيق التنمية كمسعى مستقبلي وقائي وإجرائي.

الأمر الجديد الذي أصبح يلفت النظر هو الاهتمام المزدوج بالغايات (البعد القيمي والأخلاقي) والمناهج الدقيقة، من هنا أهمية الثقافة وضرورة الفلسفة.

إذا طبقنا هذه المعطيات على المغرب نجد أن الضرورة تفرض الاهتمام بالشمولية في ارتباط مع خصوصية المجتمع، مما يستوجب ترتيب الأوليات كما يلي :

صياغة مشروع المجتمع المستهدف ـ دراسة المشاكل المترتبة عن الانتقال من حضارة الإنتاج إلى حضارة المعرفة ـ ضبط المصادر الطبيعية والتحكم فيها ـ رصد نتائج تطور التكنولوجيات المتقدمة ـ صياغة مشروع بحث حول البحث في العلوم الاجتماعية (فلسفته ـ إشكالياته ـ مناهجه).

مُحصِّلة فعل «تولّد»

روني فريدمان

البحث عبارة عن تأملات فلسفية وأخلاقية لطبيب يعاصر انتقال الطب من ممارسة علاجية إلى ممارسة لتلبية الرغبات، وتتمحور هذه التأملات حول إشكالية الانجاب الاصطناعي على مستوى الفرد (الرغبة في ولد) أو على مستوى المجتمع الذي أصبح منشغلا بهذا الموضوع.

لقد أصبح الإنسان في موقف انزعاج : فكيف يستمر في الحياة والحالة أن لا شيء أصبح مُؤَمَّنا، وحتى المفاهيم الأشد عُتُوّاً مثل الحياة والموت والأب والأم، تسرب إليها الخلل والتصدع، وتفككت البنيات وعصفت بالغرب الأزمة الإيديولوجية.

بَغْتةً ينتصب العلم الطبي والبيولوجيا الطبية في معركة لهزم القدر الأعمى، فقلص دائرة الصدفة ورفض عدم المساواة التي تفرزها الطبيعة. كل هذه السيرورة تتمخض عن إلزامات جديدة، وحقوق جديدة للإنسان : فهل هناك حق خاص بالطفل ؟

انطلاقا من المبدأ الأخلاقي الذي يلتزم به الطب ألا وهو احترام شخص الإنسان يُعالج البحث المواقف من خلال تأصيل العمل الطبي (علما وممارسة) لينتهي إلى نتيجة عامة وهي أن الضمان المطلوب ضد كل انحراف أو خرق للقيم هو بيد السياسة، أي أقدام دولة «الحق» على حماية الإنسان في إطار ديمقراطية حقيقية.

علم الوراثة والأَخلاق وحقوق الإنسان

محمد علال سيناصر

تتجلى المعرفة أكثر فأكثر كسلطة، تلك حقيقة لا ينكرها حتى البيولوجي، طبيباً كان أو عالماً، حتى وإن تمسك باعتبار المعرفة كتحرر. لذلك لا يتردد «العالم البيولوجي والطبيب في التصريح بأن سلطة المعرفة تؤدي إلى مشاكل أخلاقية ذات علاقة بحُرِّية الأَفراد. السؤال المطروح إذن هو : لماذا هذا الربط بحرّية الفرد وبالتالي بحقوق الإنسان ؟

إن مجال الإنجاب الاصطناعي مناسب لمعالجة هذا التساؤل، مع الأخذ بعين الاعتبار ميثاق الأمم المتحدة (سان فرانسيسكو 1945) وتصريح حقوق الإنسان المصادق عليه من قبل الجمعية العامة في العاشر من دجنبر 1948.

في إطار هذا الربط تتبدى لنا خمس مفارقات :

1) بين تلبية رغبات الإنسان واحترام حقوق الإنسان.
2) التناقضات القائمة بين المبادئ القانونية ذاتها.
3) بين مصلحة العائلة ومتطلبات مستقبل الفرد.
4) بين احترام الحياة الخاصة واحتمالات التدخل فيها من جراء اكتشاف الأمراض والتشوهات من خلال تحليل النطفة. أي بين حدود رغبة الفرد واحتمال تدخل العلم لصالح الفرد نفسه.
5) بين حق الفرد في المعرفة والسر العلمي والمهني كأمر موقوف على العلماء والأطباء.

هذه المفارقات تعطي مشروعية وأحقية للتساؤل عن دلالة وحدود الإنجاب الاصطناعي وعلم الوراثة والبيولوجية الذرية من حيث أهمية هذه المجالات المعرفية بالنسبة للإنسان.

الريادة

كُونستنتان تساتسوس

انطلاقا من **جمهورية** أفلاطون ومن تجربته الغنية الواسعة يحلل لنا الكاتب شخصية الرائد.

إنه إنسان متعدد الأبعاد، تكوينه لا يكون فقط نظريا، أو تقنيا، أو دينيا، أو فنيا. فالمطلوب منه ألا يكون منقادا للعقل وحده أو للعواطف وحدها، لكنه في ذات الوقت يجب أن يمتلك كلا من العاطفة والقوة العاقلة في نوع من التوازن بحيث تتعايش فيه بانسجام وتحكمها المبادئ العليا للعقل.

فالرائد إذن هو الشخص الذي يستطيع أن يلعب دور الوسيط بين مختلف القوى والأهواء التي تتقاذف الإنسان حتى يتمكن من ضبط نفسه أولا، ومن ضبط شؤون دولته ثانيا.

ومن أجل القيام بمهامه، والتي تتمحور في تعبئة قوى الأمة الخلاقة في سبيل تقديم أحسن الخدمات الممكنة للمجتمع، يحتاج الرائد إلى أكثر من العقل، أي إلى الحكمة التي تولد العدالة من جهة، وتُمَكّن القيادة من أن تُترجِم أهداف الدولة الخالدة إلى أعمال آنية وظرفية من جهة أخرى. بالإضافة إلى حكمته وتبصره، إذن فإن الرائد هو رجل الفكر السياسي العملي، أي رجل القرار.

لكن أي قائد لا يمكن أن يصبح رائدا إذا هو لم يستطع الوصول إلى مركز القيادة، وهذا بدوره يتطلّب منه أن يكون مُربّياً ناجحاً، وإذن بإعلائه لهمم شعبه بتربيتهم سيتمكن من الفوز بثقتهم والحصول على عطفهم.

الأمن النووي : شرط ضروري لتنمية الطاقة الذرية

هوان كسيانغ

أعلنت الوكالة الدولية للطاقة الذرية أنه في سنة 1986 كانت توجد في العالم 397 محطة نووية تنتج 15 في المائة من مجموع الطاقة الكهربائية، وتوقعت أن هذا العدد سيصل إلى 25 ٪ سنة 2000.

إلا أن حادثتي (ثري مايل آيسلان) و(تشيرنُوبِيل) شكّلتا عرقلة في وجه الحوار الدائر حول تنمية الطاقة الذرية، مما أوضح أنه من المهم جداً إعارة اهتمام خاص لقضية الأمن النووي.

وتقوم الصّين الشّعبية باتخاذ تدابير ومقتضيات في هذا الاتجاه. وبالفعل في سنة 1982 بدأت عدة قطاعات في القيام بدراسات وتأملات من أجل صياغة تنظيمات تضمن الأمن النووي. وما أن حلت سنة 1984 حتى تم إنشاء الإدارة الوطنية للأمن النووي وهي مؤسسة مستقلة مكلفة بصياغة التنظيمات النووية والإشراف على المحطات النّووية ومنح الرّخص المتعلّقة بأنشطتها واختيار مواقعها وتصميمها وبنائها واستغلالها.

تعتمد التنظيمات النووية في الصين على القانون المتعلق بالطاقة النووية وتتفرع إلى قسمين :

- قسم التنظيمات والتدابير المسطرية.
- قسم مقاييس ومعايير الأمن النووي.

أما ما يتعلق بالشروط التقنية الخاصة باختيار مواقع وتصاميم وتشييد واستغلال المحطات النووية وكذا قضايا تأمين النوعية فإن الصين قد اختارت نموذج P.W.R ومجموع قوانين التطبيق الأجود التي أقرتها الوكالة العالمية للطاقة الذرية.

وجدير بالإشارة إلى أنه قبل تأسيس الإدارة الوطنية للأمن النووي في الصين قامت عدة معاهد وجامعات بأبحاث متعددة الاختصاصات حول أمن المحطات والمفاعلات النووية تغطي النواحي التالية :

- إعداد نسق لترميزات الحاسوب قصد تحليل الأمن النووي.
- إعداد منهج احتمالي لتقييم الأمن النووي.
- إعداد تكنولوجيا للمراقبة.
- إجراء دراسات تجريبية.
- إجراء دراسات حول الحماية من الإشعاعات والتدابير الاستعجالية.

القسم الثالث
نشاط الأكاديمية

تقرير عن نشاط أكاديمية المملكة المغربية
(1986 ـ 1987)

نعرض في هذه العدد ملخصا عن أعمال الأكاديمية ونشاطاتها العلمية المختلفة خلال السنة الأكاديمية 1986 ـ 1987، وهي فترة مرت حافلة سواء على مستوى الموضوعات الهامة التي تتولّى الأكاديمية دراستها خلال الدورات، أو الندوات المتخصصة التي تنظمها، أو المحاضرات العمومية التي تقوم بها أو المنشورات العلمية التي تحرص على موالاة طبعها بانتظام.

I دورات الأكاديمية

الدورة الثانية لسنة 1986

عقدت أكاديمية المملكة المغربية بمدينة أگادير خلال شهر نونبر لسنة 1986 دورتها الثانية لسنة 1986 التي خصصتها لدراسة موضوع : «القضايا الخلقية الناجمة عن التحكم في تقنيات الإنجاب»، وهو موضوع من الأهمية بمكان، بل انه أحد مواضيع الساعة التي تستوجب التفكير والتأمل، وقد قدمت لبحثه دراسات علمية متخصصة وتقارير اللجان الأخلاقية الوطنية في فرنسا وفي بريطانيا العظمى وفي أستراليا. كما قدمت عروض عن آراء الديانات اليهودية والمسيحية والإسلامية في الإنجاب الصناعي، ووضعت الأسئلة العريضة التي على الإنسانية أن تجد لها جوابها الشافي، وقد عقدت أثناء هذه الدورة ندوة قدمت خلالها البحوث التالية :

ـ «تحليل الاتّجاهات في الموقف الأخلاقي من قضايا الإنجاب الاصطناعي» للسيد عبد الرحمن الفاسي، عضو أكاديمية المملكة المغربية.

ـ «القضايا الخلقية الناجمة عن التحكم في تقنيات الإنجاب» (التلقيح الاصطناعي) للسيد محمد علي البار، خبير مدعو، أستاذ الطب الداخلي ومستشار مركز الملك عبد العزيز للبحوث الطبية.

ـ «تأملات في الإنجاب وتقنياته» للسيد أحمد صدقي الدجاني، عضو أكاديمية المملكة المغربية.

ـ «ضبط الإنجاب بقواعد الأخلاق» للسيد عبد الهادي بوطالب، عضو أكاديمية المملكة المغربية.

ـ «المشكلات النفسية الناتجة عن تطور تقنيات الإنجاب» للسيد محمد فاروق النبهان عضو أكاديمية المملكة المغربية.

ـ «التحكم في تقنيات الإنجاب : مواقف وآراء انطلاقاً من الشريعة الإسلامية» للسيد إدريس خليل، عضو أكاديمية المملكة المغربية.

آراء فقهية حول التّحكم في تقنيات الإنجاب البشري :

ـ «حول التلقيح الاصطناعي وأطفال الأنابيب» للسيد عبد الله كَنون، عضو أكاديمية المملكة المغربية.

ـ «موقف الإسلام من التلقيح الاصطناعي كوسيلة للإنجاب» للسيد محمد المكي الناصري عضو أكاديمية المملكة المغربية.

- «ما موقف الإسلام من تطور تقنيات الإنجاب فقها واجتهاداً» للسيد الحاج أحمد ابن شقرون، عضو أكاديمية المملكة المغربية.

- «الموقف الفقهي من التحكم في تقنيات الإنجاب» للسيد عبد الله شاكر الكُرسيفي، عضو أكاديمية المملكة المغربية.

- «الضوابط الفقهية للإنجاب المشروع في الشريعة الإسلامية» للسيد محمد فاروق النبهان عضو أكاديمية المملكة المغربية.

- عرض تمهيدي للسيد جان برنار، عضو أكاديمية المملكة المغربية.

- «تقدم البيولوجيا والتكاثر الإنساني» للسيد مولاي الطاهر العلوي، خبير مدعو، أستاذ بكلية الطب بالرباط.

- «النطف المجمدة» للسيد روني فريدمان، خبير مدعو، أستاذ بكلية الطب باريز.

- «آفاق استعمال العوامل الوراثية السليمة في علاج الأعراض الوراثية» للسيد دونالد فريدريكسون، عضو أكاديمية المملكة المغربية.

- «من أجل الشخص : تأملات في التلقيح الاصطناعي» للسيد محمد عزيز الحبابي، عضو أكاديمية المملكة المغربية.

- «الإنجاب الاصطناعي والمواقف الأخلاقية» للسيد جان كوهن، خبير مدعو، مدير مركز العقم بمستشفى سيفر.

- «لمن القول ؟» للسيد جورج ڤوديل، عضو أكاديمية المملكة المغربية.

- «الموقف الأخلاقي من تقنيات الإنجاب : التجربة البريطانية» للسيدة ماري ڤارنوك، خبيرة مدعوة، عميدة كيرطن كوليج بكامبريدج ورئيسة لجنة البحث عن الإخصاب الإنساني والنطفيات.

- «تقنيات الإنجاب بين القانون والأخلاق : عمل المجلس الأوروبي» للسيد روني جان ديبوي، عضو أكاديمية المملكة المغربية.

- «الآثار القانونية للتحكم في تقنيات الإنجاب» للسيد جان ميشو، خبير مدعو، رئيس اللجنة الاستشارية الوطنية للأخلاق المتصلة بعلوم الحياة والصحة.

- «القواعد التّشريعية وغير التّشريعية الناظمة لتقنيات الإنجاب في استراليا» للسيد راسل سكوت، خبير مدعو، عضو اللجنة الوطنية الاسترالية لأخلاقيات البحث الطبي.

- «الانشغالات الخلقية المتعلقة بالإنجاب الاصطناعي» للسيد داڤيد بلايش، خبير مدعو، حبر يهودي وأستاذ الفلسفة والقانون التلمودي لدى عدة جامعات أمريكية.

- «موقف الكنيسة الكاثوليكية من التحكم في تقنيات الإنجاب» للسيد برناردان ڭانتين، عضو أكاديمية المملكة المغربية.

- «عرض موجز لآراء الكنيسة البريطانية في موضوع قضايا التحكم في تقنيات الإنجاب» للسيد ڭوردون دانستان، خبير مدعو، أستاذ اللاهوت الخلقي والاجتماعي بجامعة لندن.

كل هذه البحوث القيمة وكذلك المناقشات التي تخللتها قد تم طبعها في كتاب هو الآن بين أيدي القراء.

الدورة الأولى لسنة 1987.

عملا بتوجيهات راعي الأكاديمية جلالة الملك الحسن الثاني وبتعليمات سامية منه حفظه الله عقدت الأكاديمية دورتها الأولى لسنة 1987 لأول مرة خارج التراب الوطني، وذلك بالعاصمة الفرنسية أيام 13 و14 شوال عام 1407 هـ موافق 10 ـ 11 يونيه 1987 م.

وقد تدارس السادة أعضاء الأكاديمية والخبراء المدعوون موضوع : «التدابير التي ينبغي اتخاذها والوسائل اللازم تعبئتها في حالة وقوع حادثة نووية» وللموضوع أهمية خاصة نظرا لما تركته الحوادث النووية من آثار مأساوية أضرت بالسكان والبيئة على السواء، مع توقع حدوث انعكاسات سلبية في المستقبل من جراء استعمال الطاقة النووية التي قد تصبح البديل الأهم والوحيد لكل مصادر الطاقة الأخرى التي سوف تصبح نادرة.

وقد عقدت خلال هذه الدورة ندوة علمية قدم فيها إضافة إلى السادة الأعضاء نخبة خيرة من الخبراء، العروض القيمة التالية :

ـ تمهيد للسيد عز الدين العراقي مدير الجلسات.

ـ «الأخطار الكامنة في مصادر الطاقة المختلفة» للسيد فريديريك نيهوس، قسم الأمن النووي بالوكالة الدولية، للطاقة النووية في النمسا.

ـ «الحوادث النووية : أسبابها وعواقبها» للسيد مصطفى رشد،متخصص في الفيزياء النووية من المملكة المغربية.

ـ «حادثة تشر نوبيل وعواقبها» للسيد عدنان شهاب الدين، باحث رئيس معهد البحث العلمي في الكويت.

ـ «أثر إشعاعات حادثة تشر نوبيل على البيئة في الصين» للسيد هوزونسو المدير المنتدب لمعهد الوقاية من الإشعاع النووي بالصين.

ـ «الفاجعة النووية الكبرى» للسيد أحمد عبد السلام، عضو أكاديمية المملكة المغربية.

ـ «العواقب البيولوجية والطبية للحادثة النووية» للسيد ريمون لاتارجي، عضو أكاديمية العلوم الفرنسية، عضو معهد الراديوم، مدير مؤسسة كوري بباريز.

ـ «الحوادث النووية وزرع النقي العظمي» للسيد جان بيرنار، عضو أكاديمية المملكة المغربية.

ـ «ضوابط الوقاية النووية» للسيد أ.ج. كونزاليس. (الأرجنتين).

ـ «التدابير المتخذة في المملكة المتحدة في حالة وقوع حادثة نووية» للسيد اللوردشالفونت، عضو أكاديمية المملكة المغربية.

ـ «أثر الحوادث النووية في الماء» للسيد شارل ستوكتون، عضو الأكاديمية المراسل.

ـ «دور الماء في حالة وقوع حادثة نووية : التدابير التي ينبغي اتخاذها» للسيد روبير امبروكجي، عضو أكاديمية المملكة المغربية.

ـ «الوسائل التي يلزم تعبئتها في حالة وقوع حادثة نووية» للسيد جان كلود نونو، من معهد الوقاية والأمن النووي شعبة الوقاية الصحية بفرنسا.

- «التلوث النووي وآثاره» للسيد محمد الحبيب ابن الخوجة، عضو أكاديمية المملكة المغربية.

- «الجوانب التنظيمية الواجب مراعاتها في الحوادث النووية» للسيد عبد المجيد الصاوي، مهندس نووي، رئيس قسم الطاقة النووي بوزارة الطاقة والمعادن في المملكة المغربية.

- «مدى توافر المسؤولية القانونية في الحوادث النووية» للسيد محمد فاروق النبهان، عضو أكاديمية المملكة المغربية.

- «ضرورة قيام تعاون دولي وجهوي من أجل الوقاية من الحوادث النووية» للسيد هداية الله، عضو الأكاديمية المراسل.

- «ضرورة قيام تعاون دولي وجهوي» للسيد روني جان ديبوي، عضو أكاديمية المملكة المغربية.

وتعتزم الإدارة العلمية للأكاديمية جمع هذه العروض والمناقشات التي تخللتها في كتاب جديد هو الآن قيد الطبع وسيكون جاهزا في المستقبل القريب بحول الله.

وقد أدار الجلسات العلمية للأكاديمية منذ دورة أبريل 1986 الأعضاء المقيمون السادة : عبد الهادي بوطالب ومحمد الفاسي وعز الدين العراقي، وقد بذلوا جهودا مشكورة في نجاح أعمال الأكاديمية أثناء تسيير الجلسات وإدارة المناقشات بجدية وفعالية ومنهجية علمية سواء في الجلسات العادية أو أثناء دورات الأكاديمية.

II أحاديث الخميس :

واصلت الأكاديمية نشاطها العلمي على مستوى الجلسات العادية من جهة وعلى مستوى اللجان المتخصصة من جهة أخرى. وهكذا تواصلت اجتماعات الأعضاء المقيمين في الجلسات العادية للأكاديمية مرتين في كل شهر للاطلاع على نشاطات اللجان والاستماع إلى العروض والتدخلات والمناقشات التي تشهدها هذه الجلسات في «أحاديث الخميس». وهكذا استمعت الأكاديمية في الجلسات العادية إلى أحاديث الخميس التالية :

«الإبداع الشعري وازدواجية أداة التعبير»

تحدث العضو السيد عباس الجراري يوم الخميس 3 محرم عام 1407 الموافق 18 شتنبر 1986 عن موضوع الإبداع الشعري وازدواجية أداة التعبير، الذي قال عنه إنه يمثل قضية أو ظاهرة تدخل في نطاق إشكالية كبيرة تمس الإبداع والازدواجية عامة، وتدخل في نطاق الدرس الأدبي والنقد، وإن لم يُعْنَ الدارسون والنقاد بها كثيراً على الرغم من أهميتها. وهكذا شمل حديثه الجوانب الهامة للإشكالية حيث تطرق لازدواجية أجناس التعبير أو (الإبداع وازدواجية الأجناس)، ثم الإبداع وازدواجية التعبير بصفة عامة، وركز في حديثه بصفة خاصة على جانب آخر يتعلق بالإبداع في لغة وفي لهجة أو لهجات قريبة أو بعيدة من هذه اللغة، كالإبداع في العربية المدرسية المعربة ثم في العامية سواء كانت هذه العامية عربية أم بربرية.

«الشخصانية الافريقية»

وتناول العضو السيد محمد عزيز الحبابي خلال جلسات ثلاث متوالية أيام الخميس 27 محرم 1407 الموافق 2 اكتوبر 1986 ـ و10 ربيع الأول 1407 الموافق 13 نونبر 1986

ـ و7 جمادى الأولى 1407 الموافق 8 يناير 1987. موضوع : «الشخصانية الإفريقية»، حيث عرّف الشخصانية بأنها اتجاه فكري ملتزم بتوعية الشخص بكرامته وقدسيتها والدفاع عنها بدءا من رفض كل سيطرة فكرية مهما سمت، وأنها نسق فلسفي موضوعه الكائن البشري في صراعه مع الذات من جهة ومع الطبيعة من جهة ثانية، ثم تناول في تحليله مواقف والتزامات ضمن عالم متحرك. فبدأ بتعريف الحكمة الإفريقية في مقابل الفلسفة الغربية في محاولة لإبراز بيئة الذهنية الإفريقية، وفهم الإنسان الإفريقي كما يعرض لمفهوم الزمان عند الإفريقي، وعلاقة الأجداد بالأحفاد التي لا يفصمها الموت.

ثم ذكر بأن الكلام عند الإفريقي تعبير عن الشخص ممثلا في الروح والجسد معا. وأن الفن الإفريقي لا يفترق عن الحياة اليومية وهو مستوحى من الأرض أم الجميع. كما أن الإفريقي لا يرهب الموت لأن الموت في الواقع الإفريقي مرحلة انتقالية يلتحق الميت فيها بأسلافه.

تقرير لجنة «التربية والعلوم والتكنلوجيا»

قدم العضو السيد محمد شفيق يوم الخميس 15 ربيع الثاني عام 1407 الموافق 18 دجنبر سنة 1986، تقرير لجنة التربية والعلوم والتكنلوجيا، حيث ذكر فيه المحاور الرئيسية الستة التي حددتها هذه اللجنة لمناقشاتها وهي :

1) ـ رسم معالم واضحة لمهمة اللجنة، مع إمعان النظر في الأسباب التي استوجبت الربط بين التربية من جهة وبين العلوم والتكنلوجيا من جهة أخرى.

2) تحديد مفهوم التربية العام والخاص.

3) إبراز ما للتربية الأولية من أهمية قصوى.

4) الإلمام بمقتضيات التربية الصالحة في مرحلتي الطفولة والمراهقة.

5) التكوين المهني والجامعي وترابطهما بالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية داخل الوطن وخارجه.

6) البحث عن السبل المؤدية إلى تجديد الفكر العلمي وتنشيط البحث التكنلوجي.

وفي تقديمه لحصيلة ما أفضت إليه اللجنة في تحليلها للمواضيع الثلاثة الأولى، ذكر السيد محمد شفيق : أن خير ما يمكن أن تسهم به اللجنة هو «السعي مع الساعين من أجل بلورة خطة للعمل التربوي الهادف وللبحث العلمي والتكنلوجي وذلك بعد استعراض أكثر ما يمكن من نظريات العلماء المختصين واستقراء ما أتت به تجارب الأمم المتقدمة».

إن التربية في مفهومها الأعم هي مجموع العوامل التي توجه نشأة الأفراد والأجيال والمجتمعات توجيها ما في تنمية الأبدان وفي التزود بالمعلومات والمهارات، والالتزام بالقيم الروحية.

إن تربية الفرد يشرع فيها قبل ولادته، لهذا وجبت مراعاة صحة الأبوين، والحالة التي توجد عليها الأم وهي حامل فمرضعا. ثم تهيئة المحيط والوسط البيئي الذي يبنى فيه النشأ.

«الوثيقة المغربية بجزولة»

وألقى العضو السيد عبد الله الكَرسيفي يوم الخميس 21 جمادى الأولى عام 1407 هـ الموافق 22 يناير سنة 1987 م، حديثه عن الوثيقة المغربية بجزولة حيث قال بأن

الناس يتخاطبون إلى الآن في جزولة باللسان البربري، لكن وثائقها على عكس ما يمكن أن يظن، محررة كلها باللغة العربية، فهي بذلك جزء من الوثيقة المغربية العامة لا تفترق عنها في شيء، ما عدا ما قام به العلماء في تلك الناحية من نقل العلوم الدينية الضرورية إلى اللسان البربري تبليغا لتعاليم الدين الإسلامي الحنيف إلى العامة.

وبعد تذكيره بأن هذا الحديث يعتبر بداية لبحث ينوي أن يتابعه في مستقبل الأيام، تطرق السيد عبد الله الكُرسيفي إلى النقاط الستة التي اقترح تناولها في بحثه وهي :

ـ موضوع الوثيقة ـ خط الوثيقة وحروفها ـ لغة الوثيقة ـ مادة الوثيقة ـ حفظ الوثيقة ـ أنواع الوثائق.

وفي ختام عرضه نبه المتحدث إلى ما ناب وينوب تلك الدخائر النفيسة من سجن وإهمال وتضييع في كثير من الأحيان، وتسريب إلى الأجانب في أكثرها، وهذه تعدّ قرصنة علمية.

«الرموز العلمية وطريقة أدائها بالعربية»

أعطى العضو السيد إدريس خليل في حديثه ليوم الخميس 13 جمادى الثانية عام 1407 هـ الموافق 12 فبراير سنة 1987 م، مواجزا عن أعمال الندوة التي نظمها اتحاد مجامع اللغة العربية بعمان، وطرح بعض القضايا المتصلة بتعريب المصطلحات والرموز العلمية. حيث ذكر بأن تدريس العلوم والبحث العلمي يتطلبان لغة علمية. واللغة العلمية يجب أن تكون سليمة ذات خصائص وقواعد ومفردات وبلاغة، قادرة على التعبير عن المبتكرات والابداعات العلمية، وقابلة للتطور والتكيف مع

المستجدّات العلمية. كما تقتضي مصطلحات تدلّ على مفهومات علمية. وتقتضي أيضاً رموزاً موحّدة وثابتة.

«ترجمة اللغة العلمية إلى العربية من خلال نموذجين»

وجاء حديث العضو السيد عبد الله العروي يوم الخميس 27 جمادى الثانية عام 1407 هـ الموافق 26 فبراير سنة 1987 م، متابعة لتقرير السيد إدريس خليل، حيث تناول السيد عبد الله العروي موضوع ترجمة اللغة العلمية إلى العربية من خلال نموذجين مختارين هما : «مجلة العلوم» التي تصدرها مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، وهي ترجمة حرفية لمجلة أمريكية في الموضوع. ومجلة «آفاق عربية» التي تصدر في عمان. مشيرا إلى أن هاتين المجلتين ليستا من قبيل المجلات العلمية بالمعنى الدقيق للكلمة، بل انهما مجلتان تتناولان تبسيط العلوم للقارئ. وفي خضم حديثه ذكر أنه بجانب الرموز العلمية، هناك رموز عالمية في بعض الميادين لم يعد بالإمكان الخروج على صيغها كالرموز المالية الدالة على العملات المختلفة وبعض الرموز السياحية، والرموز الخاصة بقوانين السير، مما يدل على أن سيادة الإنسان على لغته أصبحت محدودة في بعض المجالات.

وعن الحديث عن المصطلح يعتقد أن هذا هو الجانب الأسهل في القضية، لأن المشكل لا يكمن في إيجاد المقابل، بل إن المشكل كامن في حرية الفكر أمام اللغة. لأنه بقدر ما يتعمق الإنسان في العلوم تصبح قضية المصطلحات ثانوية. إن مشكلة التعريب في الحقيقة هي مشكلة العلوم الإنسانية.

«ارتسامات عن مجمع اللغة العربية بالقاهرة»

وقدم العضو السيد محمد الفاسي يوم الخميس 11 رجب عام 1407، الموافق 12 مارس سنة 1987 حديثا تمحور حول ارتسامات عن اجتماع مجمع اللغة العربية بالقاهرة في دورته الأخيرة التي انعقدت أواخر شهر يبراير وأوائل مارس 1987.

ارتسامات عن «المؤتمر العالمي الخامس للتربية الإسلامية» وندوة «الصّحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي»

تناول حديث العضو السيد عبد الهادي بوطالب يوم الخميس 25 رجب عام 1407 الموافق 26 مارس 1987، عرضا ومناقشة لأشغال **المؤتمر العالمي الخامس للتربية الإسلامية** المنعقد بالقاهرة، وندوة **الصحوة الإسلامية وهموم الوطني العربي،** المنعقدة بعمان بالمملكة الأردنية الهاشمية خلال الأسبوعين الثالث والرابع من شهر مارس 1987.

«نصوص من مخطوطات مغربية متعلقة بتاريخ افريقيا»

تحدث العضو السيد محمد إبراهيم الكتاني يوم الخميس 10 شعبان عام 1407 هـ الموافق 9 أبريل سنة 1987 م عن «بعض النصوص من مخطوطات مغربية متعلقة بتاريخ افريقيا».

(انظر النص الكامل على صفحات هذا العدد).

نشاط لجنة التراث ولجنة القيم الروحية والفكرية

وخلال الجلسة العادية ليوم الخميس 22 رمضان عام 1407 الموافق 21 ماي سنة 1987 قدم العضو السيد محمد بنشريفة والعضو السيد عبد الكريم غلاب عرضين : الأول عن نشاط لجنة التراث والثاني عن نشاط لجنة القيم الروحية والفكرية، حيث تحدث السيد محمد بنشريفة مقرر لجنة الإنجاز، لافتا النظر إلى مشروع هام يتعلق بوضع معجم تاريخي جغرافي للمدن المغربية. وفي المناقشة التي تلت هذا العرض ألح السادة الأعضاء المناقشون على أهمية هذا المشروع.

كما عرض العضو السيد عبد الكريم غلاب مقرّر لجنة القيم الروحية والفكرية على الأعضاء نشاط اللجنة مشيرا إلى المحاور الثلاثة المختارة في ميدان التشريع والفلسفة والعلوم لبيان آثارها في الميدان الخلقي والإسلامي وتأثرها به، وقرار اللجنة بتنظيم ندوات لهذه المحاور.

كما أشار إلى الانحرافات الملحوظة في الموسوعة الإسلامية والانتداب لتصحيحها، وكذا كتابة موسوعة مغربية جديدة إلى جانب الموسوعات الموجودة أو المقرر كتابتها في الموضوع. ثم تطرق إلى الموضوع الذي،أخذ باهتمام اللجنة وخصصت لمناقشته ومدارسته عدة جلسات،والمتعلق بوضعية المرأة في المجتمع الإسلامي. كما أشار إلى الاقتراح الهام المقدم من لدن العضو السيد إبراهيم الكتاني في موضوع تقديم مشروع دراسة عن التعليم في جامعة القرويين إلى السلطات المعنية لتعكف على تهيئته أكاديمية المملكة المغربية.

«البحث العلمي والتنمية»

تناول العضو السيد محمد العربي الخطابي، في حديثه موضوع البحث العلمي والتنمية، وذلك يوم الخميس 24 محرم عام 1408 الموافق 17 شتنبر سنة 1987، حيث أعطى نبذة تاريخية عن المراحل التي قطعها التعليم بالمغرب والأهداف المتوخاة منه خلال 30 سنة الماضية. ثم ذكر بأن الحاجة أصبحت ماسة إلى تجاوز المفهوم التقليدي لتكوين الأطر، وذلك بتوجيه عناية أكبر لتشجيع البحث العلمي الأساسي وإقامة هيئاته وربطه بالجامعات من جهة وبالمرافق العمومية والخصوصية المهتمة بالتنمية الاقتصادية والاجتماعية من جهة أخرى. وفي هذا الصدد لابد من أمرين :

ـ إعادة النظر في رسالة الجامعات، ثم التفكير في إنشاء مؤسسة وطنية وقفية للبحث العلمي الإسلامية، كما ذكر أن الميادين التي يجب أن تحظى بالأولوية في إطار البحث

العلمي وهي : الزراعة والمياه والغابات والماشية ـ الثروات البحرية ـ الطاقة والمعادن ـ الطب والصيدلة ـ الرصد الفلكي والجوي. وهي ميادين مرتبطة بالعلوم التي من شأنها أن تساهم في تقديم التكنولوجيا وتفتح آفاق الابتكار وتوطد دعائم الاكتفاء والاستقلال. كما دعا السيد المتحدث الأكاديمية أن تنكب على النظر في مسألة البحث العلمي في المملكة وأن تقترح الحلول المناسبة من أجل تنظيمه وتشجيعه، آملا موافقتها على تعيين لجنة من الخبراء في هذا الميدان لتنكب على دراسة الموضوع وتعد مقترحاتها لترفع إلى مقام حضرة صاحب الجلالة حفظه الله بعد الموافقة عليها من طرف الأكاديمية.

«قضايا وطنية في كتب أجنبية»

وفي يوم الخميس 7 صفر عام 1408 الموافق 1 اكتوبر سنة 1987، تحدث العضو السيد عبد الوهاب ابن منصور عن «قضايا وطنية في كتب أجنبية»، وقال بأن قراء كتب التاريخ المغربي والمتتبعون لحولياته يحسون بفجواب في بعض العهود ونقص كثير في تفصيل بعض الوقائع والأحداث وغموض يكتنف حياة عدد من الملوك والوزراء وحتى العلماء والأدباء والقادة العسكريين والصلحاء، والسبب في ذلك راجع ولا شك إلى إهمال المغاربة للتاريخ من جهة، وإلى ضياع كثير مما ألفوا فيه من جهة أخرى.

فكيف السبيل إلى سد الثغرات الموجودة وتدارك النقص الذي يحس به المؤرخون وهواة القراءات التاريخية ؟

لذا، يجب على المؤرخ المغربي ألا يقتصر على المادة التاريخية التي كتبها مؤرخون مغاربة عن بلدهم ورجاله وإنما يستأنس أيضا بما كتبه غير المغاربة عنه وعنهم بعد إخضاعه للنقد والمقارنة. وذلك في انتظار أن تكشف الأيام كتبنا وسجلاتنا ودواويننا الغميسة.

إن مختلف هذه الأحاديث ذات الطابع العلمي التحليلي أو الأدبي النقدي أو التاريخي والوثائقي يتناولها الأعضاء المقيمون في الجلسات العادية بالبحث والتمحيص فيتداولون في موضوعاتها نقداً واستفساراً وإضافةً في جو من الحماسة العلمية والمتعة الفكرية والبحث العلمي النزيه.

☆

☆ ☆

III ندوات لجان الأكاديمية

• عقدت لجنة القيم الروحية والفكرية ندوتها الرابعة حول موضوع : «**الشريعة والفقه والقانون**» بكلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية بالرباط يوم الثلاثاء 25 شوال 1407 موافق 25 يونيو 1987.

ترأس الندوة العضو السيد محمد العربي الخطابي، أمين السر المساعد للأكاديمية الذي أعطى الكلمة في البداية إلى العضو السيد عبد الهادي بوطالب لإلقاء العرض الرئيسي للنّدوة، دقق فيه المفاهيم والمصطلحات وأقام مقارنات لإبراز الحدود بين تلك المفاهيم وتقاطع مجالاتها في عدد من القضايا التي تهم حقوق وواجبات الفرد في المجتمع.

وبعد العرض الرّئيسي ألقى السّادة الأعضاء والخبراء تعقيباتهم التالية :

- العضو السيد عبد العزيز بنعبد الله.
- العضو السيد محمد المكي الناصري.

«الانتماء الفقهي»

- العضو السيد محمد ميكو، الأمين العام لمجلس وزراء العدل العرب.

«انطباعات حول أزمة القاعدة الفقهية»

- الخبير السيد عبد الله الداودي.
- العضو السيد محمد فاروق النبهان.

«تأملات في مسيرة الفقه الإسلامي»

في نهاية الندوة جرت مناقشة عامة بمشاركة عدد من أعضاء الأكاديمية وأساتذة الجامعة وطلبتها.

☆

☆ ☆

IV محاضرات الأكاديمية

نظمت الأكاديمية محاضرتين عموميتين : كانت المحاضرة الأولى للسيد مارسيل روش سفير فنزويلا باليونسكو في موضوع : «العلم والتنمية».

وكانت المحاضرة الثانية للعضو السيد روني جان ديبوي في موضوع : «المفهوم المشترك للذمة المالية الإنسانية والدول النامية»، وقد تتبعها جمهور غفير من الأساتذة والطلبة يتقدمهم صاحب السمو الملكي ولي العهد الأمير سيدي محمد.

V مطبوعات الأكاديمية

أضيف إلى سجل مطبوعات الأكاديمية المنشورات التالية :

1) ضمن سلسلة «الندوات»

- كتاب «القرصنة والقانون الأممي».

بحوث دورة الأكاديمية في ندوة أبريل 1986.

- كتاب «القضايا الخلقية الناجمة عن التحكم في تقنيات الإنجاب».

بحوث دورة الأكاديمية في ندوة نونبر 1986.

2) ضمن سلسلة «التراث»

- «ديوان ابن فركون» تحقيق العضو السيد محمد ابن شريفة.
- معلمة الملحون، محمد الفاسي، القسم الثاني من الجزء الأول.

3) ضمن سلسلة «المجلة»

- الأكاديمية، العدد الثالث نونبر 1986.

4) ضمن سلسلة «الندوات»

- فلسفة التشريع الإسلامي، ندوة لجنة القيم الروحية والفكرية 1987.

وبهذه الكتب الجديدة يبلغ عدد مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية 21 كتابا.

استقبال أعضاء الأكاديمية الجدد

استقبلت الأكاديمية خلال الجلسة الافتتاحية للدورة الثانية لسنة 1986 بأكادير صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن فيصل ابن عبد العزيز آل سعود كعضو مشارك.

وخلال الجلسة الافتتاحية للدورة الأولى لسنة 1987، تم استقبال كل من السيد روني جان ديبوي كعضو مشارك، والسيد هداية الله كعضو مراسل.

هؤلاء الأعضاء الذين عينهم صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله لتعزز بانتمائهم صفوف الأكاديمية، انضموا إلى عقد هذه المجموعة من الرجال العاملين بصدق ووفاء لإعلاء صرح الحضارة والعلم، والحفاظ على القيم الأصيلة للإنسان.

☆ ☆ ☆

مثل العضو السيد محمد علال سيناصر أكاديمية المملكة المغربية في الدورة الستين للاتحاد الدولي للأكاديميات التي انعقدت في بروكسيل خلال شهر يونيو من السنة الماضية.

لاحظ العضو أن المشروعات العلمية للاتحاد الدولي للأكاديميات تتركز على أوروبا، الأمر الذي ينم عن المنحى اليوناني الروماني في النزعة الإنسانية الكلاسيكية، إلاّ أن كلاً من الهند واليابان واستراليا تسعى جاهدة لإثارة اهتمام الاتحاد الدولي للأكاديميات وكذا بقية الأكاديميات الأخرى بالتاريخ الأدبي والقانوني واللغوي للبلدان غير الأوروبية.

كما مثل الأكاديمية في اجتماع اتحاد مجامع اللغة العربية العضو السيد إدريس خليل عن الرموز العلمية وطريقة أدائها باللغة العربية، وقدم عن مشاركته تقريرا قيما خلال إحدى الجلسات العادية للأكاديمية ضمن أحاديث الخميس، كما سبقت الإشارة إلى ذلك من قبل.

زيارة أعضاء مجلس الأكاديمية الإفريقية للعلوم لمقر أكاديمية المملكة المغربية

• بمناسبة الاجتماع الذي عقده مجلس الأكاديمية الإفريقية للعلوم بالرباط في الثامن عشر من شهر يونيو 1987، زار أعضاء المجلس مقر أكاديمية المملكة المغربية حيث استقبلهم العضو السيد محمد العربي الخطابي، أمين السر المساعد نيابة عن أمين السر الدائم. وقد ألقى السيد الخطابي بالمناسبة عرضا مفصلا عن أكاديمية المملكة المغربية وتركيبها وأهدافها وبرامجها مؤكدا على أن مؤسسها وراعيها جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله أرادها أن تكون ملتقى لمختلف المعارف والتخصصات والمعتقدات في سبيل طرح متعدد الأبعاد للقضايا والمشاكل التي يواجهها الإنسان في العالم المعاصر.

وردّ رئيس الأكاديمية الإفريقية للعلوم السيد توماس أوديا مبو بكلمة عبر فيها باسمه وباسم أعضاء مجلس الأكاديمية الإفريقية للعلوم عن الارتياح الكامل لزيارة مقر أكاديمية المملكة المغربية والاستماع إلى العرض الضافي حولها، كما أكد رغبته في أن تتوثق الروابط بين المؤسستين.

وبمناسبة هذه الزيارة عقد أعضاء مجلس الأكاديمية الإفريقية للعلوم الجلسة الختامية لدورتهم رفعوا على اثرها برقية شكر وامتنان إلى صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني أيده الله.

وللإشارة، فقد تم الإعلان عن ميلاد الأكاديمية الإفريقية للعلوم بتريست (إيطاليا) في دجنبر من سنة 1985 بمناسبة انعقاد المجمع العام لأكاديمية العالم الثالث للعلوم. ويوجد مقرها الدائم في نيروبي عاصمة كينيا.

تأبين المرحوم صبحي الصالح

فقدت أكاديمية المملكة المغربية عضواً مشاركاً هو السيد صبحي الصالح الذي اغتالته يد آثمة ببيروت في 2 صفر 1407 هـ موافق 7 اكتوبر 1986م.

وقد كان العضو الراحل مثال الحيوية والنشاط العلمي والفكري على المستوى الدولي، إلى جانب المهام الخلقية والروحية التي كان يتولاها ببلاده كنائب لرئيس الطائفة السنية، المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى.

ووفاء من الأكاديمية للراحل الكريم تغمده الله برحمته أقيم حفل تأبيني على هامش الدورة الثانية لسنة 1986 بأكادير ألقيت خلاله كلمات بالمناسبة. ويجد القارئ هنا برقية التعزية التي وجهها السيد أمين السير الدائم إلى حرم الفقيد، وكلمة العضو المقيم السيد عبد الهادي بوطالب،أما كلمتا العضوين السيدين محمد علال سيناصر وجورج قوديل فهما منشورتان في هذا العدد باللغة الفرنسية.

برقية تعزية

السيدة الفاضلة عقيلة المرحوم الدكتور صبحي الصَّالح

حملت إلينا الأنباء نعي الرجل الصالح النبيل، والأخ العالم الجليل، والمناضل الأبي الكريم فضيلة العضو الزميل الشيخ الدكتور صبحي الصّالح تغمده المولى العظيم بواسع مغفرته وجميل رضوانه وعظيم إحسانه.

لقد كان وقع النبأ أليما على الأسماع والأفئدة من إخوانه وزملائه وأصدقائه في العالم العربي والإسلامي وفي العالم أجمع عامة، وفي أكاديمية المملكة المغربية خاصة حيث اعتدنا الاستماع إلى صوته الطاهر ـ رحمه الله ـ فكرا ذكيا، ومنطقا قويا، وخلقا عاليا.

إن غياب صبحي الصالح واستشهاده في طريق الخير والحق لا يحجب عنا القيم السامية التي جند نفسه لإعلاء صرحها الحضاري وإبقائها للإنسانية من بعده إسوةً وروحاً ومَثَلاً.

إن أعضاء أكاديمية المملكة المغربية أمام هذا المصاب الجلل لينحنون إجلالا لحدث الراحل الكريم ترحما على روحه الطاهرة ويتقدمون إلى رفيقة عمره وفلذتي كبده بصادق التعزية وجميل المواساة، أملا في أن يلهمكم المولى الكريم الصبر الجميل والعزاء الكبير في غياب الراحل العزيز. ﴿**وإنّا لِلّٰهِ وَإنّا إلَيْهِ رَاجِعُون**﴾ صدق الله العظيم.

عبد اللطيف بربيش
أمين السر الدائم
لأكاديمية المملكة المغربية

وداعاً رفقينا صبحي الصالح

عبد الهادي بوطالب

حضرات الزملاء

حضرات السادة المدعوين

أن تفيء كل نفس إلى ما قدمت عندما يجيء أجلها، وأن تتعاقب الأجيال في هذه الحياة بين زائر ومودع، فتلك سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا، وأن يقتطف الموت من زهراتنا فذلك طبيعي ﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ وإِنَّهُمْ مَيِّتُون ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُون**﴾، وأن ينتقي الموت من كرامنا فقديما قال الشاعر العربي : «أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي»، ولكن أن تمتد يد العدوان والإثم طائشة عشواء لتقتطف وتغتال الصالح والطالح، فذلك يجعل المأساة مآسي والرزء أرزاء.

نفتقد اليوم أن يجلس بيننا في هذه القاعة أخ عزيز علينا، زميل مشارك في أعمالنا أكثر ما تكون المشاركة، نتفقده فلا نجده. وقد كنا نتوقع في دورة أبريل أن نلقاه من جديد، ذلك لأن يدا آثمة قد امتدت إليه في لبنان الفتنة، في لبنان الحبيب المتهدم الأركان، لبنان الذي أود أن أنشد في حقه مع الشاعر قوله :

وما كان عمرو هلكه هلك واحد   ولكنه بنيان قوم تهدما

فإذا بي أجد أن البيت لا يطابق الظرف، ذلك أن البنيان قد تهدم من قبل، تهدم لبنان حيث لا نستفيق كل صباح إلا على أنبائه المزعجة، وتهدم لبنان فلم يعد الكيان اللبناني يرمز إلى التعايش والتسامح وقد انفرط عقده بالتمزق والفرقة، وتهاوت حباته واحدة تلو الأخرى.

لم نكن نتوقع أن يؤخذ البريء في لبنان باسم المجرم، وأن تمتد يد العدوان إلى شجرة القيم التي يرمز لها وجود رجال وأشخاص فتقتطف ثمراتها اقتطافا ولما يحن اقتطافها.

كان صبحي الصالح رجلا يرمز إلى تعايش الطوائف اللبنانية من خلال استيعابه للثقافات المختلفة. لقد كان خريج كلية أصول الدين بالأزهر، وخريج كلية باريس في فرنسا، نهل من كلتيهما وأخذ الكثير وأفاض من علمه الغزير على من حوله في لبنان وخارج لبنان، واستفادت الأكاديمية الملكية المغربية من هذا العلم الغزير فيما تقدم به من بحوث ودراسات، فكلما طرح عليها محور من المحاور أو موضوع من الموضوعات جال صبحي الصالح فيها، وأجاد وأفاد. ولو امتدت به المنون ولو أرجأته فحضر معنا هذه الدورة لكان فينا مجليا كعادته سباقا إلى تسليط الأضواء على موضوع الندوة الشائك الذي سنعالجه بعد حين.

لا أذكر ولا تذكر الأكاديمية أنه تخلف أثناء جميع دورات الأكاديمية عن الإدلاء بدلوه بين الدلاء في أي محور من محاورها، بل كان بحق موسوعة علمية مشخصة في إنسان. كان نموذجا للمثقف المكتمل الثقافة، والجاهر بما يعتقده حقا، لا يخاف في الله لومة لائم. فمن الغريب أن يختار هذا العلم الشامخ ليكون الضحية بعد أن تعددت الضحايا، والغريب ألا يطالب أحد بمسؤولية اغتياله. ولعل الذين فعلوا ذلك يحتشمون ويخجلون من أن يفضحوا هويتهم أمام هول الجرم الفظيع والإثم الشنيع.

كان صبحي الصالح رحمه الله كما قلت مزدوج الثقافة ولكن في هضم واستيعاب، مصرا على أن يتعمق البحث والدرس بمنهاجيته العقلانية، ولكنه كان يخضع هذه

المنهاجية لمقتضيات الإيمان. وكان ينجح في التوفيق بين المقتضيين. هذا التمازج، هذه الشخصيات المتعاقبة على شخص واحد هي التي جعلته يصر على أن يظل حيثما كان مرتديا لباسه التقليدي كعالم، بعمامته وما تحت العمامة، لأنه كان يفصح دائما عما كان يحتويه رأسه الكبير من علم ومعرفة وإتقان لتقديم الموضوعات كما يراها، وبالأسلوب الذي كان يلذ لسامعيه أن يستفيدوا منه. كان يشع من عينه بريق لامع يشدك إليه دون أن تستطيع الإفلات منه، وكان إذا أخذ يعالج موضوعا لا يتمالك أن يقف عند حد، فإن المعلومات تنصب من قلمه ولسانه كما ينصب شلال زاخر بالماء متدفق لا يقف إلا عندما يبلغ مداه. فلا عجب أن يختاره جلالة الملك ليكون عضوا في أكاديميتنا، وأن يختاره مجمع اللغة العربية في القاهرة والمجمع العلمي العراقي في بغداد ليكون عضوا فيهما. ولا عجب أن تصطفيه المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم لتمنحه جائزة التفكير الاجتهادي في الإسلام، بمناسبة حلول القرن الخامس عشر الهجري.

ولا عجب أن يكون عضو لجنة الإشراف العليا على الموسوعة العربية الكبرى. وكان آخر ما يود إنجازه هو نشر معجم عربي كبير يشبه إلى حد ما معجمي روبير ولاروس باللغة الفرنسية، حيث ترد كل كلمة عربية إلى أصولها باستشهاداتها وما وردت فيه في الأدب القديم والحديث. اثنتان وثلاثون سنة انقطع فيها فقيدنا العزيز للتدريس في مختلف الكليات العربية والإسلامية أهلته لأن يكون في نفس الوقت نائب رئيس المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى بلبنان، وأمين عام رابطة علماء لبنان، وأمين عام الجمعية الوطنية الإسلامية، وأمين عام اللجنة الدائمة للعائلات الروحية. وما أكثر ما أفاد في جميع المجالات ! وبعد، هل أستطيع في كلمة موجزة أن أقول شيئا عن نشاطه العلمي الزاخر ؟ فقائمة ما نشره وكتبه وأعلنه من آراء وحرره من مقالات ودبجه من كتب طويلة زاخرة بالبحوث والروائع. هل أملك أن أحصي نشاطه أو نشاطاته فما أوفرها ! هل أستطيع أن أستقصي نتاجاته الفكرية العلمية فما أكثرها ! كل ما أريد أن أقول، إننا رزئنا فيه وكان مصابنا فيه جللا لا يعزينا في ذلك إلا أنه السابق ونحن اللاحقون ﴿**وإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾.

تمّ طبع هذا الكتاب بمطبعة فضالة ـ المحمدية (المغرب)



ACADEMIA

Revue de l'Académie du Royaume du Maroc
N° 4 – Rabiâ II 1408 – Novembre 1987

ISSN 0851 - 1381



ACADEMIA

Revue de l'Académie du Royaume du Maroc
N° 4 – Rabiâ II 1408 – Novembre 1987

Dépôt légal aurpès de la Bibliothèque Générale et archives N° 29/1982
– – – – – – – – – – – – – – – – –
Académie du Royaume du Maroc
Avenue Al-Imam Malek (Souissi)
B.P. 1380 Rabat – Maroc

LES MEMBRES
DE L'ACADEMIE DU ROYAUME DU MAROC

MEMBRES CORRESPONDANTS

Directeur de rédaction
Mustapha Kabbaj

LES PUBLICATIONS DE L'ACADEMIE

I – Collection « Sessions »

- « Les crises spirituelles et intellectuelles dans le monde contemporain », travaux du thème de la session académique de novembre 1981.
- « Eau, nutrition et démographie », 1ère Partie, travaux du thème de la session académique d'avril 1982.
- « Eau, nutrition et démographie », 2ème Partie, travaux du thème de la session académique de novembre 1982.
- « Les potentialités économiques et la souveraineté diplomatique », travaux du thème de la session académique d'avril 1983.
- « De la déontologie de la conquête de l'espace », travaux du thème de la session académique de mars 1984.
- « Le droit des peuples à disposer d'eux-mêmes », travaux du thème de la session académique d'octobre 1984.
- « De la consiliation entre le terme du mandat présidentiel et la continuité de la politique intérieure et étrangère dans les Etats démocratiques » travaux du thème de la session académique d'avril 1985.
- Un trait d'union entre l'orient et l'occident : Al-Ghazzali et Ibn Maimoun », travaux du thème de la session académique de novembre 1985.
- « La piraterie au regard du droit des gens » travaux du thème de la session académique d'avril 1986.
- « Problèmes d'éthique engendrés par les nouvelles maîtrises de la procréation humaine », travaux du thème de la session académique de novembre 1986.

II – Collection « Patrimoine »

- « Al-Dhail wa Al-Takmilah », d'Ibn 'Abd Al-Malik Al-Marrakushi, Vol. VIII, 2 tomes, (biographies maroco-andalousses), édition critique par M. Bencharifa, Rabat, 1984.
- « Al-ma'wa ma warada fi chorbihi mine al-adab », (apologétique de l'eau), de M. Choukry Al Aloussi, édition critique de M. Bahjat Al-Athari, Rabat, mars 1985.
- « Maâlamat Al-Malhoune », 1er et 2ème partie du 1er volume, Mohamed El Fasi, Avril 1986, Avril 1987.
- « Diwane Ibnou Fourkoune », recueil de poèmes, présenté et commenté par Mohamed Bencharifa, mai 1987.

III – Collection « Séminaires »

- « Falsafat Attachriâ Al Islami » 1er séminaire de la commission des valeurs spirituelles et intellectuelles 1987.

IV – Revue « Academia »

- « Académia », Revue de l'Académie, Numéro Inaugural relatant la cérémonie de l'inauguration de l'Académie par Sa Majesté le Roi Hassan II, le 21 avril 1980, la réception des académiciens, ainsi que les discours prononcés à cette occasion et les textes constitutifs de l'Académie.
- « Académia », Revue de l'Académie, N° 1, février 1984.
- « Académia », Revue de l'Académie, N° 2, février 1985.
- « Académia », Revue de l'Académie, N° 3, novembre 1986.

Sommaire
Contents
Sumario

1ère Partie
Les Textes

Qu'est-ce que la révélation ? (réflexions)

M.A. Lahbabi

Cet article a pour ambition d'inciter à réfléchir à propos de la Révélation.

Nous poserons les problèmes sous formes de questions :

– Ceux qui récusent la révélation le font au nom de la Rationalité, de l'Objectivité et de la Science. Cependant, cette prise de position, qu'est-ce qui la légitime ?

– Lorsqu'on consulte l'Histoire, dans sa facticité ne constate-t-on pas que la Science a toujours été hantée par un certain empirisme, malgré le manque de rationalité et l'absence de toute signification » « objective » ?

– D'autre part, les savants s'accommodent de la lisibilité de la partie du réel disponible : ils mettent entre parenthèses les anomalies (elles aussi réelles) et les exceptions, phénomènes rétifs qui s'imposent de par leur existence réelle, en dépit de leur caractère irrationnel)[1]. N'est-ce pas là des accommodations avec « le rationnel » et avec « l'objectif » ?

– L'objectivité d'un acte, dans un code donné, trouve-t-elle sa justification dans le succès de l'expérience ou dans l'application de l'expérience à la fin prévue ?

– La foi, les croyances en général, relèvent d'expériences existentielles, et non d'un ordre attributif. Pourquoi leur refuser le droit de cité dans le monde des réalités ?

---

(1) Dans cet article, « science » se prend au sens actuellement institutionnalisé, et restreint de ce qu'on entend par « sciences de la nature » ou « sciences exactes ».

– Celles-ci comportent du rationnel et de l'irrationnel, du déterminé et de l'indéterminé, de l'objectif et du subjectif. Alors, qu'est-ce qui permet de dénier l'existence à la révélation, à la foi et à la transcendance ?

– Leur incompatibilité avec une certaine rationalité, et une certaine objectivité, est-elle suffisante ?

– Ayant pour fonction de fournir des informations sur le monde et sur l'Homme, la science ne devra-t-elle pas préciser ses limites légitimes, sa fonction et se donner une finalité ?

– Sa neutralité vis-à-vis de la morale et du spirituel ne lui fait-elle pas courir le risque de créer un pouvoir déshumanisant ?

– C'est ce qui lui est déjà arrivé. Peut-on oublier ce que le nazisme a fait de la science durant la dernière Grande Guerre ?

Au lieu de l'opposition rationalisme – antirationalisme dont on abuse (et qui n'est pas, méthodiquement, toujours valable), cet exposé opte pour une double proposition :

– Il y a des réalités qui ne sont pas rationnelles (dont la Révélation).

– Ce réel est plus étendu que ce qui est rationnel ou rationalisable.

Révélation, Révolution et folie

Toute révélation est, par nature, révolution. Les deux se caractérisent, essentiellement, par la rupture qu'elles accomplissent dans l'Histoire en vue de rénover, de changer une situation, une société, le monde : rompre un ordre au profit d'un autre ordre nouveau. On « révéle » le changement à effectuer et les principes exigés pour ce changement. Les Prophètes-Messagers abrahamiques, et les révolutionnaires visent à une transformation radicale par rupture, et imposent un militantisme conséquent.

Nous trouvons plusieurs autres traits de parenté entre Révélation et Révolution d'une part, et folie de l'autre. Celle-ci ne se présente-t-elle pas elle-même comme rupture ? N'introduit-t-elle pas du changement, bien que qualitativement et quantitativement différent ?

La folie signifie, à sa manière, un engagement (bien que non militant) contre les traditions dominantes, et conteste les certitudes et habitudes de tout le monde, comme le font la Révélation et la Révolution. Surpris et bousculés par le mes-

sage mohammadien, les Arabes de la Djâhilya [2] ont accusé Mohammad de folie :

> **« Ne connaissent-ils pas leur apôtre,**
> **au point de le renier ?**
> **Diront-ils qu'ils est possédé du démon ?**
> **Au contraire, il leur apporte la vérité » (Le Coran, XXIII, 70).**

Cela fait penser à l'accusation portée contre le Christ, traité lui aussi de :
« possédé par les démons » (Evangile Saint Marc, III, 23).

> **Nous lisons aussi dans le verset coranique 46 du ch. 34 :**
> **« Dis [Ô Prophète] :**
> **Je ne vous exhorte qu'à une seule chose :**
> **Présentez-vous sous l'invocation de Dieu [...] et méditez.**
> **Votre compagnon [Mohammad] n'est pas un possédé.**
> **Il est uniquement, pour vous, un apôtre**
> **chargé de vous avertir d'un terrible châtiment ».**

D'ailleurs le génie, qui est le contraire extrême de la folie, introduit, de son côté, des ruptures et milite pour le changement. La situation de l'homme de génie et celle du fou sont des situations particulières de personnes qui se mettent en dehors de la rationalité en vogue, avec tout de même une différence capitale : le fou ne cherche pas à substituer du neuf dans la société, à changer l'être en un mieux-être. La rupture effectuée par la folie ne s'ouvre sur rien ; elle se propose en modèle purement négatif, ou plutôt ne se propose même pas. La folie ne veut atteindre aucun but précis, n'a aucune visée. Objectivement, elle nie le bon sens, alors que la Révélation, la Révolution et le génie font appel au bon sens et enrichissent l'univers d'un nouveau sens ; ils « révèlent » des zones inconnues. Ils révolutionnent la réalité.

Une précision : la Révélation n'est pas engendrée par la société, tandis que chaque société a et produit ses fous et les traite comme tels, selon des critères institutionnalisés. Le critère majeur est le dérèglement mental.

Cependant, il reste à définir la mentalité normalement réglée et à en donner le modèle. Les modalités du normal et du non – normal sont-elles fixées, reconnues universellement ?

La folie a ceci, et seulement ceci, de positif : elle pousse à poser les questions précédentes. La Révélation, elle, pousse le problème plus loin : elle affirme que les fous demeurent des personnes à part entière inchosifiables. Si la Révolution

(2) La période antéislamique.

cherche à renverser une situation historique donnée, à un moment précis, dans un domaine limité (socio-politique ou scientifique, ou artistique,...), la Révélation elle, dépasse les situations particulières, bouleverse tous les rouages de la vie (matériels et spirituels) en tendant à la globalité de l'humain. Elle épouse un cadre historique, mais vise à l'universalité. Son « nécessarisme » est doctrinal, foncier, non tactique et provisoire.

Cependant, l'homme de génie, comme le révolutionnaire, introduit du neuf dans un domaine de la connaissance, en art, en science ou dans la vie en société. Il s'empare d'un moment de l'Histoire et lui donne une coloration particulière qui peut disparaître rapidement ou durer plus ou moins longtemps. Par contre, la Révélation se donne une amplitude plus vaste ; elle se veut universelle, et avec une perspective qui dépasse le temps. Et ne dépasse le temps que ce qui vise à être de tous les temps : réaliser un type d'homme à l'avènement duquel appellent des valeurs communes à toutes les générations, de partout : réhumaniser, sans discontinuer, l'existence de chacun et de tous.

Aussi le Prophète-Missionnaire est-il un être génial dont le génie porte ses reflets et ses empreintes sur l'ensemble de l'histoire humaine, une histoire dénationalisée dans une patrie divine, universelle.

La pensée contemporaine est de plus en plus hantée par une dualité qui la scinde, irrémédiablement, en deux univers.

Le premier est celui des concepts et des observations de la pensée dans la pratique de la science. Il en résulte que le progrès théorique et technologique n'est point un édifice historique qui se maintient par restaurations continues ; la science ne s'édifie pas pierre par pierre en ordre continu, linéaire, progressif. C'est plutôt un perpétuel chantier où l'édifice est parfois restauré, quand il ne lui arrive pas aussi de se trouver mis à ras. De façon générale, la science avance par hiatus. C'est le domaine privilégié où discontinu et continu font bon ménage.

Le second univers, lui, échappe aux constatations préalablement précisées et prévisibles. C'est l'univers double, trouble et instable des images, de l'intuition, des instincts et des affections, de ce qui évoque et identifie en nous l'être en face de la matière, et en affirme l'indépendance relative.

Là se pose un problème : si mon être se montre et se dérobe à la fois (comme dit Martin Heidegger) et comme l'expérimente chacun dans son propre moi, je peux me demander quel usage je dois faire de l'indépendance dont je dispose. Ou je serais embarrassé par elle, ou elle fera de moi un despote. La Révélation me trace les limites du champ où je dois user de mes libertés et les manières de m'en servir. La Révélation ne veut rien de moins, ni de plus, que façonner ma personne comme être social et comme réalité humaine dans le monde.

La Révélation (dans le sens religieux abrahamique) est, en arabe, une « sunna », un chemin à suivre, un message qu'incarne un prophète, dans ses dires (les Hadîth), et ses actes, sa conduite, donnant ainsi l'exemplarité d'une vie :

> **« Vous avez, en l'Envoyé d'Allah, un excellent exemple » (Le Coran, XXXIII, 21).**

Cette exemplarité constitue le premier apport de la Révélation : le sens du sacrifice et de l'abnégation poussée à l'extrême. C'est le cas du Christ dont la fonction est rédemptrice, et de Mohammad, le médiateur entre Dieu et l'humanité :

> **« Mohammad n'est qu'un envoyé.**
> **D'autres envoyés l'ont précédé » (Coran, III, 144).**

La Révélation cherche d'abord à donner une tonalité purificatrice au psychisme et une rectitude qui sous-tendent nos actes, car :

> **« Dieu ne modifie rien en une communauté avant que celle-ci ne modifie ce qui est en elle » (Coran, XIII, 11).**

L'essentiel de la vie religieuse est de sublimer la vie végétative en existence humaine, par l'obéissance à une morale transcendante : on cherche à se perfectionner par la lutte contre l'emprise des instincts, dans la transparence de la volonté et de la conscience. Garantissant les principes moraux, la Révélation procure assurance et espoir. Et celui qui espère, affirme sa présence à lui-même.

Cette force par laquelle l'individu aboutit à découvrir son individualité dans le monde, dans la communauté des personnes, est la même qui lui fait prendre conscience de ses rapports avec Dieu. La Révélation vient de l'extérieur lui faire connaître la divinité et le saisir tendu vers une transcendance. C'est la signification première de la Révélation.

La transcendance

Il existe des indéfinis, tels la mort ou les axiomes géométriques. La transcendance, elle aussi, est indéfinissable. On définit ce qui manque d'évidence ; on essaie de définir ce qu'on veut expérimenter et manipuler. Par contre, les expériences existentielles se vivent, ce montrent sans démonstration. Vouloir expérimenter, empiriquement, la mort ou la transcendance, c'est perdre le sens du discours en confondant « dire » avec « faire » ou « subir ». Une épreuve n'a pas besoin d'une preuve pour convaincre de son existence. On ne manipule pas la mort et la transcendance, on est manipulé par elles. Une épreuve affirme sa présence par la plénitude dont elle jouit.

Le problème n'est pas de prouver ou de nier la transcendance (ce qui est éprouvé porte son propre témoignage sur sa réalité). Le problème est de savoir comment se fait la rencontre entre un moi et le désir de transcendance. Là se pose la Révélation comme dévoilement, comme activité qui attire l'attention sur des vérités, des réalités qui nous étaient cachées, invisibles.

En arabe, « awh'â » = « révéler » / signaler pour spécifier.

Cette opération s'accomplit par la Parole divine (Parabole) que transmet un prophète = messager (= rassûl) (3).

A côté de ce sens, on en trouve un autre plus vaste : révéler = inspirer, suggérer (Ilhâm, îh'â).

Cette seconde signification se rattache aussi, en quelque façon, au sens religieux. L'inspiration est intuitionnée, ou véhiculée, par la « bacîra » (= le regard intérieur, la voie intime et secrète qui dispose d'un pouvoir de discernement autre que la raison). Cette « bacîra » nous assiste dans la saisie de l'inconnu (= al-ghayb, le mystère).

L'esprit de géométrie et l'esprit de finesse sont de la même nature. La science « objective » s'en sert bien dans le dévoilement de l'inconnu de la nature. Aucun fondement intrinsèque et rationnel pour justifier la possibilité infinie de la science ni pour légitimer la foi « absolue » et exclusive que certains mettent en elle. Il n'y a pas d'axiomatique pour la matérialité de la matière. Le « charisme » de la science ne saurait être qu'historique, c'est-à-dire provisoire, parce qu'il change sous l'effet de sa propre avancée.

La science : Constitution et limites

Puisque des agnostiques, savants, technocrates et autres, se posent des questions logiques à propos de la légitimité de la transcendance et de la Révélation, il est permis de leur demander : comment se constitue la science ?

On pourrait dire que la science est, avant tout, ou tout simplement, l'ensemble des concepts et des opérations techniques par lesquels s'édifient des systèmes axiomatisés : par exemple, on admet la matière comme réalité connue, ou l'on

(3) En arabe, « Kalâm » = parole. I la même racine (K.L.M.) donne :
– « Kalam » = blessure, traces laissées
– « Kulâm » = terre épaisse et dure.
Ainsi, pour tirer quelque chose de la terre, lui faire dévoiler ses secrets, les faire faire « communiquer », il faut la creuser, la bouleverser jusqu'au fond. De même, « hadîth » (un dire, un discours) appartient à la même racine que « hadath » (= évènement). Une parole laisse un effet, c'est un évènement qui, s'il n'appaise pas, peut « blesser ».

ne se pose même pas de questions quant à ses caractères propres. On sait combien la notion de « matière » demeure vague, y compris dans la pensée scientifique, même chez les matérialistes. Selon un physicien, la propagation de la lumière et la matière sont deux formes d'une seule chose et se transforment l'une en l'autre [4].

On édifie des systèmes et on les mathématise, ce qui revient à agréer une autre axiomatique, à la « postuler » avec bien d'autres données. Il arrive parfois qu'on donne des coups de pouce pour « aider » une apodicticité douteuse et des processus d'élaboration, afin de les arranger et de les adapter aux probabilités et aux contingences.

El-ghayb (= l'inconnu) que dévoile la Révélation, ne paraît pas, *a priori,* plus étrange que les attitudes de la science qui, faute de mieux pouvoir intégrer le hasard, l'impondérable, la contingence, le probable, les admet comme réalités encore non expliquées.

Si un daltonien ou un agnostique confondent des couleurs ou ne voient pas certaines d'entre elles, il n'empêche que celles-ci existent en fait, et sont distinctes. *Le néant n'est pas ce qui échappe à notre perception, mais ce qui « est » absolument non-être.*

La science s'avoue limitée ; elle peut beaucoup et, en même temps, ce qu'elle ignore est encore plus important :

« A proportion que la science élargit son pouvoir, elle se tient moins assurée de son savoir »[5].

Parmi ce qui fait partie du non-savoir de la science, il y a tout ce qui a rapport à la Révélation. Si celle-ci n'a pas un statut rationnel, elle ne tombe pas pour autant dans le domaine de l'irréel.

Nous voici donc appelés à réfléchir sur un quelque chose, ou plutôt un certain réel qui se situe hors du raisonnablement constitué et, dans le même trait du temps, exige une préoccupation particulière, tant chez les croyants que chez les non-croyants.

Révélation désigne la substance d'un certain discours et sa raison à la fois :

– Y a-t-il une norme logique pour chaque discours (agréé ou rejeté) ?

La science peut-elle dévoiler toutes les normes de tous les discours ?

(4) Ali Mustafa Mushrafah, « Nahnu wa-l-'ilm » (= Nous et la science) ; 1945.
(5) J. Rostand, *Pensée d'un biologiste,* 139.

Il faut se sentir quelques instants porteur d'un message, avoir reçu quelque révélation ou inspiration, pour pouvoir comprendre la Révélation. Le Dieu de Pascal disait bien.

« Console-toi, tu ne me chercherais pas si tu ne m'avais pas trouvé »[6].

Il faut de la lumière pour éclairer les regards. Dans l'ombre du silence, le feu du sacré s'allume (ou ne s'allume pas) pour célébrer l'humanité dans son inquiétude et susciter le secours qui apaise devant l'ineffable, le secret pesant. *Le mystère est, et il n'est pas antiscientifique, mais a-scientifique.* L'inconnu consume nos élans, et la mort nous hante. Nous sommes toujours assiégés par le mystère, alors que la science n'offre aucune explication.

La science serait-elle fondée si elle niait la conscience et l'intimité ?

Il y a des hommes qui incarnent une période historique, ceux qui font l'Histoire, et il y en a d'autres enfin qui font l'Histoire et l'incarnent.

Ces catégories de personnes sont toutes des anormaux dans le sens ou le « a » est privatif, c'est-à-dire qu'il prive de la norme. Parmi ces anormaux, il y a ceux qui sont appelés « prophètes ».

L'Islam distingue le « nabî » (= prophète) du « rasûl » (messager, prophète chargé de transmettre un message divin). Moïse, Jésus-Christ, et Mohammed sont à la fois des « nabî » ou prophètes (= guides, modèles) et des « rasûl » puisqu'ils ont été mobilisés pour l'accomplissement d'une mission divine auprès des hommes.

« Nabî » est de la même racine qui a donné :

– naba' = information, nouvelle.

D'où : le nabî est l'homme informé et qui informe sur Dieu, le Destin et l'Au-delà [7].

Un problème qui, se dressant en interrogation, présuppose admise la coexistence du double aspect du réel : normal-anormal, rationnel-irrationnel. Cela ne contrecarre point la réalité, mais ne fait que poser les deux seuils de sa saisie et les limites de la raison. Un déterminisme conséquent, non-mécaniste, doit tenir compte de ses propres antinomies.

(6) Les *pensées*, VII, 553.

(7) Le sens général de « nabî », ce qui est saillant ; un point de repère qui indique une direction.

La science vit dans une demi-épiphanie, elle se heurte simulatnément à la double face de la réalité rationnelle et irrationnelle d'où découle un double rôle : elle aide l'homme, le sert et, en même temps, de par certains usages des applications techniques, le surprend, l'asservit, le déconcerte et le destructure dans son humanité. Par contre, la Révélation vit dans une demi-clandestinité : elle fonde la foi en la raison en la science et l'homme, et appelle à la transcendance. Celle-ci relève du domaine des « monstrations » au-dela des « démonstrations », gardant vivant le feu sacré, l'attachement à l'humain et au progrès, malgré l'anormal, la déraison et les déceptions. C'est que Dieu a pris un risque. Il nous a créés et laissés libres de nous débrouiller. Notre liberté s'est tellement étendue qu'elle met Dieu Lui-même en question. Le doute libère des a priori et des préjugés en mobilisant la raison. Celle-ci s'aperçoit qu'il lui est possible de donner des avis, mais ne saurait imposer des points de vue. Et ses avis sont limités par des seuils impossibles à dépasser.

L'homme est désirs

L'homme est un être désirant qui vit *par* et *pour* les désirs. Avouons que les désirs qui ne seraient que charnels alièneraient et réduiraient l'horizon de l'être au niveau de l'avoir.

La personnalisation se réalise dans des projets qui comportent des genres de désirs de natures diverses. Les plaisirs de l'art, des loisirs, du goût et du raffinement répondent à des désirs « gratuits » par lesquels nous dépassons les impulsions et inclinations instinctives. Il y a aussi des désirs de sublimation, de réconfort moral, tels ceux qui nous procurent des joies culturelles et spirituelles.

Un autre genre de désirs pourrait être qualifié « d'ostentatoire ». Ce sont les désirs qui véhiculent des images, des pré-sensations qui, en se réalisant, deviennent des représentations. Par exemple, lorsqu'on choisit d'aller à tel restaurant connu pour ses bons menus, on se représente déjà les petits plats et on les déguste par avance, en imagination.

Avec les désirs-symboles, c'est un autre phénomène. Le plaisir n'est plus dans l'image précédant l'existence, ou dans le désir en acte de réalisation, mais dans le sentiment qu'on a de vouloir être bien vu, considéré, aimé, estimé : la marque de voiture, le nombre d'étoiles de l'hôtel où l'on descend, l'élégance, le beau maquillage et tant d'autres signes sociaux recherchés parce qu'ils donnent des satisfactions d'un ordre autre que celui des sens. Ils mettent en relief le personnage.

N'est-il pas « normal », dans ces conditions, de satisfaire aussi les divers désirs qu'on qualifie de « moraux », « spirituels » ou « affectifs » ?

A l'instar des différentes « raisons » et des multiples disciplines scientifiques, les désirs commandent le comportement, installent dans des situations conflictuelles où ils s'opposent à la volonté et au bon sens.

Comment trancher, dans ces conflits continus et inhérents à notre nature, si ce n'est par recours à des principes qui dépassent les désirs et apportent l'équilibre au bric-à-brac de la vie ?

Les désirs sont des sources de plaisirs vitaux pour l'ordre organique et pour l'ordre mental. Cependant, comme leur satisfaction ne dépend pas seulement de notre initiative et de notre propre vouloir, nous nous heurtons à l'aléatoire, à la contingence dans notre intimité. Tout désir insatisfait peut produire des frustrations, des souffrances. Là aussi, nous n'avons de recours qu'à des principes capables de nous encourager à surmonter la situation et à nous donner l'esprit de la transformer. Ainsi, grâce à ces principes, nous nous ré-identifions, face aux choses, aux déboires subis et aux crises que nous traversons. Nous sommes en perpétuel dépassement de nous-mêmes par nous-mêmes. Ne sommes-nous pas là sur le plan de la transcendance et des réalités a-scientifiques ?

Lorsqu'on ne peut guère s'affirmer que par certains désirs-plaisirs terre à terre, on rompt les liens entre le moi et son réel total. Car, ce n'est pas l'hédonisme qui est en question, mais l'équilibre général de l'être. L'absurde détruit alors les significations ; rien n'a plus de sens qu'aux niveaux des instincts et des sens.

Parole-méssage qui reconcilie avec le monde et avec l'humain

Chacun de nos désirs est un discours en images et en symboles incarnés. Tous font partie des dimensions extensives de la personne. La référence à des principes moraux rend les désirs plus conscients, et la lutte pour ou contre leur satisfaction plus lucide. Ces principes moraux acquièrent d'autant plus de pouvoir sur notre agir qu'ils se réfèrent, à leur tour, à une transcendance.

Ici encore intervient la Révélation pour guider nos actes et pour les protéger contre le déséquilibre de l'ascétisme poussé à son extrême, le « dervichisme », ou de la descente dans une vie de pure sous-intendance : « perno – moto – métro – boulot-dodo ». Un végétatisme intégral.

L'ascétisme aussi peut devenir intégral. Alors il viole la vie, en casse les fibres et les ressorts, démunit l'être humain des désirs et des plaisirs qui motivent ses actes et l'incarnent dans l'être.

> **« Qui a déclaré illicites la parure**
> **que Dieu a produite pour Ses serviteurs,**
> **et les excellentes nourritures qu'Il vous a accordées ? »**
> **(Coran VII, 32).**

La Révélation appelle à la transcendance et en rapproche : aider l'homme à s'inventer dans un monde de coopération, dans l'égalité de tous devant Dieu, le Dieu unique, le Dieu de tous.

Nous sommes partis de l'homme désirant et avons trouvé que *tout désir est une force irrationnelle vécue organiquement.* Du même coup, se justifient le sublime et la transcendance, dans le monde humain, reconnaissant par là même que ».

« La démarche de la raison est de reconnaître qu'il y a une infinité de choses qui la dépassent » (8).

Etant porteuse de messages, la Révélation rappelle à l'homme qu'il est dignité, valeur en soi – et qu'il a la charge de protéger en lui-même et en ses semblables cette valeur suprême, par et contre les désirs et autres puissances oppressives, internes et externes. Ainsi, nous sommes toujours convoqués à la fidélité : accueil de soi et d'autrui, et respect de la parole, pouvoir de communiquer et d'agir dans le monde.

La « Parole-message » vient « d'ailleurs », pénètre les cœurs, comme une lumière éclatante qui s'irradie sur les actes et les pensées en espoir confiant et apaisant. Elle se fait foi, force morale pour affronter la vie malgré les angoisses, malgré la mort. Devenue foi, la Révélation consacre un effort particulier à la libération terrestre et lance, de plein fouet, un défi à la mort. On affronte la mort avec moins d'inquiétude : « la rencontre avec Dieu » se présente comme une espérance.

L'après-mort paraît, dans la conscience du croyant, comme étant l'autre face du monde, lieu de l'immortalité où disparaissent l'absurdité du néant ainsi que le souci et le tourment de la mort et de l'anéantissement.

Si tel est le rôle de la Révélation, la transcendance s'avère le contraire du désengagement dans le monde, de l'indifférence à l'Histoire et à la vie. Au contraire, la foi et la transcendance stimulent, poussent à assumer la vie dans sa plénitude et à refuser toute attitude négative.

Croire, c'est choisir, opter pour un projet. Celui-ci exige un engagement politico-social, selon l'orientation libératrice de soi et des autres, en vue de transformer, en commun, la Terre, pour la soumettre et la transcender. L'au-delà est le lieu où l'on examine les bilans, le jour du Compte Final (Coran, XIII, 40), le Jour du Jugement Dernier (Coran, XXXVIII, 53). En vue de ce jour, nous sommes conviés à demeurer fidèles à l'épreuve toujours renouvelée, fidèles au Dieu vivant, omniscient et omniprésent, et fidèles à nous-mêmes et à autrui.

C'est l'esprit de la Révélation-révolution.

---

(8) Pascal, *les pensées,* IV, 267.

Reconnaître les limites du connaître

Souvent, on objecte que la transcendance, la foi et la Révélation sont des notions irrationnelles et antiscientifiques.

Irrationnelles, elle le sont, c'est certain ; mais affirmer qu'elles sont contre la science, c'est absolument faux. D'abord, la raison n'a jamais su, ni pu, englober l'ensemble de la réalité. La part de la réalité connue, rationnellement, est fort peu de chose par rapport à tout ce que nous connaissons autrement, et tout ce qui reste à connaître, qu'on aimerait connaître. La science nie-t-elle, par exemple, l'amour parce qu'il est irrationnel, non mathématisable et échappe aux expériences de laboratoire ? Il est, non pas contre ou anti-science, mais une réalité a-scientifique. La transcendance, la foi et la Révélation relèvent de la même nature que l'amour. Elles sont foncièrement existentielles, c'est-à-dire éprouvées, vécues. C'est après avoir été vécues qu'elles peuvent être discutées :

> *« Adore ton Seigneur jusqu'à ce que la certitude te parvienne » (Coran ; XV, 99).*

On vient à la foi, subjectivement d'abord et, ensuite, on examine le contenu de la Révélation, objectivement. Une question d'ordre, comme la recherche scientifique : l'observation de l'indéterminé, le constat de l'inconnu avant de passer au stade de la détermination et des preuves. *On entrevoit avant de voir.* Le croyant, comme le savant, *ne doit pas se quitter pour enquêter.* Ce qui est éprouvé a peut-être plus de consistance que ce qui est purement postulé ou « hypothèsé ». Le refus combattant, a priori de la transcendance et de la foi, constitue une attitude purement verbale, sans fondement contre des convictions profondes qui déterminent le comportement, les joies et les souffrances, toute la vie d'une bonne proportion de l'humanité. On essaie de la déraciner des convictions qui fondent sa raison d'être et donnent un sens à sa vie, sans lui proposer d'alternative. C'est donc la raison et la science qui, poussant leurs ambitions au-delà de certaines limites, deviennent antiréelles et antiobjectives, alors :

« La science pure dit : tout ce qui est humain doit m'être étranger » [9]. Selon l'hégélianisme, l'esprit s'exprime, essentiellement, dans la création artistique, la vie religieuse et la réflexion philosophique.

L'esprit religieux, disons l'esprit dans son immédiateté, opère des mutations décisives et engage dans des décisions radicales, ce qu'aucune autre force ne peut effectuer. Pour la religion (et les idéologies, en général), ainsi que pour l'art, l'esprit se réalise comme créativité ré-action ou comme engagement moral où le subjectif et l'objectif constituent une symbiose. Aussi, les religions révélées

(9) P. Valéry, *Instants.* Paris, Pléïade, I, 394.

apportent-elles l'équilibre entre le corps et la subjectivité, par une investigation globale dans la quête d'une cohérence Nature-Homme. Pour avoir l'harmonie, il faut que les innombrables éléments du monde physique, moral, social et religieux se conditionnent, s'enchaînent, s'ordonnent, s'éclairent, mutuellement, dans une complémentarité intime.

Au fur et à mesure que l'être humain s'approche de cette harmonie, il acquiert la quiétude, ce que la science ne lui procure point. Le rationnalisme ne satisfait pas entièrement notre curiosité de connaître. Le savoir scientifique et la technique font certes avancer nos applications pratiques et nous procurent du confort.

La maîtrise de la nature (en partie) ne libère pas le moi de ses angoisses, n'assainit pas les situations absurdes que nous affrontons continuellement. La science, et la pensée en général, n'ont pas de lois irréductibles et infaillibles. Toutes les sciences sont, de fait, empiriques et inductives.

Les sciences dites normatives, elles, posent des a priori préalablement à toute démonstration, à toute déduction de « ce qui doit être fait ». Mais rien ne justifie ce *« doit être »*, si ce n'est d'autres a priori.

L'exactitude scientifique est relative, et elle le restera tant qu'on ne disposera pas d'une explication exhaustive des fondements de chaque discipline scientifique.

En attendant, on fait comme si la connaissance scientifique avait des fondements certains, universels, nécessaires et apodictiques. Ces prédicats seraient, pour une discipline rigoureusement « scientifique », des exigences logiques primordiales. Nous aboutissons à l'impossibilité d'une vérité scientifique dont les lois seraient d'une rigueur idéale. L'évidence scientifique ne relève pas des faits et lois eux-mêmes, mais des rapports que nous établissons en pratiquant la science. L'évidence n'est point une lumière inhérente aux choses et aux phénomènes. Dès lors, qu'est-ce qui permet à la science, aux sciences, de refuser l'évidence qu'avouent trouver les croyants dans la foi et la transcendance, grâce à la lumière de la Révélation ?

Pour le croyant, c'est en lui que Dieu se rencontre (ou ne se rencontre pas, à d'autres moments). Aussi n'y a-t-il aucune loi de rigueur idéale, ni d'évidence logique absolue. Dieu est (pour le croyant) comme la science est (pour le savant et pour tout le monde). Il est une réalité, un vécu de conscience qui se répercute sur l'ensemble du comportement individuel [10].

Tendu par une intentionalité profonde, le phénomène foi-Révélation-transcendance doit quitter le point de vue religieux pour pouvoir se justifier, philosophiquement et prendre son statut psychologique et social. Car, pourquoi une

(10) Cf. notre *Le monde de demain*, auquel nous faisons ici des emprunts. Canada-Maroc, 1980.

induction empirique, à partir d'expériences et de témoignages, ne serait-elle pas acceptée comme un des fondements d'une anthropologie ou d'une théorie de la connaissance ?

Juger est un acte où n'entre pas que l'effort intellectuel. La dictature de la froide raison exige un monisme qui, à son tour, renvoie à un certain apriorisme rationnellement acceptable, mais qui n'en demeure pas moins discutable du point de vue de la réalité.

Nous pensons selon les humeurs des vents

– L'homme est-il *pure* raison ?

– Un animal « *seulement* » raisonnable ?

– « *Toujours* » raisonnable ?

La raison est condition nécessaire pour juger, mais pas suffisante. Chacun de nous « pense » en-même-temps avec sa raison, son intuition, ses sympathies et antipathies... L'homme est un animal passionné qui raisonne, un « roseau pensant », quand les vents ne viennent pas lui faire tourner la tête à leur propre gré...

Raisonner implique l'intervention de l'imagination et de la mémoire, à la fois. Pour résoudre un problème, même scientifique, on commence par se souvenir, imaginer une hypothèse (il semble que « l'esprit de finesse » relève de là) et poursuivre le raisonnement jusqu'à l'évidence de la preuve. L'interdépendance de diverses opérations mentales est nécessaire à la démonstration. Les arguments sont fournis par la mémoire, alors que les suppositions sont, en grande partie, l'œuvre de l'imagination.

Selon Gaston Bachelard :

« La vérité de notre connaissance du réel est toujours, en dernier ressort, la vérité de nos sens » [11].

Abû-Hâmid Gazâli (t 1111) et Descartes ont déjà attiré l'attention sur cette vérité des sens [12]. Il est incontestable que Karl Marx a raison d'affirmer que :

« Ce n'est pas la conscience des hommes qui détermine leur existence, c'est au contraire leur existence qui détermine leur conscience » [13].

---

(11) *Essai sur la connaissance approchée*, Paris J. Vrin. XI V. [les notes 12 et 13 sur la p. suivante.

(12) Cf. Gazalî, « *El-Munqidh mina – d'alâl* », et *Descartes*, « *Discours de la Méthode* ».

(13) « *Contribution à la critique de l'économie politique* », Giard, 1928 p. 5.

Il n'est pas moins incontestable qu'une idée (par exemple celle que je me fais de mon existence ou de la valeur de cette existence, l'idée de ma dignité,...) prend force et clarté dès qu'elle pénètre vraiment ma conscience. L'extériorité pourrait en augmenter le dynamisme. Les gens se battent pour une idée quand elle se mêle à leurs sentiments et devient *leur* idée ou participe à leur vie globale.

*
* *

L'absolu de la Raison mène à la dictature et à l'intolérance. Interpeller Dieu, c'est provoquer au dialogue, à un dialogue interrompu qui rappelle perpétuellement notre présence au Monde avec-autrui et avec notre conscience, entièrement dévêtue, sous le regard divin qui en garantit l'ordre, l'équilibre et l'harmonie. Une foi qui ne s'enracine pas dans l'être et ne se projette pas dans la société, se fige dans les rites et se rapproche de la pantomime. *La foi est d'abord conscience et ensuite rite et traditions culturelles.* Elle prend, en Islam, le double sens de Destin et d'Histoire. Chez le croyant authentique ; elle coïncide avec sa destinée, c'est-à-dire avec l'ensemble de ses engagements moraux et sociaux.

En l'absence de Dieu, dans les idéologies à tendance messianique, ce rôle incombe à l'Histoire prise comme Science et Déterminisme.

*
* *

Dialoguer avec Dieu, s'ouvrir à la parole qui introduit en nous ce que les mystiques appellent « le mystère » d'être et de l'être, et que les réalistes psychologues, sociologues,... nomment « l'indéterminé », « l'imprévisible ». La Révélation donne un sens et une garantie à des indéterminés et imprévisibles salvateurs. Souvent, des transformations profondes (psychiques et spirituelles) se produisent chez le croyant, après une prière sincère, et le rendent disponible à l'action révolutionnaire, apte à se dépasser dans un engagement, à faire l'Histoire. Il serait sensé de combattre *avec* la foi (et avec foi) et de ne point gaspiller des énergies humaines dans des croisades stupides d'idéologies.

Nous n'avons point cherché à prouver la Révélation, mais simplement à réclamer la reconnaissance de son statut, au même titre que les autres motivations et activités de l'homme.

Par souci de réalisme (et au risque de nous faire traiter, hâtivement, de « réactionnaire » par les absolutistes) nous avons dégagé les fondements manifestes de la réalité de la foi, de la révélation et de la transcendance, dans la vie réelle de tous les jours, pour atteindre la cohérence rationnelle de ses énoncés de base.

*
* *

Savants et philosophes affirment que rien ne peut être connu entièrement, et en particulier l'homme. Celui-ci ne se faisant qu'une connaissance approximative de lui-même, se connaît par l'acte même de sa recherche sur soi. Il s'éprouve. Cette auto-expérience est une preuve par l'évidence de l'épreuve.

La Révélation aussi dévoile sa preuve à l'instant ou elle s'éprouve. Elle fait des réalités que les croyants découvrent comme une présence certaine dans le monde et une dimension de leur vie. La pensée-connaissante (niveau d'une conscience consciente d'elle-même) est elle aussi une réalité. Il en est de même de la connaissance. Existent aussi les objets connus, et les objets à connaître ; ils constituent deux autres ensembles de réalité.

*
* *

Par son intentionalité, la conscience se fait projective, dans une nature mentalement objectivée par l'homme. Les rapports de la conscience projective avec la nature objective-objectivée changent de plus en plus de nature. Au lieu de l'opposition conscience-nature (le sujet face à l'univers, aux objets), la nature donne l'impression de nier la projectivité humaine en la confondant avec sa propre évolution. L'homme suit le progrès, le subit, alors qu'il devrait continuer à le guider. Aux lois d'ordre, de ponctualité, de coincidence et de succession se sont substituées l'étrangeté et sa conséquence, « l'ordinalité » de l'extraordinaire. Le sujet humain est en passe de se transformer d'agent en agi, il participe aux progrès de l'univers des objets sans pouvoir poursuivre celui de sa propre nature.

h) Progrès et miracle

Le progrès rappelle l'apologue des langues d'Esope... Il peut nous aider, nous réconforter et, au même moment, polluer l'atmosphère et les relations humaines. La technologie se perfectionne, mais les armes d'épouvante se multiplient et prennent toujours plus d'envergure. Le progrès de la science n'évolue pas en fonction de visées morales. La promotion humaine est à chercher *avec* la technique et les sciences, non pour elle-même. La foi offre une solution qui, faute d'autre, présente une validité fort probable.

*
* *

En créant tant de choses à la cadence prodigieuse que nous connaissons, ne peut-on pas parler de miracles ?

En effet, deux conditions essentielles existent déjà, la rupture (le non-ordre) de ce qui est, et le manque d'assiduité ; le miracle est toujours extra-ordre, extra-ordinaire. Pourquoi admettons-nous ces miracles-là en nous émerveillant, et

refuser les miracles de la Révélation, ou par Révélation et leur manifester du mépris ?

L'entendement a besoin d'un critère qui lui permettrait de saisir et d'exprimer, à la fois, l'extraordinaire et l'ordinaire, l'empirique et le transcendant.

D'ores et déjà, la technologie semble nous imposer de nouveaux rapports : ce n'est plus le désordre et le changement qui sont à définir par rapport à l'ordre et à la permanence, mais plutôt l'inverse ; c'est le désordre, l'extraordinaire et la fugacité qui servent de critère. Ceux-ci n'excluent pas les anciennes vérités révélées.

Se voulant activité libre de l'homme dans la recherche de la vérité, la philosophie a fini par se transformer en exaltation de cette vérité et par procéder à la subordination de l'autre au même. Aujourd'hui, une philosophie réaliste devra continuer sa quête de la vérité. Et si elle doit partir du dialogue avec la machine, elle ne saurait faire des concessions au machinisme sans renier la personne et les valeurs qui en garantissent la vérité et la dignité.

Se valider avant de valider

Ce qu'exige la Révélation, c'est d'abord que chacun puisse affirmer la dignité humaine, en lui-même et en autrui, dans l'échange, en se sentant agir sous le regard omniprésent de Dieu, ordinateur de l'univers et garant des valeurs. Cela n'empêche en rien la science d'investiguer et d'évoluer. De son côté, la morale, particulièrement la morale inspirée par la foi, ne cautionne la science que dans la mesure ou celle-ci n'oublie pas que l'Homme est la fin en toute recherche et que c'est en fonction de ses besoins et usages qu'elle s'effectue.

La démarche de la Révélation (qui se fait aux hommes par la médiation d'autres hommes) et celle de la science (qui est orientée par des hommes, au service des hommes) convergent, au lieu de s'exclure. C'est selon une fausse théorie qu'on les oppose de façon radicale, alors qu'il ne s'agit que d'un conflit technique. En fait, il suffit d'écarter les oppositions abstraites et de ne point élever au rang de l'absolu des notions telles que Réalité, Objectivité, Nécessité, Concret... et de ne pas faire de la « fidélité » intégrale à ces notions la vertu suprême et le critère incontestable.

*

*   *

Le camp des fanatiques du caractère absolu des notions précédentes semble éviter certaines questions à leur avis « métaphysiques ». Par exemple :

– Réalité / Objectivité de quoi, et par rapport à quoi ?

– Quel statut donner au Hasard, à l'Aléatoire par rapport à la Nécessité et à la Certitude ?

– Matière/Nature se donne-t-elle en elle-même, pour elle-même, ou bien en fonction d'une autre chose qui serait d'une nature autre que matérielle ?

Les réponses à de telles questions mettraient les problèmes dans un contexte de situations lisibles, déchiffrables, et permettraient à la science et à la rationalité de légitimer leur validité propre. Car, il leur faut, pour valider ou refuser la validité de la Transcendance, de la Foi et de la Révélation, préalablement se valider elles-mêmes.

Un exemple d'une réalité incontestable et, par excellence, incontestablement méta-physique : *l'amour*, dans certaines des phases de son évolution, échappe à la logique et aux expérimentations physiques. L'amoureux cherche à s'abandonner en l'aimé, à se faire un soi-autre. Cette expérience est vécue et décrite par des mystiques appartenant à toutes les religions, et par les romantiques de diverses littératures. L'amoureux sent perdre le point d'appui personnel sous l'effet d'une attraction dont le centre de gravité est en l'autre. Au même instant, l'aimé s'installe, consciemment ou inconsciemment, en l'aimant et tend l'absorber, le niant en tant qu'autre.

Cette dialectique de l'autre – soi simultanément *avec* et *sans* altérité, opère dans un réel attesté-inconteste et en même temps méta-physique. C'est la quête d'une impossible identification : *je prends possession de mon moi, en l'autre, et reconnais l'autre en m'identifiant à lui,* ou en tant qu'il s'efforce de s'identifier à moi.

*
* *

Une telle dialectique semble dire tout de l'amour, alors que rien n'est encore dit, et on aura beau re-dire. S'avérant réalité paradoxale, subjectivité pure, illogisme et irrationalité, l'amour ne fait pourtant problème pour personne. Il relève des êtres qui sont, et sont hors de la physique.

Discours inadéquat et histoire fluide

L'homme nomme, classe et recense les choses, les phénomènes, les êtres et les événements, puis il conceptualise, généralise et théorise les observations et expériences, dépassant ainsi des données brutes. C'est aussi lui qui agit, codifie ses actes et oriente ses activitées vers d'autres activités, individuelles ou collectives.

Faisant partie de l'Histoire, il participe aussi à la constitution de l'Histoire, s'efforce à la personnifier par l'action, le travail, en vue de ses intérêts et désirs. Plus elle prend conscience de son historicité, plus la personne s'insère dans l'Histoire et, par à coup, s'insère aussi dans la nature.

Ce contact direct avec la nature, comme réceptacle-spectacle pour la vie et comme objet du travail, établit une relation intime de complémentarité entre le moi-nous et la nature. Toute l'Histoire humaine se tisse dans la trame de cette relation.

*
* *

Parallèlement à l'Histoire, évolue un verbalisme. Le discours bavard empêche de faire l'Histoire. Depuis toujours, les hommes s'exercent à la confection d'un tel discours, à le faire adéquat à leurs désirs, projets et espoirs. Mais un discours en engendre d'autres, selon une chaîne ininterrompue.

Le discours philosophique diffère de celui de la science.

Pourquoi déclarer inacceptable le discours-révélation, alors qu'il n'écarte pas la raison (sans s'y arrêter) (14), et s'adresse à toute l'humanité (15) par un Livre (16) qui emprunte une langue claire (17) ?

Les Prophètes-Envoyés n'ont jamais déclaré la guerre à la rationalité, et celle-ci n'a pas été capable d'écarter, « objectivement » ni « rationnellement », la révélation du champ du réel si assoiffé de plénitude et de globalité de ce qui est.

*
* *

Chaque personne est un « je » pluriel où participe le « non-moi » que davantage le « moi » : objets, mouvements, idées / informations acquises (justes ou fausses),... Le moi est une histoire dans l'Histoire où le « je » est toujours per-

(14) Cf. Averroes, *« Façl el-'Maqâl »*... (Traité décisif sur l'accord de la religion et de la philosophie), trad. fr. Alger, Ed. Cardonnet. Le 1er chapitre de ce traité est consacré à l'appel du Coran au respect de la raison et de la réflexion.

(15) Dieu, s'adressant à Mohammed, dans le Coran (XII, 10) : *« Nous ne t'avons envoyé que par miséricorde, pour l'ensemble de l'univers ».*

(16) Les trois religions Abrahamiques sont des religions du Livre.

(17) Le peuple du prophète Shu'aïb, s'adressant à son *rasûl : « Tu es sous l'emprise de la sorcellerie. Tu n'es qu'un mortel comme nous.*
Nous pensons que tu n'es qu'un imposteur » Coran : XXVI, 185-186).
Pourtant, les messages divins sont simples et clairs pour ceux qui aiment la vérité, le Coran, n'est-ce pas une « révélation en langue arabe claire » ? (XXVI, 194).

méable aux « *tu* », aux « *il* »/« *on* » et aux « *nous* » qui l'assaillent sans cesse. Ouvert en permanence, le « je » s'avère cassable. Dans ses brisures, se multiplient des marges et des blessures que la science ne sait assumer, ni récuser.

En effet, la/les sciences ne sauraient prétendre à la globalité du savoir et de tous les discours, sans se renier. La manifestation de l'Homme par la science est plus normale que la réduction de l'Homme à ne se manifester qu'à travers la science ou à n'en faire qu'un être au service de la science. En fait, celle-ci n'est qu'instrument et connaissances acquises, ustensilisables et ustensilisées. Les idéalités visées par la science demeurent incarnées dans le monde en vue de l'homme, être qui transcende le monde en le défaisant et en le refaisant.

*
* *

Il y a donc un handicap majeur dans la saisie de l'autre, et surtout dans la saisie de soi par soi étant donné que le « *je* » ne devient consient de lui-même que par les « *tu* », les « *il* » et les « *nous* ». C'est que l'enjeu de l'approche de l'altérité est de dépasser le conflit de la pensée dans ses efforts : elle ne se représente le pensant qu'avec autrui ; l'image/l'idée que le « je » se fait de soi est justement tributaire de l'autre/des autres. La représentation de soi, comme celle de l'autre, est un *impossible*.

Au-delà de la figuration, les arts plastiques restent muets, me trouvant comment dire ce qu'ils veulent dire ; en littérature, il y a arrêt obligatoire aux rivages de l'indicible du profond silence de la subjectivité, du langage informel que le cœur s'efforce de balbutier. Un monologue phonologiquement intraduisible. Le cœur se réduit à secréter sa propre et amère finitude dans son conflit avec son for intérieur si soumis aux pressions du solitaire silence dans l'inachevé de nous-mêmes.

Conclusion

Ayant la Révélation pour soubassement et tendue vers une transcendance infinie, la foi constitue un champ physique où l'on pourra dégourdir l'esprit et se reposer des soucis physiques et métaphysiques. Pour les assumer avec plus de confiance et d'espoir, on recourt à la fois, comme à une source nourricière d'un véritable engagement, sans peur ni mauvaise conscience, au plus profond de la personne. Tout est prêt pour vous assister à dépasser l'individualisme, l'égoïsme, le pessimisme et l'indifférence.

La foi est une invocation à la vocation qui façonne les personnalités de la personne. Une manière d'être. Etre un être personnel parmi tous les êtres.

The Regeneration of Sciences in the Third World

Ahmed Abdus Salam

« In the conditions of modern life, the rule is absolute : the race which does not value trained intelligence is doomed... Today we maintain ourselves, tomorrow science will have moved over yet one more step and there will be no appeal from the judgement which will be pronounced... on the uneducated ».

Alfred North Whitehead

I. The Widening Gap in Science and Technology

The third world as a whole is slowly waking up to the realisation that Science and Technology are what distinguish the South from the North. On Science and Technology depend the standards of living of a nation. The widening gap in Economics and in Influence between the nations of the South and the North is basically the Science gap.

To see this growing gap in Sciences, just turn over the pages of a multidisciplinary science journal – like « Nature ». Not more than 2 % of the papers originate in the South. This, unfortunately, is a reflection of the sub-critical size of the Third World's scientific enterprise. A more revealing index of the size of Third World Science is the funding which the South provides for Research and Development. To appreciate this, look at Table I which gives the Defence, Education and Health Expenditures as *percentages of GNP,* both in the South and the North.

TABLE I

Defence, Education and Health Expenditure in US$ (1983) (as % of GNP)

	Population x (*1,000*)	GNP Million (US$)	GNP Capita (US$)	Defence (%)	Education (%)	Health (%)
Ind. Countries	1,116,969	10,518,183	9,415	5.6	5.2	4.8
Dev. Countries	3,574,133	2,569,796	720	5.6	3.8	1.5
Africa*	455,608	280,808	616	4.1	3.9	1.2
Middle East**	141,875	362,507	2,556	17.1	5.9	2.5
South Asia	971,915	247,830	255	3.4	3	0.8
Far East***	1,490,582	688,272	462	5.9	3.2	1.2
Latin America + Caribbean	385,168	730,726	1,867	1.4	3.6	1.3

Based on « World Military & Social Expenditures », 1986.

* Less South Africa

** Less Israel

*** Less Japan

Both the industrialised and the developing countries spend 5.6 % of their respective GNP's on defence. The educational expenditures are similar – 5.2 % for the industrialised and 3.8 % for the developing countries of their respective GNP's. For health it is 4.8 % for the industrialised countries versus 1.5 % of their GNP's for the developing countries – admittedly, a difference, but not as striking as when we come to Science and Technology (Table II). The figures for this are different by more than a full order of magnitude. The industrialised countries spend 2-2.5 % of their GNP's on Research and Development versus less than 0.2 % (on UNESCO estimates*) for the developing countries. The industrialised countries are spending proportionately in terms of their respective GNP's ten to twelve times more every year on Science and Technology than the Third World. *We in the Third World are just not serious about Science and Technology.*

(*) Not shown in the Table. These are global averages. Countries like Argentina, Brazil, China and India spend more than .5 % of their respective GNPs on Science and Technology.

TABLE II

Country	Population (Millions)	GNP Per Capita (US$) *1984*	Education* Total public Expenditure (% of GNP)	Scientists/engineers In R&D (Per million Inhabitants)	Expenditure ON R&D** (% of GNP)
France	55.17 (1985)	9,760	5.8 (1983)	1,363 (1980)	1.8 (1980)
Fed. Rep. of Germany	61.02 (1985)	11,130	4.5 (1983)	2,084 (1983)	2.5 (1985)
Japan	120.75 (1985)	10,630	5.7 (1983)	4,436 (1984)	2.6 (1983)
Netherlands	14.48 (1985)	9,520	7.7 (1983)	2,126 (1983)	2.0 (1983)
U.K.	56.49 (1984)	8,570	5.3 (1983)	1,545 (1980)	2.3 (1980)

* At Tertiary level.
** Based on UNESCO statistics 1986.

The first thing to realise about Science and Technology is that the disparity – this gap – between the South and the North is of relatively recent origin.

II. Science, a Shared Heritage of Mankind

George Sarton, in his monumental five-volume History of Science, chose to divide his story of achievement in sciences into Ages, each Age lasting half a century. With each half-century he associated one central figure. Thus 450-400 BC Sarton calls the Age of Plato; this is followed by half-centuries of Aristotle, of Euclid, of Archimedes and so on. From 600 AD to 650 AD is the Chinese half-century of Hsiian Tsang (and of the Indian mathematician, Brahmagupta). From 650 to 700 AD is the age of I-Ching, followed by the Ages of Jabir, Khwarizmi, Razi, Masudi, Wafa, Biruni (and Avicenna), and then Omar Khayam – Chinese, Hindus, Arabs, Persians, Turks and Afghans – an unbroken, Third World succession for 450 years. After the year 1100 the first Western names begin to appear; Gerard of Gremona, Roger Bacon – but the honours are still shared equally with the Third World names of Ibn-Rushd (Averroes) and Tusi. No Sarton has yet chronicled the history of scientific creativity in Africa. Nor of the pre-Spanish Mayas and Aztecs – with their independent invention of the zero and of the calendars of the moon and Venus, as well as of their diverse pharmacological discoveries (including quinine). But one may be sure, it is a story of high achievement in technology and Science.

From 1400, however, the Third World begins to lose out except for the occasional flash of scientific work, like that of Sultan Ulugh Beg – the grandson of Timurlane, in Samarkand in 1420 AD. And that brings us to the present century when cycle begun by Michael the Scot who went South to acquire Knowledge of Aristotle, Razi and Avicenna (Appendix I), turns full circle, and it is we in the developing world who turn Northward for science. I mention this to emphasise that *Science is the shared heritage of all mankind* – East and West, South and North have equally participated in its creation. As Al-Kindi wrote 1100 years ago : « it is fitting then for us not to be ashamed to acknowledge truth and to assimilate it from whatever source it comes to us. For him who scales the truth there is nothing of higher value than truth itself; it never cheapens nor abases him ».

III. What is Wrong with Science and Science-Based Technology in the Third World ?

But what is wrong with Science and Science-Based technology in the Third World today ?

Three things : (a) A lack of meaningful commitment towards Science, either pure or applied ; (b) The manner in which we run our scientific enterprise ; and (c) A lack of commitment towards acquiring self-reliance in Technology in most Third World countries. I shall take these three points briefly in turn.

a) Lack of Meaningful Commitment Towards Science, Either Pure or Applied

There have been few (declared) commitments from our governments, to acquiring and enhancing of scientific knowledge among us (See Appendix V). Whose fault it is – the rulers' or of the leaders of the scientific community, I do not wish to say. But, by and large, there has been scant realisation that Science can be applied to development as, for example, there was in Japan at the time of the Meiji Restoration around 1870, when the Emperor took five oaths as part of Japan's new constitution. One of these oaths was that : « Knowledge will be sought and acquired from any source with all means at our disposal, for the greatness of Imperial Japan ». How many of our rulers in the Third World have made a similar pledge as part of our constitutions ?

b) The Manner in Which the Enterprise of Science is Run

Science depends for its advances on towering individuals. An active enterprise of science must be run by working scientists themselves and not by bureaucrats or by those scientists who may have been active once, but have since ossified. When the late Amos de Shalit (then Director of the Weizmann Institute) was asked in a UN Committee, what was the Israeli policy for science, his reply was : « We have

a very simple policy for growth of science. An active scientist is always right and the younger he is, the more right he is. » Unfortunately, in most of our science organizations this is far from the accepted norm.

c) No Commitment to Self-Reliance in Technology and Particularly High Technology

In technology, by and large, few of our Governments have made it a national goal to strive for self-reliance. And we have paid little heed to the scientific base of technology, i.e. to the truism that *science transfer must always accompany technology transfer*, if technology transfer is to take. Thus, while some of our governments and industrial enterprises may claim that they are encouraging the transfer of technology, often all that this means is the importation of designs, machines, technical personnel and sometimes even processed raw materials.

Clearly this must change if the South is to regenerate Science and particularly Applied Science and Science-based High Technology.

IV. Regeneration of Sciences

I shall not speak about *classical* Engineering or the classical Technologies : only of recent Science-based High Technologies. Nor shall I speak of « Technology-transfer » : not because these are not important subjects – quite the contrary – but simply because policy makers, prestigious commissions (even the Brandt Commission), as well as aid-givers, speak uniformly and solely of problems of « technology-transfer » to the developing countries as if that were all that is involved. It is hard to believe, but true, that the word « science » does not figure in the Brandt Commission report.

Very few within the developing world appear to stress that *the science of today is the technology of tomorrow* and that when we speak of science it must be broad-based in order to be effective for applications. I would even go so far as to say that if one were being Machiavellian, one might discern sinister motives among those who try to sell to us the idea of « technology-transfer » without the accompanying science transfer. There is nothing which has hurt us in the third world more than the slogan in the wealthier countries of « Relevant Science ». Regretfully, this slogan was parroted in most of our countries unthinkingly to justify stifling the growth of *all* science.

But why do we persist in neglecting Science in the first place ? First and foremost, there is the question of national ambition. Let me say it unambiguously. Our countries have no science communities geared to development because we do not want such communities. We suffer from a lack of ambition towards acquiring science, a feeling of inferiority towards it, bordering sometimes even on hostility.

In respect of ambition, let me illustrate what I mean by the example of Japan at the end of the last century, when the new Meiji constitution was promulgated.

As I said earlier, the Meiji Emperor took five oaths ; one of these set out a national policy towards science – « Knowledge will be sought and acquired from any source with all means at our disposal, for the greatness and security of Japan ». And what comprised « knowledge » ? Listen to the Japanese physicist, Hantaro Nagaoka, specialising in magnetism – a discipline to which the Japanese have contributed importantly, both experimentally and theoretically since*. Writing in 1888 from Glasgow – where he had been sent by the Imperial Government – to his Professor, Tanakadate, he expressed himself thus : « We must work actively with an open eye, keen sense, and ready understanding, indefatigably and not a moment stopping. ... There is no reason why the Europeans shall be so supreme in everything. As you say, ... we shall... beat those *yattya bottya* (pompous) people (in Science), in the course of 10 or 20 years ».

The same happened in the Soviet Union seventy years ago when the Soviet Academy of Sciences, founded by Peter the Great, was asked to expand its numbers and was set the ambition of excelling in all sciences. Today it numbers a self-governing community of a quarter of a million scientists working in its institutes, with priorities and privileges accorded to them in the Soviet system that others envy. According to Academician Malcev, this principally came about in 1945, at a time when the Soviet economy lay shattered by the war. Stalin decided at that time to increase emphasis on sciences. Without consulting anyone else, he apparently decided to increase the emoluments of all scientists and technicians connected with the Soviet Academy, by a factor of three hundred per cent. He wanted bright young men and bright young women to enter massively the profession of scientific research, and he succeeded in ensuring this.

It is also true that very few among us appreciate that the acquiring of Science and Science-based Technology is not hard. In eloquent phrases C.P. Snow in his famous lecture on « The Two Cultures » made the point that Science and Technology are the branches of human experience « that people can learn with predictable results. For a long time, the West misjudged this very badly. After all, a good many Englishmen have been skilled in mechanical crafts for half-a-dozen generations. Somehow we have made ourselves believe that the whole of technology was a more or less incommunicable art*. »

(*) Lest the Japanese be credited with preoccupation with technology only, it is good to remember that the finest Encyclopaedia of Mathematics in the English language is the Japanese, translated into English by the Massachusetts Institute of Technology Press.

(*) According to C.P. Snow, «... I remember John Cockcroft coming back from Moscow some time in the early 1930's. The news got round that he had been able to have a look, not only at laboratories, but at factories and the mechanics in them. What we expected to hear, I don't know : but there were certainly some who had pleasurable expectations of those stories precious to the hearts of Western man, about moujiks prostrating themselves before a miling machine, or breaking a vertical borer with their bare hands. Someone asked Cockcroft what the skilled workmen were like. Well, he has never been a man to waste words. A fact is a fact. ' Oh, ' he said, ' they're just about the same as the ones at Metrovick. ' That was all. He was, as usual, right ».

In Snow's words : « ... there is no evidence that any country or race is better than any other in scientific teachability : there is a good deal of evidence that all are much alike. Tradition and technical background seem to count for surprisingly little.

« There is no getting away from it. It is... possible to carry out the scientific revolution in India, Africa, South-East Asia, Latin America, the Middle East, within fifty years. There is no excuse for Western man not to know this. »

From the experience of more than 16,000 visits of high-level Third World physicists from 90 countries who have come to the International Centre for Theoretical Physics in Trieste over the last 23 years, we can perceive just six or seven Third World countries which have built up large enough communities to be of critical size in Physics. Barring these, the Third World, despite its growing realisation that science and technology are the sustenance, and its major hope for economic betterment, has taken to science as only a marginal activity. This is, unfortunately, also true of the aid-giving agencies of the wealthier countries and also of the agencies of the United Nations.

Assuming that you agree with me that Science has a role for development, why am I insistent that science in developing countries has been treated as a marginal activity ?

This is because Science Transfer is effected by and to communities of scientists. *Such communities need building up to a critical size in their infrastructure and human resources (through a meaningful training effort).* This building up calls for wise science policies with three cardinal ingredients – *(i) long-term commitment as well as active deployment of scientists in the tasks of development, (ii) generous patronage, (iii) self-governance of the scientific community, including freer international contacts.* Of these three ingredients, the last refers to the manner in which we run our scientific enterprise. The first two depend upon State action and I wish to make a plea to those in authority to help us redress our dire situation.

V. Generous patronage

In respect of patronage, let me first set down some of the norms followed by the industrialised countries. As a general rule, some 2-2.5 % of GNP is made available for Research and Development in most of the industrialised countries, in three broad areas. These include :

i) Research in Basic Sciences in the Universities or in Research Centres, plus support for *International Science,* plus *Training for Research.* These are the sorts of functions familiarly carried out by National Science Foundations or by Academies of Sciences.

ii) Research in Applied Sciences, carried out, generally, under the auspices of « Applied Research Councils ». This includes research and application of scientific methodology in areas of *health, agriculture, energy, environment, minerals and earth sciences.* What is emphasised more in any given country depends on a nations's priorities. (see Appendix III.).

iii) Research and Development in Technology (including R & D funded by private industrial sources). Such research, in general, includes areas of coarse chemicals (including petro-chemicals), engineering technology, transport, telecommunications, as well as science-based, newer high technologies (micro-electronics, space technology, fine chemicals and biotechnology).

The ratio of funds spent on Research and Development in these three areas is roughly of the order of 1 : 1 : 2.

So far as *absolute* expenditures are concerned, rather than use percentages of GNP, I shall use in this paper as a convenient and easily remembered unit, a country's educational expenditure. Typically, in the North, the funds spent on *Basic Sciences Research* amount to some 4-10 % of a nation's educational budget while roughly the same amount is spent on *Applied Science Research,* and twice as much on *Research and Development related to Technology and particularly High Technology.* Typically there is a ratio of 1 : 1 : 2 between these three sectors.)

Following the industrialised countries, *let us adopt for the Third World countries, the lower figure of 4 % of the educational expenditures as a desirable minimum, to be spent on Basic Sciences, (including Research and Training for Research.*

Surprisingly, even these modest amounts, equal to 4 % of the Third World's current educational expenditure would reach the colossal figure of $ 3.5 billion dollars*. No reliable figures are available for present expenditures, but I do not believe we, as a whole**, spend anywhere near 3.5 billion dollars *on Basic Sciences* (including for *Training for Research and for International Science).* For Applied Sciences, one may consider a further figure of 4 % of the educational budget as a desirable minimum – bringing up the desirable total for Sciences – Pure and Applied – to around seven billion dollars for the South as a whole.

(*) Of this total of 3.5 billion dollars, 43 countries of Africa would account for 463 million dollars, 26 countries of Asia for 1.9 billion dollars, the four countries of Oceania and Indonesia for 136 million dollars, 13 countries of the Caribbean for 298 million dollars while the 11 Latin American countries would account for 740 million dollars (Table III).

(**) Barring Argentina, Brazil, China and India, which do spend more.

If your country is already spending this amount or more on Basic Science Research functions (Table III), and a similar amount for the Applied Sciences, I would like to congratulate you. If not, I hope you will do all that is possible within your means to reach this minimum of desirable international standards in your own countries. Make no mistake about it. *No Science is possible without a nation spending an inescapable minimum of funds on it.* And no Science-based development will accrue, unless we make these basic outlays.

VI. International Contacts and the Administration of our Scientific Enterprise

But this is just one aspect of our setting our Science house in order. In a moment I shall speak of our society's second hang-up, in not giving a developmental role to the scientist within our national priorities, in concert with the planner and the economist ; and the scientist's consequential ignorance about the development process.

Before I do this, I would like to re-emphasise our need for free and unfettered international contacts. Science is universal and it is being created, in the main, outside of our countries. We must keep in touch, otherwise Science with us will ossify and eventually die and with it all hopes of development through the application of scientific knowledge. Secondly, there is the need to bring in the younger talent – even for Science administration. I repeat what I said earlier : for a regeneration in Sciences, there are the international norms which must be respected. These are (i) long-term commitment as well as active deployment of scientists in the tasks of development, (ii) generous patronage, (iii) self-governance of the scientific community and free international contacts*.

VII. International Funding for Sciences and the Deployment of Scientific Communities in the Tasks of Development

Nine hundred years ago, a great physician of Islam, Al Asuli, living in Bokhara, wrote a medical pharmacopaea which he divided into two parts : « Diseases of the Rich » and « Diseases of the Poor ». If Al Asuli were alive and writing today about the afflictions wrought upon itself by mankind, I am sure he would divide his pharmacopaea into the same two parts. One part of his book would speak of the affliction of possible Nuclear Annihilation inflicted on humanity by its

(*) Since we have been mainly concerned with the State action needed for the regeneration of Sciences, I have not spoken of the role of private Science Foundations in enhancing and fostering talent (as in the US or Japan), nor of the building up of scienfitic literacy in our societies.
In the context of Training for Research, it is good to remember that trained manpower does not take long to build ; it can be done within one decade, provided there is a guaranteed, long-term commitment of funds and State interest. Infusing of high quality takes longer – perhaps as long as two decades, or more, but one can be fortunate. In any event, it is essential to make a start NOW.

richer half. The second part of his book would speak of the affliction which poor humanity suffers from – underdevelopment, undernourishment and famine. He would add that both these diseases spring from a common cause – excess of Science and Technology for the case of the rich, and a lack of Science and Technology for the case of the poor. He might also add that the persistence of the second affliction of mankind – underdevelopment – was the harder to understand, considering that the remedies for it are readily available in that the world has enough resources, technical, scientific, and material, to eradicate poverty, disease and early death for the whole of mankind, if it wishes to do so. It has only to eschew deployment of these resources towards aggravating the first affliction.

I am sure that peace, and particularly nuclear peace, will come soon. Mankind has truly awoken to the nuclear danger and big powers have seen the futility of arming themselves beyond the calls of any reasonable measures of security.

Nuclear peace will mean that mankind will be able to save at least 100 billion dollars per annum – one tenth of one trillion dollars which are the current global military expenditures. Of this 100 billion dollars, I pray and hope that the world's statemanship deploys at least one tenth – around 10 billion dollars – to help the developing countries. Of these 10 billion dollars, at least five billion dollars should be globally spent on Science and scientific education for the developing world. Such outlays would bring about a revolution. I hope that this does happen. I pray fervently that mankind does turn to real peace and that the funds saved will not be spent on simply reducing taxes for the rich. *On this we need, and deserve, the active support of our scientific bretheren in the Northern scientific communities.* Without such support, little Applied Science will get done.

But when all is said and done, let me say this unambiguously : I personally miss in the developing countries themselves, *a possessive attitude towards Sciences, an attitude which considers science as being an integral part of our lives.** May I suggest that the time has come when our courts of State should once again be adorned with Scientists. I am reminded of King Arthur of legendary fame ; at his Court there was a Court Magician ; his name was Merlin. Merlin was responsible for using magic for forging steel for swords and to provide magical medicinal potions. We, the scientists, are the Merlins of today. We can perform feasts of magic undreamt of by Merlins of yesteryears. We can indeed transform society. But in our Third World countries, the Merlins have no place in the courts of State. Should they not be invited back ? Some will say – and perhaps rightly – that the Merlins in developing countries are amateurs, they do not know their

(*) I personally believe that we in the Third World owe a debt to the North for the new knowledge which has been made available to all mankind, and one which we must repay in the same coin. As a fundamental physicist, I wish I could have described the sheer joy and excitement of creating new knowledge. Let us not forget that it is this excitement which draws the young to Science in the first place.

applied craft. They choose to live in their own ivory towers, and our Southern societies are thereby forced to import the real Merlins from the North. This may be true, but why is this ? *Could this emasculation have come about through the fact that our own Merlins are so few in numbers, and even these few have never been invited to make a contribution to development in their own countries.* Not even by their colleagues – the professional economists – who in this metaphor are the high Priests of Development. *Only experience can teach the merlin-Scientist the craft of developmental problem-solving, even if he knows his science.* This vicious cycle of lack of mutual trust must be broken, I hope before the year 2000. The year 2000 can yet be a glorious year of distinction in Sciences as well as their purposeful application towards development. Let us all strive to make this dream come true.

(see table III).

*** Desirable Expenditure for Research and Training for Research in Basic Science and in Applied Sciences in the Third World**

The attached figures for GNP and Educational expenditure in Third World countries are taken from the « World Military and Social Expenditure » publication (1986 edition). These figures are based on 1983 data, and are quoted in 1983 US dollars.

The desirable expenditure for Basic Sciences research and training for research (including expenditures for international science) for each developing country is worked out on the basis of the expenditures in industrialised countries where these amount to an average of 4-10 % of the education budget. For Third World countries, the figures suggested are at the lower end – 4 % of the educational budget of each country. This should be regarded as the *minimum* amount each Third World country should spend on Research in Basic Sciences and Training for Research (including expenditures on International Science) ; likewise, 4 % of the Education Budget for each country for Applied Sciences and twice this amount for technology. This would add up to 4 + 4 + 8 = 16 % of the Education Budget for research in Science and Technology. If the average of 3.8 % * of GNP spent on education by developing countries [see Table I] is taken into account, this would work out to around. 6 % of GNP spent on Science and Technology* – more for some countries, less for others.

If one was responsible for science in a typical country of the South, I would suggest making plans for this total of (4 + 4 + 8 =) 16 % to be reached in around four years, always starting with training for research. And I would encourage industry to contribute mightily to research in Technology.

(*) For the developed countries, the average expenditures on education are of the order of 5,2 % of the GNP. With higher figure of 10 % (rather than 4 % spent on Basic Sciences, 10 % on Applied Science and 20 % on Technology, the average proportion of GNP spent on Research and Development in the North works out at (5,2 x 40/100)= 2.1 % of GNP.

(*) On average, this figure is lower than the 1 % which has been suggested by UNESCO for countries in the South.

Table III

Africa

Data from *World Military and Social Expenditure, 1986*[1]							Participation in ICTP Activities				
Country	Population (1,000)	GNP (million US$)	GNP/capita (US$)	Education expenditure (million US$)	Education (% of GNP)	Suggested expenditure for Basic Sciences research (*)	Visits 1970-86	Associates 1987	Federation Agreements 1987	Visits Italian Labs	External Activities
Algeria	20,744	47,713	2,300	2,195	4.6	87.8	132	4	2	4	-
Angola	7,558	6,906	914	343	5.0	13.7	3	-	-	-	-
Benin	3,778	1,109	294	56	5.0	2.2	34	3	1	-	-
Botswana	1,000	919	919	80	8.7	3.2	3	1	-	-	-
Burkina Faso	6,569	1,192	181	38	3.2	1.5	13	1	-	-	-
Burundi	4,416	1,046	237	36	3.4	1.4	19	2	1	-	1
Cameroon	9,219	7,789	845	277	3.6	11.1	32	-	1	-	-
Central African Republic	2,520	682	271	26	3.8	1.0	3	-	-	-	-
Chad	4,935	600	122	15	2.5	0.6	-	-	-	-	-
Congo	1,694	2,158	1,274	130	6.0	5.2	12	-	1	-	-
Egypt	46,427	31,205	672	1,289	4.1	51.68	802	17	24	6	4
Ethiopia	41,308	4,844	117	199	4.1	8.0	37	2	2	1	1
Gabon	921	3,417	3,170	157	4.6	6.3	4	-	1	-	-
Gambia	700	202	289	10	5.0	0.4	2	-	-	-	-
Ghana	11,939	4,275	358	64	1.5	2.6	176	4	2	7	2
Guinea	5,057	1,721	340	55	3.2	2.2	22	-	3	2	-
Ivory Coas	9,314	6,603	709	343	5.2	13.7	18	-	1	-	4
Kenya	18,586	6,446	347	312	4.8	12.5	84	2	-	-	1
Lesotho	1,438	672	467	26	3.9	1.0	11	1	-	-	1
Liberia	2,091	986	472	54	5.5	2.2	8	-	2	-	1
Libya	3,486	29,167	8,367	1,079	3.7	43.1	103	5	3	1	-
Madagascar	9,398	2,945	313	96	3.3	3.8	39	1	1	1	-
Malawi	6,612	1,388	210	35	2.5	1.4	10	-	-	-	1
Mali	7,404	1,128	152	50	4.4	2.0	41	2	1	3	-
Mauritania	1,591	775	487	34	4.4	1.4	9	-	1	-	-

1 by Ruth Leger Sivard, published by World Priorities, Washington.

(*) Including expenditure for International Science and Training for Research - 4% of education expenditure (in million US$)

Africa (cont.)

	Data from *World Military and Social Expenditure, 1986*						Participation in ICTP Activities				
Country	Population (1,000)	GNP (million US$)	GNP/capita (US$)	Education expenditure (million US$)	Education (% of GNP)	Suggested expenditure for Basic Sciences research (*)	Visits 1970-86	Associates 1987	Federation Agreements 1987	Visits Italian Labs	External Activities
Mauritius	993	1,148	1,156	49	4.3	2.0	14	-	-	-	-
Morocco	22,055	15,751	714	1,165	7.4	46.6	123	5	6	-	-
Mozamb.	13,030	4,698	361	-	-	-	1	-	-	-	-
Namibia	1,049	1,819	1,734	35	1.9	1.4	-	-	-	-	-
Niger	6,080	1,481	244	55	3.7	2.2	8	-	-	-	-
Nigeria	97,726	71,684	734	1,592	2.2	63.7	394	16	15	20	7
Rwanda	5,805	1,486	256	46	3.1	1.8	19	-	1	3	1
Senegal	6,335	2,702	427	127	4.7	5.1	51	3	1	-	-
Sierra Leone	3,687	1,178	320	37	3.1	1.5	61	2	1	2	1
Somalia	7,153	1,750	245	25	1.4	1.0	8	-	-	2	-
Sudan	20,993	8,249	393	379	4.6	15.2	208	4	2	1	3
Swaziland	632	613	970	36	5.9	1.4	6	1	-	-	-
Tanzania	20,356	4,896	241	285	5.8	11.4	75	3	-	-	1
Togo	2,842	782	275	46	5.9	1.8	27	1	-	-	-
Tunisia	6,935	8,913	1,285	394	4.4	15.8	70	1	4	-	-
Uganda	13,827	4,292	310	55	1.3	2.2	38	1	-	-	-
Zaire	28,966	5,044	174	298	5.9	11.9	36	2	1	1	-
Zambia	6,395	3,587	561	206	5.7	8.2	22	1	1	3	-
Zimbabwe	8,138	6,052	744	519	8.6	20.8	11	1	-	-	1
Total: 44	*501,702*	*312,013*	*622*	*12,348*		*493.9*	*2,789*	*86*	*79*	*57*	*30*

(*) Including expenditure for International Science and Training for Research - 4% of education expenditure (in million US$)

Asia

Data from *World Military and Social Expenditure, 1986*							Participation in ICTP Activities				
Country	Population (1,000)	GNP (million US$)	GNP/capita (US$)	Education expenditure (million US$)	Education (% of GNP)	Suggested expenditure for Basic Sciences research (*)	Visits 1970-86	Associates 1987	Federation Agreements 1987	Visits Italian Labs	External Activities
Afghanistan	14,340	-	-	60	-	2.4	11	-	-	-	-
Bahrain	394	4,098	10,401	127	3.1	5.1	3	1	-	-	-
Bangladesh	95,935	12,395	129	241	1.9	9.6	246	13	3	4	5
Burma	35,480	6,464	182	131	2.0	5.2	6	-	-	-	-
Cambodia	5,996	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-
China	1,019,666	305,676	300	8,471	2.8	338.8	557	18	34	63	12
India	735,596	192,912	262	6,173	3.2	246.9	1,572	42	17	56	17
Iran	42,490	75,760	1,783	5,791	7.6	231.6	222	9	14	8	2
Iraq	14,509	27,000	1,861	880	3.3	35.2	114	2	2	2	-
Jordan	2,494	4,216	1,690	254	6.0	10.2	114	5	4	3	2
Korea,North	19,185	21,500	1,121	750	3.5	30.0	2	-	-	-	-
Korea,South	41,366	81,800	1,977	4,120	5.0	164.8	125	4	2	4	-
Kuwait	1,565	27,464	17,549	1,133	4.1	45.3	99	1	2	-	-
Laos	3,474	440	127	-	-	-	-	-	-	-	-
Lebanon	2,598	3,413*	1,314	266	7.8	10.6	107	3	2	-	-
Malaysia	14,775	27,714	1,876	2,078	7.5	83.1	142	12	2	-	6
Mongolia	1,797	1,900	1,057	-	-	-	1	-	1	-	-
Nepal	16,169	2,478	153	69	2.8	2.8	85	3	1	-	-
Oman	1,131	7,050	6,233	283	4.0	11.3	-	-	-	-	-
Pakistan	94,140	34,914	371	718	2.1	28.7	487	18	7	9	6
Philippines	54,252	39,262	724	785	2.0	31.4	88	4	1	2	3
Qatar	267	5,946	22,270	295	5.0	11.8	14	1	1	-	-
Saudi Arabia	10,443	127,331	12,193	9,071	7.1	362.8	63	5	2	-	-
Singapore	2,502	16,645	6,653	849	5.1	34.0	44	2	-	-	1

(*) Including expenditure for International Science and Training for Research - 4% of education expenditure (in million US$)

* UNESCO Statistical Digest, 1986

Asia (cont.)

Country	Population (1,000)	GNP (million US$)	GNP/capita (US$)	Education expenditure (million US$)	Education (% of GNP)	Suggested expenditure for Basic Sciences research (*)	Visits 1970-86	Associates 1987	Federation Agreements 1987	Visits Italian Labs	External Activities
	Data from *World Military and Social Expenditure, 1986*						Participation in ICTP Activities				
Sri Lanka	15,735	5,131	326	156	3.0	6.2	164	9	-	2	2
Syria	9,787	16,392	1,675	995	6.1	39.8	86	2	5	3	1
Thailand	49,705	40,271	810	1,581	3.9	63.2	148	1	6	2	2
Turkey	48,392	58,574	1,210	1,954	3.3	78.2	450	1	16	9	3
United Arab Emirates	1,206	26,664	22,109	522	2.0	20.9	1	-	-	-	-
Vietnam	57,612	5,853*	102	-	-	-	27	2	1	-	-
West Bank	767*	-	-	-	-	-	7	1	2	-	1
Yemen, AR	5,830	4,171	715	311	7.5	12.4	38	1	1	-	1
Yemen, PDR	2,085	1,019	489	74	7.3	3.0	3	-	1	-	-
Total: 33	*2,421,683*	*1,184,453*	*489*	*48,138*		*1,925.5*	*5,026*	*170*	*127*	*167*	*64*

(*) Including expenditure for International Science and Training for Research - 4% of education expenditure (in million US$)

* The Statesman's Yearbook, 1986-87

Indonesia and Oceania

Country	Population (1,000)	GNP (million US$)	GNP/capita (US$)	Education expenditure (million US$)	Education (% of GNP)	Suggested expenditure for Basic Sciences research (*)	Visits 1970-86	Associates 1987	Federation Agreements 1987	Visits Italian Labs	External Activities
	Data from *World Military and Social Expenditure, 1986*						Participation in ICTP Activities				
Brunei	214	4,267	19,939	77	1.8	3.1	-	-	-	-	-
Fiji	672	1,200	1,786	77	6.4	3.1	1	1	-	-	-
Indonesia	165,787	88,633	535	3,069	3.5	122.8	143	4	-	1	-
Papua New Guinea	3,191	2,433	762	184	7.6	7.4	10	-	-	-	-
Total: 4	*169,864*	*96,533*	*568.3*	*3,407*		*136.3*	*154*	*5*	-	*1*	-

(*) Including expenditure for International Science and Training for Research - 4% of education expenditure (in million US$)

South America

	Data from *World Military and Social Expenditure, 1986*						Participation in ICTP Activities				
Country	Population (1,000)	GNP (million US$)	GNP/capita (US$)	Education expenditure (million US$)	Education (% of GNP)	Suggested expenditure for Basic Sciences research (*)	Visits 1970-86	Associates 1987	Federation Agreements 1987	Visits Italian Labs	External Activities
Argentina	29,745	60,397	2,030	1,538	2.5	61.5	384	11	3	15	9
Bolivia	5,883	3,512	602	107	3.0	4.3	33	-	-	2	-
Brazil	132,908	270,000	2,031	7,790	2.9	311.6	491	14	3	11	9
Chile	11,595	22,261	1,920	1,115	5.0	44.6	108	4	1	-	4
Colombia	28,153	38,808	1,378	1,142	2.9	45.7	142	5	-	3	10
Ecuador	8,857	11,680	1,319	430	3.7	17.2	11	-	1	-	-
Guyana	765	453	592	40	8.8	1.6	9	-	1	-	-
Paraguay	3,734	4,200	1,125	73	1.7	2.9	1	-	-	-	-
Peru	18,707	19,900	1,064	782	3.9	31.3	118	6	-	4	10
Uruguay	2,916	7,336	2,516	157	2.1	6.3	10	-	-	-	-
Venezuela	16,394	66,021	4,027	5,334	8.1	213.4	117	1	-	1	1
Total: 11	*259,607*	*504,568*	*1,943*	*18,508*		*740.3*	*1,424*	*41*	*9*	*36*	*43*

	Data from *World Military and Social Expenditure, 1986*						Participation in ICTP Activities				
Country	Population (1,000)	GNP (million US$)	GNP/capita (US$)	Education expenditure (million US$)	Education (% of GNP)	Suggested expenditure for Basic Sciences research (*)	Visits 1970-86	Associates 1987	Federation Agreements 1987	Visits Italian Labs	External Activities
Total: 106	*3,482,382*	*2,323,725*	*667*	*89,863*		*3,594.5*	*9,744*	*313*	*226*	*271*	*151*

(*) Including expenditure for International Science and Training for Research - 4% of education expenditure (in million US$)

North and Central America

	Data from *World Military and Social Expenditure, 1986*						Participation in ICTP Activities				
Country	Population (1,000)	GNP (million US$)	GNP/capita (US$)	Education expenditure (million US$)	Education (% of GNP)	Suggested expenditure for Basic Sciences research (*)	Visits 1970-86	Associates 1987	Federation Agreements 1987	Visits Italian Labs	External Activities
Barbados	250	1,008	4,032	57	5.7	2.3	2	-	-	-	-
Costa Rica	2,948	2,539	861	145	5.7	5.8	33	3	-	1	-
Cuba	9,890	18,320	1,852	1,154	6.3	46.2	22	3	2	4	2
Dominican Republic	6,282	6,929	1,103	157	2.3	6.3	6	-	-	-	1
El Salvador	4,779	3,554	744	135	3.8	5.4	6	-	-	-	-
Guatemala	7,861	8,795	1,119	161	1.8	6.4	3	-	-	-	-
Haiti	5,548	1,562	282	18	1.2	0.7	-	-	-	-	-
Honduras	4,205	2,756	655	119	4.3	4.8	10	-	1	1	-
Jamaica	2,223	3,000	1,350	226	7.5	9.0	9	-	1	-	1
Mexico	75,702	163,074	2,154	4,527	2.8	181.1	237	3	5	4	9
Nicaragua	3,305	2,633	797	121	4.6	4.8	1	-	-	-	-
Panama	2,089	4,137	1,980	220	5.3	8.8	4	-	-	-	-
Puerto Rico	3,295*	-	-	-	-	-	13	2	1	-	1
Trinidad and Tobago	1,149	7,851	6,833	422	5.4	16.9	5	-	1	-	-
Total: 14	*129,526*	*226,158*	*1,746*	*7,462*		*298.5*	*351*	*11*	*11*	*10*	*14*

(*) Including expenditure for International Science and Training for Research - 4% of education expenditure (in million US$)
* World Bank Atlas, 1985

Exploration et utilisation pacifiques de l'espace extra-atmosphérique

Robert Ambroggi

Aujourd'hui, l'homme, en contemplant sa propre planète depuis l'espace, ne peut distinguer les différents pays, ni les différents peuples. En explorant les autres planètes, il a enfin la confirmation que l'univers est né d'une seule boule de feu, quelque quinze milliards d'années auparavant, ce qui prouve notre ascendance commune et notre unité innée avec l'univers tout entier.

Après 25 ans de conquête de l'espace, le temps, est venu prendre des mesures appropriées pour une utilisation pacifique plus large et plus complète des techniques spatiales au profit de tous les pays, notamment les pays en développement, en renforçant le rôle des Nations Unies. Car, dans le domaine de la science et de la technique au service du développement, les pays en développement (70 % de la population mondiale) ne disposent chez eux que de 5 % de toute la recherche-développement. Or, les techniques spatiales contribuent puissamment à accélérer le développement national, car elles permettent de sauter l'étape des techniques dépassées et d'abandonner les modèles de développement par osmose.

Hélas, l'extension de la course aux armements à l'espace extra-atmosphérique constitue un grave sujet d'inquiétude pour la communauté internationale qui doit tout mettre en œuvre pour le maintien de la paix et de la sécurité dans l'espace.

Bilan des sciences et des techniques spatiales

Les sciences spatiales

L'astronomie a perdu ses œillères et a fait un bond en avant dans le domaine du rayonnement et des émissions, des phénomènes soleil-terre et de la connaissance des planètes et satellites naturels, dont de nombreux ont été découverts. Une des

tâches les plus urgentes des sciences spatiales est de faire comprendre les limites de stabilité de l'atmosphère terrestre sous l'effet des modifications anthropogènes. En ce qui concerne les missions spatiales scientifiques, une saine tradition de coopération s'est établie entre différents pays.

Les expériences en environnement spatial

Dans les systèmes fluides, l'importance relative de la convection de la diffusion et des tensions superficielles peut se trouver rapidement modifiée. Il en est de même dans la science des matériaux, la métallurgie et des monocristaux. La fabrication de certains produits pharmaceutiques, la biologie et la médecine spatiale ont un avenir prometteur. La question fondamentale porte sur la signification biologique de la pesanteur terrestre. On a étudié des fonctions vitales essentielles : hérédité, division cellulaire processus d'évolution embryonnaire, formation des structures. Rien ne permet de penser que la vie devrait être limitée à la Terre, mais on n'a pas encore obseré de preuve de la vie ailleurs. Celle-ci aurait pourtant des incidences profondes pour la science dans son ensemble.

Les télécommunications

Au 1er Janvier 1982, 220 satellites de télécommunications étaient opérationnels dont :

63 pour les services publics de télécommunications internationales, 128 pour les pays développés, 29 pour les pays en développement.

Comme l'orbite géostationnaire est une ressource naturelle limitée, il est indispensable que son utilisation soit dûment et équitablement règlementée.

La météorologie

L'homme reste à la merci du climat pour une grande partie de ses vivres et de ses richesses. Malgré le nombre de satellites spécialisés, la science et la prévision progresse lentement ; la fiabilité des prévisions à deux semaines, objectif initial, semble difficile à atteindre. Cependant, la mise en place de centres régionaux ou internationaux sont, pour les pays en développement, un moyen intéressant de retirer des avantages des progrès réalisés, sans investissements exorbitants. L'observation par satellite s'intéresse également au monitorage des modifications de climats, mais les données doivent être acquises sur de longues périodes.

La télédétection

C'est le prolongement du système d'observation déjà utilisé. Depuis une vingtaine d'années, on a lancé plus de 30 satellites d'observation de la Terre. Depuis 1972, la télédétection est devenue opérationnelle grâce aux quatre Landsat des Etats-Unis et aux vaisseaux spatiaux Soyouz, Salyout et Meteor de l'U.R.S.S. Vers 1990, les organismes nationaux disposeront de six systèmes de satellites de détection ou plus, dont un par l'Agence Spatiale Européenne (A.S.E.). Les prix des données augmenteront probablement afin de couvrir le coût de la mise au point et de l'exploitation des systèmes. Il est nécessaire que tout utilisateur ait accès en permanence aux données à un coût raisonnable. Les stations au sol de réception des données sont onéreuses (5$ M) et les installations de traitement et d'analyse des données plus onéreuses encore (14$ M), soit un total de 20$ M environ. Cependant, on peut faire beaucoup avec un matériel simple et peu coûteux.

Navigation et géodésie

Les systèmes de navigation utilisant des satellites sont devenus opérationnels (E.U., U.R.S.S.). De même, la géodésie a accru considérablement sa précision grâce aux observations par satellites.

Les techniques de transport spatial et les plates-formes

Les considérations d'économie deviennent essentielles. Il faudrait fournir, sur une base sûre, des moyens de lancement à tous les pays, pour des applications pacifiques ou pour la recherche. Mais, après la conquête de l'espace grâce aux lanceurs, c'est maintenant l'occupation de l'espace par des stations orbitales habitées en permanence. Les Etats-Unis auront la première île de l'espace en 1992. Ils ont invité l'Europe, le Canada et le Japon à participer à sa construction et à son utilisation. Sa réalisation se fera en deux étapes : en 1992, la première station (34 tonnes, hébergement de 6-8 astronautes pour 3 mois, coût : 9 milliards) sera placée sur une orbite circulaire à 320 km d'altitude vers l'an 2000, la station sera portée à 94 tonnes et pourra recevoir 12-18 astronautes (coût : 20 milliards). Pour la période 1992-2000, la NASA a recencé 107 missions : science et applications (48), développement de la technologie (31), exploitations commerciales (28).

Rappelons que le coût de la navette a dépassé 15 $ milliards. L'Allemagne et l'Italie se sont associés pour un projet de station orbitale habitée européenne, baptisée Columbus. Il convient d'étudier les incidences de ces nouvelles idées de grands systèmes spatiaux sur la coopération internationale.

Application des sciences et techniques spatiales

1 – Applications actuelles et potentielles

Peu de technologies sont passées aussi rapidement du stade expérimental aux applications courantes. Cependant, l'application effective des techniques spatiales reste soumise à des contraintes, notamment le rapport coût-utilité. Dans tous les cas, les incidences sociales et économiques seront considérables.

Télécommunication

Pour certains pays en développement, la communication par satellite serait une véritable aubaine, notamment dans les zones rurales. Elle pourrait se faire par un système de satellite à orbite basse dont le lancement et le satellite sont peu onéreux. Une étude sur l'application de ce système est souhaitable.

Systèmes mobiles de communications (avec des terminaux simples).

a – terrestres : à l'étude dans certains pays,

b – maritimes : application courante ; INMARSAT, institution internationale, gèrera le système international. Dans de nombreux cas, le besoin est sens unique : alerte de tempête, à la navigation, à la sécurité, prévision météorologique ; la réception peut se faire avec des appareils simples et bon marché, adaptés à tous les types de navires,

c – aéronautique : en expérimentation mais aucun système opérationnel.

Liaisons intersatellites

Le système mis au point aux Etats Unis sera utilisé notamment pour la retransmission des données de télédétection de Landsat – D vers les stations de réception.

Radiodiffusion par satellite

La réception de programmes de T.V. est une application bien établie qui offre des possibilités immenses, notamment comme instrument d'éducation et d'accélération du développement.

Télédétection

Les données de télédétection spatiale remplacent rarement les données plus détaillées obtenues lors de campagnes aéroportées. Cependant, son avenir réside dans la gestion rationnelle des ressources renouvelables et la surveillance de l'environnement. Dans de nombreux pays en développement, c'est un moyen rapide d'obtenir des informations de base sur la couverture végétale et l'occupation des sols, l'hydrologie, la topographie, les structures géologiques, etc. Des possibilités nouvelles s'ouvrent : prédiction agro-météorologique du rendement des cultures, détection avancée des zones de reproduction du criquet pélerin, surveillance de la qualité de l'eau et de l'air, identification, classement et quantification des filons hygrothermaux, prédiction fiable par bassin de l'écoulement dû à la fonte des neiges. D'après des analyses récentes, c'est l'agriculture, suivie par la planification de l'utilisation des sols, et la gestion des ressources en eau, qui pourraient profiter le plus de la télédétection. Utilisée en conjonction avec des données de terrain, elle permettra d'améliorer les prévisions de récolte, la gestion de forêts et de localiser des ressources minérales et pétrolières. Mais, l'Etat observé n'a pas toujours accès à ces données. Il importe donc de parvenir à un accord sur les principes régissant la télédétection par satellite.

Météorologie

Important domaine d'application, les observations obtenues à partir de l'espace constituent une partie importante des bulletins et des prévisions. Le système mondial actuel est, en grande partie, opérationnel ; une étroite collaboration existe entre les exploitants des satellites et les services nationaux.

Navigation et géodésie

Ce sont des applications importantes des techniques spatiales dans les domaines de : sauvetage, recherche de navires et d'aéronefs en détresse par radio-balises. Il est possible d'assurer l'accessibilité à tous les pays, sans grande difficulté.

2 – Choix et difficultés

Choix : à déterminer selon les critères suivants : besoins du pays, priorités, ressources financières, potentiel technique du pays, infrastructure appropriée.

Difficultés : ressources financières et industrielles (lanceurs et satellites sont des matériels trés onéreux), ressources humaines (exigence de personnel hautement qualifié) mais possibilité d'identifier des compétences existant déjà dans le pays,

choix judicieux du matériel approprié toujours onéreux, transfert des techniques, organisation interne, continuité et compatibilité, disponibilité des données et de l'information.

3 – Possibilités pour tous les pays de tirer parti des techniques

Les avantages pratiques se font sentir lorsque l'utilisateur emploie effectivement les données analysées pour la gestion des ressources. Par exemple, il n'y a retombée en météorologie que lorsque la prévision du temps parvient réellement à l'agriculteur. De plus, il faut que les pays obtiennent les données recueillies sur leur territoire à un coût raisonnable, que ces données soient rapidement accessibles grâce à des banques de données ayant des fonctions nationales. Nombre de pays en développement peuvent former, avec un minimum d'aide, un noyau de spécialistes aptes à prendre des décisions concernant l'application des techniques spatiales susceptibles d'intéresser le pays. Ainsi, étant donné l'importance vitale de la prévision du temps pour le bien-être économique des nations en développement, le rôle essentiel de la météorologie et de la télédétection sont patents. On pourrait envisager d'utiliser des satellites de télédétections « partagés » ou placés sous propriété internationale. ARABSAT, INTELSAT, INMARSAT et Interspoutnik sont déjà des exemples de coopération régionale ou internationale, désormais essentielles.

4 – Moyens d'accès aux techniques spatiales

Pour commencer, il suffit d'un petit noyau de spécialistes, d'un équipement simple (quelque milliers de dollars E.U.), de données fournies par un satellite météorologique ou de télédétection. L'O.N.U. et quelques agences spécialisées (FAO, OMM) pourraient aider à la formation. La Fédération Internationale d'Astronautique(FIA)et le Comité mondial de la recherche spatiale(COSPAR)devraient être utlisés pour le libre échange de découvertes et de données scientifiques.

5 – Les techniques spatiales au service de l'enseignement

Depuis plusieurs années, la radio et la T.V. sont utilisées comme moyens éducatifs. La radio a l'avantage de toucher beaucoup de monde, de ne pas coûter cher et d'être utilisable dans les zones non électrifiées ; son inconvénient majeur est d'être un moyen de communication purement auditif. La T.V., par contre, peut être un instrument puissant de diffusion de l'éducation par satellite. De petits pays pourraient trouver économiquement séduisant et avantageux de partager un satellite régional. On pourrait même envisager de lancer un satellite international.

6 — La compatibilité des systèmes à satellites

Le système mondial de satellites météorologiques est l'un des exemples les plus frappants des avantages de la compatibilité ; elle est loin d'être réalisée, bien que l'OMM et l'UIT aient fait des efforts utiles dans ce sens. La télédétection n'en est encore qu'au stade pré-opérationnel ; bien que la coordination des systèmes soit souhaitable, il est difficile de l'atteindre dans la pratique. Hélas, l'établissement d'une règle internationale doit tenir compte de ne pas entraver le progrès technique, de ne pas faire obstacle à l'indépendance technique, de correspondre aux besoins des utilisateurs, de ne pas augmenter les coûts.

7 — L'orbite des satellites géostationaires

C'est une ressource naturelle limitée, comme le spectre des fréquences radioélectriques. Elle est de plus en plus encombrée d'objets devenus inutiles qui accroissent les risques de collision ou de dégâts matériels. Tous les Etats devraient avoir accès à cette ressource naturelle. Pour éviter l'encombrement de l'orbite géostationaire, les pays devraient examiner si, pour leurs besoins, des satellites sur orbite elliptique ne conviendraient pas aussi bien ou, mieux encore, des plates-formes spatiales de grande taille sur l'orbite des satellites géostationaires ; dans ce cas, pour répondre aux besoins particuliers, il serait utile que les pays intéressés établissent le plan général d'une telle plateforme.

8 — La protection de l'environnement circum-terrestre

Il y a déjà plusieurs milliers de « débris de l'espace ». D'autre part, la pollution et les réactions provoquées par les lancements de fusées suscitent une inquiétude croissante : perturbation de l'ionosphère, déplétion de la couche d'ozone. A ce propos, il conviendrait de créer un système mondial d'observation de l'ozone, tâche à laquelle contribuent notablement les détecteurs montés sur fusées et sur satellites. Les avantages de la plupart des lancements et expériences scientifiques ne sont pas les mêmes pour tous les pays, mais les risques se partagent malheureusement à l'échelle mondiale. La question des ondes électromagnétiques dans l'espace pourrait également devenir une cause d'inquiétude. Les risques biologiques des activités spatiales pour l'humanité ont été examinés : contamination par micro-organismes d'autres planètes ou de la Terre, risque de mutation dangereuses de micro-organismes terrestres exposés à l'environnement spatial.

9 — Les incidences de l'évolution prévue des techniques de l'espace

Le prochain quart de siècle verra probablement un développement des techniques spatiales et de leur applications qui surpassera même l'avance phénoménale des 25 dernières années. Ces progrès portent la promesse de grands bienfaits pour

l'humanité, mais certains d'entre eux pourraient malheureusement présenter de graves dangers. En outre, l'organisation de beaucoup de ces applications pourrait entraîner une répartition injuste des bénéfices entre les pays, qui accentuerait les inégalités économiques mondiales.

a — Héliocentrales spatiales

Projet ambitieux et idéal à réaliser en coopération internationale ; il ne deviendra peut-être réalité que dans un avenir lointain.

b — Elaboration de matériaux dans l'espace

Il convient de se référer à l'accord régissant les activités des Etats sur la Lune et autres corps célestes.

c — Communications et télédétection

Il est nécessaire que les pays s'entendent sur les aspects juridiques de la télédétection et de la T.V. directes par satellite.

d — Recherche d'intelligences extra-terrestres

Empreinte de profondes incidences philosophiques, elle devrait être envisagée comme un effort international.

e — Colonies spatiales

De nombreuses études et plans détaillés existent déjà, mais leur réalité est encore lointaine.

f — Conclusion

Alors que les progrès des techniques spatiales sont généralement bénéfiques, bon nombre d'entre eux ont des effets secondaires préoccupants et des conséquences économiques négatives pour les pays en développement et les nations non spatiales. Il faudrait donc, sous l'égide de l'O.N.U., examiner périodiquement toutes les incidences mondiales — techniques, sociales, économiques, juridiques, environnementales — de l'évolution des techniques spatiales, en particulier pour les pays en développement.

Coopération internationale

1 – Coopération multilatérale

a – Organisation internationale des télécom. satellite : INTELSAT

106 Etats membres, 130 pays et territoires desservis,
13 satellites, 325 stations terriennes,
26 000 circuits téléphoniques à plein temps en 1981,
redevance annuelles de location de circuit :$ 9 360 en 1981,
majorité des membres et pays utilisateurs : pays en développement. La structure d'INTELSAT peut servir de modèle à d'autres entreprises.

b – Programme Intercosmos (lancé par l'U.R.S.S.)

10 pays membres en 1979, 22 satellites, 10 fusées de recheche buts : physique, météo, biologie, télécommunications, télédétection,
Neuf équipages internationaux ont effectué des vols spatiaux (Soyouz, Salyo).

c – Système internaional de télécommunications spatiales : Interspoutnik

12 membres, 2 satellites, 14 stations terriennes (création de l'U.R.S.S.).

d – Agence Spatiale Européenne : A.S.E.

11 Etats membres, 2 Etats membres associés, l'Etat non européen buts : télécommunications, météo, télédétection, transport spatial.

e – Organisation internationale de télécom maritimes : INMARSAT

37 Etats en 1982, nombreux autres postulants
22 stations terriennes côtières en 1984,
1 350 navires équipés de terminaux en juillet 1982, en forte augmentation.

f – organisation arabe de télécommunication par satellite : ARABSAT

21 Etats ; but : système régional desservant les pays arabes
2 satellites géostationnaires, 1 en réserve, Centre de commande : Ryad.
Première entreprise coopérative lancée par des pays en développement.

g – Conseil africain de télédétection : CAT 22 Etats en 1982

h – Organisation européenne de satellites de télécommunications : EUTELSAT
20 membres, buts : établir et exploiter un secteur européen.

Remarque finale

L'espace est l'environnement commun de toute l'humanité ; tout nous incite à en faire un domaine de coopération internationale.

2 – Coopération bilatérale

Elle est très répandue dans les activités spatiales et a permis d'obtenir d'excellents résultats. Par exemple, les Etats-Unis ont passé plus de 1 000 accords bilatéraux avec plus de 100 pays. Toutefois, il n'y a eu que peu de coopération bilatérale entre pays en développement.

3 – Evaluation des coopérations

Elle révèle une situation satisfaisante et de nombreuses réalisations concrètes. Mais toutes les possibilités n'ont pas été exploitées, car il faudrait intensifier la coopération internationale où les pays avancés ont une responsabilité à assumer à cet égard, notamment pour les : systèmes soumis à un régime de propriété régionale ou internationale, accessibilité des données-satellites à tous les pays, coordination et compatibilité des systèmes nationaux, régionaux ou internationaux, diffusion des données scientifiques à tous les pays, aide à la formation, développement du droit spatial international.

4 – Coopération entre pays en développement

Il est impératif que ces pays prennent des mesures pour travailler en coopération et tirer le parti maximum de leurs ressources limitées en les mettant en commun. A long terme, il est essentiel que chaque pays ait son propre groupe d'experts qualifiés.

5. Aperçu du rôle des Nations Unies

Stimuler la coopération internationale et promouvoir l'utilisation des techniques spatiales par tous les pays au moyen de ses organismes : Comité des utilisations pacifiques de l'espace extra-atmosphérique,
Division de l'espace extra-atmosphérique
Bureau des affaires juridiques

Division des ressources naturelles et de l'énergie
Commissions régionales
Programme des Nations Unies pour l'Environnement (PNUE)
Programme des Nations Unies pour le Développement (PNUD)
Union Internationale des Télécommunications (UIT)
Organisation Météorologique Mondiale (OMM)
Organisation des Nations Unies pour l'alimentation et l'agriculture (FAO)
Organisation des Nations Unies pour l'éducation, science et culture (UNESCO)
Organisation Maritime Internationale (OMI)
Organisation de l'aviation civile internationale (OACI)
Banque Mondiale (BIRD)

Nouvelles tendances des recherches en sciences sociales

Mahdi Elmandjra

Quatre facteurs principaux conditionnent l'évolution présente et des années a venir des recherches en sciences sociales :

1. L'accélération de l'histoire ;

2. la complexité croissante que celle-ci engendre ;

3. la très rapide augmentation quantitative des connaissances et le perfectionnement des techniques de traitement de ces connaissances ; et

4. une re-orientation qualitative des recherches autour de problématiques qui touchent au devenir de l'homme.

Une des consequences de ces developpements est que l'interdisciplinarité ne se traduit plus seulement en une complementarité entre les diverses sciences sociales et humaines mais s'appuie de plus en plus sur une interdépendance entre celles-ci et les sciences exactes et naturelles.

Il s'agit d'identifier les grands problèmes de la société, de les analyser en fonction de plusieurs hypothèses (ou scénarios) afin d'anticiper leurs développements et de prévoir des solutions — c'est une démarche à la fois prospective, préventive et opérationnelle.

On constate une plus grande préoccupation, en amont, pour ce qui a trait aux finalités et aux projets de sociétés, et, en aval, des méthodes de plus en plus raffinées qui facilitent l'évaluation des resultats des recherches et leur réformulation ou réajustement. Dans un tel contexte la philosophie, la spéculation intellectuelle et l'éthique vont de pair avec les méthodologies et les techniques de pointe.

Une illustration de ce binôme science-conscience nouveau style est la grande demande dans l'industrie informatique, aux Etats-Unis, pour des philosophes afin de faire face aux problèmes fondamentaux que soulèvent les nouvelles techniques telles que celles de l'intelligence artificielle. Tout d'abord la pensée philosophique devance souvent la découverte scientifique. En outre le développement de l'informatique et de l'intelligence artificielle requierent une maitrise de la logique et la formulation des algorithmes. Finalement il s'agit de plus en plus de savoir énoncer les problèmes avec une précision telle qu'elle permette leur programmation éléctronique. (voir Intern'l Harald Tribune du 5 mars 1986).

La politique scientifique a fait de grands progrès dans les pays développés ou elle englobe dorénavant les sciences sociales et humaines au même titre que les sciences exactes et naturelles. Les politiques scientifiques ont permis d'augmenter avec régularité les ressources financieres et humaines à la disposition de la recherche dans ces pays. Cela a également encouragé la mise sur pied de « grands projets » ou « programmes fédérateurs ». La recherche en sciences sociales a donc tendance à s'orienter vers des macro projets qui requierent un travail d'équipe, une coordination constante et d'importantes ressources financières.

L'accélération de l'histoire fait que la société ne parvient pas à digerer les progrès de la recherche scientifique et technologique. Il se creuse donc un fossé entre les resultats de la recherche et la capacité de la société d'en tirer un profit véritable ou d'en contrôler les effets négatifs. Un second fossé qui se creuse est celui que l'on constate entre les progrès de la recherche, du point de vue du contenu comme des méthodes, et la résistance des structures et des programmes de l'enseignement qui devraient normalement être initiateurs et les premièrs utilisateur de ce progrès.

On prend de plus en plus conscience de l'importance croissante de la culture dans la recherche et on se penche beaucoup plus sur l'étude des valeurs socioculturelles dans la compréhension du changement social. Les méthodes dans ce domaine sont encore au stade du balbutiement.

Face à l'ensemble de ces tendances que peut faire un pays du Tiers Monde tel que le Maroc ? D'abord établir une distinction entre celles qui font partie d'un developpement universel qui touche l'ensemble de la planète et celles specifiques aux pays dévelloppés et d'intérêt secondaire pour les pays en voie de developpement. Cette distinction s'applique beaucoup plus au contenu de la recherche qu'aux méthodes et techniques dont la maitrise est essentielle.

La pertinence sociale d'une recherche est capitale pour un pays en devoloppement dont les ressources sont limitées. La détermination de cette pertinence devrait être très souple pour ne pas enfreindre la liberté du chercheur ou bloquer sa créativité.

Compte-tenu de cette pertinence voici, à titre illustratif, une liste de domaines privilégiés sur lesquels pourraient se pencher les chercheurs en sciences sociales au Maroc :

1. Une meilleure définition conceptuelle de ce qu'on entend par « projet de société » avec identification des élèments qui le déterminent et une analyse de leurs inter-actions. Une démarche semblable pourrait ensuite être entreprise pour la notion de « modèle de développement » a la lumière des résultats du premier volet.

2. Un « grand projet » consacré aux ressources humaines qui irait au delà des problèmes de l'éducation pour examiner les implications pour la société marocaine de ce qu'on appelle dans les pays industrialisés le passage d'une civilisation de production à une civilisation du savoir.

3. Un programme sur les « ressources naturelles », y compris l'agriculture et l'environnement.

4. Une étude sur les conséquences pour le Maroc, du développement des technologies avancées, sur le plan politique, économique et socio-culturel.

5. Un projet de recherche sur la recherche en sciences sociales qui permettrait de faire le point sur le contenu et les méthodes des recherches en cours au Maroc et suggerer quelques orientations nouvelles.

Un tel programme de recherches requiet le recours aux nouvelles méthodes telles que l'analyse des systèmes, la modélisation, la simulation, la construction de scénarios, l'économetrie, la sociometrie, et la semiologie pour ne mentionner que quelques unes. Il demande des facilités de documentation et le developpement d'une véritable banque de données accessible à tous les chercheurs. Il nécessite la revalorisation de la recherche et l'adoption d'un statut des chercheurs. Et enfin il demande des fonds de sources public et privés.

Cela peut paraitre comme un rêve en réalité c'est une des premières nécessités nationales car l'objectif principal de la recherche est de renforcer la capacité d'un pays à résoudre d'une manière autonome ses problèmes de developpement et à utiliser rationnellement ses ressources naturelle s et humaines. La contribution à la prise de conscience de cette vérité est également une des responsabilités de tout chercheur. D'où l'importance de la diffusion et de la vulgarisation des résultats de la recherche. Et d'où le rôle clé que joue une revue telle que le Bulletin Economique et Social du Maroc qui après avoir été, durant ses premières années, un outil scientifique au service de la colonisation, et être devenu, après l'indépendance, une plateforme pour les rares chercheurs nationaux, pourrait devenir un instrument de construction nationale et de décolonisation du futur.

Les conjugaisons du verbe naître

René Frydman

Le noyau de l'homme ainsi convoité devient après le noyau de l'atome un seuil du sacré que l'être humain vient de franchir. Il est logique que ce passage déclenche à côté des espérances une légitime inquiètude liée à la transgression de l'interdit. Il est normal que cette césure fondamentale entre la procréation et la sexualité entraine une nouvelle bataille des anciens et des modernes. La réponse est à différents niveaux, mais l'on ne peut que pointer avec insistance, le nécessaire caractère démocratique de notre Société comme principale barrière à d'éventuelles dérives.

Sur le plan individuel, la demande est apparemment simple : je désire un enfant. Sur le plan collectif, quelque chose d'autre se joue et explique le retentissement médiatique de ce thème. l'homme est troublé d'avoir à suivre dans un monde où plus rien n'est assuré. Des notions aussi solides que celles de vie, de mort, de père, de mère, sont bouleversées. Les schémas constitutifs de sa propre existence sont ébranlés. Ne sous-estimons pas la crise idéologique du monde occidental. Soudain, grâce à la science médicale et à la biomédecine, le destin, le *fatum*, serait vaincu. l'inéxorable pourrait être évité puisque le hasard est apparemment de plus en plus circonscrit. Le refus des inégalités que sécrètent la nature s'accompagnent de nouvelles exigences, de nouveaux droits de l'homme. Y a-t-il un droit à enfant ?

La médecine est basée sur le respect de la personne humaine. Qu'avons-nous de commun avec le médecin qui accepte de superviser l'amputation d'une main d'un voleur jugé selon la loi coranique en Iran ? ou encore avec le psychiâtre soviétique qui accepte de traiter comme malade mental un opposant au régime politique ? Le respect de l'homme est de favoriser son plein développement, son plein épanouissement, sans pour autant souscrire à ses moindres désirs, à ses moindres caprices, et sans pour autant utiliser, aliéner, un autre être humain. Or les difficultés s'amoncellent, lorsque l'on aborde la médecine de la reproduction. J'ai accepté la médecine du désir, des désirs et pourtant ceux-ci ne peuvent être

infinis. Le pouvoir du médecin intervient dans la sphère morale, d'une part parce que la science menace le code moral de la société, d'autre part parce que la société fait de plus en plus appel au médecin, pour régulariser son fonctionnement. Or la morale, les mœurs évoluent et plusieurs courants de pensée traversent en même temps une société démocratique. Comme l'a dit Michel Foucault, la naissance de la clinique fut basée sur le : « où avez-vous mal ? » afin que les symptomes soient interprétés par le médecin, qu'il en découvre l'origine, et qu'il lui oppose si possible un traitemet adapté. L'art clinique est devenu un : « Que désirez-vous ? ». Dans sa pratique le gynécologue-accoucheur est de plus en plus confronté à une médecine que l'on pourrait qualifier de médecine du bien-être, de médecine du désir. Il devient un spécialiste en félicitologie. « Je veux (ou je ne veux pas) un enfant ! » Un début de grossesse mais pas plus !

Dans cette médecine du désir, toutes les demandes sont-elles recevables ? Dois-je accepter de transplanter un embryon surnuméraire dans l'abdomen d'un transexuel qui ne rêve que d'être enceinte ? Dois-je pratiquer un avortement partiel en cas de grossesse gémellaire, sous prétexte que cela dérange les plans de vacances de l'année prochaine ?

Dois-je accepter une demande d'avortement d'un fœtus uniquement parce que c'est une fille, alors que c'est un garçon qui était programmé par l'imaginaire ?

Certains couples voudraient choisir l'enfant : garçon, fille, enfant de prix Nobel, de footbaleur, de romancier, de politicien, grand, blond, etc... L'étape suivante c'est l'enfant héréditairement contrôlé, l'enfant du hasard n'exiterait plus pour lui-même. Le médecin-ordinateur concocterait des ingrédients correspondants aux désirs du couple. Le progrès médical ouvre la porte à l'expression de délires enfouis ; le diagnostic anténatal, le dépistage in utéro établissent entre progrès technique et désir d'enfant, un rapport vicié qui peut être préjudiciable à l'enfant-mystère, à l'enfant humain. L'eugénisme est en filigrane.

L'équilibre n'est pas évident à trouver entre la prévention excessive du risque de transmission de maladie génétique et une insuffisance de sélection. Les généticiens ont le souci d'éviter la venue au monde de personnes dans des conditions intolérables pour elles et pour les familles. Mais encore une fois la notion de maladie est subjective. On connaît des gènes qui, s'ils s'expriment, favoriseront le diabète. Le diabète est-il intolérable ? Qui décidera pour l'être futur ?

Certes la biologie moléculaire, le génie génétique possèdent la clé de l'identité de l'être à venir. Ce sont ces branches qui détiennent les armes de la connaissance dites « identitaires ». Notre combat contre la stérilité a dévoilé aux regards d'autres scientifiques, le petit œuf de l'homme. Celui-ci est désormais exposé sur la place publique, disponible en grande quantité, fragile, il est dévoilé de l'obscurité qui l'entourait il peut être soumis à la question des sondes génétiques

récemment élaborées ; il pourra bientôt être saucissoné dans son intimité à coups d'enzymes « gloutons ».

Mais va-t-on regretter les travaux de Crik et Watson sur l'ADN ? Va-t-on demander à Jacob, Monod et Lwoff et autres prix Nobel de battre leur couple ? Va-t-on regretter d'avoir récemment pû localiser les gènes responsables de deux maladies graves comme la chorée de Huntington et la muscovicidose. Doit-on arrêter une recherche par crainte de sa perversion ?

La société donne une place de plus en plus grande à la médecine comme régulatrice de son fonctionnement. Cette médicalisation de la vie, cette invasion médicale sans borne qui assiste l'homme jusqu'à dans ses comportements les plus intimes, ne menacent-elles pas de fait notre état de santé.

Ces innovations techniques représentent-elles un progrès ? Les médecins ont souvent clamé qu'il valait mieux prévenir que guérir. Plutôt que tel ou tel scoop sur les procréations artificielles, il vaudrait mieux prévenir les affections qui entraînent la nécessité de recourir à une FIVETE.

Mais la prévention même la mieux faite ne résoudra pas tout, car l'homme n'est pas raisonnable, il ne veut pas tout programmer, c'est ce qui lui donne sa fragilité, et donc son charme. Voyons le cancer, là aussi on court après la technologie, sans pour autant s'arrêter de fumer. Qui n'est pas au courant du rapport direct entre la tabagie et le cancer des poumons et pourtant !

C'est dans ce climat de dénatalité que sont survenues les naissances hors du commun, extraordinaires : le FIVETE, les premiers jumeaux FIVETE, les premiers quadruplés FIVETE, le premier bébé congelé, le bébé des sœurs jumelles, le bébé soi-disant prix Nobel, la location d'utérus de Patricia, la survie dans le ventre d'une mère décédée, l'insémination post-mortem, la greffe cardiaque de baboin sur un nouveau-né et bien d'autres encore. Largement répercutés par les médias ces trois dernières années, ces évènements ont alimenté les interrogations de notre société sur elle-même. Je ressens cette avidité collective de sensationnel comme morbide. Une croyance en une fin de civilisation plane en occident ; la société des adultes porte tous ses espoirs sur sa descendance, tout en se demandant quelle place sera réservée aux rejetons.

C'est une société européanisée blanche, qui ne regarde que son nombril, et ne s'adapte pas au déséquilibre, lequel gronde à l'échelle mondiale.

Devant le Conseil de l'Europe au printemps 85, Mr Badinter s'est déclaré pour la liberté de tout être humain, de choisir les moyens par lesquels il pourra donner la vie.

Je partage le souci de l'ancien Gardes des Sceaux de préserver l'intimité et la liberté des individus ; il s'agit d'un principe fondamental qu'il est important de respecter. Mais rendre les nouvelles techniques de procréation artificille accessibles à tous sur simple demande est une singulière flatterie d'un instinct peu recommandable ; celui de la volonté de puissance, bien que paradoxalement celui-ci se pare ici des vertus de la défense des droits de l'homme.

Liberté, voit le grand mot brandi de toute part. Il faut qu'il y ait liberté d'engendrer et ce serait nous, les méchants médecins en blouse blanche, qui empêcheraient d'engendrer en rond. On veut la médecine à tout propos, une médecine efficace, mais muette et dénuée de principes.

Faut-il créer des structures nécessaires à la conservation de sperme de tout homme qui en fait la demande ? Le contraire serait une atteinte à la liberté !

Faut-il congeler les embryons d'une femme pour le cas où elle souhaiterait être enceinte après la ménopause ? Le contraire serait une atteinte à la liberté.

Faut-il aller prélever en urgence les spermatozoïdes d'un homme qui vient de décéder pour le conserver et pouvoir inséminer ultérieurement sa compagne, si elle le désire ? Le contraire serait une atteinte à la liberté !

Faut-il accepter de prélever des ovocytes chez cette femme homosexuelle qui désire que la fécondation ait lieu in vitro avec du sperme de donneur, puis qu'on transplante l'embryon chez sa compagne pour qu'elles soient toutes les deux mères ? Le contraire serait une atteinte à la liberté ! La liberté du gros ventre a le dos large. Au nom de la liberté tous azimuts on exigera de mettre son nez sur la fabrication de tel sexe, de telle caractéristique morphologique. Seule l'interprétation personnelle décidera de ce qui est un défaut ou un défect intolérable et qui doit entraîner l'interruption de la grossesse pour non conformité au désir. L'étape suivante, je l'ai dit, c'est l'enfant héréditairement contrôlé. Produit de nos désirs, de nos fantasmes, il risque d'être investi d'un rôle bien difficile à assumer, quant à sa liberté à lui, on verra plus tard. La liberté individuelle ne doit-elle pas s'arrêter lorsque commence l'aliénation de l'autre ? La médecine reste la médecine, elle a une fonction thérapeutique, elle ne peut être réduite à un self-service des techniques médicales mises à la disposition d'une clientèle en quête d'une Samaritaine en blanc et de plus en plus exigeante sur la qualité des produits. Le mythe de l'enfant parfait, dénu de toute imperfection, doit être combattu.

La médecine reste un art et non une science, quels que soient les progrès techniques. Ne demandons pas à l'institution médicale d'assumer les visions et les parcours de l'imaginaire. La médecine du désir n'est pas la médecine du fantasme.

Un vocable nouveau est apparu : *la procréatique*. Sous cette appellation techniciste et froide se cachent deux sentiments fondamentaux de l'homme : l'espérance et l'inquiètude.

Mais pour reprendre les paroles du Pr Jean Bernard « entre les Ponce Pilate de la science et les chercheurs désespérés, se dessine une troisième voie celle de la responsabilité, c'est-à-dire de la maîtrise de la reproduction humaine tant au niveau individuel que collectif ». C'est une démarche périlleuse, audacieuse, mais qui affronte les réalités de notre temps. Notre objectif à nous, médecins-chercheurs, est d'améliorer la qualité de la vie, nous écouterons dans nos rares moments de loisir, nos contemporains disserter sur la question de savoir si c'est un progrès ou non.

N'oublions pas que certains états barbares, n'ont pas attendu l'avènement de la procréatique pour détruire la notion de personne humaine et évoquer les lendemains génétiques qui chantent.

La garantie souhaitée contre les déviations et les perversions est donc au niveau de la Politique, c'est la préservation de l'état de droit. C'est à l'intérieur de ce cadre démocratique que la recherche et la médecine de la reproduction peuvent continuer à s'exprimer, à avancer mais de toute façon à poursuivre leur mariage de raison afin que se manifeste pour le bien de tous : Le fruit de leur passion.

Génétique, éthique et droits de l'homme

Mohamed Allal Sinaceur

Le savoir apparaît de plus en plus comme un pouvoir. Même un biologiste, médecin et humaniste, qui voit en toute connaissance une libération, n'hésite pas devant cette évidence que la science engendre des pouvoirs et que ses nouveaux pouvoirs posent de graves problèmes éthiques qui touchent aux libertés individuelles. Mais pourquoi l'idée de science comme pouvoir engendre-t-elle une interrogation éthique dont le sens actuel ne peut être dissocié de la question des libertés individuelles et par suite des droits de l'homme ?

Sans doute, qui dit pouvoir dit politique. « En quoi serions nous supérieurs aux autres, disait Alexandre à Aristote, si les connaissances que tu nous a enseignées deviennent communes à tout le monde ?. Et, c'est un fait aujourd'hui que les sciences biologiques, longtemps confinées aux gestes pacifiques du médecin, du cultivateur, de l'éleveur et du viticulteur, sont devenues affaires d'Etat avec l'entrée en scène du génie génétique, comme méthodologie associée à toute démarche socio-économique, à toute réponse aux questions du temps, aux enjeux impliqués par une nouvelle technologie opérant avec la transgénose animale, peut-être même, bientôt, avec la transgénose humaine.

Or tout pouvoir appelle des limites. A moins que ce ne soit une éthique. Or, l'expression moderne de celle-ci est liée à la problématique des droits de l'homme. En effet, à la vieille idée, écrit J. Rivero, qui domine tout le XIX^{ème} siècle libéral, de la protection de la liberté par loi, tend à se substituer l'idée expérimentale de la nécessité de la protection des libertés *contre la loi.* Ou, plus généralement, contre la tendance *de la loi* à exprimer des intérêts unilatéraux, fût-ce à travers la forme, provisoirement stabilisée, d'une législation appuyée émanant d'un consensus approché – sur la base et dans les limites d'une opinion publique.

Sans aller plus loin dans ces indications introductives, on peut énumérer les droits fondamentaux avec lesquels certaines techniques, mises à disposition par le génie génétique, peuvent entrer en conflit avec les intérêts et les attitudes expri-

	1. Génie génétique -Transfert de gènes dans la cellule	2. Médecine prédictive, diagnostic prénatal (DPN)	3. Insémination artificielle av donneur (IAD)
TECHNIQUES	1) Recombinaison d'un fragment de chromosome à un vecteur et clonage dans une bactérie. 2) Expression du gène (ARNm et protéine) 3) Transfert à l'organisme pluricellulaire par exemple un oeuf fécondé. * .	Diagnostic biologique (sondes ADN et biochimie). C'est une médecine qui cherche à prédire pour prévenir. En progrès	Injection du sperme d'un donn qui n'est pas le mari au niveau canal cervical, au moment le p opportun (ovulation). Technique cienne déjà.
INDICATIONS	Actuellement : Agriculture, horticulture, bio-industries, pharmacie.	Maladies héréditaires graves, risques d'anomalies - le diagnostic prénatal réalisé pour 80 maladies métaboliques	Stérilité masculine (mari)
QUESTIONS	Distinguer deux niveaux de responsabilité : 1) Transfert de gènes dans une cellule somatique = transfert d'organes ou une prise de médicaments - pas de problème éthique ou juridique. 2) Transfert de génomes d'un homme sain dans une ovule fécondée = problème très grave, interdit car incidence sur le patrimoine génétique de la lignée. On peut établir des cartes de clones, des librâires de gènes.Par suite aussi des cartes génétiques individuelles familiales. Se pose alors le problème du secret. Le patrimoine génétique est partie intégrante de la personne humaine = il faut en garantir la protection.Faut-il créer une commission génétique et liberté comme informatique et liberté ? Cependant, législation difficile : pourra-t-on contrôler la recherche sans atteinte à sa liberté ? Doit-on exercer un contrôle strict pour éviter tout dérapage (danger d'eugénisme) ? D'où remise en cause de l'inéluctabilité de la recherche. Cependant encore, on pousse cette recherche. Car l'expérience du laboratoire sur l'oeuf humain fécondé semble le moyen le plus adéquat pour traiter le problème du diagnostic prénatal et pour mieux connaître le processus à l'oeuvre dans la conception. ______ Voir surtout l'expérience de Chine (1980). La transgénose ne peut être confondue avec le rêve de changer une spécificité en une autre, car il n'est pas possible actuellement ni de modifier tous les gènes, ni de modifier les antigènes, ni de modifier le répertoire immunologique. Nous sommes, jusqu'à nouvel ordre, tous des individus uniques.	Intention très bonne = prévention des naissances de tarés dont la charge est lourde pour la famille et la société. Donc finalité thérapeutique mais risques de dérapages : l'établissement de cartes génétiques familiales, banque de données qui peuvent être exigées lors d'une embauche ou par les assurances (voir colonne I). De plus, face à la demande du public, celui-ci peut refuser des malformations minimes chez l'enfant à naître, exiger le choix du sexe = glissade vers l'eugénisme. D'où risque de déséquilibre pour le partage entre sexes : si du point de vue de la génétique des populations la médecine n'entraîne pas de détérioration de la lignée génétique ; il y a d'autres questions : - sur le plan philosophique toutes les nuances qui séparent prédiction et prévoyance ; - sur le plan éthique : peut-on collecter des données à l'insu de l'individu ? D'où le problème d'un réseau de fichiers réservé aux généticiens. L'Etat doit-il financer des diagnostics pour lesquels il n'est pas possible d'envisager une intervention pratique, comme dans le cas de "tares" pour lesquelles il n'y a pas de traitement ? Quid du droit à l'information ? Des exigences sociales ? Conflit individu/société. De quel droit le médecin saurait-il ce qui serait caché au malade ?	Fonction thérapeutique, réponse désir d'enfant. Enfant ayant moitié du patrimoine génétique couple, celui de la femme = r ports mari-femme quant à l'app tenance de l'enfant et pas seu ment en cas de séparation. Exc sion du mari. Enfan conçu s rapport sexuel, perç ı quelque comme adultérin (point de vue s tout religieux). Origine biologique de l'enfant problème du donneur. Doit-on g der l'anonymat de ce ui-ci ? P blème juridique de l'anonymat du secret non résolu et fantasn du donneur pour son enfant inc nu. En cas de connaissance de l'ider té du donneur, droits de filiati droits successoraux. Question : l'enfant est-il social biologique = identité ? Problèr de consanguinité possible. Doit continuer à interdire l'IAD au femmes célibataires et aux coup d'homosexuelles ? Peut-on fa des enfants orphelins de père même problème en cas d'insér nation post-mortem.

4. Fécondation in vitro (FIV)	5. Mères de substitution	6. Don d'ovocytes
Mise en présence dans un tube des spermatozoïdes du mari et de l'ovule de la femme - fécondation - lères divisions puis réimplantation de l'embryon dans l'utérus "préparé" de la femme.	Injection par la même technique de l'IAD du sperme du mari d'l couple stérile à une femme très féconde - Technique non médicale, non scientifique.	Prélèvement d'ovocytes chez les donneuses par coelioscopie après laparatomie. Fécondation in vitro par le sperme du mari du couple stérile. Implantation de l'oeuf chez la femme receveuse.
Maladies des trompes, utérus fonctionnel, ovaire fonctionnel	Stérilité féminine.	Stérilité ovarienne utérus fonctionnel
Pas de problèmes majeurs car l'enfant est issu des deux parents. Peut-être se verra-t-il plus tard comme un enfant pas comme les autres ? C'est une conception sans acte sexuel. La congélation d'embryons = problème qui semble "effrayant" - Combien de temps faut-il le garder (6 mois en Australie) = gestation et naissance interférées (Pb métaphysique) = bouleversement de la notion de générations. L'appréciation de l'embryon à replacer sa duplication éventuelle, toute manipulation le concernant (DNP, etc...) inquiètent les autorités morales et religieuses. Que se passe-t-il si l'un des parents décède avant la fécondation ? Si l'épouse demande à bénéficier de son sperme ? Si des grands-parents se trouvent en présence d'un petit fils posthume ? Problèmes à la fois psychologiques , moraux et juridiques. Pb de l'expérimentation sur du matériel humain, statut de l'embryon.	C'est une IAD à l'envers. Sur le plan juridique, le contrat passé entre le couple et la femme porteuse n'est pas valable. Celle-ci peut ne pas donner l'enfant à la naissance. La grossesse et ses implications attachement à l'enfant. La mère biologique a tous les droits. Mais elle peut "louer" son ventre à des fins économiques ; mercantilisme. Sur le plan juridique, aucune disposition précise. Faudra-t-il réglementer ce commerce débutant ? Est-il opportun de légiférer actuellement ? L'obstacle majeur est le droit à la filiation et ses implications : cohésion verticale et horizontale du corps social. Problèmes moraux et juridiques. En louant son ventre, la femme porteuse s'engage à livrer le produit. Que se passe-t-il si le couple contractant refuse le produit (malformation, handicap, etc ....) ? Même question si le couple contractant se sépare avant la naissance. Problème de réciprocité de l'engagement.	Mêmes problèmes que l'IAD. L'enfant a le patrimoine génétique du père. Mais le prélèvement est un acte médical, chirurgical même = difficile. Quatre catégories de donneuses : 1) relationnelles = pas d'anonymat (soeur, amie) 2) passionnelles (altruistes) 3) occasionnelles (ovocytes prélevés lors d'un I.C). 4) additionnelles (ovocytes surnuméraires lors d'une FIV). Difficultés : trouver des donneuses d'ovocytes dans l'intérêt des patientes et sans risques - physiologiquement. La receveuse participe à la genèse de l'enfant - elle est juridiquement sa mère.

mées de l'opinion. D'où la nécessité d'un réajustement entre les pouvoirs du jour et les libertés de toujours, afin que, par le biais de critères explicitement formulés, puissent être fixées les bornes du pouvoir biologique. Je me contenterai, cependant, d'énoncer les difficultés principales. Mais pour l'universalité de mon propos, je me référerai exclusivement à la *Charte des Nations Unies* (San Francisco, 1945), et à la *Déclaration universelle des Droits de l'Homme,* adoptée et proclamée par l'Assemblée générale des Nations Unies (10 décembre 1948).

Premier Paradoxe

La Charte des Nations Unies proclame sans ambiguité sa foi « *dans la dignité et la valeur de la personne humaine* ». Le Préambule de la *Déclaration universelle* proclame la « *reconnaissance de la dignité humaine à tous les membres de la famille humaine* ». Enfin, le premier article énonce une formule qui associe « *égalité et dignité* », dans un langage proche de la philosophie du droit naturel, alors que le troisième article associe « le droit à la vie » à l'individu, « tout individu ». C'est l'idée d'être humain qui requiert l'attention à ce stade, car l'association des termes « vie » et « être » qui figurent dans les deux articles produit l'idée de vie humaine.

A toutes ces formulations correspondent des versets coraniques clairs et des hadiths sans équivoques. On ne peut donc limiter la portée des principes de la *Charte* et de la *Déclaration* à la forme de civilisation qui les a imprégnées par son style « déclaratif » et « juridique » propres. En fait, les textes énoncent moins des droits que des orientations, des principes du droit, quelque chose qui inscrit le droit dans les faits et le libère du fait. Or, èn Islam, c'est précisément du côté des intentions et des principes que les versets clairs et les hadiths bien garantis peuvent inspirer un corps complet d'énoncés correspondant à tous les droits de l'homme. Il en résulte que la portée de ces textes ne doit pas faire illusion et que leurs effets et leurs énoncés ont pour l'Islam la force qu'ils ont légitimement dans la civilisation qui les a inspirés.

Or, l'idée de transgénose est contradictoire avec celle de dignité de la vie humaine. Sans doute n'est-elle aujourd'hui qu'une possibilité. Mais c'est une possobilité techniquement réalisable. Et le droit qui ne produit ni des prédictions, (comme la science), ni ne permet une prévoyance (comme la providence) doit prévoir ce que peut être demain un conflit entre *droits,* ou dans le sens que ce mot prend ici, entre principes, et non seulement entre réglementations. « Prévenir vaut mieux que guérir » vaut pour les juristes, pour les médecins et pour les moralistes. Et de fait la transgénose, c'est-à-dire le transfert des gènes dans les ovules en cours de fécondation, ne pose scientifiquement que deux problèmes qui sont l'un de moyen et l'autre de temps. Dans un cas on voudrait s'assurer des moyens autrement dit du savoir-faire qui permet d'intégrer sans risque un gène à

un endroit d'un chromosome ; dans l'autre, on sait qu'on mettra au point des techniques de substitution de gènes dans un avenir prévisible. Ce qui est faisable pour les levures et les champignons, sera donc faisable pour des cellules végétales et animales, le sera certainement pour des cellules somatiques humaines, possiblement pour des cellules germinales. Donc la *manipulation* des lignées germinales humaines *peut* être envisagée, bien qu'elle ne le soit pas encore. Elle pourrait même être encouragée par l'appréciation subjective de comportements inusuels ou non-conventionnels qu'on serait tenté de considérer comme anormaux et qu'on voudrait rectifier génétiquement. Le vrai problème éthique est là, et là seulement.

Manipulation ? Oui, et réduction de l'homme à un instrument, à un moyen de savoir. Dangereuse perversion ? On parle de fossé entre les considérations humanitaires et les possibilités scientifiques. La biologie vient-elle, en pénétrant le noyau de la cellule, de franchir le seuil que la physique avait déjà franchi par l'intrusion dans le noyau de l'atome ? La biologie est-elle à son tour devenue à ce point indifférente à la valeur ? A-t-elle la vie pour cible, comme la science de la matière a la matière pour objet ? Mais alors dans quelle mesure l'utilisation de l'homme comme instrument reste-t-elle compatible avec l'idée de valeur absolue attribuée à la vie humaine par les religions et reconnue par la Déclaration universelle des droits de l'homme ? Car admettre que des cellules humaines cultivées puissent faire l'objet de manipulations, c'est admettre que l'identité et l'intégrité de la *vie* humaine, dans la mesure où on sait ce que l'on dit quand on parle de vie, ne sont plus, dans la transgénose, visés comme les absolus sans lesquels les mots de vie et de dignité humaine n'ont plus de sens. On ne peut dissocier l'intégrité de la personne de celle de son patrimoine génétique, par suite de son statut moral. Que serait-ce dans le cas des chimères, des produits inter-espèces ? De l'idée d'un pool génétique standard ? de celle de l'eugénisme ?

Toutefois, si cette difficulté met en évidence l'opposition entre les principes du droit et des pratiques scientifiques possibles, il en est d'autres qui surgissent d'un conflit entre les principes eux-mêmes. D'où le

Second paradoxe

L'article 18 de la *Déclaration* dit : « Tout individu a le droit à la liberté d'opinion et d'expression... et celui de *chercher,* de recevoir et de répandre, sans considération de frontières, les informations et les idées par quelque moyen d'expression que ce soit ». Il va dans le sens de textes explicites du Coran dont on peut résumer l'esprit par la remarque suivante : 250 versets traitent de prescriptions légales alors que quelque 750, le huitième du Livre saint, invitent à faire de l'entreprise scientifique une partie intégrante de la vie individuelle et communautaire. Or, au nom de l'éthique une décision prise par l'Etat de Victoria en Australie a banni des recherches indispensables pour l'intelligence du processus

de conception. Cette intelligence est impossible sans la poursuite de recherches expérimentales sur l'embryon. Bien entendu, l'interdiction de ces recherches se nourrit de la même philosophie, celle des droits de l'homme, dont se réclament tous les Etats de droit. Au nom de la dignité de la vie est interdite la mise en œuvre de l'intelligence de la vie, interdiction qui met en cause la liberté de recherche scientifique, indissociable de la recherche scientifique tout court, surtout quand celle-ci nourrit l'espoir de résoudre médicalement les problèmes actuellement solubles par assistance extérieure et intrusion.

Troisième paradoxe

On sait que les institutions sociales, comme le mariage et la famille, sont régies par un cadre juridique précis, déterminé par chaque nation d'après ses traditions. Mais universellement, il apparaît dans les principes identifiés par les articles de la *Déclaration universelle*. Celle-ci dit, explicitement, dans son article 16, que « la famille est l'élément naturel et fondamental de la société et a droit à la protection de la société et de l'Etat », en conformité avec le Coran qui dit : **« De l'homme il forma sa compagne »** (IV, 1) ; **« sa mère le porte dans son sein et endure peine sur peine »** (XXI, 14) ; **« elles sont liées à vous par un pacte solennel »** (IV, 21).

Or, l'intérêt de la famille met en œuvre une idée liée aux intérêts du futur enfant. Si l'insémination par le sperme du mari peut aller de soi comme thérapie médicale, tel n'est pas le cas si la femme est fécondée par le sperme congelé d'un mari déjà mort. Peut-on décider à l'avance qu'un enfant vive sans son père, fût-ce avec l'accord des parents ? Dans le cas d'insémination par donneur, que devient la famille où intervient un tiers ? Quid de cette idée de double paternité ? Celle du père biologique (donner) et celle du père juridique (chef de famille) ? Le mari peut-il remettre en question la paternité ? S'il y a conflit, qui doit verser la pension alimentaire ? A supposer qu'il soit juridiquement possible de définir des relations de type nouveau, pour régler des conflits éventuels, est-il possible de les garantir psychologiquement ? Ont-elles un sens éthique ? Ne vont-elles pas contre l'idée du droit à la protection de la famille ?

De plus, dans le cas de la FIV, il y a des problèmes supplémentaires, posés par le prélèvement de l'ovule, comme par sa fécondation intracorporelle ou extracorporelle. Dans la fécondation intracorporelle, on a le cas des mères de substitution qui pose le problème de la maternité génétique de la donneuse, celui de la maternité physiologique de la porteuse et, éventuellement, dans le cas où la donneuse n'est pas la mère génétique, celui de la mère juridique, la troisième femme qui adopterait l'enfant. Que se passe-t-il si la mère porteuse ne veut pas donner l'enfant au terme de la grossesse, ou si la mère génétique ou la mère juridique ne veulent pas le prendre ? L'enfant, assimilé à un produit, ne dispose pas de garanties juridiques nécessaires à sa protection. La dislocation de la maternité natu-

relle nous met en face de plusieurs concepts de maternité porteurs de problèmes sociaux difficiles à résoudre. Mais ici, la dissociation des notions signifie la dislocation des structures sociales. Par ailleurs, comment résoudre le problème des risques de consanguinité ? Et l'on ne pourrait maintenir, sans une base éthique, l'idée de famille que dans le cas où l'anonymat du donneur (sperme ou ovocyte) est maintenu, ce qui heurte de front le droit humain pour quiconque de connaître ses géniteurs. « **Dieu n'a pas donné deux cœurs à l'homme, il n'a pas accordé à vos épouses le droit de vos mères, ni à vos fils adoptifs ceux de vos enfants** » (XXVIII, 3). Le hadith va dans le sens de ce droit, et du devoir de ne s'apparenter qu'à son propre père, ce qui n'empêche pas l'Islam de règler au mieux des intérêts de l'individu les cas posés *de facto*.

Quatrième paradoxe

«Nul ne sera l'objet d'immixtions arbitraires dans sa vie privée, dans sa famille, son domicile ou sa correspondance, dit l'article 12 de la Déclaration universelle, ni d'atteintes à son honneur et à sa réputation. Toute personne a droit à la protection de la loi contre de telles immixtions ou de telles atteintes ». « **Il ne t'appartient pas de juger leurs intentions, comme il ne leur appartient pas de juger les tiennes** », dit, en renfort de cet article, le Coran, « **Je n'ai pas reçu l'ordre de fouiller le cœur des hommes ni de leur ouvrir le ventre** », dit encore un hadith.

Or l'on parle d'une carte du génome humain. Il est donc à craindre que l'intimité individuelle soit atteinte par la divulgation d'un secret individuel ou familial, la présence d'un « gène délétère » peut être considérée comme une tare. Le problème dépasse aussi l'individu, car si l'on révélait tous les porteurs de gènes délétères, combien d'hommes et de femmes prendraient-ils la lourde décision de s'abstenir de procréer ou de recourir à l'avortement d'une manière ou d'une autre. D'où la question la plus lourde de conséquences : la connaissance de la carte du génome humain ne tenterait-elle pas celui qui la détient, n'ira-t-il pas jusqu'à concevoir d'éliminer les gènes délétères ? Bref, comment disposer de ce secret ?

Cinquième paradoxe

D'après la Déclaration universelle. « toute personne a droit à l'éducation... l'accès aux études supérieures doit être en pleine égalité à tous en fonction de leur mérite. L'éducation doit viser au plein épanouissement de la personnalité humaine, et au renforcement du respect des droits de l'homme et des libertés fondamentales. Elle doit favoriser la compréhension, la tolérance et l'amitié entre toutes les nations et tous les groupes sociaux et religieux »..etc.. Ce droit à l'éducation est l'un des principes les plus populaires de l'Islam. *« Celui qui sait et qui garde son savoir pour lui aura le jour du jugement dernier une bride de*

feu sur le cou ». Ce dont les scientifiques sont persuadés, sans doute pour d'autres raisons : ils souhaitent la publication de leurs recherches de façon à les rendre accessibles au public.

Or, plus les savoirs font de progrès, plus leurs promesses deviennent sensibles et tangibles, plus se renforce la tendance à les éloigner de la recherche académique pour les confiner dans la recherche industrielle. L'accès au savoir dévient problématique au fur et à mesure que des problèmes se posent quant à la publication et à la rétention de l'information. La recherche se heurte à des enjeux commerciaux qui doivent être protégés. Quand, en 1972, les techniques de manipulation génétiques ont été démontrées, elles résultaient entièrement de la recherche académique. Par la suite, dans les années soixante-dix, la biologie moléculaire fit l'objet d'investissements privés de plus en plus déterminants. Les consultations avec des universitaires se sont multipliées, puis des contacts avec les universités. Ce n'est sans doute pas un mal en soi, mais cela se passe de manière à susciter des normes et des pratiques dominées par des exigences commerciales, a *new ethos of scientific research,* comme l'écrit *Susan Wright* dans un article publié par Osiris (Philadelphia, Pennsylvania, 1986, vol. 2). Au moment où la biotechnologie n'est limitée que par l'imagination, *l'Economist* titrait (13 juin 1981) : Biotechnology Becomes a Gold Rush. Les normes commerciales se sont substituées aux normes universitaires et académiques.

Donc, il est légitime, si la culture n'est ni seulement un ensemble de normes, ni uniquement un système d'idées, de s'interroger sur la signification de la procréatique, de la génétique et de la biologie moléculaire dans leur portée pour l'image de l'homme. L'homme est une fin, au sens où la raison est une fin ; homme on le devient, comme l'on tend au rationnel. C'est dans ce sens qu'il s'agit de valeurs ; car ni l'homme ni la raison ne sont des choses, ni des êtres. Ils sont ce que développe une culture dont la raison d'être est une relation de confiance avec la nature, et non seulement son investigation agressive. Si cet équilibre minimal est perdu, aucune législation ne pourra le restaurer. C'est donc, du point de vue de l'Islam et de la philosophie des droits de l'homme, par suite, au plan des principes, qu'apparaisent les difficultés dont on a donné quelques exemples. Ce sont : 1) pour autant que l'homme est une fin, la transgénose l'abaisse à un moyen ; 2) pour autant qu'il a fondé la société sur la famille, la procréatique le met en face de possibilités incompatibles avec l'idée de famille ; 3) pour autant qu'il a droit à toute information qui le concerne, certaines situations exigent le secret ou ne sont possibles que par lui ; 4) pour autant qu'on lui reconnaît l'inviolabilité de sa vie privée, la génétique le menace de révéler un savoir sur ses « tares » ; enfin 5) pour autant que la recherche scientifique moderne se caractérise par l'ouverture et la communication la plus libre et la plus ample, le génie génétique a permis des situations où l'être humain est devenu un produit, parfois une marchandise, et risque d'ériger le savoir génétique appliqué et le savoir-faire qui en découle à une chasse-gardée.

Ce n'est pas tout, mais c'est déjà beaucoup. Sans doute l'Islam est-il plus libéral que d'autres religions et pourrait-il autoriser une expérimentation qu'une éthique fermée au savoir ne permettrait pas. Mais l'Islam tend, dans sa réflexion originaire et sa pensée authentique, à ne pas réduire le savoir à un champ d'investissement commercial. C'est pourquoi le véritable conflit n'est pas de tradition et de savoir moderne, mais de valeurs de connaissance et de valeurs réductivement commerciales. Si, en effet, l'investissement continuait à permettre à l'universalité de survivre, d'autres voies de savoir et de savoir-faire s'ouvriraient. Ce qui est mis en question, aujourd'hui, c'est la valeur des connaissances et précisément sa valeur de communication. Ou, comme l'écrivait Robert Merton :

> The substantive findings of science are a product of social collaboration and are assigned to the community... property rights of science are whittled down to a bare minimum by the rationale of the scientific ethic. The scientist's claim to « his » intellectual « property » is limited to that of recognition and esteem...
>
> The institutional conception of science as part of the public domain is linked with the imperative for communication of findings. Secrecy is the antihesis of this norm, full and open communication its enactment ».

Au-delà des problèmes de compatibilité entre telle culture et telle technique, il n'y a pas de solution aux difficultés ci-dessus mentionnées, qui reposent toutes sur une interprétation purement marchande de la modernité, un aplatissement des valeurs spirituelles et intellectuelles en pure et simple monnaie, si ce n'est pas la modernité et le progrès munis d'une critériologie claire et distincte. Il n'y a pas d'autre solution à la contradiction entre le subjectivisme absolu qui se risque à ériger en principe le droit à l'enfant ; de donner statut de droit à une procréatique sans paternité assumée et reconnue ; d'autoriser, grâce à la connaissance disponible par une simple amnyosynthèse, de supprimer le fœtus féminin. Retour aux attitudes archaïques ? Sans doute, et surtout si l'on oublie l'enseignement, non seulement des religions, mais de l'anthropologie : que la filiation n'est jamais un simple dérivé de l'engendrement. C'est le dérivé d'un système de valeurs, d'une culture. Et tout système de valeurs est capable de produire des connaissances susceptibles de substituer des pratiques moins agressives et plus préventives, plus médicales, préférables, du point de vue de la société humaine, aux techniques intrusives et destructives, indifférentes à tout souci de culture. Or, si ce souci peut être élucidé, il permet de résoudre les problèmes cas par cas. On sait en tout cas qu'il signifie négativement : en exigeant une critériologie, il nous rappelle qu'il n'y a pas de société sans interdit, sans distinction entre le licite et l'illicite. Mais positivement, il nous rappelle qu'on ne peut tirer sur la graine pour la faire sortir du sol. Tout ce que l'on peut faire, disait un sage, est de lui fournir chaleur, humidité et lumière afin qu'elle croîsse. Tout ce qu'on doit faire est de ne pas oublier que la liberté n'est ni l'arbitraire ni la gratuité.

Leadership

Constantin Tsatsos†

A. The Problem of Leadership

No matter how differently each of us may, in times of political disappointment, go about the search for the root cause of our troubles, we all eventually arrive at much the same conclusion : that we suffer from a lack of leadership. Our own poverty, and the aggression of neighbouring nations, are evils from without : we are not directly responsible for them. But the evil within ourselves – the greatest evil of all – is this lack of leadership. Nations possessing leaders have faced external evils more effectively, and their country has released creative forces which no-one today is capable of stimulating.

This repeated complaint of our want of leadership made me wonder what those who yearn after leadership really mean by the word itself. I have discovered that they do not know precisely what it is they are after, for they have never given sufficient consideration to what goes into the making of a real leader. That a true leader is a Mr. A or a Mr. Z is an answer that fails to satisfy the enquiring mind. For that in itself is the problem : what were the qualities that made Mr. A or Mr. Z true leaders ? I shall try to put forward my own conception of leadership : it will perhaps later on assist others, more qualified than I, to give a more complete notion of the ideal leader. At least it will be a study which can help us, even a little, to surmount the obstacles that so deeply concern us all. Plato's famous words in his « Republic » often spring to mind : « So long as philosphers do not become kings and masters of the state and kings and masters fail to acquire a sufficient and sincere culture, so long as both political power and philosophy fail to combine in the one person, there can never be an end to the misery of our coun-

† While this article was at the printer, we learnt, with great sorrow, of the passing away of the author which occured on October 2,1987.

try and, in my opinion, of the entire human race ». We are all ready to quote this well-known passage but few of us inwardly approve of it. And this is natural, because most people ignore what Plato means when he speaks of philosophers or of « royal men », as he calls them elsewhere.

First of all it would be monstrous to imagine that he means the scholastics of philosophy : that, as a teacher of philosophy, he wanted the teachers of philosophy to govern the state. Plato, the most politically-minded man the world has ever seen, never thought of entrusting the wheel of state to the hands of narrow-minded theorists out of touch with historical realities. Plato's thought rises far above the primitive political understanding of many of our contemporaries, who are dazzled by the science of those who claim leadership of the state. Science, of course, is necessary to the government of a state. A certain measure of knowledge is indispensable to every politician ; and if he can be a fully developed scientist, so much the better. He must not, though, be either submerged by his own knowledge or enslaved by the exclusiveness of theory, especially by the exclusiveness of a particular science. His knowledge should be merely a part of his personality as a whole. But this part alone will never make him a leader. The true leader, with certain, sometimes with very few, scientific qualities, is able to make good use of the knowledge of others. And that is his principal duty. It is not necessary, it is not even advisable, that the leader should be a specialist, because then he would in all probability be prejudiced. A leader, like anyone else, must be in possession of no more science than that which might make him single-minded and stiff.

With all these thoughts, I maintain that technocracy, coming into fashion lately, is absolutely anti-politic. Technicians are invaluable and necessary supplementary elements but they can never be leaders. It is another matter if, besides their technical performance, they additionally possess the sacred gift of leadership ; their technical ability, in itself, does not provide them with any title for the conquest of leadership ; on the contrary it detracts them from it.

All that has been said about technicians, applies accordingly to jurists and economists. It is certainly difficult for a contemporary leader to succeed without having, not necessarily judicial and economic knowledge, a certain ability of judicial and economic thinking. On the contrary, he can perfectly succeed without any technical knowledge. Even the ability of judicial and economic thinking is just a necessary supplementary element, but not essential for the personality of the leader. What the leader should do is to make good use of the judicial and economic knowledge of others ; that is why he needs a certain ability of judicial and economic thinking. The less absorbed in his science a jurist and economist is, the less he runs the risk of becoming single-minded and, therefore, it is easier for him to approach the ideal type of leader. I should repeat at this point that I don't exclude the integral scientific knowledge of the leader. The ideal

« royal man » is a perfect omniscient. But this point is ideational. In reality, scientific integration, absorbing all margins of the life of the realistic man, makes him single-minded, a theorist, separates him from everyday life and makes him approach the ideal of the purely theoretical man, of the type of the great but single-minded Erasmus and Spinoza ; it cuts him off from universality, from the direct and unbroken contact with the present.

The philosopher is more universal, less single-minded, than the specialist. But even he, burdened by the weight of the material which he has to master nowadays, is usually a narrow-minded theoretical man, who likes to keep every-day life at a distance. The philosopher or professor of philosophy is not the man to whom Plato alludes. More than anything else Plato's theoretical culture prepares man for politics. It consolidates in him the final objectives towards which man and society must be directed. It extends the knowledge of human nature and promotes self-discipline and constant self-control, which are essential concomitants of right behaviour. Such philosophical knowledge is of value up to the point beyond which it may mislead man entirely into the realm of theory and make of him a mere theoretician and therefore, once again, a single-minded man. The intensity of a theoretical life leads him into hesitation and then into scepticism, into a passive existence and unrelieved dogmatism, into an inflexibility that cannot be reconciled with a constant striving for that adaptation to reality, which is the very business of politics. The « royal man » cannot therefore be a philosopher, in the modern sense of the word, although by his nature the philosopher is less single-minded than the technician, the lawyer and the economist.

The poet is safer from the danger of single-mindedness and, from this point of view, closer to the ideal of the « royal man ». On the other hand, guided by his own overriding sensitivity, the poet is precluded from ever drawing near to this ideal. A leader must not, to any degree, be deprived of a life of the senses. This feature both inspires him and fills his fellowmen with enthusiasm. Technicians and specialists are defective as leaders, not only because they are single-minded, but also because an excess of mathematical, of formal, logical, thought deprives them of exactly this important emotional element. But if this is essential, it must not be allowed to become the all-important element. The leader, transcending mathematical thought and emotion, possesses reason, the highest form of logic, and spirit, the power which provides both balance and composition and which controls formal logic and emotion. The poet, too, may enjoy this gift to a greater degree than any other specialised mind. But usually aesthetic passion strengthens the emotional element, and gives it complete dominance, while utterly weakening the process of logical thought. Some geniuses who have approached the type of the ideal man, such as Plato, Dante and Goethe, do not refute this principle.

The heads of religious movements approximate even more closely to the ideal, leader for they are compelled by the nature of their task to reconcile a very rich

emotional world with the discipline of logic. Though they do not differ from the political leader in the means which they use, they differ in their ends. The politician has material objectives ; the religious leader has objectives which are beyond time and reality. Such are Lao-tse and Buddha. But religious leaders who also pursue political ends, such as Mohamed and Confucius, may be diverted from their true objectives. Material ends often become attached to a religion after its foundation ; and the founder seldom intends them. The unique example could be Mohamed.

The conclusion, then, which we may draw so far is negative. The ideal leader – Plato's « royal man » – must not be in any way prejudiced. He must not have the prejudices either of a scientist, or of any theorist in general, or of an artist, or of a poet, or of any religious leader. He must no be governed solely by intellect, nor be dominated by emotions of any kind. And yet, at the same time, the leader must not lack any of these things : the « royal man » is the most composite of all human beings. He must possess all forms of thought and of emotion, but in such balance that they exist in harmony and are governed by the highest principles of reason. The leader must be both co-ordinator and arbitrator of all the powers and virtues of man, so that he may freely rule first himself and then the state.

B. The mind of a leader

All human activities are to be found within the state : those which concern the increase of material goods, those which tend to the multiplying of spiritual goods, and those which make for the protection of all such goods from every external attack or excess committed within the state itself. The leader of the state – whether he is one or many – must promote and co-ordinate all these activities. He must fuse them into a single activity, so that once united, they may achieve their highest creative potential. In order to perform this co-ordinative function the leader must neither be single-minded nor attach too much importance to one form of human activity at the expense of another. He must not, for instance, because of any personal predilection for the arts, give them a disproportionate importance in his state. If he is a technician he must not, because of this special faculty of his, believe that the principal problems of the state should be resolved by technical means. Nor, if he is a lawyer, must he (as so often happens in many countries, in which lawyers preponderate) reduce all political problems to a legal form by which he is stifled. Nor, finally, if he is a soldier, must he try to solve political problems in the same way as problems of discipline and supply in the army. If the leader must not be prejudiced as a scientist or an artist or a philosopher, it is even more essential that he be not solely a merchant or industrialist, peasant or worker, soldier or anything else that will compel him to hold a limited conception of life. The leader must remain free from, and rise above, all these possible limitations of specialised artisans and scientists, and of

all those generally who are specialists in their own professions. For only then can he best relate every man and every activity to the whole ; and only then can he fairly assign each man's individual contribution to the whole flow of social life.

For this is the essence of justice : the state must assign to each man what belongs to him and give him the place which best suits him within the whole, always bearing in mind the principle of what is to the greatest good of the community. The industrialist may believe that through the improvement of industry, and the teacher that through the diffusion of culture, the state will be saved ; everyone may believe that what is most important for him is also most important for the state. But the leader, who has complete control, will believe that all these factors are only partly right and that they are all necessary, in varying degrees, to the improvement of the state. It is his task to determine these degrees by allotting to each man his own sphere of activity and his position relative to the whole. The leader fulfills essentially a judge's part ; he discriminates among all these factors, each of which tries to claim the most important place for itself, and he directs them to where they best serve the general good. He judges ; and his virtue is precisely that universality which strengthens his will to combine and co-ordinate. His first virtue is, therefore, *justice.*

Now, justice implies a judgment and every judgment a criterion. The leader's criterion must be the end towards which the state has to be directed. A just and right distribution is the one which best serves the end which the state aims finally to achieve. This end cannot be narrowly limited to the furthering either of science, which the scientist rightly pursues, or of any economic activity, as desired by economists, or of anything which is merely a part of the whole. The real end is the *combination of all these lesser ends,* namely that combination which achieves the greatest return and the greatest creative cultural strength of the community. This is the essential end which the leader pursues, and according to it he must shape the material at hand, the men themselves, and their activities.

I speak in platonic terms. Only one Greek, perhaps the greatest that ever lived because he is the most universal spirit of all mankind, was able to conceive this virtue of universality, this virtue of combining all virtues into a single force and being the first to conceive it in all its simplicity, the first to call it justice, and to establish it as the primary virtue, not only of the spirit, but also of the society of men. He alone discovered that the essence of justice is harmony, the harmony of all elements at variance in both the soul and the state. Only this man, brought up in the shadow of the Parthenon, was able to understand that the visible harmony of that great shrine has its invisible counterpart in both spiritual and political life, and that this visible harmony, in its most elemental form, is nothing but the right distribution of matter or the balance of all parts within the artistic whole, whether in a temple of Iktinos or in a drama of Sophocles.

To fulfill his mission the leader must possess the great gift of wisdom. He must be familiar with the goal he is striving for : the greatest possible creative potential of the community. But this in itself is not enough. This is the final and eternal quest in the life of man ; his ceaseless uphill struggle towards a higher plane of life, the extention of his command over matter through scientific discovery, creative art, and any other medium he is capable of inventing. A leader basing his actions on contemporary conditions must know how to approach this objective. It is even more essential that he know what part his state must play at every historical juncture, so as to keep this higher and ultimate objective always in view.

Every act is the present, is the moment we live ; and this is what the leader determines. He must incorporate all his aims in each separate act. Circumstances will dictate the steps he takes towards his objective : He is necessarily an opportunist, and he is a good opportunist so long as a sound objective governs his opportunism, and a bad one if other aims divert him from the real purpose of his state, in the time and place in which he lives.

The man who is aware only of the eternal objectives of the state, or even of every state in a certain period, may be a great man of spirit, a philosopher, but he is not a political leader. Only the man who has the gift of *concrete political thought,* who does not stop at the generalities of ultimate aims but progresses and concerns himself with the more detailed objectives of each state, of each moment and each act of the state : he and only he is a leader. Generalities belong to the sphere of theory and are antipolitical. The absoliterly concrete objective and the absolutely concrete act, constantly adapted to the ebb and flow of circumstances, constitute political thought and the task of a leader. Although he may possess an overall control of events and be moved by an end which lies beyond all other human ends, the leader must be endowed with the rarest talent for investing *the most general end in the most particular act,* thus descending from the immutable generalities of ultimate objectives to the « moment », the immediate present of real life and of political action. In the same way the political leader, guided by the beacon of his final goal, steers through the current of realities. It is a poor sailor who knows the stars, yet ignores the shoals and prevailing winds. Likewise it is a poor leader who knows all the precepts of political theory and can look ahead towards the eternal goals, yet is incapable of incorporating or translating them into reality.

It is a poor leader who cannot translate the timeless into time and action. It is a poor sailor who knows all the ocean reefs and all the winds that blow, yet cannot distinguish the pole-star ; he will drift aimlessly until lost. When mere experience and circumstance determine his course, there can be no end, but only chance occurrences. It is a poor leader and a poor opportunist guiding the state who is himself guided by circumstances. He is no leader but a trifler. Fate and the unforeseen current of affairs are his guide. It is a good leader, a good oppor-

tunist and a good prophet, who combines in himself both sky and sea, the abstract and the concrete, the highest purpose and the most concrete achievement; keeping fast hold upon his absolute principles, he can still descend rung by rung from the highest ideals to temporal man, to the unique moment, to the single inimitable action of the state. Such is the nature of a great co-ordinator who is fitted to be leader of a nation.

C. The soul of the leader

When a certain politician of our century was accused of being a dreamer because he entertained the idea of doubling the geographical extent of his country, he answered his critics that imagination is the primary virtue of a politician. Of course, imagination in this case implies the idea of a supreme goal, followed by the necessity to combine this goal with reality, that is, to determine the way in which, step by step, one may approach the goal. This goal is a vision, an ideal. The means to it are the reality: they consist in situations and facts. The politician must be at one and the same time an idealist and a realist, and his skill lies in the way he reconciles these two opposites. The more complete, the more harmonious this reconciliation, the greater is his worth.

Action means decision and decision means choice. Every moment contains a choice and an action. All other ends at this one moment, are put aside and sacrificed. The decision is : just now I shall do so-and-so ; i.e. : I shall sacrifice everything else. More often than not, men hesitate when confronted by the responsibility of choice and by the anguish of the sacrifice that choice entails. They may hope that events will decide for them and that they may thus be relieved of the burden of their own free will. Poor leaders whose indecision and hesitation allow affairs to deteriorate are typical of such men. Sometimes they are proud of their skill at shifting, even deceitfully, the responsibility of action on to mere chance.

Choice necessitates the power of judgment. It necessitates an examination of all possibilities and the discovery of that one which best suits the final aim. But it necessitates yet another quality which lies beyond the realm of thought and which alone finally decides for the individual if fate has destined him to be a leader. He needs to possess that life-giving force, that creative will, which changes the shape of things. The right judgment of the mind must be backed by moral fortitude. This alone transforms judgment and considered choice into sacrifice of all possibilities but one ; that is to say, into action.

How many are there who have a right understanding, but who flounder helplessly in the waters of right judgment ? How few are they who go beyond the moment of decision and of sacrifice to become creators and leaders ? Fewer still

are they who possess the free creative will, a stable and constant motivating force ; a force stimulated solely by pure thought, wakened to action by the unique, impersonal passion of ideas.

The soul of a leader is tempered to withstand the stress of death or time. Its strength is not static, but dynamic. Though inflexible in purpose, it is flexible in its choice of means. Vain persistance in scaling an unscalable wall shows, not will power, but inertia of will. True will discovers other ways of attaining its end. It begins the process of judgment, decision, and finally execution, all over again ; it modifies and perfects it. Nothing is more at variance with true will than obstinacy. Obstinacy betrays lack of judgment, slowness, inertia ; will-power derives from emotion and mobility. It is the nerve of life.

When the leader has judged with the power of his mind, he translates his judgment into action with the courage of his soul. But he does not act alone. He gives orders and others carry them out. As he has to choose the right action, so he must choose the right executors. The selection of the appropriate person for each occasion cannot be made on the basis of any theory, but the person chosen must himself possess some particular theoretical quality. We would expect the man of action who executes a leader's orders, to possess above all the virtues which befit an active life : a manly disposition and character. In order to discern these qualities no academic knowledge is needed, but experience of life and a special awareness which makes use of almost intangible indications. Some manifestations, taken alone, appear insignificant but, related to each other, they reveal a complete human nature. Those who lack a personal moral sense will not easily react to the immorality of others, for moral sensibility is the essence of such discrimination.

This moral sensibility can be enriched by culture and experience and sometimes by aesthetic awareness. To a practised observer, immorality, concealed vulgarity, cowardice and wickedness appear unattractive. A lack of morality often coexists with a lack of beauty in thought, expression and action. But this is not always true. We cannot generalize. It is trite to say that each human case is unique, but it is true.

The leader is worthless if he is not gifted with the ability to discriminate among his colleagues. Leadership in a modern state is not the business of a single man : it is the business of one and all, and the foremost among them is the leader. This leader has to select the leaders under him. These in turn, who must also possess the virtues of leadership, have to choose others beneath them. In this way we eventually reach the bottom of this pyramidal process, that is, the level of simple executives who possess only limited initiatives.

The leader must be able to choose as assistants other leaders who may, in course of time, become his successors ; and he must have enough confidence in himself

not to be afraid of choosing the best, the most highly qualified. It is they who, even by mere chance, may supplant him in the foremost position.

The foremost leader delegates power and function to his subordinates. A poor leader concentrates too much power and work in himself. He does it out of inability to find a following, or out of mistrust, or sometimes even out of the temptation to keep for himself the power of granting favours. Thus essentials are sacrificed to details and we are then faced by the phenomenon of a harassed leader constantly pursued by affairs and dissatisfied people, always submerged in the excessive work he has undertaken, with the result that he has no time for matters of state. A good leader must hand over all executive work to others and concentrate his own efforts on more essential affairs and on the surveillance of his staff. The work of a leader who could take all duties upon himself would be superhuman. If a leader cannot find in himself the strength to resist this temptation, he ceases to be a leader. Neither his surroundings, nor his electors, neither circumstance nor chance can dictate what should be his concern at any given moment. The decision lies with him. First of all he must be able to govern himself. If he can issue orders to others, but not to himself, then clearly he is no leader.

The leader must choose his subordinates for their abilities, and suitabilities, alone. When appointments are not made according to this principle, but for reasons of personal favour, then the leader aids and obeys his inferiors and submits to them : to this degree he lets leadership slip from his hands.

But let us suppose him to have moral courage. He has then to determine the essentials with which alone he must be concerned. To separate essential from non-essential demands no small capacity for abstract thought, especially where intricate political problems are involved. Details must be disregarded which may seem attractive, interesting or even inspiring. Then also the leader requires courage to control, not others, but himself; and to concentrate his efforts on whatever his intellect indicates as essential. Pain, sacrifice, and self discipline are also in this instance the price of leadership. Pain, sacrifice, and courage together fashion the soul of a leader.

D. The leader and the people

It is not sufficient to put heart and soul into being a good leader. One must also be able to attain leadership. The man who does not become a leader through hereditary right must possess this additional talent. There are those, who if they could attain leadership, would properly exercise their power ; but they are deprived of the qualities necessary to become leaders. There are others – and they are the most numerous – who are able to attain leadership but they lack the essential attributes of a leader. Some, having become leaders, overestimate them-

selves, forgetting that the real objective is not to attain power, but to exercise it effectively. Others know how to organize a political party, but they do so as if it were a business enterprise. There are also those who organize their parties into cells in imitation of the Communist system, forgetting that the motivating force of Communism is the exploitation of misery and mass emotion. All these are self-styled realists. But there are the idealists also. They are content to whip up excitement with rhetoric and catch phrases. They too know how to excite violent, if brief passions as do the Communist leaders, but without their concern for deeply rooted personal interests. The first group consider themselves leaders though they are only good staff-officers of the Third Bureau. The second group also think they are leaders, but are really only party tub-thumpers. Neither is a group of true leaders, but they could be of great help to a leader, if they possessed the sacred gift of « knowing themselves » and they were neither over-ambitious nor over-hasty.

Leadership is achieved either by force or by conviction or by a mixture of both. The way of force leads usually to the intervention of the armed, and we shall not examine this method here. But we shall examine the method of conviction.

There are two ways of convincing : through reason, and through emotions. The approach through reason instructs and elevates. When you awake his world of feelings, on the other hand, you can push a man towards good or evil. You can inflame personal passions, hatred, envy, rapacity ; or you can awaken noble feelings of self-sacrifice, of national and social solidarity ; what we shall call the passion of ideas.

Persuasion through reason, the surer and the less dangerous of these two methods, is also the more limited in effect ; and again, that persuasion which awakens the passion of ideas is more limited in effect than that which arouses less worthy passions. It is much easier to persuade the masses that you need only to assassinate a few men in order to win the earthly paradise, than to persuade them that this earthly life is never a paradise and that its very few joys can be won only by toil and pain whatever the social system. A bad cause is much easier to promote than a good one.

The less developed the citizens are, the greater becomes the power of evil. A good leader addresses himself to reason and to the enthusiasm of the citizen for true ideals. A bad one appeals to mere passion, even though he may cover his words with a veil of wisdom and logic. For this reason the bad leader's task is the easier of the two.

Here is a lamentable paradox. Should it not be the gift of a good leader to attain leadership more easily than a bad one ? And how can he overcome this difficulty ? He cannot of course betray his mission, which is to rouse his people to

higher levels by educating and instructing them. Therefore he cannot abandon the method of persuasion through reason and enthusiasm for ideas, whatever its disadvantages. He must fight with deficient weapons, but he will not lose the hope of victory. Virtue will always find some way of escape from Scylla and Charybdis. Hours of great exaltation occur where the interests and the sympathies of the majority coincide with the highest ideas of the state. Rarely a leader is found who, at the height of his achievement, can by the right methods evoke a force greater than the impulse of any other passion. Only by achieving this can a leader approach to the complete fulfilment of his mission, which is not only to wield the fullest power, but to wield it to the fullest good.

But although this is sometimes achieved, let us not deny the bitter truth, that normally wrong methods must win, because by their nature they are the stronger. And even when, at the most propitious moment, the good leader succeeds in winning with his deficient weapons, it is a temporary victory only.

What then is the leader's duty ? To compromise ? In order to come closer to the masses, must he become an inflamer of passions and a messenger of lies ? In this world of relativity there must be some deviations from absolute principles. For the sake of contact with the masses whom he seeks to control, he must descend, at least a very little, from his natural level.

Even so, the problem is not solved. The good leader, as a superior man, will find it difficult to maintain such contact. He is honourably but dangerously distinguished. He carries the seal of aristocracy. His modesty and his reserve, which are the marks of his greatness, handicap him in the face of his adversaries who have neither reserve, nor modesty. His unlikeness is unsympathetic. His superiority tires. The Athenian who voted for the exile of Aristides, because he was annoyed to hear him always called a just man, is an example of the eternal man in the street.

And even when the leader decides to condescend, and make a determined effort to flatter the multitude, his flattery can never have the unctuous manner which wins over the mass.

Nearly every time that a good leader has been loved by his people, he has been loved for his faults rather than for his virtues. The lessons of history are not always palatable. But they are denied only by those exceptions which slowly, almost imperceptibly, lead men on to higher levels of moral living. The more often these exceptional cases occur in the life of a good leader, either with the help of his power or with the help of he people, or even of chance, the greater his importance in history. And the better he can combine the solitude of his position with the manner which gives him the favour of the people, the greater he will be.

The fusion within his whole personality of the aristocratic with the democratic man, the even momentary fusin of these two conflicting natures : this constitutes the leader's greatness. It is also the greatness of every outstanding educator ; and the good leader is first of all an educator of his nation. Only the great teachers such as Moses, Confucius, Lycurgus, Solon, can stand above the all-powerful torrent which carries along with it the passing glories of history.

He is a bad leader who believes that he leads only by the people's mandate. He is also a bad leader who believes that he can lead without it. He is a bad leader who believes he owes his position merely to his ability to seize power, or who believes that without this ability he can lead by right of his mental power alone. He is a bad leader of democracy who hopes to lead only by virtue of oratory ; or who hopes to lead entirely without it. He is a bad leader who bases his hopes for victory on the exploitation of his youth, for leadership is generally acquired by long experience and in old age ; or bases his hopes on the repute of his years ; or who believes that party organization can replace his lack of personality, or that with the play of personality he can replace the lack of organization ; or who, lacking charm, devotes all his energies to intrigues behind the scenes ; or whose only delight is in holding the centre of the stage until suddenly the lights are switched off.

He is a bad leader who founds his victory on his adversaries' failures, and not on his own triumphs. Perhaps the worst leader of all is one who, driven by arrogant self-confidence, overlooks in his reckonings the most powerful elements of history, chance and death.

A Correct Guideline for Nuclear Power Development : Enthusiasm Plus Intense Safety-consciousness

Huan Xiang

A year has passed since the Soviet Chernobyl incident, the most serious one in the history of nuclear electricity over the past three decades, yet its shock waves are still disturbing the future of nuclear power production. The government and public opinion in many countries and some international organizations are now pondering over and debating the desirability of continuing the nuclear program. As a matter of fact, such controversy has run through the annals of nuclear power generation for the past three decades. The fundamental question in the current controversy is still of nuclear power safety.

My personal view is that, serious analysis and summing up of experiences including the Three Mile Island and Chernobyl, will awaken people to the correctness of the guideline : to enthusiastically develop nuclear power while paying close attention to safety at the same time. Guided by this policy, nuclear electricity is sure to persist in the world.

Nuclear Power Answers the Needs of Socio-Economic Development

Energy is one of the most important material element for human survival and progress. The development of mankind is, in a sense, a process of expansion of energy use. Modern civilization is based,so to speak, on large-scale mineral fuel (coal and petroleum) utilization. The ancient history apart, statistics of the past half century show that the global gross output value of commodities and services quadrupled from US$ 2900 billion in 1950 to US$ 13,100 billion in 1986. World mineral fuel consumption during the corresponding period also registered a

quadruple rise from three billion tons of coal equivalent to twelve billion.(1) Statistical figures reveal that increase in global mineral fuel consumption thus far has synchronized the pace of world socio-economic development.

But common sense tells us that world fuel reserves are, after all, not unlimited. Despite arguments over the deposit amount of coal and petroleum and variations in estimates by the related institutes, and taking into account the fact that along with advances in exploration technology, new figures and higher estimates may repeatedly replace the old ones, nevertheless, coal and petroleum are by no means inexhaustible. An optimistic estimate puts the exhaustion time of coal at two or three centuries hereafter and that of petroleum at one century.

Admittedly, the depletion of coal and petroleum deposits is yet far away. Rather the following problems are more immediate and pressing: The distribution of coal and petroleum reserves is exceedingly uneven. They are mainly concentrated in a few countries, for example, 65 percent of world oil reserves is believed to be amassed in the Gulf region. The same is true with a given country, deposits are usually found only in part of it. Besides, developed economies badly in need of energy are always in want of coal and oil.

Furthermore, exploitation conditions of coal and oil are also deteriorating due to constraints of this deposit concentration. Transportation distances are consequently getting longer and longer with each passing day, thus doubling and redoubling the cost of energy.

Finally, the intensive processing of both coal and petroleum in the form of coal-chemical and petro-chemical products has reached such a stage that the resultant value of coal and petroleum as important industrial materials is ten times and even a hundred times higher than that of fuel.

Taking into consideration the above-mentioned three factors, the developed industrial nations have been experimenting on energy-saving devices and exploring new sources since the 1960's, especially since the oil crisis in Western Europe in the 1970's. Much progress has been made in both fields after two decades of hard work.

Though the development of new sources of energy, such as solar energy, wind power, tidal power and bioenergy, has reached the stage of practical use on a small scale, the use of nuclear energy i.e., nuclear electricity, alone has been

(1) The figures of world GNP in 1950 are from Herbert Block's The Global Production : A Creative Stoppage ? (The State Department of U.S.A., Washington, 1981). The corresponding figures of 1986 are from the International Monetary Fund (IMF). The consumption of mineral fuels is from the World Observatory Institute Based on the estimates of the American Petroleum Institute and the U.S. Energy Department.

commercialized, and has played an important role in world energy supply. The figures released by the International Atomic Energy Agency indicate that there were 397 nuclear reactors in operation in the entire world by the end of 1986, providing around 15 percent of world electricity output, and meeting 4 percent of world energy demand. These reactors are distributed in 26 countries and territories. In 11 countries and territories, nuclear power accounts for 25 percent of their respective electricity output, and in three among the eleven, the corresponding figure has surpassed 50 percent. (2) This is an eloquent testimony to the fact that nuclear power production is one of the most significant human achievements since the 1960's.

In stark contrast to other new energy sources, nuclear power generation has made great strides indeed. The reasons are as follow :

1 As part of world scientific revolution, nuclear science has advanced rapidly since the 1940's, and has thus done a solid theoretical and technological spadework for the later blossoming of nuclear power generation.

2 Nuclear power boasts of its unique advantages of practicality over other new sources of energy. The substitution of a reactor for the conventional fuel (coal) boiler keeps all the installation and equipment of the revamped power plant intact while generating much more electricity.

3 There is an abundant supply of nuclear fuel on earth. The natural uranium prospected in the world is equivalent to 5,550 to 7,680 billion tons of coal. Along with the adoption of fast breeder reactor (FBR), additional nuclear fuel will be produced in the process of electricity generation, thus making nuclear fuel a renewable energy.

It can thus be crystalized from the above analysis that nuclear electricity is the call of economic development of human society. It has become a widely-used energy with ever-mounting scale and scope. Nuclear power generation has actually continued to flourish in the face of the Three Mile Island and Chernobyl incidents. The secret lies in the urgent energy demand stimulated by socio-economic development and the unpromising prospect of conventional energy supply. It is estimated that by the year 2000 nuclear power will make up 25 percent of world electricity output, and global daily consumption of nuclear power is expected to reach the equivalent of 9.1 million barrels of oil, or approximately 7 percent of world energy consumption(3). In other words, no nuclear power production, no continued world socio-economic development.

(2) Statistics of world nuclear power production in 1986 released by the International Atomic Energy Agency.

(3) Guangming Daily, (China), May 12, 1987.

Close Attention Must Be Paid To Safety In Nuclear Power Development

Nuclear power plants generate electricity by using nuclear fuel and produce in the process high strength radioactive material. So it brings danger as well as welfare to mankind just as many other scientific and technological achievement. Fortunately, the danger involved in nuclear power generation was fully recognized at the initial stage whereas that of other scientific achievements were only noted after their wide application. Here social psychological factors did play their part well.

Over the past forty years since world war II, living under the dark clouds of nuclear arms race, people turn pale understandably at the mere mention of the word « nuclear » by confusing inadvertently nuclear power with nuclear bombs which are poles apart in application principles. As a result, many people felt acute insecurity in nuclear power generation from the very beginning, and the controversy over its safety has never abated over the past thirty years. The Three Mile Island and Chernobyl incidents served to turn this debate into a constraint against nuclear power generation even to the extent of touching off social disturbances. That is why close attention must be paid to nuclear power development. In this not only the health of mankind but also the viability of nuclear power production itself is inextricably involved.

Generally speaking, nuclear power generation can bring harm to mankind in two ways. First, the same harm as that of other fuel-based power plants such as collants' pollution to water. But the harm caused by nuclear power plants is generally smaller than that of conventional power plants for the non-existence of such pollution problems as SO_2, ashes and slags. Second, the unique harm of radioactive materials caused by nuclear reactors — the very thing people worry about most and attach unusual importance to.

If we do not take into consideration possible radioactive harm in the process of uranium exploration, transportation and processing as it is often the case with the pollution of coal and petroleum, then nuclear plants may cause radioactive harm through two channels: leakage of radioactive material and of active nuclear waste of high strength during processing and storage. The first channel is the main trouble, for thus far, around thirty incidents, including the Three Mile Island and Chernobyl ones, are almost all caused by nuclear power reactor leakages.

The Reactor is the heart of a nuclear plant where all the nuclear fuel in operation is concentrated. The structure and functioning principle of a nuclear reactor predetermine two kinds of active material leakage. One is damage of pipes and valves of the system which causes leakage of active collants and gas. If the

damage is serious, the leakage will lead to an incident. The quantity of leakage is usually not much, and most incidents in the world are of this type.

Another is the breakdown of the reactor itself, mainly in the form of the melting of the reactor core. Lack of necessary safeguards would even destroy the whole reactor, causing leakage of a large quantity of active material with steam and smoke. That was the case of the Chernobyl incident. Though such serious incidents rarely occur, disastrous radio-active harm will be made when and if tragedy befalls.

All the past incidents are caused by serious operational errors, yet defects in designing and facility flaws such as selection of reactor type, containment and emergency system would greatly exacerbate the disaster.

Now, we draw the following conclusions from the above analysis :

1 under normal conditions, nuclear power plants are safe, but the danger of active material leakage cannot be ruled out altogether due to the use of nuclear material.

2 The main safety problem is leakage of active material caused by operational error and/or designing defects.

3 Safety of a nuclear plant lies in preventing leakage, large amount of leakage in particular.

It can thus be seen that nuclear plants are basically safe in spite of potential active material harm and the possible occurrence of incidents. After three decades, a complete set of safety-related system, regulations technology and management has been set up for the nuclear power plants on the basis of modern science.

At present, all the countries concerned have set up authoritative administration for their nuclear power plants, laid down detailed rules and regulations on siting, construction, testing, operation and decommissioning to emergency measures. As for technology and facilities, pressurised water reactor (PWR) with safety vessel has replaced graphite collant reactor, emergency systems have increased and more attention has been paid to human engineering to prevent operational errors. Since serious incidents were all caused by violations of operational and safety regulations, more attention has now been paid to personnel training and management. All these have made nuclear power plants safer and thus reduced possibilities of incidents by a big margin.

Needless to say, even so we should not lose our vigilance and should draw lessons from past incidents. Along with progress in science and technology, we

should intensify the relevant safeguards so as to make nuclear power plants more reliable.

Furthermore, we should lay stress on the social-psychological factors related to the safety of nuclear power plants. On the one hand, they have compelled the recognition of the importance of safety, stimulated the continuous improvement of safety-related technology and management ; on the other, they have held back the nuclear power program, and even turned into the main constraints on the program in the wake of some serious incidents. We should, therefore, strive for the removal of their adverse effects.

With this aim in view, it is of great significance for us to strengthen the safeguards of nuclear power plants and reduce the occurrence of incidents to the minimum. Meanwhile, we should educate the public about the relationship between nuclear power production and socio-economic development as well as the difference between a nuclear bomb and a nuclear power plant. There will be a long way to go to quiet public fears, and only when all the nuclear power plants are perfectly safe can we shorten this process.

China Has All Along Paid Unremitting Attention to Safety in its Nuclear Power Development

China is just starting to build its own nuclear power plants. The first two plants, the Qinshan Nuclear Power Plant with an installed capacity of 300 NWe and the Guangdong Nuclear Power Plant with two 900 NWe units are both still under construction, and it will take a few more years before they can go into operation.

The building of nuclear plants answers the urgent needs of China's socio-economic development. True, China has rich deposits of coal and petroleum, but their uneven distribution combined with glaring regional imbalance in development stage has caused ever mounting cost of exploitation and transportation. As a result, energy shortages, especially electricity shortages, have become a serious bottleneck in China's modernization drive.

Due to acute electricity shortages, hundreds of billions of Chinese Yuan (RMB) were lost over the past seventeen years since the advent of the 1970's. East China, one of the most developed regions in the country and an important moving force in China's modernization effort, suffers most from electricity shortage. This not only hinders the progress of socio-economic development and the enhancement of people's living standard, but also affects the modernization drive of the country as a whole. That is why China regards energy a crucial factor in its socio-economic development, and plans to build more power plants in the next few Five-year plans. Besides hydraulic and thermal power plants, China also started to build nuclear power plants.

At the very outset, China has laid down the guideline of « building nuclear power plants with enthusiasm and precaution » which is demanded by our socio-economic development. The economically-developed and electricity-deficient East China will take the lead to build nuclear power plants. Apart from the first two under construction, some additional ones will also be built there.

China has paid close and unremitting attention to the safety of nuclear power plants from the very beginning. The Chinese Government has laid down another guideline : « Safety first, and quality first ». To be more exact, the principle of safety first must be observed from siting, designing, through construction, testing, operation up to final decommissioning. Ample concrete measures have also been adopted to guarantee quality and safe operation, to prevent nuclear incident, limit harmful influence and to safeguard the staff, the public and the environment from any radiation and pollution exceeding the standard laid down by the country. If possible, we will strive to diminish the pollution level to the minimum.

In order to safeguard nuclear power plants, China is taking the following measures :

1 Nuclear Safety Codes

Since 1982, various relevant authorities such as the Ministry of Nuclear Industry, the Ministry of Public Health, the Ministry of Water Resources and Electric Power and the Ministry of Urban and Rural Construction and Environmental Protection have started the work of research and compilation of nuclear safety regulations. After the establishment of the National Nuclear Safety Administration in 1984, it was assigned to co-ordinate the relevant authorities for the nuclear safety codes. The nuclear safety regulations of the People's Republic of China are subordinate to the system of Atomic Energy Act and will be compiled with it at the same time by co-ordinating in content. The draft of the Atomic Energy Act has been worked out and is being asked for comments. It will promote the compiling of the nuclear safety regulations.

Similar to those of the advanced industrial countries, China's nuclear safety regulation system is divided into two main categories, they are the administrative regulations, standards and criteria.

We already have had the administrative regulations such as the Safety Regulations for siting, for designing, for operation and for guaranteeing the quality of a nuclear power plant. All these have been approved by the State Council and is implemented by the National Nuclear Safety Administration, and ten more are being compiled. Besides, 47 nuclear safety guides will be compiled as guidance to explain or supplement the codes.

In compiling the above-mentioned safety codes of nuclear power China has extensively made research into and learned from the experiences of foreign countries. The siting, design, operation and quality assurance for nuclear power plants on the technical requirements, we refer more directly to IAEA's code of practice for nuclear power plants. The scientific nature, strictness and reliability of those codes are similar with the advanced level of the nuclear developed countries.

2 *The National Organization of Nuclear Safety Supervision*

China's National Nuclear Safety Administration was established in October, 1984 under the approval of the State Council. It is an authoritative organ for taking independent and unified responsibility for the implementation of Nuclear safety supervision to nuclear installations in the whole country. The supervision to be carried out by the Administration of the nuclear installation operators and their competent authorities runs through all links of the siting, design, construction, commissioning, operation and decommissioning, etc. The Administration is also responsible for drafting and establishing nuclear safety codes, reviewing nuclear safety standards, appraising design safety and issuing Nuclear safety licence. In a word, it carries out over-all supervision and management of nuclear safety problems, of which many are connected with nuclear power plants.

Besides, there are relevant organs under the Ministry of Public Health and the Ministry of Urban and Rural Construction and Environmental Protection, respectively responsible for the supervision and management of the nuclear safety in connection with the public health and environmental protection. Both of them have been closely co-operating with and supporting the National Nuclear Safety Administration.

3 Safety Research and Personnel Training

Early before the NNSA was established, the research institutes and universities at home started multi-disciplary research on the reactor safety. Now, nuclear research has been listed as the major project of science and technology in the Seventh Five-year Plan of China. Nearly 100 items have been arranged and the main ones are :

(a) Establishing nuclear safety analysis computer codes system.
(b) Performing the probability safety assessment (PSA).
(c) Establishing a simulator training centre for nuclear power plant.
(d) The research of inspection technology.
(e) Experimental study.
(f) The study of radiation protection and the emergency measures.

Personnel training is central to the development of nuclear power. Besides universities, China recycles personnel mainly through training courses and sending abroad its safety personnel, including those working in the nuclear power plants. China has had good co-operation in this field with IAEA and nuclear developed countries.

4 Use of safe and reliable up-to-date technology and facilities in building nuclear power plants.

In order to ensure safety, China uses safe and reliable up-to-date technology and facilities in its nuclear power plants. For example, China has at present stage specified the 1000 MWe pressurized water reactor (PWR) unit as the standard generating unit. The reason is that PWR, after years of development, has become a large-sized and standardized installation good for commercial use. It has been adopted by many countries because it is reliable and safe and is compact in structure, not to mention the rich operational experience adhered to it. It is safe in the way of three protective screens preventive from radioactive material, they are : The tube for fuel rod is Zircaloy-4 which is heat and corrosion resisting, pressure vessel made of low alloy steel 200 mm thick, and the containment is a 1 metre thick concrete structure with an embedded steel.

Calculations have shown that in case of a hypothetical accident, the PWR reactor core melts only once in $10^{-4} - 10^{-6}$/ reactor years. That is why China has specified PWR as its standard unit in spite of its high cost and sophisticated technology. So are the other facilities of the nuclear power plants. China has laid the first priority on safety.

One may clearly see from what I have said that China actively and properly develops its nuclear power and pays high attention to its safety. Therefore you can trust that China will develop its nuclear power in a safe and smooth way, which will play an ever important part in its modernization.

2ème Partie
Abstracts

Abdelhadi Boutaleb

Rôle de l'éducation dans le développement du monde musulman et de sa solidarité

Nul ne doute aujourd'hui que l'Education constitue la base du développement et que la solidarité est un des principes premiers de l'Education. La recherche dans ce domaine est tributaire de la connaissance des principaux éléments qui constituent la problématique des rapports qui existent dans l'espace islamique, entre l'Education, le développement et la solidarité.

L'étude comporte quatre parties :

1°) La partie théorique pour la formulation de la problématique de l'Education, du Développement et de la Solidarité et pour la mise en relief d'une perspective universaliste concordant avec les principes de l'Islam qui mettent l'accent sur la dimension spirituelle tout en donnant la primauté à la formation de l'être humain. Il ressort de cette étude que le monde musulman est aujourd'hui confronté à un grave défi pour pouvoir conserver ses caractéristiques dans ce domaine, à savoir l'éducation et la culture, dans un monde où les actions politique et économique polarisent l'attention.

2°) Analyse de la situation qui prévaut dans le monde musulman, aussi bien avec ses données positives qu'avec ses données négatives.

3°) Les lignes générales d'une stratégie de l'Education dont l'objectif est le développement du monde musulman et la concrétisation de sa solidarité. En d'autre terme, cette orientation vise la formation de l'homme musulman de manière à faire de lui un élément valable au sein d'une société saine et libérale comme elle a pour tâche l'établissement des bases de l'éducation islamique et des priorités de l'action éducative.

4°) Les activités de l'I.S.E.S.C.O. dans les domaines de l'Education, du développement et de la solidarité et dont l'objectif est la satisfaction des besoins urgents et primordiaux de certains pays musulmans, à la lumière d'une planification à long terme.

The Role of Education in the Development and Solidarity of the Islamic World.

It has been proved that education plays a key role in economic development and that solidarity is an important principle in modern education.

This study attempts to determine the main characteristics of the relationship between education, development, and solidarity in the Islamic World.

It was, thus divided into four parts :

1) **Part one** provides the theoretical basis of the relationship between education, development, and solidarity. It also highlights the general view which is congruous with the principles of Islam which put emphasis on the spiritual dimension and the privileged place of Man in the universe. This part also reveals that the Islamic World is facing up a great challenge : to continue to privilege education and culture in a world dominated by the political and the economic factors.

2) **Part two** analyzes the positive as well as the negative aspects of the situation in the Islamic World.

3) **Part three** makes general recommendations for an educational strategy which aims at forming a good Muslim, developping a free society, elaborating the bases for an Islamic education, and determining the priorities of our educational action.

4) **Part four** describes ISESCO's immediate and long-term action in the fields of education, development, and solidarity in favour of certain Islamic States.

El papel de la éducation en el desarrollo y solidaridad del mundo islamico

Se ha demostrado que la educación es un factor esencial en el desarrollo ; y la solidaridad, uno de los principios más importatantes de la educación moderna. De ahí, el que los límites de esta investigación pretendan cercar los componentes fundamentales de la problemática de la relación entre la educatión, el desarrollo y la solidaridad, en el área islámica.

Cuatro son las partes de la presente investigactión :

1) La parte teórica en la configuración de la problemática de la educación, el desarrollo y la solidaridad, resalta la visión de conjunto que se haya en armonía con las enseñanzas islámicas que insisten sobre la dimensión espiritual, y otorgan la superioridad al hombre en este universo. En esta parte, el Mundo Islámico aparece enfrentado a un fuerte desafío que consiste en preservar sus peculiaridades, es decir, centrarse sobre les aspectos educativos y culturales, en un mundo donde la acción política y económica ocupa el centro de las preocupaciones.

2) Análisis de la situación en el Mundo Islámico, tanto en sus manifestaciones positivas como negativas.

3) Las orientaciones generales de una estrategia educativa islámica que aspira a desarrollar y solidarizar el Mundo Islámico, o dicho de otra manera, formar el hombre musulmán útil, la sociedad sana y libre, y forjar los cimientos de la educación islámica y las prioridades de la acción educativa.

4) Las actividades desarrolladas por la Organización Islámica para la Educación, la Cultura y las Ciencias (ISESCO) en el domino de la educación, el desarrollo y la solidaridad, cuyo propósito es de responder a las urgentes necesidades de algunos países islámicos a través de una acción planificadora de largo alcance.

Ahmed Sidqui Dajani

La paix dans le contexte régional

La Paix internationale dépend étroitement de la paix régionale, ce qui nous oblige à tout mettre en œuvre pour réaliser et affermir cette dernière.

Le monde se compose de plusieurs zones dont chacune compte un nombre de pays qui occupent une position géographique qui est la source de'préoccupation géopolitiques.

L'importance accordée à la paix sur le plan régional, se justifie par l'existence de frontières souvent artificielles et factices qui constituent parfois une menace réelle pour la paix et donnent lieu à un climat de tension entre les pays limitrophes.

De plus, il existe une interpénétration entre l'amour de la patrie, l'attachement à la terre des ancêtres, la conscience nationale et l'appartenance à une culture ou à une civilisation, à une religion commune.

La paix régionale subit sans cesse des atteintes très graves en raison de tensions politiques qui secouent, de l'intérieur ou de l'extérieur, des pays limitrophes. Ces tensions peuvent être conjurées et les conflits locaux éliminés si aucun effort n'est ménagé pour le triomphe de la paix dans le respect absolu de la dignité de la personne humaine.

Peace in the Regional Context

World peace is closely linked to regional peace, for the establishment of peace at the regional level represents a worthwhile goal towards which we should all strive with determination.

Our world is divided into regions each of which comprising a number of States with specific geographical determinisms and special relationships. The importance of the study of peace in the regional context stems from the fact that nation-State building has deterred men from considering the regional framework, while this preoccupation serves, in fact, the very interests of these States which might be threatened at any time by border conflicts.

In addition to the regional framework, there is also the nation, the civilisation and the planet contexts which should equally be taken into account.

Regional peace might be disturbed by the hegemony of a political system or by great heterogeneity of neighbouring countries through the intervention of national or religious differences. Tension could only be prevented in such cases if peace initiatives take into consideration the dignity of man.

The prevalence of regional peace depends, therefore, on the equilibrium which should be reached between the geographical, national, and cultural dimensions of a given zone. This can be achieved through institutions and organizations which promote and consolidate communication and cooperation between the various states and in all spheres of life.

La paz en el contexto regional

La paz mundial está superditada a la paz regional de una manera muy fuerte, porque el establecimiento de la paz a escala regional en nuestro mundo actual, es un magno propósito digno de que obremos por él con toda fuerza y claridad.

Nuestro único mundo, está dividido en regiones, que a su vez, encierran países que ocupan determinadas situaciones geográficas, y ligados por vínculos especiales.

La importancia del estudio de la paz en el contexto regional, resultat del hecho de que el hombre, bajo la presión del urgente deseo de crear un estado, se desentendió por completo del posible marco de la región geográfica ; y para preservar el estado creado, se vio obligado a imponer fronteras que suponen focos de choque.

Además del círculo de la région geográfica, tenemos el círculo de la tierra, el círculo del estado nacional, y el círculo cultural. Se puede observar que entre el círculo de la región geográfica y los demás círculos, hay grandes relaciones, aunque no exista entre el conjunto de los mismos ninguna relación.

El dominio de un sistema relativo de valores, la existencia de una configuración incongruente de países vecinos, y la interferencia del pluralismo nacional y el pluralismo religioso, son motivos que genran la perturbación de la paz regional.

La tensión es evitable sólo si se logra controlar la situación establecida, y si la inteligencia del hombre toma el camino de la paz, respetando la naturaleza de la psicología humana y el innato carácter del hombre.

Así pues, el establecimiento de la paz regional exige realizar un equilibrio entre los círculos de pertenencia geográfica, nacional y cultural a través de instituciones y organismos que apoyen el contacto intelectual, informativo y material.

Mohamed Larbi Al Khattabi

Ibn El Khatib et son ouvrage intitulé « Al oussol Li-Hifdi as-Sihhati Fil-Foussoul » (2ème partie) « Principes de préservation de la santé »

L'auteur nous présente dans cette deuxième partie de son œuvre, un choix de textes extraits du traité de médecine d'Ibn El Khatib et qui concernent particulièrement l'hygiène et la thérapeutique de certaines maladies. Cet ouvrage concerne en premier lieu la santé des enfants, des personnes d'âge moyen, des personnes âgées et des voyageurs qui empruntent la voie maritime.

Ibnou El Khatib a annexé à son ouvrage un glossaire de termes techniques médicaux, suivant l'ordre de l'alphabet arabe, tel qu'il est enseigné au Maroc. Cette annexe est enrichie de termes médicaux, de noms d'aliments et de vêtements assortis d'explications empruntées à Abou Al Qacem Zahraoui et à Abou Jaâfar Ahmed Ben Hassan.

Comme l'œuvre d'Ibn El Khatib ne comporte aucun détail sur les médicaments qu'il recommande, l'article comble brièvement cette lacune et donne une terminologie latine aux termes techniques employés par l'auteur de « Principes de préservation de la santé ».

On Ibn Al Khaṭīb's Book « Al-Wuṣūl Liḥifḏi Al-Ṣiḥḥati fī Al Fuṣūl (Part Two)

This Part of the study presents selections from the second volume of « Al Wusūl » entitled « Section on Application » and which covers the managements of the health of people of moderate temperaments, as well as that of children, old people, and sea travellers.

Appended to « al-Wuṣūl » is a glossary of medical and other terms used in the book, classified according to the Moroccan version of the Arabic Alphabet. The glossary comprises also a survey of medical terms, foods, compound medicines and clothing, together with the comments of Ibn al-Khatīb and those of Abū al-Qāsim al-Zahrāwī, and Abū Jaᶜfar Aḥmad ibn al-Ḥasan on these terms. The author of the article provides brief comments on the terms not covered by Ibn al-Khatib, together with their equivalent in latin.

Ibn Al-Ḫaṭīb y su libro « Al-Wuṣūl Li-Ḥifẓi Aṣṣiḥḥati Fī Al-Fuṣūl »
(= La consecusión de la preservación de la salud en las estationes)

(2ª parte)

Este volumen, nos presenta una antología de la segunda parte del libro « Al-Wuṣūl » que el autor denomina : « volumen que conduce a la parte científica relacionada con la preservación de la salud », en el que se limita a los capítulos dedicados al tratamiento del cuerpo de las personas de temperamento equilibrado, y resumiendo aquellos relacionados con el tratamiento de la salud de los niños, ancianos y viajeros por mar.

Abn Al-Hutīb acompaña su libro « Al Wusūl » de un glosarion, ordenado alfabéticamente a la manera marroquí, donde explica los términos médicos y lingüísticos que aparecen en la obra. Este volumen, contiene una selección de los términos médicos, alimenticios, de los medicamentos compuestos y, del vestido, con explicationes propias que el autor añde a las de Abou Al-Qāsim Azzarwalī de Ibn Ja^cfar Aḫmad Ibn Al-Ḥasan.

Dado que Ibn Al-Ḫaṭīb no explicó los nombres de los medicamentos simples que se hallan en su libro, el autor del presente estudio, se tomó la tarea de hacerlo de manera resumida, dando a la vez los correspondientes latinos de los mismos.

Mohamed Allal Sinaceur

A propos de l'ouvrage d'Al Mawardi Intitulé « Nassihat Al Moulouk » "Conseil aux Rois"

L'unique exemplaire de ce manuscrit se trouve à la bibliothèque Nationale de Paris et il semble qu'à ce jour personne ne l'a analysé et reproduit, bien que de nombreux chercheurs aient porté de l'intérêt pour la pensée de l'auteur et présenté ses autres ouvrages.

Dans le domaine de l'éthique et de la politique, « Nassihat Al Moulouk » apporte un élément nouveau. Le gouvernant « est celui à qui obeissance est due ». Ceci met en évidence le pragmatisme de l'auteur en traitant la notion de l'Etat.

Al Mawardi, ce théoricien politique et spécialiste en jurisprudence musulmane était profondément marqué par la conception du pouvoir selon le droit musulman et les coutumes orientales. Pour lui, gouverner est une nécessité sociale et un fait tout à fait naturel, sur la base de la prééminence de l'homme sur le reste des espèces vivantes.

Etant « Chafii », n'a cependant jamais milité en faveur de l'adoption par l'Etat, de cette doctrine, à l'exclusivité des autres. Il préchait au contraire la souplesse, la magnanimité et la tolérance à l'égard des divergences politico-religieuses qui opposaient les adeptes des trois autres écoles juridiques, à savoir le malikisme, le hanbalisme et le hanafisme.

L'auteur de « Nassihat Al Moulouk » estimait que le khalif, Chef de toute la Communauté musulmane, était le seul compétent pour décider de l'opportunité de l'adoption d'une doctrine politico-religieuse à l'exclusivité des autres et ceci en raison de l'immensité de l'Empire musulman et de l'incapacité des Etats qui le composent, à adopter un code de lois unifié.

En présentant le deuxième chapitre de l'ouvrage d'Al-Mawardi l'article se trouve enrichi par de nombreuses annotations destinées à éclairer le chercheur et à l'aider à mieux saisir la pensée de l'auteur dont certaines idées nous permettent de comprendre de l'intérieur, l'évolution du monde musulman.

The Book of Al-Māwardī on Naṣīḥat Al-Mulūk

The National Library in Paris houses a unique copy of al-Mawardi's *Nasihat al-Muluk* which has not yet been edited, to my knowledge, in spite of the important contribution that this *faqih* has made in the study field of Islamic government.

What is new in *Nasihat al-Muluk* is the realism of the *faqih* who bases his recognition of the necessity of State on the regulations of Canon Law, but who also sees government as a natural phenomenon specific to man and which distinguishes him from the rest of the animal world.

In spite of his being an eminent jurist of the Shāfi^{c}i school, al-Māwardī never attempts in his treatise to impose Shāfi^{c}i doctrine on the government that he serves. This does not only reflect the *^{c}alim*'s tolerance and intellectual probity, but also his conviction that the choice of the creed belongs to the *khalifa*.

Considering the importance of these arguments, we have attached to the study the text of Chapter II of *Nasihat al-Muluk*, duely commented and referenced. In doing so, we hope to draw the attention of scholars of Islamic government to this great *^{c}alim* whose numerous writings shed a new light on the problems of jurisprudence and the political issues of our contemporary Islamic world.

El libro de Al-Māwardī sobre consejos para los reyes

Del libro de Al-Māwardī « Consejos para los reyes » hay una copia única en la Biblioteca Nacional de París, según parce, hasta el momento inédita, a pesar del gran interés que los investigadores y estudiosos dedicaron a este sabio que tanto preocuparon los problemas de la sucesión y la autoridad.

Lo nuevo en « Consejos para los reyes » se cristaliza en las múltiples luces que contiene y despide su expresión : « a quien se debe la obediencia », reflejando así el realismo del alfaquí teorizador que representa el poder del alfaquí reconocedor de la posición que ocupa el Estado, la clase de responsabilidades que le incumben, y la superioridad de su sabiduría basada en la de la ley islámica.

Así pues, Al-Māwardī posee una teoría enraizada en los conceptos orientales sobre la jefatura, la política y las prácticas de la jurisprudencia islámica. Considera la autoridad como un acontecimiento en la trayectoria de la naturaleza, y nada impide al alfaquí para que la establezca definitivamente sobre la base de favorecer al hombre sobre el resto de los animales y, poner, cuanto se haya creado, al servicio de la raza humana.

A pesar de que los análisis y soluciones de Al-Māwardī están animados por la doctrina chafeíta, éste no aspiró a hacer de ella una teoría general para ser asumida por el Estado. Esto no significa que sea propenso a la tolerancia y

admita las diferencias doctrinales. Sin embargo, sí considera que la elección de una doctrina compete al califa, por motivos como el abandono, en general, de la idea de unificación legislativa, por parte de los países del Islám.

Dada la importancia de estos planteamientos, el estudio presenta el texto del segundo capítulo del libro, acompañandolo de márgenes con explicaciones, comentarios y referencias, con el fin de atraer la atención de los investigadores sobre esta obra patrimonial, que arroja las luces sobre múltiples problemas de la jurisprudencia islámica y de la política en nuestro Mundo Islámico contemporáneo.

Abdelhadi Tazi

La frappe de la monnaie au Maroc

Les pièces de monnaie frappées dans un pays constituent une des principales données pour une meilleure connaissance de l'histoire de ce pays. La succession des séries de frappe permet de juger l'originalité de la civilisation d'un peuple et le progrès qu'il a accomplis durant son histoire.

Dans un pays, le nombre de maisons de frappe de la monnaie nous renseigne sur le pouvoir libératoire de cette monnaie et sur les dimensions de son volume. Ceci nous permet de connaître également si l'Etat détenait le monopole exclusif de la fabrication de sa monnaie ou s'il autorisait des individus à l'opérer également.

Les diplomates étrangers accrédités au Maroc, durant les siècles précédents, avaient porté beaucoup d'intérêt à l'histoire de notre monnaie dont les séries étaient frappées aux noms des souverains qui se sont succédés, d'une dynastie à l'autre, ce qui constitue une documentation sûre et homogène qui s'ajoute aux autres sources de notre histoire.

L'article est illustré par des images de pièces de monnaie depuis Juba II ainsi que des fac-similis ou des photocopies de correspondances au sujet de notre monnaie nationale.

Currency and mints in Morocco

In order to study the history of a given nation, one can rely on a very important tool of research : currency. By looking at its evolution, one can say whether a nation is old or new, developed or underdeveloped, perennial or recent.

The number of minting presses in a nation is therefore a means of evaluating its size and its importance. This can also help us determine whether that nation lived in a small State or in an immense empire.

Foreign envoys to Morocco showed a great interest in the local currency because it had always provided valuable information about the history of Morocco since ancient times. It was also a record of both the kings who had some impact on the minting presses of the country and the names of these presses.

Taking these facts into consideration the study presents an inventory of Moroccan currencies from the era of Juba II to the Alawite dynasty, including the various dynasties which have governed Morocco. The article is illustrated with samples and pictures of Moroccan corns since ancient times.

La moneda y las casas de la moneda en Marruecos

Para conocer la historia de un determinado pueblo, hay un destacado elemento de investigación que consiste en las piezas de moneda. Así pues, según la sucesión de sus etapas, se puede juzgar la nobleza o modernidad de un pueblo, su atraso y progreso, o su interrupción y continuidad.

Por ello, se considera que la diversidad de las casas de la moneda de un pueblo, es un medio para conocer el volumen, la dimensión y la extensión-fronteras limitadas o imperio de grandes extensiones-del mismo.

Los enviados especiales a Marruecos se interesaron por la moneda que a través de los siglos, permaneció reflejando la historia de Marruecos, como un registro de sucesivas etapas, que traza las semblanzas de los reyes que dejaron sus huellas en estas casas, así como eterniza los nombres las fábricas que el país poseía.

A partir de estos datos, el presente estudio aborda las monedas de Marruecos desde Yuba II hasta la dinastía Alauí, pasando por todas las demás dinastías que gobernaron Marruecos, aclarando las distintas explicationes con ejemplos, reproducciones de cartas, dibujos, y piezas.

Mohamed Chafiq

La poésie berbère dite en tamazight et la résistance armée dans le moyen Atlas et l'Est du Grand Atlas, contre l'occupation Coloniale du Maroc (1912 – 1934)

La poésie dite en Tamazight à l'occasion des actes de résistance armée contre l'occupation coloniale (1912-1934) était dans une première phase, consacrée à éveiller les esprits, à activer la ferveur religieuse et à animer les ardeurs, en prenant appui sur l'amour de la terre.

Dans la deuxième phase de son épanouissement, la poésie Amazighie exprime le désarroi des résistants, leur douleur et leur tristesse, leur amertume et leur désespoir devant la suprématie de l'armée coloniale et la déroute de la résistance armée.

La poésie amazighie ne diffère que peu de la poésie arabe. Mais les thèmes landatifs ainsi que le genre glorieux y sont presque rares, à moins qu'il ne s'agisse de louer la grandeur des prophètes et particulièrement celle du Prophète Mohamed. Quant aux genres satirique et amoureux, ils occupent, comme dans les poésie arabe, une place de choix.

On distingue alors quatre modes de poésie amazighie :

– Izli, Pl. islàn ; poème en deux vers,

– Tamaouit, Pl. tamaouiyyine, premiers poèmes composés pour louer, encourager et exhorter à la résistance.

– Tayfart, Pl. tiyiffarin, c'est-à-dire la chaîne. Ce mode compte un grand nombre de poèmes dits à l'époque de la résistance.

– Timidouilit, terme qui n'a pas de pluriel. Il s'agit de poèmes lyriques chantés à de nombreuses occasions.

L'auteur fait une remarquable analyse de chaque mode poétique et souligne l'originalité de la poésie berbère exprimée en tamazight, aussi bien dans la forme que dans le fond.

Berber Poetry and Military Resistance in the Middle Atlas and East of the High Atlas. (1912-1934)

Berber poetry relative to national resistance in the first period of the colonial era (*1912-1920*) aimed at fostering enthusiasm and love for the homeland, as well as strong feelings for the Islamic religion that was being challenged.

The same poetry became, during the second period (1920-1934) a record of the bitterness, sadness, and despair felt by the population who was fighting a mighty powerful enemy.

Berber poetry does not differ in structure and preoccupations from the Arabic one, except that this former seldom treats the panegyrical or vainglorious genres. Exception should be made here of the poetry dedicated to the glorification of the prophets. Erotic poetry, however, as well as the defamatory genres are more prevalent in Berber poetry.

Berber poetry in the Middle Atlas and East of the High Atlas can be divided into four caterogies :

(i) 'The Isli' (plural 'Islan') consists of two rhymed verses and a standing phrase ;
(ii) 'tumawit', (plural 'timawi-in) is the first resistance poetry ;
(iii) 'taifart' (plural of 'taifin') i.e., the long poem,has been widely used in describing confrontations between Moroccan and French troops during the last years of resistance.
(iv) 'tamidulit' (has no plural form) is in fact a story-form used for the celebration of special events.

The study examines each of these categories illustrating them with extracts from resistance poetry and pointing out the novelty and originality in form and content of every one of them.

La poesie amazigui y la resistancia armada en el medio Atlas y en el este del gran Atlas (1912 – 1934)

La poesía amaziguí relacionada con la resistencia nacional aramada en la primera etapa de la época colonial (1912-1920) tenía como propósito provocar el entusiasmo y ardor de los sentimientos religiosos apoyados en el amor a la tierra. En la segunda etapa (1920-1934) constituyó un registro de los sentimientos de desánimo tristeza y amargura de los resistentes ante la enorme fuerza y gran superioridad material del enemigo.

La poesía amazeguí no difiere mucho de la árabe, pero es raro hallar en ella panegíricos de lo propio, y menos aún poemas de alabanzas, salvo en lo que se refiere a los profetas de manera general y a Muḥammad en particular. Pero hallamos abundante poesía satírica que incluso alcanza a la propia persona, así como tenemos poesía amorosa.

Cuatro son los géneros de la poesía amaziguí del Medio Atlas y del Este del Gran Atlas :

– « 'izli » plural « 'islan » : compuesto de dos poemas y una muletilla.

– « tamawit » plural « timawiyyin », : es la primera poesía que trató el tema de la resistencia.

– « tayffort » plural « tiyefarin » es decir 'cadena' (= poema), y conoció abundantes composiciones sobre el tema del enfrentamiento con los franceses durante los últimos años de la lucha armada.

– « tamidulit » sin plural, que en realidad es una historia en la que se cantan una serie de poesías de ocasiones.

Los distintos géneros son analizados a través de ejemplos poéticos que reflejan su nobleza y originalidad, tanto en la forma como en el contenido.

Mohamed Ibrahim Al-Kettani

Les sources arabes de l'histoire de l'afrique à travers les manuscrits arabes du Maroc

A la demande de l'UNESCO, l'auteur a constitué un choix de textes extraits de manuscrits arabes se trouvant au Maroc et qui peuvent enrichir les sources bibliographiques de l'histoire de l'afrique et qui soulignent les relations qui existaient avant la colonisation, entre les différentes régions et contrées du continent et révèlent les liens particuliers qui avaient marqué sur les plans culturel, scientifique et économique, les rapports entre le Maroc et certains pays africains, au Sud du Sahara.

A ce propos, l'auteur signale l'importance qu'il y a à se référer également à l'ouvrage de Mohamed Ben Abou Bekr Seddik El Ouallati et intitulé *« Fath Chakour »* qui donne lui-même une bibliographie des dignitaires et des Uléma du Tekrour (Toucouleurs).

L'auteur nous apprend également que les bibliothèques marocaines comportent dans leur ensemble, plus de cent quatorze manuscrits écrits par dix-sept des plus célèbres auteurs Africains.

Sources for the History of Africa through Arabic Manuscripts in Morocco

This study has been carried out by Mr. Ibrahim Kettani on behalf of the United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization (UNESCO). It is a collection of extracts from major Arabic manuscripts on African history which are found in the Moroccan Libraries.

The texts cover the geographical and cultural aspects of the history of Africa and reveal the close ties which have linked for centuries certain parts of the « Sudan » with Morocco.

The study also presents Muhammad abū Bakr al-Sādiq al-Briki al-Wallāti's work *Fath Al-shukūr Li Ma'rifat a'yān 'ulamā' al-takrūr,* one of the 114 manuscripts written by African scholars and which are available in Moroccan Libraries.

Fuentes de la historia de Africa a traves de los manuscritos Arabes en Marruecos

El presente estudio fue preparado para la Organización de las Naciones Unidas para la Educación, la Cultura y las Ciencias (UNESCO). Es una antología de textos árabes contenidos en los manuscritos que se encuentran en Marruecos, y que poseen una importancia científica como fuentes para la historia de Africa y las relaciones de sus distintas regiones.

El estudio comporta capítulos que no abarcan los textos geográficos, históricos y culturales. Algunos de ellos son testimonios de una unión orgánica entre ciertas regiones africanas (sudanesas) y el Reino de Marruecos a través de los siglos. Al final, el estudio alude, para más información, al libro « Fatḥ aššukūr li-ma^{c}rifati a^{c}yan ^{c}ulamā' Attikrūr » de Muhammad bnu Abī Bakr Aṣṣiddīq Al-Barīkī Al-Wällatī, así como a la existencia en bibliotecas marroquíes de aproximadamente 114 manuscritos escritos por diecisiete sabios africanos.

Mohamed Farouk Nabhane

La recherche de la certitude chez Al Ghazali Introduction à son ouvrage Al Mounqid

Ce texte ajoute un autre jet de lumière sur la personnalité d'Al Ghazali et nous fait mieux comprendre l'état d'âme de l'auteur du grand livre « Al Mounqid Min Addalal » (Le guide qui délivre de l'erreur) au moment où, à l'âge de trente six ans, Al ghazali ressentit le problème de la certitude se poser à sa conscience avec une telle acuité qu'il entraîna une crise intérieure très grave, bouleversant son activité professionnelle et même sa vie familiale. La certitude signifiait pour lui sécurité, stabilité psychologique et quiétude spirituelle.

Al Ghazali refusa la voie facile, celle de l'adhésion imitative aux actes de foi, parce qu'elle conduisait à des vérités en contradiction totale ou partielle avec la nature originelle. Il entreprit alors l'expérience de la sensibilité et de l'intuition, mais il eut tôt fait d'abandonner cette voie.

La raison lui parut au contraire, en un premier temps, capable de le guider vers les réalités évidentes et immuables. Mais il n'en fut pas convaincu dans son for intérieur. C'est alors qu'il prit le parti de l'expérience par la connaissance du cœur et il ressentit comme un faisceau lumineux le pénétrer.

Pour lui, la connaissance vraie est celle par laquelle la chose connue se découvre complétement devant l'esprit de manière qu'aucun doute ne subsiste à son égard et c'est la voie royale qui conduit à la certitude.

Al Ghazali débattit de son expérience avec nombre de théologiens, de penseurs, d'ésotéristes soufis et autres. Son entreprise lui inspira des concepts nouveaux qui lui permirent d'écrire « Ihya 'a Ulum Eddine » (La revivication des sciences de la religion), ouvrage qui malheureusement, est encore insuffisamment étudié et analysé, ce qui ne nous permet pas de connaître davantage l'expérience d'Al Ghazali.

Al-Ghazzali's Methodology in his Quest for Truth.

This study sheds some light on the personality of al-Ghazzali during the early years of his intellectual quest which led him to inner peace and certainty. Al-Ghazzali started his long search by refusing *taqlid* which he considered could only lead to truths which are totally or partly in contradiction with the original nature of things.

He next tried the method of sensory perception, but soon realized that the security which this way leads to is not the certainty he was searching for.

Al-Ghazzali then turned to the rational sciences and found that they only asserted self-evident truths.

It was finally the mystical experience which brought him inner peace and allowed him to write his major work, *Ihiya 'ulum al-din* (the revivication of religious sciences), a work yet to be studied.

El camino para hallar la verdad en Al-Ġazālī (a través de su libro « El Salvador de la Perdición)

Este texto proyecta unas luces que aclaran los rasgos de la personalidad de Al-Ġazālī durante una etapa temprana de su vida científica. Pues buscaba algo que no concía tampoco el camino que llevaba hacia el mismo. Lo que probablemente buscaba era la certidumbre que inspira la seguridad y la estabilidad socológicas.

Al-Ġazālī en su búsqueda de la certidumbre, rechaza el método de la imitación en la creencia, porque conduce a realidades que se contradicen total o parcialmente con el prístino sentimiento religioso.

Al-Ġazālī intentó seguir el camino por el que conduce lo sensorial creyendo que ello le proporcionaría una seguridad cierta ; pero, pronto se dio cuenta que dicha seguridad no proporcionaba la certedumbre.

Se dirigió luego al intelecto que halló capaz de evidenciar axiomas libres de todo error ; pero pronto empezaron a caer ante él las hojas de la confianza en lo apriorístico. De repente empezaron a fluir los manantiales de la esperanza en el espíritu con una luz que Dios arrojó en los corazones. Aquella luz que es la llave de muchas sabidurías, palpa la generosidad divina e ilumina el corazón.

Así pues, tras un recorrido en busca de la verdad con los teólogos, los esotéricos y sufíes, durante el cual experimentó un duro y terrible conflicto entre el hombre y su alma, escribió su obra « Resucitación de las ciencias de la Religión » que todavía necesita un estudio exhaustivo que saque a flote la experiencia de Al-Ġazālī.

Abdelaziz Ben Abdellah

Ibn Rochd : pionnier de la pensée scientifique

Les Almohades s'étaient distingués par leurs encouragements aux œuvres de l'esprit et par leur tolérance à l'égard des savants dont quelques uns eurent le privilège d'exercer leur métier et d'enseigner au Maroc, tels Ibn Tofaïl, Ibn Baja et Ibn Rochd (Averroès). Mais, les philosophes connurent cependant des moments difficiles sous le règne de Yacoub Al Mansour.
Ibn Rochd retient l'attention parce qu'il parvint à s'imposer aussi bien à l'opinion publique – montée contre les spéculations philosophiques – qu'aux souverains Almohades qui lui vouaient autant de méfiance que de respect.

Ibn Rochd estimait en effet que la religion et la philosophie, loin d'être contradictoires et incompatibles, sont au contraire complémentaires et ont les mêmes objectifs.

La liberté de la pensée scientifique doit beaucoup à Ibn Rochd. Les œuvres philosophiques de ce dernier, ses traités de médecine, ses écrits en sciences de la religion, sa maîtrise du grec et du latin, font de lui un esprit encyclopédique et le véritable pionnier de la pensée scientifique moderne.

Averroes : The Leader of Scientific Thought

The Almohads showed great consideration for science and men of science, a sollicitude which gave birth to a freedom of thought never seen before in Morocco. Eminent scholars such as Ibn Ṭufayl, Ibn Bāja, and Ibn Rushd (Averroes) appeared on the scene, while philosophical studies retracted as a result of the persecution that philosophers were subjected to, particularly during the reign of Yaᶜqūb Al Mansūr Al-Muwaḥidī.

Averroes is a good illustration of the all-embracing thought of this era for, he manipulated harmoniously and simultaneously the religious and philosophical sciences which he believed were perfectly compatible.

We owe to the resistance of such ᶜulamā the triumph of free and scientific thought and the diversity in Averroes' contributions to the fields of medicine, philosophy and religion. This ᶜālim not only had great mastery over the scientific language, but he was also helped by his daring theories and his encyclopedic knowledge.

Averroes : pionero del pensamiento cientifico

Los Almohades dedicaron un enorme interés a la ciencia y a los sabios, que generó una libertad de pensamiento jamás conocida en Marruecos hasta entonces, surgiendo numerosos sabios como Ibn Tufail, Ibn Bāǰa y Averroes. Sin embargo, las ciencias filosóficas conocieron un encogimiento a causa de la persecusión que los filósofos sufrían, sobre todo en la época de Yaᶜqūb Al-Manṣūr Al-Muwwaḥidī.

El caso de Averroes es un ejemplo del pensador que se aferraba a sus posiciones dedicándose al mismo tiempo a las ciencias religiosas y a la filosofía, por creer en la compatibilidad de ambras disciplinas. Gracias a esta resistencia, el libre pensamiento científico pudo salir adelante.

La producción filosófica de Averroes se diversificó en los campos de la medicina, filosofía y religión, gracias a su perfecto dominio de las lenguas científicas de su época, así como a sus amplios y enciclopédicos concimientos, y al atrevido de sus teorías que exponía con una lógica metodológica.

3ème Partie

Les activités de l'Académie

Rapport d'activités de l'Académie du Royaume du Maroc (1986 – 1987)

I. Les sessions de l'Académie

La deuxième session de l'Académie du Royaume du Maroc, tenue à Agadir en Novembre 1986, fut consacrée à l'examen des problèmes d'éthique engendrés par les nouvelles techniques de la procréation humaine.

Ce thème a donné lieu à des interventions d'un haut niveau scientifique et a permis d'entendre l'opinion des moralistes et les points de vue des religions monothéistes ; le judaïsme, le Christianisme et l'Islam. Les problèmes issus des techniques de la procréation humaine furent clairement exposés et à travers eux, un appel fut lancé à l'humanité entière pour leur trouver des solutions appropriées.

C'est ainsi qu'ont été faites les communications suivantes :

– Exposé introductif, par le Professeur Jean Bernard (Membre de l'Académie du Royaume du Maroc).

– Analyse des courants éthiques concernant la procréation in vitro par Abderrahmane El Fassi, (Membre de l'Académie du Royaume du Maroc).

– Procréation in vitro : Problèmes d'éthique par Mohamed Ali Albar (Expert invité, Professeur de Médecine interne, conseiller au Centre du Roi Abdelâziz de Recherche médicale).

– Réflexion au sujet des techniques de procréation, par Ahmed Sidki Dajani (Membre de l'Académie du Royaume du Maroc).

– Soumission de la procréation aux normes de l'éthique, par Abdelhadi Boutaleb, (Membre de l'Académie du Royaume du Maroc).

– Problèmes psychologiques engendrés par les nouvelles techniques de procréation, par Mohamed Farouk Nabhane, (Membre de l'Académie du Royaume du Maroc).

– La maîtrise des nouvelles techniques de procréation artificielles au regard de l'Islam, par Idriss Khalil, (Membre de l'Académie du Royaume du Maroc).

Points de vue de l'Islam au sujet de la maîtrise de la procréation

– Fécondation artificielle et Bébés-éprouvettes par Abdellah Guennoune, (Membre de l'Académie du Royaume du Maroc).

– L'Islam et la fécondation artificielle en tant que moyen de procréation par Mohamed Mekki Naciri, (Membre de l'Académie du Royaume du Maroc).

– L'attitude juridique de l'Islam face à l'évolution des Techniques procréatives, par Haj Ahmed Benchekroun, (Membre de l'Académie du Royaume du Maroc).

– La loi musulmane au regard de la maîtrise des techniques procréatives, par Abdellah Chakir Guercifi, (Membre de l'Académie du Royaume du Maroc).

– Les normes juridiques de la procréation légale, en Islam, par Mohamed Farouk Nabhane, (Membre de l'Académie du Royaume du Maroc).

* * *

– La fécondation in vitro, de la connaissance du processus physiologique à son application chez l'homme, par Moulay Tahar Alaoui (Expert invité, Professeur à la Faculté de Médecine de Rabat).

– La fécondation in vitro. Les embryons congelés, par René Frydmane (Expert invité, Professeur à la Faculté de Médecine de Paris).

– La thérapie du gène : promesses et problèmes posés par l'emploi de gènes normaux dans le traitement des anomalies génétiques humaines, par Donald Fredrickson, (Membre de l'Académie du Royaume du Maroc).

– Pour la personne : réflexions sur la fécondation artificielle par Mohamed Aziz Lahbabi, (Membre de l'Académie du Royaume du Maroc).

– Aspects éthiques de la fécondation artificielle, par Jean Cohen (Expert invité, Directeur du Centre de Stérilité à l'hôpital de Sèvres).

– A qui la parole ? par Georges Vedel, (Membre de l'Académie du Royaume du Maroc).

– L'Ethique et les techniques procréatives : l'expérience britannique, par Lady Mary Warnock (Expert invitée, Présidente du Comité National de Fécondation Humaine et d'Embryologie, Grande Bretagne).

– Droit et Ethique : l'Action du Conseil de l'Europe, par René Jean Dupuy, (Membre de l'Académie du Royaume du Maroc).

– Les conséquences juridiques des nouvelles maîtrises de la procréation, par Jean Michaux, (Expert invité, Président du Comité Consultatif National d'Ethique).

– La réglementation des nouvelles techniques de procréation par les moyens juridiques, en Australie, par Russel Scott, (Expert invité, membre du Comité National d'Ethique et de Recherche médicale – Australie).

– Procréations éthiques relatives à la procréation artificielle : point de vue du judaïsme, par David Bleich (Expert invité, Professeur de Philosophie et de Droit talmudique auprès de plusieurs Universités Américaines).

– Le point de vue de l'Eglise catholique sur les problèmes éthiques engendrés par les nouvelles techniques de procréation humaine, par Monseigneur Bernardin Gantin, (Membre de l'Académie du Royaume du Maroc).

– Aperçu des points de vue des Eglises britanniques sur les problèmes éthiques nés des nouvelles techniques de procréation humaine, par Gordon Dunstan, (Expert invité, membre de l'Eglise anglicane et professeur de théologie éthique et sociale à l'Université d'Exeter).

Session de l'année 1987

Au cours de cette année, l'Académie du Royaume du Maroc n'a tenu qu'une seule session. Sur les Hautes Instructions de Sa Majesté Le Roi, cette session eut-lieu pour la première fois à l'Etranger, et notamment à Paris, durant les 10-11 et 12 Juin. Ses débats ont porté sur les « Moyens à décider et à mettre en place en cas d'accident nucléaire ».

A cette occasion, furent entendues les interventions ci-après :

– Exposé introductif du Monsieur Azzedine Laraki, (Membre de l'Académie du Royaume du Maroc – Président des Séances).

– Les risques inhérents aux différentes sources et conséquences, par F. Niehaus,, de l'A.I.E.A., (Expert invité, Vienne).

– Les accidents nucléaires : Causes et Conséquences, Mustapha Roschd, (Expert invité, spécialiste en physique nucléaire, Maroc).

– L'accident de Chernobyl et ses conséquences, Adnan Shaihab-Eddine, (Expert invité, Directeur de l'Institut Koweitien de Recherche scientifique).

– Evaluation des effets des dégagements radioactifs de Chernobyl sur l'environnement en Chine, Hu Zunsu, (Expert invité, Députy director, Institut Chinois de la Protection contre les radiations).

– De l'accident involontaire à la catastrophe nucléaire, Ahmad Abdus-Salam, (Membre de l'Académie du Royaume du Maroc).

– Conséquences biologiques de l'accident nucléaire, Raymond Latarjet, (Expert invité, membre de l'Académie Française des Sciences. Directeur de la Fondation Curie).

– Accidents nucléaires et greffes de la moelle osseuse, Jean Bernard (Membre de l'Académie du Royaume du Maroc).

– Critères de Sécurité et mesures d'urgence en cas d'accident nucléaire, Abel Julio Conzalès, (Expert invité, membre de la Commission Nationale Argentine de l'Energie Atomique, expert en sûreté nucléaire et protection contre les radiations).

– Dispositions à prendre au Royaume-Uni en cas d'accident nucléaire, Lord Chalfont, (Membre de l'Académie du Royaume du Maroc).

– Effet des accidents nucléaires sur l'approvisionnement en eau, Charles Stocktone, (Membre correspondant de l'Académie du Royaume du Maroc).

– Le rôle de l'eau dans un accident nucléaire : Mesures à prendre, Robert Ambroggi, (Membre de l'Académie du Royaume du Maroc).

– Moyens à mettre en œuvre en cas d'accident nucléaire, Jean-Claude Nenot, (Expert invité, Service d'Hygiène Radiologique, Institut de Protection et de Sûreté Nucléaire-France).

– Effets de la Pollution nucléaire, Mohamed Habib Belkhodja, (Membre de l'Académie du Royaume du Maroc).

– Les aspects règlementaires des accidents nucléaires, Abdelmajid Çaoui, (Expert invité, Ingénieur en génie atomique service de l'Energie nucléaire du Ministère marocain de l'Energie et des Mines).

– La responsabilité juridique en matière d'accidents nucléaires, Mohamed Farouk Nabhane, (Membre de l'Académie du Royaume du Maroc).

* * *

– Nécessité d'une coopération internationale pour la prévention des accidents nucléaires, M. Hidayatullah, (Membre correspondant de l'Académie du Royaume du Maroc).

II. Réunions ordinaires : « Les causeries de Jeudi »

Les réunions ordinaires étaient animées par les membres résidents au rythme de deux rencontres par mois, au cours desquelles étaient exposées et discutées, sous l'appelation de « Causeries de Jeudi », les communications suivantes :

– **La relation entre créativité en poésie et la dualité des moyens d'expression,** par Abbas Al Jirari.

Cette communication fut faite le 18 Septembre 1986. Monsieur Jirari fit remarquer que ce sujet entre dans le cadre du cours littéraire et de la critique et regrette qu'il ne fût pas suffisamment étudié. Il souligna l'importance de la créativité dans une langue et dans les dialectes qui se rapprochent d'elle ou qui lui sont apparentés, tels les dialectes marocains, arabes ou berbères.

– **Le personnalisme africain**
par Mohamed Aziz Lahbabi

Trois séances furent consacrées à ce sujet : la première eut lieu Jeudi 2Octobre 1986, la seconde, Jeudi 13 Novembre 1986, la troisième, Jeudi 8 Janvier 1987. Après avoir défini le personnalisme comme une philosophie engagée dont l'objectif est de faire prendre à l'être humain conscience de sa dignité et de sa personne et de l'encourager à refuser toute aliénation, Monsieur Lahbabi souligna que la sagesse africaine est la réplique de la philosophie occidentale et fit observer que l'homme africain mérite d'être mieux compris, et mieux respecté. Il conclut en disant que le verbe chez l'Africain est l'expréssion de la personne qui représente à la fois le corps et l'âme et que l'Africain considère la mort comme une étape que franchit le défunt pour aller rencontrer ses ancêtres.

– Rapport sur les travaux de la commission de l'éducation, des Sciences et de la Technologie
par Mohamed Chafiq

Mr. Mohamed Chafiq, présenta ce rapport le Jeudi 18 Décembre 1986 en rappelant les axes que la commission avait décidé de soumettre à la discussion. Dans son rapport, Mr. Chafiq souligna que l'Education signifie d'une façon générale, l'ensemble des facteurs qui orientent la formation des individus, des générations et des sociétés humaines dans une direction donnée dans le but d'épanouir les corps et de pourvoir l'être humain en information, de lui permettre d'acquérir certaines aptitudes et de l'engager à s'attacher aux valeurs morales.

– Les archives de Gzoula
par Abdellah Chakir Guercifi

Le Jeudi 22 Janvier 1987, Mr. Abdellah Guercifi présenta une communication sur les archives de Gzoula. L'orateur signale que la langue parlée des Gzoula est le berbère et que l'arabe demeure chez eux le véhicule de la pensée et de l'expression écrite. Une exception cependant ; les Uléma Gzoula durent traduire en berbère, les dogmes de l'Islam pour mieux les faire comprendre aux gens.

Avant de terminer son intervention, Mr. Guercifi exprima ses regrets quant à la négligence que subissent les archives des Gzoula dont certaines sont vendues secrètement à des étrangers, ce qui constitue en soi, un acte de banditisme et de piraterie scientifique.

– Rapport sur les réunions de l'Union des Académiciens de la Langue Arabe tenue à Amman en Janvier 1987
par Idriss Khalil

Evoquant le 12 Février 1987, les travaux de la réunion des Académiciens de la Langue arabe, tenue à Amman et traitant particulièrement des problèmes et des difficultés de l'arabisation des termes et symboles scientifiques, l'orateur précise que l'enseignement des sciences et la recherche scientifique ne sauraient se passer d'une langue scientifique simple, saine, avec ses règles et son vocabulaire et capable d'exprimer les inventions scientifiques, capable d'évoluer et de s'adapter à l'évolution des sciences et aux termes nouveaux que ces dernières introduisent. Cette langue doit comporter également des symboles unifiés et stables.

— La traduction du langage scientifique en langue arabe à travers deux modèles
par Abdellah Laroui

La séance du 26 Février 1987, fut la suite de la séance précédente. Mr. Abdellah Laroui présenta deux modèles de traduction du langage scientifique. Le premier

concerne « La revue des sciences », publication d'une maison Koweitienne et qui n'est qu'une traduction à la lettre d'une revue américaine. Le deuxième modèle est celui de la revue « Afaq Arabia » (Horizons Arabes) publiée à Amman. Selon l'orateur, ces deux revues ne sont pas réellement scientifiques mais seulement deux organes de presse qui se sont donné pour objectif, la vulgarisation scientifique au profit du plus grand nombre possible de lecteurs.

Abordant la question des symboles scientifiques, Mr. Laroui estime que le problème réside plutôt dans la liberté de la pensée au regard de la langue et qu'en vérité, c'est là le problème des sciences humaines.

– **Impression sur la réunion de l'Académie de la langue Arabe, d'Egypte, réunion du Caire, Février 1987**
par Mohamed El Fassi

Mr. Mohamed El Fassi fit une communication à ce sujet, le 12 Mars 1987.

– **Exposé sur les travaux du cinquième symposium de l'éducation islamique, tenu au Caire**
par Abdelhadi Boutaleb

– **Exposé sur le symposium tenu à Amman en Mars 1986, sur le thème réveil islamique et les problèmes du monde arabe**
par Abdelhadi Boutaleb

Ces deux communications furent entendues le 26 Mars 1987, L'orateur traça une vue exhaustive des deux rencontres.

– **Extraits de manuscrits marocains sur l'histoire de l'afrique**
par Mohamed Ibrahim Al-Kettani

Le 9 Avril 1986, Mr. Ibrahim Al-Kettani fit un exposé sur les manuscrits arabes du Maroc qui enrichissent la longue bibliographie de l'Histoire de l'Afrique mettant l'accent sur les relations particulières qui existent depuis plusieurs siècles, entre le Maroc et une partie des pays Africains.

Activités de la commission du patrimoine et de la commission des valeurs spirituelles et intellectuelles

Le 21 Mai 1987, Mr. Mohamed Benchrifa et Abdelkarim Gallab firent chacun un exposé. Le premier parla des travaux de la commission du patrimoine et annonça le projet du dictionnaire historique et géographique des villes marocaines. les membres de l'Académie se sont prononcés en faveur de la réalisation de ce dictionnaire.

Mr. Ghallab axa sont intervention sur les trois volets de la commission dont il est le rapporteur et qui sont : la législation, la philosophie et les sciences ainsi que l'impact de ces trois volets sur l'éthique et les pratiques islamiques. De plus, l'orateur signala les erreurs que comporte l'Encyclopédie de l'Islam et d'autres encyclopédies concernant la vie marocaine. Il évoqua ensuite le thème de la situation de la femme dans la société musulmane et les séances qui lui furent consacrées.

La recherche scientifique et le développement.

Mr. Mohamed Larbi Al-Khattabi fit une communication sur le thème, Jeudi 17 Septembre 1987. Il brossa un tableau de l'évolution de l'Enseignement au Maroc depuis 30 ans, souhaita une politique plus élaborée pour la promotion de la recherche scientifique, suggéra le reéxamen de la mission de l'Université et proposa des axes de recherche qui vont dans le sens du développement économique et technologique du Maroc.

Affaires marocaines soulevées dans les écrits étrangers

Mr. Abdelwahab Ben Mansour signala, dans sa communication du 1er Octobre 1987, que les lecteurs étrangers des ouvrages d'histoire du Maroc, écrits par des Marocains, constatent des lacunes dans ces ouvrages et qui concernent en particulier la biographie des Rois et des vizirs, des Uléma, les hommes de lettres et d'autres personnages du royaume.

L'orateur suggéra que les auteurs marocains tiennent compte des écrits étrangers en matière d'histoire du Maroc, de les analyser et d'en faire la critique.

III. Séminaires de l'Académie

La Commission des valeurs spirituelles et intellectuelles a animé son quatrième, séminaire sur le thème : « La loi musulmane, la jurisprudence et le droit positif», Mardi 25 Juin 1987. A cette occasion, ont été entendues quatre interventions :

– Exposé principal, par Abdelhadi Boutaleb.

– L'Appartenance à un système juridique musulman par Abdelaziz Ben Abdellah et Mohamed Mekki Naciri.

– Impressions au sujet de la règle juridique dans le droit musulman, par Mohamed Mikou.

– Reflexions sur l'évolution du droit musulman, par Abdellah Daoudi et Mohamed Farouk Nabhane.

IV. Les conférences

L'Académie a organisé l'année dernière, deux conférences publiques. La première fut donnée par Monsieur Marcel Roch, (Ambassadeur du Vénézuela auprès de l'U.N.E.S.C.O., sous le titre : « Science et développement ». La deuxième fut donnée par Monsieur René Jean Dupuy, (Membre de l'Académie du Royaume du Maroc), sur le thème : « La notion du patrimoine commun de l'humanité et les pays en développement ».

V. Les publications

Le bilan des activités de l'Académie s'enrichit de jour en jour par de nouvelles publications. (C'est ainsi qu'ont été publiés les ouvrages suivants :

1) La piraterie au regard du droit des gens (actes de la session d'avril 1986).

2) Problèmes d'éthique engendrés par les nouvelles maîtrises de la procréation humaine (actes de la deuxième session 1986).

3) Philosophie de la législation musulmane (actes du séminaire de la commission des valeurs spirituelles, 1987).

4) Corpus de l'œuvre du poète andalou Ibn Fourkoun (textes présentés et analysés par Mohamed Benchrifa).

5) Le deuxième tome du corpus de poèmes populaires Al Malhoun, recueillis et présentés par Mohamed El Fassi.

6) La revue Académia, n° 3 Novembre 1986.

Accueil des nouveaux membres de l'Académie du Royaume du Maroc

Il s'agit de :

- Deux membres associés : Son Altesse Royale le Prince Abdellah Al Fayçal Ben Abdelaziz et le Professeur René-Jean Dupuy.

- D'un membre correspondant : Mr. Hidayatullah.

Visite des membres de l'Académie Africaine des Sciences

A l'occasion de la réunion à Rabat du Conseil de l'Académie Africaine des Sciences, l'Académie du Royaume du Maroc a reçu en visite de courtoisie et d'information, les membres du conseil de l'Académie Africaine des Sciences.

Mr. Mohamed Allal Sinaceur, membre de l'Académie du Royaume du Maroc, a représenté notre Compagnie à la réunion de l'Union Académique Internationale, tenue à Bruxelles en juin 1986. Cette réunion eut à débattre de certains sujets, dont notamment celui des *vases antiques*, la publication des textes de la philosophie antique, l'établissement d'une carte historique de l'Empire romain.

L'intérêt que porte le Roi Baudouin de Belgique aux réunions de l'U.A.I a été souligné.

D'autre part, Monsieur Idriss Khalil a représenté l'Académie du Royaume du Maroc à la réunion de l'Union des Académiciens de la langue arabe, tenue à Amman en janvier 1987.

Conformément aux dispositions du Dahir instituant l'Académie du Royaume du Maroc, la première session tenue hors du territoire national s'est déroulée à Paris du 10 au 12 juin 1987.

A cette occasion, l'Académie du Royaume du Maroc a été reçue pour la première fois en séance solennelle le Jeudi 12 juin 1987 par l'académie Française, sous la coupole.

Cette cérémonie a été marquée par le discours de bienvenue du Secrétaire perpétuel de l'Académie Française Monsieur Maurice Druon suivi par le discours de Monsieur Abdellatif Berbich Secrétaire perpétuel de l'Académie du Royaume du Maroc ainsi que des discours de Messieurs Mohamed Habib Belkhodja, Lord Chalfont et Léopold Sédar Senghor membres associés de l'Académie du Royaume du Maroc.

Le lecteur trouvera ci-après la reproduction intégrale des discours marquant cette cérémonie.

Discours prononcé par

Maurice DRUON
Secrétaire perpétuel de l'Académie Française

Messieurs,

Les grandes traditions ne demeurent vivantes et efficaces que par l'insertion, de temps à autre, de quelque innovation, née de la circonstance, et qui redonne évidence à leur essentielle signification.

L'événement de ce jour constituera peut-être un précédent, mais il n'en a point dans l'histoire de l'Académie française. Et pourtant il s'inscrit naturellement dans la symbolique de nos missions.

Notre Compagnie a vu, au long du temps, se créer, plus ou moins à son image, et de l'Espagne à la Suède ou au Brésil, maintes académies avec lesquelles elle entretient comme des liens de famille, liens qui se manifestent lors de nos fêtes de mémoire, par l'envoi de quelques cousins, je veux dire de quelques délégués.

Aujourd'hui nous faisons plus. Aujourd'hui nous accueillons et honorons *in corpus* la cadette des grandes académies du monde, à laquelle quatre des nôtres appartiennent de fondation, et où nous pouvons reconnaître, avec l'émotion de l'ancêtre interrogeant le visage de la dernière-née, quelques traits ataviques, mais où nous distinguons aussi, avec bonheur, une singulière vigueur et des originalités déjà bien affirmées.

L'une des originalités de l'Académie du Royaume du Maroc, et qui la fait très représentative de notre civilisation du déplacement, est d'être une académie ambulante. J'entends par là que non seulement elle appelle à s'assembler des hommes venus des quatre points cardinaux, ce que d'autres font déjà, avec plus ou moins d'effet ou de constance, mais encore elle peut, en dehors de son siège administratif, se réunir en tout lieu propice à ses travaux et à sa réputation.

Ainsi a-t-elle tenu session dans la plupart des grandes villes chérifiennes ; elle a siégé à Fès, auprès de la Quaraouine, et à Marrakech, à l'ombre de la Koutoubia ; elle a siégé à Casablanca, à Rabat, à Agadir, et peut le faire demain à Laâyoune aussi bien qu'à Tanger.

Il lui est même loisible, avec la gracieuse permission de son Fondateur et Protecteur, le Roi Hassan II, de siéger hors des frontières du Maroc, ce qu'elle fait aujourd'hui pour la première fois. Comment ne serions-nous pas sensibles à ce que Paris ait été choisi, entre toutes places du monde, pour le premier exercice de cette capacité ?

Comment ne pas saluer, du geste et du cœur, cette Compagnie neuve, mais où se groupe et s'échange la longue expérience des plus vieilles civilisations, et qui a mis le français parmi ses langues de travail, ce français dont elle use avec fréquence et perfection pour traiter des problèmes capitaux que l'homme pose à l'homme, en cette charnière des millénaires ?

Dans la vaste et si diverse Francophonie, dont l'Académie française a le souci et à laquelle elle apporte l'attention que lui commandent ses responsabilités, le Maroc a une place tout ensemble exceptionnelle et exemplaire.

Point de passage le plus étroit, point de jonction peut-on dire, entre l'Europe et l'Afrique en même temps que verrou de la Méditerranée, son importance géoculturelle autant que géostratégique n'est plus à souligner.

Assis sur maints sédiments ethniques, comme l'est aussi la France, nation millénaire, comme l'est la France elle-même, le Maroc offre au monde présent le type du pays de double culture, parfaitement fidèle à ses longues traditions religieuses, dynastiques, sociales, artistiques, à tout ce qui en un mot compose son identité, mais capable tout également de relever les défis de la modernité.

Ajouterai-je que le Maroc, le Maroc religieux mais tolérant, le Maroc qui s'est doté des instruments de la démocratie, le Maroc intelligent, ouvert à tous les échanges de bonne foi, le Maroc est à la tête des nations en train de sauver l'Islam, l'Islam auquel certaines de ses fractions fanatiques et intégristes font courir le risque de dresser contre lui une hostilité générale. Heureusement le Maroc nous présente, de l'Atlas à l'Océan, un autre visage, celui qu'il offrit, en un jour mémorable d'août 1985, au Pape Jean-Paul II !

La double culture, dont la fonction première est d'élargir l'entendement, et qui constitue l'une des caractéristiques du Maroc actuel, est le fruit de l'Histoire, de l'histoire telle qu'elle s'est déroulée entre nos deux pays, nos deux civilisations.

Nous avons su de part et d'autre en limer les aspérités et en éponger les bavures, en effacer même les cicatrices, pour ne conserver que ce qui pouvait servir au bien commun.

Comme le faisait observer récemment l'un des nôtres, ce n'est pas la colonisation qui engendre le sous-développement mais le sous-développement qui crée fatalement les conditions de la colonisation. Mais une fois le développement en route, les rapports se modifient pour ne plus laisser en présence que des partenaires, ou, mieux encore, des associés.

Messieurs mes Confrères marocains, c'est Lyautey si épris de votre peuple, qui vous accueille aujourd'hui sous la Coupole, lui qui écrivait : « La France libérale, ordonnée, laborieuse, l'Islam, rénové et rajeuni, apparaissent comme deux forces, deux grandes et nobles forces, dont l'union doit être un facteur prépondérant pour la paix du monde ». Son rêve, au-delà de lui, s'est accompli. C'est aussi François Mauriac et c'est aussi Georges Izard, le grand écrivain et le grand légiste, qui avaient épousé avec une égale ardeur la cause de la fraternité ; leur ombre est présente parmi nos habits verts.

Nous restons, sur ces travées, quelques-uns, au premier rang desquels le Président Edgar Faure, l'homme du moment crucial, qui avaient compris que l'intérêt supérieur voulait, pour le futur des deux pays, que le Maroc qui fut toujours souverain, reprît, dans un monde différent, le plein exercice de cette souveraineté.

Nous n'étions pas encore de l'Académie française, et nous ne pouvions pas imaginer qu'il y aurait une Académie du Maroc, dont nous ferions partie.

Pour nous, appartenir à votre Compagnie sœur est plus qu'un honneur ; c'est la joie parfaite, et combien rare, d'avoir vu un avenir heureux nous donner raison. L'active harmonie qui existe entre nos peuples, nos villes, nos universités, nos entreprises industrielles, nos diplomaties, en apporte la preuve quotidienne.

Il y a fallu, des deux côtés, la présence aux affaires de grands hommes d'Etat, sans lesquels les grandes mutations ne peuvent s'opérer.

Comment n'aurions-nous pas en mémoire le Roi Mohammed V et le Général de Gaulle, ces deux compagnons dans la libération ?

Se libérer des hégémonies, se libérer des préjugés, se libérer de l'ignorance, se libérer de la pauvreté, se libérer de la courte vue, se libérer des contraintes économiques, et libérer la totalité du territoire national, c'est là ce qui inspire, pour son peuple, l'effort de Sa Majesté le Roi Hassan II, dans lequel chacun s'accorde à voir, à présent, l'une des grandes figures du siècle, donnant autant d'impulsions à tous domaines du développement intérieur qu'il provoque de surprises par ses expertes initiatives internationales.

En créant l'Académie du Maroc, votre Souverain a voulu établir un lieu où toutes les activités de l'esprit et toutes les cultures puissent, en liberté, coopérer.

La civilisation de l'Antiquité accomplit un de ses plus décisifs progrès le jour où l'homme inventa de fondre, en de certaines proportions, l'étain qui venait d'Ecosse et le cuivre qui venait de Chypre.

Dans l'Académie marocaine se fondent des esprits qui viennent de vingt et une nations du globe, y compris la Chine immense. L'un d'eux vient même de la banlieue du globe, puisque cette académie compte l'astronaute qui le premier posa le pied sur le sol lunaire.

C'est de tels creusets que sortira la statue de l'homme futur, en même temps que les instruments qui permettront à l'homme de se délivrer des pièges qu'il se tend à lui-même.

Ainsi que le disait hier matin René-Jean Dupuy, prenant séance en votre jeune Compagnie : « L'humanité se pense au-delà des vivants ».

Où donc imaginerait-on que se puissent aujourd'hui rencontrer, avec des médecins, des biologistes, des démographes, et pour évoquer « les problèmes d'éthique engendrés par les nouvelles maîtrises de la procréation humaine », plusieurs oulémas, un cardinal de la Sainte Eglise romaine, lui-même originaire du Bénin, un rabbin new-yorkais, un historien palestinien, un pasteur anglican ? Or cela s'est vu, l'automne dernier, à Agadir.

Je ne m'éloignerai guère de la médecine et de la biologie si j'adresse un salut particulier à S. Exc. Monsieur Azzedine Laraki, Premier Ministre du Maroc, après avoir été longtemps Ministre de l'Education Nationale. Professeur de médecine, et membre de l'Académie du Royaume, dont il est présentement directeur, il nous prouve que médecine, gouvernement et académie, loin d'être incompatibles, peuvent être activités complémentaires. J'ai d'ailleurs constaté que, comme par la force des choses, les médecins sont en comparable proportion dans nos deux Compagnies, les ministres et anciens ministres aussi.

Le soin non seulement des corps, mais des âmes, des sociétés et des langages est affaire commune, en notre temps plus que jamais.

Ne soyez donc pas surpris si c'est à un autre médecin, le Professeur Abdellatif Berbich, que j'adresse les vœux que l'Académie française forme pour sa sœur chérifienne. Ce jeune Secrétaire perpétuel est ancien doyen de la Faculté de Médecine de Rabat. En lui se résume toute l'affabilité marocaine, de même qu'en lui s'incarne vraiment l'esprit de sa Compagnie. Nul ne saurait mieux illustrer la double culture que le Professeur Berbich, cet élève de Jean Hamburger et de Jean Bernard qui, avec une égale aisance, peut traduire en français

une sourate du Coran et en arabe un traité de néphrologie. La voilà bien, l'alliance de la tradition et de la modernité ! Et comme il est réconfortant de la voir s'épanouir chez un homme de dévouement !

Une pensée de confucius, en cet instant, me revient à la mémoire : « Le véritable sentiment religieux consiste à développer en soi un sentiment désintéressé de l'ordre universel ». N'est-ce pas ce sentiment qui doit habiter, idéalement, les Compagnies telles que les nôtres, et leur faire préfigurer selon le beau nom que Léopold Senghor lui a donné, la civilisation de l'universel ?

Puissions-nous, les uns les autres, nous y aider.

Discours prononcé par

Abdelatif Berbich
Secrétaire Perpétuel de l'Académie du Royaume du Maroc.

Monsieur le Secrétaire Perpétuel,
Monsieur le Directeur,
Mes chers Maîtres,
Mes chers collègues, Mesdames et Messieurs.

Il y'a de cela un peu plus de quarante ans, feuilletant maladroitement les dernières pages d'un petit Larousse que me prêtait parcimonieusement mon frère aîné, je suis tombé sur une liste de noms français surmontée d'une vignette où il était inscrit : « Académie Française ». A l'âge que j'avais alors – dix ou douze ans – je n'eus pas l'idée de chercher dans la « partie langue » du dictionnaire le sens du mot académie. Peut-être n'aurais-je pas su, du reste. Mais une fois que j'eus compté les noms sur les deux ou trois colonnes de la liste, la culture populaire marocaine vint à mon secours, à sa manière, en me suggérant directement le sens du mot-clé de l'énigme qui se posait à moi. N'avais-je pas entendu dire, plusieurs fois, qu'un pays est toujours gouverné soit par un roi, soit par une assemblée de quarante personnes qui siègent ensemble ? Vous devinez ma conclusion : pour l'enfant que j'étais, L'Académie Française gouvernait la France. Quelques années plus tard, je ris de mon innocente bévue lorsque mes professeurs de français m'indiquèrent la place exacte impartie à votre honorable Compagnie dans la structure, riche et complexe, de votre civilisation. Je compris la leçon et la retins pour longtemps. Mais, l'expérience venant avec l'âge, je me suis surpris plus d'une fois à penser que c'est la parole qui gouverne réellement les sociétés humaines, puisque c'est elle qui gouverne la pensée. Mon enfantine compréhension du rôle qui vous est assigné n'avait donc pas été tellement erronée du fait que c'est vous qui gouvernez le mot, en France, et, au delà du mot, l'âme de la culture française. C'est vous Messieurs qui gouvernez votre nation dans ce qu'il y a chez elle de plus permanent et de plus spécifique. Vous le faites de façon admirable, croyez-en l'avis de gens venus d'assez près pour juger avec sympathie, mais d'assez loin pour apprécier avec des yeux neufs. Croyez-en l'avis de gens, qui, eux aussi, cultivent amoureusement le verbe, tant il est vrai qu'il ne peut émaner que de l'esprit.

Oui, Messieurs, vous vous acquittez admirablement de la mission noble et sans fin dont l'histoire de votre pays vous a chargés. À mission sans fin, personnages immortels. Voilà, je crois, la vraie justification de la qualification que l'on vous décerne. Mûrement, vous pesez chaque mot, c'est-à-dire chaque clé de la connaissance : vous en appréciez l'adéquation à la chose, à la notion, à l'idée ou au sentiment qu'il se propose d'exprimer. Et vous faites cela depuis plus de trois cent cinquante ans !. Il n'est pas aisé de saisir la portée de votre action, et encore moins de comprendre votre manque d'inclination à la hâte et à l'empressement. Vous travaillez au rythme des décades et des siècles, pendant que d'autres, comptent le temps de leurs actes, pour le mieux, en mois ou en années. « La lenteur est une beauté » disait l'un des plus grands de vos sculpteurs, dont l'œuvre, en moins de deux générations, a pris option sur l'éternité. J'ajouterai que la lenteur est une sagesse, du moment qu'elle engendre la durée. Il faut, pour comprendre votre grave démarche, avoir le goût de l'éloquence et le sens de la beauté incarnée dans le langage. Mes confrères marocains m'ont chargé de vous dire combien nous apprécions la solennité de vos débats et les grandes envolées marquant vos discours, nous les dépositaires d'une langue qui bannit la précipitation dans le débit du discours, et, surtout, dans la diction des mots. La diction n'est-elle pas la « mère de la poésie » comme le proclamait l'un des vôtres, celui-là même qui s'était déclaré ennemi de toutes les facilités ? Vous reconnaissez Paul Valéry. Mais, voilà, il n'est pas du tout commode d'être l'ennemi des facilités, en quelque domaine que ce soit, sauf, sans doute, pour une institution garantie par sa pérennité, telle la vôtre, qui ne se soucie point de savoir de quel côté souffle le vent éphémère de la mode. Gardiens vigilants, mais placides, du patrimoine linguistique français – quel trésor ! –, vous entendez le tenir hors d'atteinte des phénomènes dénaturants qui le guettent en permanence. Rome aurait souhaité vous avoir en ses murs, et Athènes au temps de sa gloire : le grec et le latin n'en auraient pas été réduits à être classés langues mortes. Si l'arabe, leur héritier direct et légitime n'a pas connu le même sort – disons-le en passant –, il le doit au fait que la Providence l'a établi en cette citadelle imprenable qu'est le Coran, dont le très haut et le Créateur a dit : **« C'est Nous qui avons révélé le Livre, et c'est Nous qui en assurons la conservation ».**

Ils ont été bien sages les Rois de France, qui, voyant sous leurs yeux mourir le latin, ont eu l'idée combien féconde, de se faire les protecteurs du bien de consomation courante le plus indispensable à la vie de la nation française, à sa cohésion, à son développement, et à son épanouissement, à savoir le français. La création de l'Académie, en 1634, couronne les efforts effectués dans ce sens par les predécesseurs de Louis XIII. Depuis cette date, votre Compagnie, Messieurs, a siégé sans désemparer, le court intermède de la Révolution n'avant été pour elle qu'un regrettable accident de l'Histoire. Elle n'a évidemment pas échappé aux querelles littéraires des époques qu'elle a traversées, à celle du Cid, par exemple, à celle des Anciens et des Modernes. Elle a fait aussi l'objet de pressions politiques et d'infiltrations doctrinales, mais le *bel édifice* intellectuel et moral qu'elle incarne est resté inébranlable. On serait tenté de croire que les his-

toriens, dans leur souci de n'être les interprètes que de ce qui appartient définitivement au passé, ont hésité longtemps avant de chercher à connaître de ses défauts et qualités. Finalement convaincus qu'il est appelé à meubler éternellement l'espace français, ils ont entrepris de l'étudier vivant, de l'extérieur comme de l'intérieur, sans parvenir à dissimuler leur humeur. Ils traitent irrévérencieusement la Compagnie de « vieille dame du quai Conti », bien qu'étant de ses propres enfants ; ils lui prêtent une « vie secrète » ; ils spéculent sur la « fièvre verte » qui secoue ceux qui aspirent à y entrer, et se demande si, au moins, elle a la foi. Mais, imperturbable, elle passe son chemin, le regard fixé sur un horizon qu'elle veut toujours lointain.

Voilà qu'elle s'arrête aujourd'hui, un moment sans plus, pour recevoir une hôte. Une jeune hôte, très jeune, de presque trois siècles et demi sa cadette, qui lui apporte un message. Elles se connaissent, bien sûr, du moment qu'elles communiquent entre elles, sinon ne communient depuis des années déjà. Mais « la vieille dame » veut en savoir davantage sur son invitée d'une heure.

Elle semble ambitieuse, la jeune amie, elle qui se propose *d'être* un point d'appui pour « l'effort volontaire de l'esprit » et *de contribuer* à faire jouer pleinement à son pays le rôle de « liaison et de synthèse entre les peuples et les civilisations d'Europe et d'Afrique, du monde méditerranéen et du monde atlantique », rôle à lui dévolu par son histoire et sa géographie ; elle qui se propose de ne rien épargner pour *aider à concilier* traditions et progrès *et à promouvoir* une « éthique transcendante », qui puisse mettre les sciences et les techniques au service du bien être réel de l'être humain. Elle se propose encore, en associant à sa tâche « des hommes qui, dans les différentes parties du monde auront rendu les plus éclatants services à la civilisation », *d'œuvrer* pour le « développement de la recherche et de la réflexion dans les principaux domaines d'activité de l'esprit : théologie, philosophie, morale, droit, art de gouvernement, histoire, lettres, beaux-arts, mathématiques, sciences expérimentales et non expérimentales, éducation, médecine, diplomatie, stratégie, administration, économie, industrie, urbanisme et techniques appliquées ».

Elle se veut « un lieu permanent de rencontres, d'échanges et d'amitié » et s'en donne les moyens en s'autorisant à « tenir séance, exceptionnellement il est vrai, en dehors du territoire national », et en adoptant comme langues de travail le français, l'espagnol et l'anglais, en plus de l'arabe, sans fermer la porte aux autres langues. Elle tient deux sessions publiques par an, où elle développe des thèmes que lui inspire Son Illustre Fondateur et Protecteur, Sa Majesté Hassan II ; des thèmes d'autant plus ardus qu'ils soulèvent des problèmes d'une brûlante actualité. Jugez-en vous-mêmes, Messieurs, en examinant dans leur succession chronologique les sujets sur lesquels l'homme moderne, qu'il soit africain, européen, américain, asiatique ou océanique, a été invité à concentrer sa réflexion pendant des mois, pour venir en livrer le fruit à ses pairs et semblables en deux

ou trois jours de débats fructueux dont la vivacité ne le cède en rien à la courtoisie. Ainsi a-t-on cherché, en commun dans le courant du dernier trimestre *1980*, à intéresser des penseurs de toutes nationalités et de différentes disciplines au développement de la télématique dans ses rapports avec la morale. Ainsi a-t-on voulu, par la suite, éclairer d'un jour nouveau la question de Jérusalem – Al Qods –, ville de vieille civilisation s'il en est. Ainsi a-t-on tenté d'élucider les causes profondes des crises spirituelles et intellectuelles qui secouent le monde contemporain. A lui seul, le thème de l'eau associée à la nutrition et à la démographie, a retenu l'attention pendant un an. On s'est interrogé aussi sur la propension de la puissance économique des uns à rendre inopérante la souveraineté politique et diplomatique des autres. L'urgence de réclamer une déontologie pour la conquête de l'espace, la nécessité de définir la notion du droit des peuples à disposer d'eux-mêmes, et l'utilité de tracer une voie à la conciliation entre le terme du mondat présidentiel et la continuité de la politique intérieure et étrangère dans les états démocratiques, ont amené votre invitée de ce jour, à réunir autour de tables rondes des dizaines de savants, d'universitaires et d'experts, en des forums où des hommes peuvent se concerter autrement qu'en épiant les uns les arrière-pensées des autres. A ces « citoyens du monde », si j'ose dire, nous avons aussi demandé de débattre, avec nous, des « problèmes éthiques engendrés par la maîtrise des nouvelles techniques de procréation humaine », ou de la relation pouvant exister entre les formes modernes de la piraterie et l'atteinte au droit des gens.

C'est l'Académie du Royaume du Maroc qui s'est ainsi présentée à vous, Messieurs, et qui vous a fait part, non sans fierté, des activités par elle déployées durant les sept premières années de sa jeune existence. Fascinée par les lumières de votre belle capitale, tant aimée par notre Roi, elle est venue, en ce beau printemps français où le charme de la nature invite à se délecter de la joie de vivre, elle est venue y réunir des hommes qui ont à cœur de savoir « quelles mesures il convient de prendre et quels moyens il faut mettre en œuvre en cas de catastrophe nucléaire involontairement provoquée ».

En dehors de ses deux sessions publiques, l'Académie du Royaume du Maroc ne chôme évidemment pas. Retirée dans sa modeste mais agréable demeure de l'Avenue Imam Malik, à Rabat, elle s'active en commissions le reste de l'année, soit pour répondre aux besoins d'organisation et de mise en ordre de sa vie matérielle et administrative, soit pour poursuivre la réflexion sur des questions relatives au patrimoine culturel national, aux valeurs spirituelles et intellectuelles de l'Islam, à l'éducation, ou à la vie et à l'évolution de la langue arabe. Dans ses réunions générales bi-mensuelles, regroupant les membres résidents, elle procède à des synthèses, fait le point de l'avancement des travaux de ses commissions puis écoute et commente l'exposé littéraire, philosophique, historique, théologique ou scientifique effectué par l'un de ses membres sur un sujet choisi en commun. Et c'est là, Messieurs, qu'apparaissent vraiment les avantages de la

pluridisciplinarité qui caractérise la composition de notre Compagnie ; ce n'est pas un mince privilège que de pouvoir observer de près un mathématicien s'affronter – oh, de la façon la plus amène ! – avec un sociologue ou un théologien ; un médecin disséquer les propos d'un historien ou d'un éducateur ; ou un économiste aider amicalement un philosophe à redescendre des hautes sphères de la spéculation intellectuelle.

Je vous disais tout à l'heure, Messieurs, que votre hôte d'un jour, notre jeune académie, est ambitieuse. Elle l'est plus que vous ne pouvez croire. Pensez donc, en plus de son aspiration à devenir un foyer de rencontre entre cultures, entre croyances, entre modes de pensée, entre modes de vie, bref un « melting-pot », un creuset des visions du monde, en plus de cette vaste aspiration, elle se voudrait l'instrument principal d'une stratégie culturelle dont son Fondateur et Protecteur a puisé les éléments dans sa grande sensibilité aux palpitations du souffle créateur qui porte l'humanité. Sa Majesté Hassan II a eu tôt fait de percevoir, en effet, qu'une civilisation de l'Universel est en gestation ; ses contours sont déjà nettement dessinés. Chacun contribuera à son édification en y apportant ce qu'il a de plus spécifique, de plus dense, de plus original. Tout se passe comme si l'homme faisait l'inventaire de ses moyens les mieux adaptés à relever quelque défi venant de Mars, de Venus, de Pluton, ou de plus loin. Dans ce branle-bas de combat, les moins aptes sont nécessairement relégués en arrière, et les plus pugnaces se regroupent en avant par affinités historiques ou géographiques. J'en arrive, Messieurs, au point central de ce propos, que votre aimable et patiente audience me permettra de développer encore un instant.

Vous êtes, sans le moindre doute, mieux placés que quiconque pour observer le branle – bas culturel, dont j'ai dit un mot et pour imaginer le regroupement de forces qu'il implique. Des ensembles culturels se constituent, où se tissent des alliances destinées à transcender les identités linguistiques ou religieuses et à ignorer les disparités politiques et économiques. Il est permis d'espérer que ces alliances ne chercheront jamais à anéantir l'adversaire, mais à l'amener simplement à prendre position pour se définir et pour défendre ce qu'il estime être, chez lui, fondamental. Il est permis d'espérer aussi que ce mouvement de regroupement des cultures débouchera sur une civilisation universellement reconnue, harmonieuse et créatrice, où chacun aura investi ses valeurs les plus autentiques.

Or, il est inscrit dans l'histoire de l'Antiquité, comme dans celle du Moyen-Age et des Temps Modernes, que le bassin méditerranéen est « candamné » à s'unifier, s'il à la volonté réelle de survivre, de prospérer et de s'épanouir en tant qu'entité autonome. Qui dit bassin méditerranéen, à l'échelle du siècle prochain, dit Europe, Afrique et Moyen-Orient. Et qui parle d'union, parle d'une union culturelle, économique et pourquoi pas, à terme, politique. Je n'évoquerai que l'aspect culturel.

Nous avons déjà en commun l'immense culture Abrahamique, dont les ramifications successives attestent la vitalité. On oublie souvent qu'elle continue de rayonner en tous sens, de tout son éclat. Les nations d'Asie qui sont restées en

dehors d'elle en perçoivent mieux que nous l'unité profonde, et s'étonnent de nos querelles à propos de divergences de détail. Nos différentes interprétations du monothéisme n'en devront néanmoins pas cesser de se faire loyalement concurrence. « **Si Dieu ne neutralisait pas une partie des hommes par une autre, la terre serait corrompue** » dit le Saint Coran. Thomas d'Aquin devra continuer à en disputer avec Averroès, et Maïmonide à faire semblant d'ignorer Ghazali. C'est à dessein que nous avons « convoqué » ces deux derniers à notre colloque d'Agadir, pas plus tard qu'il y a deux ans.

Et puis il y a le volet moderne de notre fonds commun. Vos enseignants ne venaient-ils pas par milliers, dans mon pays, jusqu'à il y a une décennie à peine, apporter leur contribution à notre renouveau culturel et scientifique ? Ils ont fait aimer à trois, au moins, de nos générations votre belle langue, dont la position internationale fait de plus en plus l'objet de la sollicitude officielle de vos dirigeants. Dans cette perspective, et dans le cadre plus vaste de la stratégie évoquée à l'instant, c'est en alliés, Messieurs, que nous sommes aujourd'hui vos hôtes. Si, jadis, des soldats amis de la France, sont venus clamer sur une place de Paris : « Lafayette, nous voici ! », permettez que nous disions, nous, sous cette prestigieuse Coupole, sans accent martial, mais fermement : « Racine, Corneille, Chateaubriand, Vigny, Hugo, Mauriac, nous voici !... Vous nous avez nourri de vos vers et de votre prose ; vous nous avez appris à apprécier l'esprit français, et, par contrecoup, à faire un retour bénéfique sur nous-mêmes, et à effectuer une plongée salutaire en nos propres âmes et un réajustement de nos propres valeurs ».

Ces valeurs n'ont pas toutes été dépréciées par le temps, il s'en faut de beaucoup ; et nous sommes prêts à les partager. Si le champ culturel a dû être considéré pendant deux millénaires comme le prolongement du champ de bataille entre les deux rives de la Méditerranée, il n'est pas moins prouvé qu'une symbiose des idées, des mœurs et des mentalités entre Latins, Grecs, Gaulois, Egyptiens, Arabes, Berbères, Ibères et Africains, s'amorçait déjà dans la plus haute Antiquité.

De nos jours et fort heureusement, les hommes envisagent de mieux en mieux, malgré les apparences, la possibilité de co-exister sans avoir à s'entre-tuer. Ils ont l'espoir de ne plus se regarder en chiens de faïence, mais en compétiteurs et en émules comme ils le font, déjà, sur les terrains de sports. L'équipe culturelle méditerranéenne a tout intérêt à rassembler ses effectifs au plus tôt, à recenser les disciplines où elle a les meilleures chances d'exceller, et, surtout, à se doter de l'esprit de corps dont elle a besoin. Bien sûr, nous nous connaissons déjà, mais pas assez, et souvent mal. Dans de nombreux domaines, c'est souvent par clichés que nous nous citons les uns les autres, et à partir de bribes insignifiantes, nous prétendons nous saisir, nous juger et souvent nous condamner réciproquement. De ce point de vue, il y a une œuvre gigantesque à entreprendre en commun pour que de graves lacunes soient comblées. Et seuls des échanges intensifs pourraient y aider. Jadis vos philosophes ont renoué avec Aristote grâce à Averroès,

Grâce aussi au latin et à l'arabe. Vos médecins ont étudié minutieusement Avicenne et vos mathématiciens ont avidement assimilé Khawarizmi. En nous empruntant, vous vous cantonniez prudemment dans le domaine de la philosophie et des sciences, exactement comme nous avions fait, nous, en empruntant aux Grecs. De nos jours, des arabisants et des islamisants de talent et de grand cœur, tels un Louis Massignon, un Maxime Rodinson, un Henri Miquel et d'autres, ont fait dépasser à vos compatriotes, face à la culture arabo-musulmane, le stade de l'émerveillement ou de l'étonnement, qui avait succédé à celui du préjugé et de l'incompréhension. Qu'ils soient ici remeciés. De l'autre côté du *mare Nostrum,* nos élèves continuent à réciter la Fontaine, et nos étudiants à scruter la pensée de Sartre. Des centaines de milliers, voire des millions de livres français garnissent les bibliothèques marocaines ou circulent même, depuis quelques temps, par camions spéciaux, jusqu'aux sommets de l'Atlas et à travers les dunes et les grandes étendues de notre Sahara.

L'interpénétration de nos valeurs intellectuelles s'opère donc au niveau du quotidien. Elle aura trouvé sa voie royale le jour où la langue arabe ne paraîtra plus inaccessible aux jeunes français et où Moutanabi, Shawqi, Ibn Roshd, Ibn Khaldoun et Taha Housseine seront lus dans le texte par autant de lycéens et d'étudiants chez vous qu'il s'en trouve chez nous, qui déclament, en les savourant, des poèmes de Verlaine ou de Musset ou se penchent attentivement sur des pages de Flaubert ou de Balzac.

En tout état de cause, les représentants permanents de votre honorable Compagnie au sein de la nôtre, autrement dit nos membres associés pouront témoigner de notre ardeur à étudier votre civilisation et de notre désir de nous en imprégner. Monsieur le Président de la République Française se demandait, très récemment, pour s'en féliciter, si votre pays, lui, n'était déjà pas un peu arabe. Vous ne serez donc pas trop surpris, si Jean Bernard, Maurice Druon et Edgar Faure vous reviennent un jour de chez nous, à l'issue de l'une de nos sessions académiques semestrielles, habillés de djellabes et de burnous. De leur arabité vous n'aurez vu que la surface.

Permettez-moi, Messieurs, pour terminer de m'adresser en particulier à votre Secrétaire Perpétuel pour lui dire : « merci beaucoup, cher ami d'avoir organisé cette rencontre qui est une grande première, puisque c'est la première fois, dans sa longue histoire, que l'Académie Française reçoit, sous sa Coupole, de façon solennelle, l'ensemble des membres d'une académie étrangère.

Vous savez en quelle estime vous étes tenu par notre Roi, et par nos confrères de l'Académie du Royaume du Maroc mais ce que vous ne savez pas, c'est que vous êtes, pour tous ceux qui peuvent vous entendre parler chez nous, un modèle et une école de l'éloquence française, et de l'éloquence tout court. Vous ayant longuement et attentivement écouté, un de mes amis me disait que, non seulement vous lui avez fait aimer encore, un peu plus, la langue de Molière, mais que vous avez créé chez lui un élan irrésistible vers l'étude de la rhétorique arabe.

Merci, Messieurs, de votre hospitalité et de votre très aimable attention.

Discours prononcé par

Mohamed Habib Belkhodja

Monsieur le Secrétaire perpétuel de l'Académie Française,
Messieurs les académiciens,

La dignité qui m'est attribuée par Sa Majesté le Roi Hassan II, fondateur de l'Académie du Royaume du Maroc, de porter auprès de Vous la voix et le salut de la culture arabe, n'a d'égal que l'honneur qui m'échoit, ainsi qu'à mes collègues, de me retrouver au sein de votre honorable enceinte et d'être accueilli par les meilleurs esprits de la langue, des lettres et des arts de France.

Nul doute : la finalité de notre rencontre ne se limite pas au simple échange protocolaire. Elle le déborde pour chercher en fait à renouveler une tradition ancienne, celle qui vit l'Europe latine et le monde arabe instaurer, développer et poursuivre un authentique dialogue des cultures. Ces flux inter-culturels ont d'ailleurs précédé la naissance du mouvement académique européen qui ne se développa quant à lui, qu'à partir du XV^{ème} siècle, en Italie, sous l'impulsion des grands ducs de Toscane, puis en France, au XVII^{ème} siècle, sous la direction centralisatrice et nationalitaire de la monarchie française, pour laquelle Richelieu, Mazarin puis Colbert conçurent la mise sur pied d'un ensemble académique – dont l'Académie Française fut et reste l'élément le plus notoire – et qui avait pour vocation de protéger et promouvoir la langue, les arts, les lettres et les sciences. Que l'Académie française, débordant quelque peu sa vocation initiale, porte la culture française au dehors ou accueille dans son enceinte les représentants des cultures arabo-africaines ne peut être compris que comme un signe heureux de notre temps.

La culture arabe constate et s'enorgueillit d'être le fruit d'une tige mainte fois greffée. Le fonds culturel et social arabe anté-islamique lui a donné son génie linguistique et poétique, lui a légué ses dons d'invention et son sens de la liberté ; l'Islam lui a inspiré sa mystique, ses croyances métaphysiques, ses valeurs morales, ses normes constitutionnelles et juridiques ; l'Inde, la Grèce, Byzance, la Perse lui ont fourni les fondements de ses constructions philosophiques, de son savoir scientifique, de ses technologies et de son art.

Le trait spécifique de la culture arabe, c'est qu'elle ne distingue pas absolument le profane et le sacré. Le Coran, texte révélé et la Sounna du Prophète ne se limitent pas au champs fidéiste et à l'interpellation de l'âme pour son salut. Le chant mystique pénètre nos arts, nos usages sociaux, notre langue. Il anime ce qui, dans d'autres civilisations, relève exclusivement du monde terrestre : cela va de l'architecture d'une cité, jusqu'à son mode collectif de vie, c'est-à-dire son organisation politique. C'est le substrat islamique de notre culture qui a permis dans l'histoire l'assimilation de tant d'apports extérieurs et qui aujourd'hui ouvre, à ce qu'on appellera désormais le monde arabo-islamique, l'accès à la modernité.

L'Inde n'apporta pas uniquement au monde arabo-islamique son remarquable capital de savoir mathématique, astronomique ou médical. Elle en inspira certaines œuvres littéraires qui sont allées enrichir les grands textes de la littérature universelle : c'est dans leur version arabe que « les Mille et une nuits » rayonnèrent sur le monde. Les arabes doivent également à l'Inde un de leurs plus fins classiques, les fables de « Kalila Wa Dimna », traduit du Sanskrit au Persan, puis à l'Arabe par Ibn al Muqafa', au VIII^{ème} siècle de l'ère chrétienne, comme ils doivent à la Perse une part importante de leur art pictural, graphique, architectural et urbain, et de leur science astronomique et médicale. Ils lui doivent surtout l'essentiel de leur mystique.

Mais la plus originale et la plus novatrice union fut celle des deux cultures grecque et arabe. Elle procède certes du naturel échange matériel entre les hommes, notamment le commerce et la circulation des manuscrits, mais elle procède surtout d'un volontarisme étatique et d'un choix politique délibéré.

Un récit rapporté par le célèbre bibliographe du X^{ème} siècle, Ibn An-Nadîm, illustre parfaitement et symbolise cette remarquable rencontre entre l'Etat arabe, la culture islamique et la Grèce. Il s'agit d'une vision du Calife abbasside Al-Ma'moune, qui vit en songe un grand sage aux yeux bleus, et comme il lui demandait qui il était, le grand sage répondit : « Aristote ». Al-Ma'moune l'interrogea : « Qu'est le bien ? » et Aristote répondit : « ce qui est dans l'esprit ».

Ce fut là le point de départ d'un mouvement sans précédent de traduction, de mises au point, de commentaires des textes scientifiques, philosophiques et politiques de la Grèce, traduits en général du Syriaque, puis collationnés sur les originaux grecs. Les Abbassides, pour encourager et centraliser cette activité scientifique fébrile, fondèrent le *« Beit al-Hikma »* (Maison de la Sagesse), établissement académique établi sur le modèle de l'ancienne académie sassanide de Djundishapur, qui fit de Bagdad la capitale scientifique du monde et qui permit aux Arabes de récupérer et de dépasser le savoir antique, notamment la géométrie de Ptolémée, la botanique de Dioscoride, les systèmes philosophiques et politiques d'Aristote et de Platon. D'autres institutions du genre furent fondées par la suite, notamment la « Dar al-Hikma », par le Calife fatimide Al-Hâkim, en 1005 JC.

Les Arabes ne se limitèrent pas à la simple transmission de cet héritage. Ils y apportèrent critique et adaptation à leurs représentations propres de l'univers. C'est ainsi qu'ils conçurent des modèles astronomiques étrangers au système de Ptolémée, qui furent comparés aux modèles de Copernic. Ils firent faire de grands progrès à l'optique, grâce notamment à la contribution fondamentale d'Ibn al-Haytham au XI^{ème} siècle, dont le traité sur l'optique fut traduit en latin à la fin du Moyen-Age. Ils rénovèrent les mathématiques, la trigonométrie, l'algèbre et la géométrie grecques grâce à Khawarizmi (9ème siècle), Muhamed Ibn Ahmed, Umar al-Khayam et Nasr Al-Din al-Tûsi. Ils révolutionnèrent le système de numération par l'emploi jusqu'alors inconnu du chiffre (Sifr) zéro.

La philosophie grecque ne fut pas seulement pour les Arabes une simple extension de leur univers conceptuel, elle développa l'esprit critique et le sens de la dialectique. Certains grands noms la tenaient pour contraire à la vision islamique du monde et, tel Ibn Taymiyya au XIV^{ème} siècle, considéraient avec suspicion la logique aristotélicienne. Ghazzali avant lui, au XII^{ème} siècle, bien qu'attaché à l'enseignement de la logique aristotélicienne, avait dénoncé ce qu'il considérait comme erreurs et égarement des philosophes, ce qui lui valut une réfutation d'Averroès qui lui reprochait, entre autre, d'imputer à l'Antiquité des doctrines déviantes produites par les péripatéticiens islamiques.

L'histoire de cette symbiose culturelle par ses richesses, ses nuances, ses mystères, dépasse notre propos. Nous allons donc clore ces indications tout à fait sommaires par une réflexion de Kindi, philosophe arabe du IX^{ème} siècle, conciliateur du néo-platonisme et de la tradition musulmane ; réflexion qui pourrait servir aux générations présentes, peut-être victimes d'un certain cloisonnement culturel, dans un monde où pourtant la mobilité et la vitesse règnent sur l'univers entier. Kindi disait : « Nous ne devons pas avoir honte de reconnaître la vérité et de la faire notre quelle qu'en soit la source, même si elle vient d'anciennes générations ou de peuples étrangers ».

Les arabes ne se sont pas contentés de recevoir, il ont donné. Ils ont d'abord donné cette maxime inscrite en lettres d'or sur les façades des universités de l'Andalousie : « le monde est soutenu par quatre colonnes : le savoir des sages, la justice des grands, la prière des justes et la valeur des braves » *.

Ils ont donné leur inspiration aux troubadours dont les chansons imitaient les chanteurs de Zadjal andalous. Ils ont imprégné la « divine comédie » de Dante qui doit aussi bien au mystique du XIII^{ème} siècle Ibn Al Arabi, qu'à la *« Rissalat al-Ghufrân »* de Abu al Alā al-Ma'āri.

* Rister : La civilisation arabe. Payot 1955 p. 151.

Votre « Robinson Crusoe » est une fascinante réplique de notre « Hay Ibn Yaqdhan », roman à caractère symbolique et philosophique écrit par Ibn Tufayl, écrivain médecin et philosophe du VII^{ème} siècle que les scolastiques chrétiens appelaient Abubacer.

Est-il besoin de rappeler combien l'astronomie est tributaire de Jâbir Ibn Aflah devenu le Geber du Moyen-Age, traduit en Latin par Gérard de Crémone ? Combien la chimie moderne doit à Jabir ibn Hayân qui eut entre autres mérites de modifier les théories d'Aristote sur la constitution des métaux ? Combien la médecine est redevable à la médecine expérimentale pratiquée par les bimaristan (hôpitaux) islamiques qui furent édifiés par les Abbassides sur le modèle de l'hôpital persan de Djundishapur et aux théories médicales de Razès, de Ali Abbas et d'Avicenne, tous traduits en Latin ? On sait que l'œuvre d'Avicenne traduite au XII^{ème} siècle et rééditée une quinzaine de fois resta la référence incontestée de toute la science médicale occidentale jusqu'au XVIII^{ème} siècle.

Comme la découverte du patrimoine hellénique et persan fut pour les Arabes un catalyseur de leur essort intellectuel, la découverte du patrimoine arabe à la fin du Moyen-Age allait, sinon créer, du moins alimenter et accélérer le réveil intellectuel de l'Occident, grâce aux traductions vers le Latin et l'hébreu, impulsées par des souverains européens, comme Alphonse X et exécutées par des érudits tels que Constantin l'Africain (fondateur de l'école médicale de Salerne), Gérard de Crémone, Gundisalvi, Michel Scot, Herman l'Allemand de Tolède, éparpillés à travers les centres académiques de Burgos, Tolède, Salerne, Naples...

On sait de quel poids la pensée Avérroiste allait peser sur l'éclosion du nouvel esprit politique occidental, puisque son influence fut déterminante sur l'école albertino-thomiste aussi bien que sur Marsile de Padoue et par conséquent sur la science politique moderne.

Mesdames et Messieurs,

Aucun être vivant physique ou social ne peut naître et croître par ses vertus et son énergie propres : la culture qui constitue le mode de s'exprimer des sociétés n'échappe pas, ne peut échapper à la règle de l'échange, et des influences. Toute culture est en grande partie un don des autres. Notre présence parmi vous n'est qu'une illustration de ce principe mille fois répété à travers l'histoire. Chacun de nous en est à la fois l'auteur et le sujet. Nous vous sommes reconnaissants de nous avoir donné une si précieuse occasion de la réaffirmer et de nous avoir offert pour cela le ciel de votre illustre Coupole.

Discours prononcé par

Lord Chalfont

Messieurs,

C'est un très grand honneur pour moi d'avoir été prié au nom de l'Académie du Royaume du Maroc d'apporter un message de fraternité à cette auguste institution au prestigieux passé qu'est l'Académie française. J'éprouve également un grand plaisir à me trouver ici en présence de M. Maurice Druon, secrétaire perpétuel de l'Académie française et membre éminent de la commission de fondation de notre propre Académie. Les deux autres membres de l'Académie française qui nous ont également fait l'honneur d'accepter de devenir membre de l'Académie du Royaume du Maroc sont Son Excellence M. Léopold Sedar Senghor et M. Edgar Faure.

En 1977 Sa Majesté le Roi Hassan II, faisant preuve à son habitude de perspicacité et d'imagination, créa l'Académie du Royeume du Maroc, le dahir précisant que sa principale mission consiste à :

> promouvoir le développement de la recherche et de la réflexion dans les principaux domaines d'activité de l'esprit : [théologie, philosophie, morale, droit, art de gouvernement, histoire, lettres, beaux-arts, mathématiques, sciences expérimentales et non expérimentales, éducation, médecine, diplomatie, stratégie, administration, économie, industrie, urbanisme, techniques appliquées ;]

Et le 21 avril 1980, lors de l'inauguration de l'Académie dans la ville de Fès, berceau de la grande université Quarawiyyine, Sa Majesté a déclaré :

> Dieu a exaucé, en ce moment heureux et béni, l'un des espoirs que Nous avons longtemps nourri et caressé, d'ériger sur le sol de Notre pays un édifice dont la grandeur et l'éclat seraient l'œuvre d'une assemblée d'érudits en sciences, de maîtres en pensée et en rhétorique et d'hommes qui, à plus d'un titre, ont fait la civilisation.

[Depuis lors, l'Académie s'est appliquée avec zèle à mener à bien cette mission, en s'employant à étudier les questions formulées de temps à autre par Sa Majesté. L'Académie s'est ainsi penchée sur des sujets aussi variés que l'exploration de l'espace, la fertilisation artificielle, la piraterie de l'air et le développement du tiers monde. De toutes les parties du monde, d'éminents savants et des spécialistes émérites sont venus présenter des communications de grande valeur].

Déjà, en moins de dix ans d'existence, l'Académie est devenue le foyer intellectuel où les académiciens marocains et leurs collègues de l'étranger peuvent venir chercher un ressourcement spirituel et mental à l'occasion des réunions qui se tiennent deux fois par an sous l'égide et la protection de Sa Majesté le Roi Hassan II.

C'est donc une institution fière et bien établie qui a le privilège de se rendre dans cette magnifique cité pour y être reçue par l'Académie française, renommée dans le monde entier pour son érudition et pour son infatigable recherche de l'excellence et de la vérité. [Pour la première fois depuis son inauguration, l'Académie du Royaume du Maroc tient une de ses sessions plénières en dehors du Royaume. Peut-on imaginer de meilleur endroit que la capitale de la France, pays avec qui le Maroc a des liens étroits et un passé commun ? C'est donc pour nous un événement particulièrement agréable que d'être reçu aujourd'hui par l'Académie française.]

Votre institution est, bien sûr, beaucoup plus ancienne que la nôtre, et nous apprécions aujourd'hui à sa juste valeur le sens profond de l'histoire. Nous avons conscience que les ombres de Louis XIII et du Cardinal de Richelieu sont ici, près de nous. Pendant plus de trois siècles, le patrimoine culturel, intellectuel et linguistique de la France a, tel un fleuve, irrigué et bonifié cette prestigieuse Académie, dont la source remonte à ces groupes d'hommes de lettres parisiens associés aux noms de Conrart et de Chapelain, et qui s'est enrichi grâce à la pensée fertile de grands esprits comme Racine, Voltaire, Sainte-Beuve, Chateaubriand et Valéry. Vers le milieu du dix-neuvième siècle, les conditions exigées pour être reçu sous la Coupole étaient telles qu'un poète comme Victor Hugo n'a été élu qu'après trois tentatives infructueuses, et que des écrivains aussi remarquables que Molière, Balzac et Flaubert n'ont jamais eu le privilège de revêtir le fameux habit vert.

[La subtilité, la puissance et la beauté éternelles de la langue française constituent un monument qui témoigne de l'intégrité et de l'érudition de l'Académie française, universellement reconnue comme l'institution la plus brillante et la plus prestigieuse en son genre dans le monde entier.]

Nous, membres de l'Académie du Royaume du Maroc, sommes fiers de partager avec vous l'origine commune de l'ancienne académie grecque fondée par Platon

dans les jardins athéniens d'Akadémos au quatrième siècle avant Jésus-Christ, et où il a entrepris l'étude systématique de la philosophie comme préparation à la vie politique. C'est fidèles à cette tradition que nous nous rencontrons aujourd'hui au sein d'un monde foisonnant de périls.

Ainsi que M. Maurice Druon l'a déclaré dans son éloquent discours prononcé à l'occasion de l'inauguration de l'Académie du Royaume du Maroc :

C'est lorsque le monde est menacé de grandes subversions et de grandes destructions qu'il faut fonder et bâtir. C'est lorsque tout est instable, mouvant ou contesté, qu'il faut affirmer les permanences. C'est parce que le doute est dans les âmes qu'il faut proclamer la foi. C'est parce que la stérilité guette l'avenir qu'il faut semer. Lorsque l'incertitude est générale, alors il s'impose d'entreprendre, et c'est quand la mort rôde qu'il faut créer des œuvres à des fins pérennes.

Monsieur Druon a dépeint avec verve le monde où nous vivons. La texture de notre civilisation évolue rapidement. La menace de la violence terroriste apparemment illimitée plane sur nous, les valeurs spirituelles et morales semblent s'être engagées dans la voie de la désintégration, et partout règne l'incertitude de l'avenir. Dans nombre de nos pays, la langue, les coutumes et la civilité sont en butte aux attaques et vilipendées.

Dans un tel environnement, le monde des idées acquiert de plus en plus une importance considérable. Les travaux que vous entreprenez ici à l'Académie française et auxquels nous aussi, à l'Académie du Royaume du Maroc, nous nous attachons avec nos modestes moyens, ressemblent aux études dont Cicéron parle dans son plaidoyer Pro Archia [C'est bien sûr Cicéron qui, sous l'influence de Philon de Larissa et d'Antiochus D'Ascalon, a porté la tradition académique à son apogée dans la Rome du premier siècle avant Jésus-Christ].

> Haec studia adulescentiam acunt, senectutem oblectant, secundas res ornant, adversis perfugium ac solacium praebent, delectant domi, non impediunt foris, pernoctant nobiscum, peregrinantur, rusticantur.
>
> (Ces études donnent son élan à la jeunesse et font les délices de l'âge ; elles servent d'ornement à la bonne fortune et sont un refuge et une consolation dans l'adversité ; elles enrichissent la vie privée sans constituer une entrave à la vie publique ; elles demeurent avec nous la nuit, nous accompagnent dans nos voyages et lorsque nous nous enfonçons dans les profondeurs de la campagne).

[Voltaire, l'un des grands noms de l'Académie française, a rendu un grand hommage à Cicéron : « Nous rendons honneur à Cicéron », a-t-il dit, « qui nous a appris à penser », et selon Pline, Jules César a déclaré à propos de l'œuvre accomplie par Cicéron : « il vaut mieux avoir élargi le champ de la pensée humaine plutôt que d'avoir fait reculer les frontières d'un empire »].

Les membres de l'Académie du Royaume du Maroc se sentent encouragés et inspirés par l'accueil bienveillant que leur a réservé l'Académie française. Recevez nos chaleureuses salutations et soyez assurés que dans nos travaux nous ne ménagerons aucun effort pour aspirer à la qualité incomparable du savoir et de l'érudition dont vous vous êtes fait les défenseurs tout au long des trois siècles et demi qui viennent de s'écouler !

Discours prononcé par

Léopold Sédar Senghor

Messieurs les Secrétaires perpétuels,
Mes chers confrères

Comme l'ont souligné les orateurs qui m'ont précédé, ce 11 juin restera un grand jour pour la Francophonie. je voudrais, pour conclure, rappeler le rôle majeur du Maroc dans la formation, d'une part, de ce que j'appelle l'*Afro-Arabie* et, d'autre part, de ce que nous appelons la *Francophonie*.

Ce n'est pas hasard si, aujourd'hui, l'Académie française vous reçoit, nous reçoit sous sa Coupole.

Il y a, d'abord, que nous sommes quelques uns à être, en même temps, membres des deux Académies, dont Monsieur Maurice Druon, le Secrétaire perpétuel de l'Académie française, le Président Edgar Faure et le professeur Jean Bernard. Il y a aussi que Sa Majesté le Roi Hassan II est un homme de haute culture, qui a fait du latin parmi d'autres disciplines. Pour ma part, je lui dois beaucoup dans ma connaissance de ce que j'appelle « la Civilisation afro-arabe ». Il y a, ensuite, qu'avec son peuple, il est un des liens les plus forts, parce que les plus anciens, qui unissent, le Maghreb, c'est-à-dire la Maurisie des Grecs, et l'Afrique de l'Ouest. Enfin, dans la Francophonie, que nous sommes en train d'édifier et qui ne contredit pas l'Afro-Arabie, tout au contraire, le Maroc et son Roi jouent un rôle majeur.

Je n'insisterai pas sur les liens qui unissent les deux Académies. Précisément, nous sommes ici pour les démontrer, mais surtout les développer.

Quant au rôle qu'a joué le Maroc en Afrique de l'Ouest, je commencerai par rappeler l'épopée des Almoravides. Au départ, c'était un peuple mêlé, métis, comme le sont tous les peuples qui ont joué un grand rôle dans l'Histoire. Les Almoravides étaient composés de Berbères Zénagas, qui ont donné leur nom à mon pays, le Sénégal, mais aussi de Peuls, qui sont un des grands peuples de

l'Afrique de l'Ouest. Après avoir conquis l'empire du Ghâna, à l'Est du Sénégal, en 1076, les Almoravides montèrent au Nord, où ils conquirent successivement l'Ouest du Maghreb et l'Espagne, c'est-à-dire l'Andalousie. C'est ainsi qu'ils donnèrent une nouvelle dynastie au Royaume du Maroc, tout en étendant celui-ci au Sud, jusqu'au Sénégal.

On ne s'étonnera donc pas des liens, si forts, qui unissent, encore aujourd'hui, le Maroc et l'Afrique de l'Ouest, singulièrement le Sénégal. Liens biologiques, bien sûr, mais encore liens religieux et culturels, que la Francophonie, depuis les indépendances de 1950-1960, a fortifiés.

Dans le domaine religieux, c'est la secte sunnite des Tidianes qui, à partir de la ville de Fès, a converti la grande majorité des Sénégalais à l'Islam, pour ne pas parler de tous les Soudano-Sahéliens. C'est pourquoi, aujourd'hui, la plupart des étudiants sénégalais qui vont faire leurs humanités arabes au Maghreb choisissent le Maroc. Sans oublier qu'au Sénégal même, les Marocains, à eux seuls, forment la majorité des résidents non seulement Maghrébins, mais encore nord-Africains.

Curieusement, mais vraiment, le Maroc exerce la même heureuse influence dans le domaine culturel et dans le sens de la Francophonie. En effet, de nombreux jeunes gens de l'Afrique de l'Ouest, mais surtout des Sénégalais, se présentent aux concours d'entrée en français des grandes écoles marocaines.

C'est ainsi que le Maroc, dans les faits, tout en cultivant son arabité, mieux, son afro-arabité, est un agent actif de la Francophonie. Au demeurant, comme le pense le roi du Maroc, à propos des plus grandes civilisations humaines, les deux cultures, l'arabe et la française, voire la latine, peuvent vivre en symbiose.

Dans les faits, c'est ce qu'elles font. En effet, au Maroc, c'est dès la première année de l'école primaire que les élèves, grâce à la méthode contrastive, si féconde, apprennent à lire, surtout à écrire en arabe et en français simultanément.

Cependant, le Maroc fait encore mieux. Dans le cadre du *Symposium culturel afro-arabe d'Asilah*, qui, en principe, se tient chaque année, il a commencé d'étendre sa coopération culturelle aux autres pays latins de la Méditerranée, en attendant d'y associer l'Amérique latine. L'an dernier, c'était le Portugal l'Invité d'Honneur.

C'est, là, un aspect important de la Francophonie. On nous annonce qu'en septembre, au sommet francophone de Québec, nous serons quelque 47 Etats. Si, un jour, on y ajoutait, toujours sur le plan culturel de la latinité, les 22 Etats latino-américains, cela ferait presque la moitié des Etats de l'ONU, représentant, à peu près un milliard d'hommes.

Je ne veux pas rêver. Nous ne sommes pas en poésie, mais dans le domaine de la culture, qui, à la réflexion, est l'essentiel parce que le moteur, mieux, l'architecte. C'est précisément, ce rôle d'architecte que joue méthodiquement, patiemment, le Roi Hassan II. Il sait que c'est en fortifiant la symbiose culturelle afro-arabe, pour l'étendre à la Francophonie, puis à la Latinophonie, que nous réaliserons le plus efficacement la *Civilisation de l'Universel.* Déjà celle-ci pointe à l'aube du troisième millénaire.

C'est sur cette civilisation que je voudrais conclure. Rien ne prouve mieux cet humanisme, mais moderne, du Roi Hassan II que la composition de cette Académie du Royaume du Maroc qui est reçue, aujourd'hui, sous la Coupole. L'Afrique, l'Asie et l'Europe y voisinent avec l'Amérique. Et cela me rappelle ce que nous apprenait le professeur Paul Rivet, fondateur du Musée de l'Homme. Désignant, sur une carte, le Bassin méditerranéen, il précisait : « C'est ici que sont nées les premières et les plus grandes civilisations par une double symbiose, biologique et culturelle, entre l'Afrique, l'Asie et l'Europe ou, si vous préférez, entre les Noirs, les Jaunes et les Blancs ».

C'est parce qu'il a réuni les trois mondes, c'est-à-dire les trois cultures, que le Maroc est, aujourd'hui et en Afrique, l'un des trois modèles, parmi les cinquante, qui nous montrent la voie de l'Humanisme moderne.

Suivant les hautes directives de Sa Majesté le Roi Hassan II fondateur et protecteur de l'Académie du Royaume du Maroc, Monsieur René-Jean Dupuy a été élevé à la dignité de membre associé après avoir été membre correspondant.

Les discours récipiendaires ont été prononcés par Monsieur Abdelhadi Boutaleb membre associé de l'Académie du Royaume du Maroc et par le nouveau membre, dont voici l'intégralité de leurs allocutions.

Discours d'acceuil

Abdelhadi Boutaleb

Monsieur le Directeur de séances
Monsieur le Secrétaire perpétuel de l'Académie,
Monsieur le Professeur René-Jean Dupuy

Monsieur,

L'orsqu'il m'a été demandé de vous présenter à vos honorables confrères, la première idée qui me vint à l'esprit est de vous dire que l'Académie du Royaume du Maroc s'est déplacée jusqu'à vous, dans cette prestigieuse capitale française, pour vous honorer et vous recevoir. Mais il se trouve que vous étiez allé auparavant vers elle et que, en tant que membre correspondant, vous avez déjà apporté à ses travaux votre contribution qui, une session après l'autre, s'avéra des plus remarquables.

Par conséquent, vos confrères vous connaissent déjà. Ils ne font aujourd'hui que vous confirmer comme membre à part entière de cette compagnie. Et si d'aucuns y entrent par le chemin le plus court, celui du prestige acquis ou de l'actualité qui dirige subitement ses faisceaux sur elle ou telle personnalité, vous avez choisi quant à vous une voie plus longue mais d'autant plus sûre et plus méritoire, celle de l'activité débordante mais silencieuse, celle du travail longtemps mûri et bien fait, celle du labeur patient et tenace, celle enfin qui a fait aujourd'hui l'unanimité autour de votre nom. Mieux encore, c'est Sa Majesté le Roi Hassan II qui fut sensible plus que tout autre à vos mérites et qui, en tant que grand esprit rencontrant un autre grand esprit et le reconnaissant comme tel, prit la décision de vous admettre au sein de cette Académie.

Cette persévérance et cette quête de la perfection ont été en vérité la marque de toute votre vie, que ce soit dans votre enseignement, vos recherches, vos publications ou votre action en faveur de l'avènement d'un monde mieux équilibré et plus juste.

Pour emprunter le langage de Victor Hugo, je dirai que vous êtes né quand ce siècle avait dix-huit ans.

Vous êtes donc né sous le signe de la jeunesse, une jeunesse à laquelle vous serez toujours lié en embrassant la carrière d'enseignant. Une fois agrégé de droit, vous serez nommé professeur à l'Université d'Alger, puis à celle d'Aix-en-Provence, ensuite à Nice avant que votre cheminement soit couronné par votre entrée dans l'une des institutions françaises les plus illustres, le Collège de France.

Votre naissance eut lieu, en même temps, sous le signe de la paix. Car l'année 1918 a vu signer l'armistice du 11 novembre qui mit fin à l'une des guerres les plus étendues au point qu'on l'appela grande guerre mondiale et les plus meurtrières que l'histoire des hommes ait connues. C'est dire les souffrances que vous n'avez sans doute pas manqué d'entendre rapporter un peu plus tard et les injustices qui laissèrent longtemps leurs stigmates dans les pays directement ou indirectement touchés.

C'est dire aussi la joie avec laquelle cette paix fut partout reçue. On l'exprima avec une exubérance telle que la période qui suivit porta en France le nom d'Années Folles. Cette période qui fut celle de votre enfance vit s'épanouir le surréalisme et l'expressionnisme, s'affirmer la peinture non-figurative et naître un nouveau genre qui acquerra indulitablement ses lettres de noblesse, la bande dessinée. Les traits spécifiques du vingtième siècle paraissaient ainsi les uns après les autres au grand jour.

Ce phénomène de mutation ne concernait pas seulement la vie littéraire et artistique. Il portait autant sur le profil politique et économique du monde.

Le message du Président Wilson, en 1917, est édifiant de ce point de vue. Non seulement il fait sortir les Etats-Unis d'Amérique de leur isolationnisme – ils rejoignirent le front à côté du reste de l'Occident – mais il pose les jalons d'une nouvelle carte européenne, met en exergue les problèmes juridiques de la mer, inclut l'intérêt des populations dans la problèmatique coloniale et appelle à la création de la Société des Nations.

En cette même année, la révolution triomphait en Russie, qui aboutira, cinq ans après, à la création de l'Union des Républiques Socialistes Soviétiques.

Sous la conduite des Etats-Unis et de l'URSS, existaient désormais les deux camps entre lesquels le monde aura à se partager. Les deux grandes puissances allaient lui proposer, parfois lui imposer, chacun de leur côté, une idéologie particulière, un système de pensée partisan, un mode de vie et un avenir qui s'opposent bien plus qu'ils ne se conjuguent et se rallient. Cependant, elles se rencontrent, de facto au moins, sur un point essentiel pour l'évolution ultérieure

du monde. C'est que, aux yeux de l'une et de l'autre, l'économique primera dorénavant dans la vie des nations et celles-ci, qu'elles optent pour la libre entreprise ou le dirigisme d'état, auront à compter avec lui.

Je voulais en venir là pour vous dire qu'en choisissant de vous spécialiser dans des branches de droit étroitement liées à l'économie – le droit international et le droit de la mer – vous avez vu juste et vous avez été pleinement un homme de votre temps.

Vous l'êtes d'autant plus que la dernière dimension – et non la moindre – du vingtième siècle, la colonisation et son corollaire la décolonisation et leurs prolongements, vous l'avez connue de par votre naissance à Tunis, votre séjour prolongé à Alger et vos contacts multiples et combien empreints de sympathie avec le Maroc. Après avoir observé les composantes de la colonisation – à travers la médina de Tunis, la Kasba d'Alger, les informations parvenant de Fès, de Casablanca et d'autres villes et villages marocains – vous avez assisté à partir des années cinquante, de près ou de loin, à l'indépendance des pays du Maghreb et à celle de presque tout le continent africain.

Pour le Maroc cette indépendance signifiait en même temps le commencement d'une nouvelle lutte : celle qu'il engagea pour sa réunification et qui connut son moment le plus intense en 1975 lors de l'épopée de la Marche Verte. Il recourut alors à votre avis autorisé et vous le lui avez donné avec toute la compétence souhaitable.

Pour l'ensemble du monde, ces indépendances en Afrique, ajoutées à celles de l'Asie, provoquaient, de fait toujours, un bouleversement sur l'échiquier international. C'est que, entre les deux grands ou à leur lisière, avec l'assentiment des anciennes métropoles ou contre elles, les pays nouvellement indépendants et d'autres notamment d'Amérique Latine, constituèrent une masse – le tiers-monde qui cherchait sa place au soleil.

Avec cette donne, le maintien du statu quo s'avéra difficile, voire impossible et le débat ne tarda pas à s'instaurer à ce propos à l'échelle mondiale. Mais un débat de quelle nature ? Il ne pouvait pas être que politique parce que chacun constatait que l'indépendance politique à elle seule était une demi-mesure et la liberté sans les moyens de l'assumer une autre forme de servitude.

Le débat, tel que le voulut le tiers-monde, soutenu en cela un peu partout par des hommes perspicaces, alla au cœur du problème : la question ne concernait pas moins que l'établissement d'un nouvel ordre économique mondial.

Vous êtes l'un de ces hommes qui ont suivi avec un intérêt particulier cette longue et sinueuse tentative de changement, demeurée au fait inachevée mais

perçue comme prometteuse pour l'avenir. Je ne dresserai pas ici la liste des conférences internationales réunies autour de ce thème et auxquelles vous avez apporté votre contribution positive, ni ne ferai l'historique du groupe des 77 que vous avez connu mieux que quiconque et dont vous avez analysé à plusieurs reprises les laborieuses négociations, les intentions et les faiblesses, le demi-échec ou le demi-succès. En revanche, je voudrais dire un mot de ses motivations ou plutôt vous céder la parole parce que vous avez su d'emblée dépasser la polarisation de groupe, qui peut paraître de prime abord égoïste, chauvine ou autarcique, pour en souligner la double démarche vers soi et vers l'autre : « la philosophie du nouvel ordre économique, écrivez-vous dans un article consacré en partie à cette question, est inspirée dans les pays en développement de deux soucis : d'une part être soi, d'autre part être soi avec l'appui des autres ». (1) Idée réaliste à la fois et généreuse que vous élevez ailleurs au niveau de la maxime, l'homme de loi n'ayant pas obnubilé en vous le moraliste : « Certes, dites-vous, il est dans la nature humaine de vouloir être soi par soi mais aussi bien, on ne peut être soi en plénitude que par la relation ». (2) C'est la base même d'une véritable sagesse des nations. Cette sagesse fut mise à l'épreuve dans ces mêmes années soixante-dix et au début de la décennie que nous vivons, dans une question qui cristallisa les passions et que l'on tient à juste titre pour cruciale dans l'avenir des hommes : le droit de la mer.

Seul pays avec la France et l'Espagne à posséder une façade méditerranéenne et une façade atlantique et disposant, en outre, sur cette dernière côte, d'une richesse halieutique importante, le Maroc a accordé une attention particulière aux travaux de la Conférence des Nations Unies sur ce problème. Vous y avez vous-même pris une part active en tant que conseiller juridique de votre gouvernement et par des publications spécifiques, soit personnelles (*l'Océan partagé*) soit collectives (*le Fonds des mers – Traité sur le nouveau Droit de la mer –...*)

Comme pour le nouvel ordre économique, là aussi, il faut dire que le succès fut mitigé. Mais peu importe, en vérité, que la convention à laquelle la Conférence aboutit n'emportât pas l'adhésion de tous les pays industrialisés, peu importe que plusieurs de ses dispositions fussent demeurées floues, à cause de la difficulté de vouloir satisfaire tout le monde, il n'en reste pas moins que des changements ont eu lieu et que d'autres auront lieu dans la gestion de la mer et plus encore dans sa conception en tant que patrimoine commun. Sur ce plan, cette réunion fut remarquable. Avec la notion de zone économique notamment, elle créa des concepts juridiques inédits, seuls susceptibles de cerner le présent et de construire sur des bases saines l'avenir.

---

(1) Académie du Royaume du Maroc – session d'avril 1983 – p. 93.

(2) Cours au Collège de France, Annuaire du Collège de France 1984-1985, p. 554.

Vous avez touché aussi au droit de l'espace, suivant en cela l'aventure humaine qui devint aujourd'hui spatiale après avoir été longtemps maritime. Vous avez disserté sur la politique chez Nietzsche, sur les droits de l'homme chez Albert Camus et sur bien d'autres thèmes. Vous avez été ou vous êtes fondateur de l'Institut du Droit de la Paix et du Développement à Nice, Président de l'Académie de Droit International de la Haye, membre de plusieurs autres Instituts, Fédérations et Commissions. Vous pratiquez le commerce des idées et des hommes avec cette souplesse intellectuelle, cette maîtrise et cette tolérance que Montaigne recommande en ces termes :

« Il ne faut pas, dit-il, se clouer si fort à ses humeurs et complexions. Notre principale suffisance, c'est savoir s'appliquer à divers usages. C'est être, mais ce n'est pas vivre, que se tenir attaché et obligé par nécessité à un seul train. Les plus belles âmes sont celles qui ont plus de varieté et de souplesse ». (3)

C'est là le signe qui ne trompe pas de ce courant humaniste qui vient, par résurgences, de la plus haute antiquité et dont s'enorgueillit à bon droit la culture française et européenne.

Adapté à notre génie propre, cet humanisme existe aussi chez nous, sur l'autre rive de la méditerranée. Au Maroc, c'est Sa Majesté le Roi Hassan II qui le représente actuellement d'une façon éminente. Et c'est dans une telle optique qu'il a crée cette Académie pour en faire un centre de réflexion et de dialogue, un point de rencontre de toutes les écoles et de toutes les idéologies et je dirais, pour puiser encore une fois dans votre XVIIème siècle, une sorte d'Abbaye de Thélème multi-confessionnelle et, conformément à la tradition musulmane, soucieuse et du temporel et du spirituel.

Vous y êtes reçu aujourd'hui, monsieur. Vous êtes reçu à l'Académie du Royaume du Maroc. Je vous souhaite la bienvenue à plus d'un titre.

---

(3) Montaigne : *Essais*, L. III, chap. 3, Gallimard, Collect. La Pléiade, p. 796.

Discours de réception

René Jean DUPUY

Monsieur le Directeur des Séances,

Monsieur le Secrétaire perpétuel,

Messieurs,

Grande était ma reconnaissance à l'égard de Sa Majesté, Protecteur de cette Compagnie, dès lors qu'en me confiant la qualité de membre correspondant de l'Académie du Royaume du Maroc, il me permettait de participer à ses travaux et de bénéficier des contributions que vous apportez au rayonnement de ses sessions.

L'honneur nouveau que Sa Majesté m'accorde aujourd'hui ajoute à ma gratitude et à ma confusion. La bienveillance du Souverain a pour effet de m'engager davantage encore dans cette institution et de m'assigner le devoir, siégeant désormais dans son sein, de m'associer totalement à sa vie et à son devenir. Ce devoir, Messieurs, vous qui m'avez précédé, vous l'avez toujours accepté sans réserve, comme le remplit aussi le Secrétaire perpétuel de l'Académie, dont chacun apprécie le dévouement et la compétence. Les uns et les autres contribuez ainsi à faire de cette Maison un édifice d'enchantement. Tel est bien le secret de l'essor de cette communauté de travail et de réflexion. La confiance de son Protecteur est le plus vif des stimulants, tant pour ses membres que pour les personnalités conviées à ses sessions, alors qu'il soumet à leur examen les questions les plus préoccupantes de ce temps.

Le monde a toujours été en quête des réponses de la sagesse. On souhaite souvent la constitution de comités de penseurs qui, sur les interrogations essentielles posées à l'humanité pourraient donner l'avis d'hommes indépendants que leur savoir et leur expérience recommanderaient à la confiance de leurs contemporains. Divers groupes de ce type ont été créés ; leur autorité morale peut être réelle mais, issus d'initiatives privées, soumis à divers aléas, leur existence demeure précaire.

En revanche, une Académie trouve la permanence dans sa structure institutionnelle. L'Académie Royale du Maroc, née de la décision d'un Roi inspiré, consacre le rayonnement séculaire d'une culture à laquelle l'histoire et la géographie ont conféré une mission de rencontre, entre l'orient et l'occident.

Autour d'un cœur marocain, groupant des personnalités choisies parmi les plus éminentes de ce pays, son Fondateur a réuni des hommes venant du Monde arabe, d'Afrique, d'Asie, d'Amérique et d'Europe. Toutes les cultures se trouvent ainsi en cette situation de dialogue préconisé par Léopold Sedar Senghor. Toutes les formes de la pensée et de l'action sont présentes en cette Compagnie : des théologiens et des philosophes, des hommes d'Etat et des politologues, des artistes et des poètes, des scientifiques de la recherche fondamentale et des maîtres des sciences appliquées, des sociologues et des juristes. Ces diversités de formation et d'expérience sont justifiées pour réfléchir aux défis que les temps qui viennent lancent à l'humanité. Rassemblant les contemporains elle est déjà porteuse de ceux qui viendront : l'humanité se pense au-delà des vivants. Dès lors, nous sommes des intendants tenus de protéger et développer l'héritage. Telle est bien l'orientation prospective de vos travaux. C'est ainsi que vous vous êtes interrogés sur l'avenir des ressources en eau potable, une des questions les plus graves des prochaines décennies et que durant la présente session, vous examinerez les moyens de faire face aux accidents nucléaires, dont nulle frontière ne peut arrêter les nuages nocifs.

C'est dans le même esprit que vous avez étudié la présence de l'homme dans l'espace extra-tmosphérique, avec le privilège incomparable de bénéficier de l'expérience de Neil Armstrong. On nous a montré les avancées scientifiques d'ordre très divers, attendues de la maîtrise de l'espace cosmique. L'espace a toujours été le ciel de la terre. Peut-elle en espérer plus d'assurances pour son salut temporel ou craint-elle d'y percevoir déjà les signes de la fin des temps ? L'ampleur des bouleversements en cours en appelle plus que jamais à la transcendance du spirituel.

Commandeur des croyants, sa Majesté a orienté vos réflexions sur la crise de l'Esprit dans nos sociétés et Elle a, à juste titre, estimé qu'il fallait parfois faire retraite pour retrouver à travers la spiritualité d'Al Ghazali, des enseignements qui, confrontés à ceux de Maïmonide ou de St Thomas d'Aquin, nous font retrouver les courants essentiels qui animent les religions du Livre. Car leur message est éternel. Vous avez demandé, en novembre dernier, leur jugement, face à certaines applications des sciences génétiques.

Dans le même mouvement de la pensée, vous avez analysé les ressorts de la violence qui ensenglante notre quotidien. L'auteur de chant du partisan nous a rappelé qu'on ne saurait confondre le soldat qui affronte l'ennemi et ceux qui, pour maîtriser l'opinion publique, assassinent les innocents. Lorsque, boule-

versés, nous écoutions Maurice Druon, nous n'imaginions pas que notre ami Saleh siégeait pour la dernière fois parmi nous avant de rejoindre les victimes sacrifiées à la terreur des hommes.

Nous gardons l'image de cet homme de Dieu. Il est, dans notre piété, associé pour toujours à celui de Norbert Calmels.

En réalité, la référence aux impératifs de l'Esprit se retrouve dans tous les sujets, dès lors qu'ils touchent au sort de l'humanité.

Naguère encore, elle évoquait un concept abstrait, porteur d'un idéal de fraternité. Elle est, de nos jours, devenue l'objet concret de notre angoisse. Sa vulnérabilité nous a été révélée dans l'enclos planétaire où se mêlent les découvertes les plus fabuleuses et le chaos des rapports entre nations. Jusqu'ici on savait les civilisations mortelles : L'humanité poursuivait son histoire sur l'entassement de leurs décombres. Aujourd'hui, on mesure que l'inconscience des hommes pourrait en accélérer le terme. Sa survie requiert un surcroît de science et de foi pour maîtriser l'imprévu. Certes la contradiction est le propre de ce monde et le conflit n'en sera pas extirpé. Mais l'intelligence et le bon vouloir des hommes peuvent, avec la grâce de Dieu, le transcender pour faire de cet enclos, la cité de la Terre.

En raison du lâche assassinat perpetré à l'encontre de la personne de Monsieur Sobhi Saleh membre associé de l'Académie du Royaume du Maroc, à Beyrouth le 7 Octobre 1986, ses confrères attristés ont tenu à rendre hommage à l'esprit et à l'abnégation dont la vie du disparu a été jalonnée.

Dans cette rubrique, nous reproduisons les oraisons funèbres prononcées à cette occasion par Monsieur Georges Vedel et Monsieur Mohamed Allal Sinaceur.

Dans la rubrique en langue Arabe, il sera inséré, le discours prononcé à cette occasion par Monsieur Abdelhadi Boutaleb ainsi que le télégramme de condoléance adressé à l'épouse du défunt par Mr. Abdellatif Berbich Sécrétaire Perpétuel, au nom de l'ensemble des membres de l'Académie du Royaume du Maroc.

In Mémoriam Sobhi Ibrahim El-Saleh

Georges Vedel

La vie et la mort de Sobhi Ibrahim El-Saleh nous livrent une double leçon qu'il nous faut dédier à sa famille, à ses amis, à tous ceux qui le pleurent et dont nous partageons la peine.

La première est que l'enracinement dans une foi et dans une culture, loin d'enfermer l'homme dans des singularités ou des particularismes, l'épanouit et l'ouvre à l'universalité. Personne, je crois, n'était plus engagé que notre ami dans la foi et dans la culture islamiques. La formation de sa sensibilité et de son intelligence, son enseignement, son œuvre scientifique et religieuse l'attestent. C'est dans la prestigieuse Université d'Al-Azhar qu'il a conquis ses premiers grades. C'est en Syrie, au liban, en Jordanie, en Arabie Saoudite, entre autres pays, qu'ils a enseigné le droit, le philologie, l'histoire, le philosophie. Il ne se contente pas de ces missions de recherche et d'enseignement. Il se jeta aussi dans l'action en prenant des responsabilités dans divers organismes religieux, scientifiques, charitables du monde arabe et de l'Islam. Mais il a aussi conquis en Sorbonne un doctorat d'Etat, le plus haut titre scientifique français. Il a été expert de l'UNESCO et a pubié en français des livres et des articles qui prouvent sa parfaite connaissance du christianisme et du monde international et qui sont marqués de ses traits personnels : l'exactitude, la compréhension, l'intelligence. Dans nos débats, sur les sujets les plus variés, il intervenait par des propos denses, souvent percutants que nous écoutions tous avec une attention qui, jamais, ne fut déçue. Il était prodigue de ses richesses et, venus des quatre coins du monde, nous étions tous ses débiteurs.

A son propos je ne puis m'empêcher d'évoquer la figure d'un autre de nos chers disparus, Monseigneur CALMELS. Ils venaient chacun d'un monde profond et éternel ; chacun s'enracinait dans un vaste héritage de croyance et de civilisation ; tous deux avaient ordonné leur vie sur les valeurs essentielles et, à travers le Dieu Unique, témoignaient pour l'unité des enfants de ce Dieu. L'un et l'autre sont présents par leurs paroles et leurs vies exemplaires. Ils sont, si je puis dire,

notre justification puisqu'ils nous rappellent que, comme l'a voulu Sa Majesté Hassan II, notre Fondateur et notre Protecteur, chacun de nous, dans cette Académie, doit enrichir les autres de sa personnalité, de sa foi, de sa culture, de sa patrie afin que, selon nos moyens, nous apportions à notre siècle qui en a tant besoin un peu plus de compréhension, de fraternité et d'amour.

Mais le tragique destin de Sobhi Ibrahim El-Saleh nous livre encore une autre leçon. Il est mort assassiné. Si le nom du criminel reste inconnu, le nom du crime est hélas ! éclatant. Il s'appelle la haine, toujours égale au Mal, de quelque prétexte qu'elle se revête : la haine contre le Juste, celle qui peuple les martyrologues de tous les temps, de toutes les religions, de tous les pays. Car le Juste est, en un certain sens, intolérable. Parce qu'aux tièdes et aux cyniques et enseigne qu'il faut savoir combattre contre l'injustice parce qu'aux furieux enivrés de violence il enseigne que les fins les plus légitimes voire les plus nobles ne justifient pas tous les moyens. Ainsi, sans qu'il le veuille ni même le sache, le Juste est une cible visés de toutes parts.

Sobhi Ibrahim El-Saleh était un Juste. Ses écrits et ses paroles le montraient. Souvent, dans nos conversations nouées à l'occasion de nos réunions ou dans l'avion de Paris qu'il prenait quelquefois pour nous rejoindre, je lui demandais de m'éclairer sur des problèmes qu'il connaissait si bien car il les vivait avec les siens au Liban, au cœur des conflits de cette région du monde. De ses réponses je retirais les plus précieuses lumières et j'admirais comme cet homme de foi et de science brûlait tout ensemble de conviction, de sagesse et de compassion. C'est de tout cela qu'il est mort. C'est tout cela son héritage. Puissions-nous le faire nôtre !

La passion et la ciguë

Mohamed Allal Sinaceur

A l'époque où pensée et engagement formaient un couple de termes naturellement associés, je m'étonnais, par curiosité, que Bachelard ait rédigé l'un de ses plus beaux livres, à Dijon si je ne m'abuse, en pleine occupation, et, plus impressionnant encore que l'obsession de réfléchir, le démon philosophique se saisît de Cavaillès, dans le feu du combat, au cœur de la résistance. Ces hommes de clarté et de lucidité, que je suis arrivé trop tard à l'Université pour connaître directement, une figure du Moyen Orient me les rappelait constamment, un homme tombé hier sous les balles de la déraison objective, le Cheikh **Sobhi as-Salih** (1) qui réfléchissait, pour dire l'une de ses dernières pensées, sur ce que l'Islam pourrait nous enseigner au sujet des progrès de la connaissance et des technologies de la vie. La force roule et tue la pensée neuf fois sur dix, disait un sage au fait des statistiques, mais la fois qui reste, d'autres variétés de l'aveuglement s'exercent et n'attendent pas.

Sobhi as-Salih, polygraphe, éloquent universitaire, passionné de religion et de raison ouvertes, avait tous les attraits qui tentent la violence, et cette qualité de dire la vérité selon la conviction, sans arrière pensée et en toute innocence. Il ne disait jamais n'importe quoi, mais, par une douceur naturelle, suprême reflet de la sérinité de l'esprit, il osait clamer les raisons de la logique refoulée, de la pensée entrée dans le carcan du calcul, de la naïveté de voir des problèmes où le courage meurtri se laisse distraire du devoir de sincérité.

---

(1) Vice-Président du Conseil supérieur islamique du Liban, doyen de la Faculté des lettres et des sciences humaines de l'Université libanaise, Beyrout. Docteur en théologie de l'Université de l'Azhar et Docteur ès lettres des Universités du Caire et de Paris. Il a enseigné aux Universités de Bagdad (1954-1956). de Damas (1956-1963) et de Jordanie (1970-1971). Il est l'auteur de nombreux ouvrages sur la société islamique et sa pensée, dont : « Réponse de l'Islam aux défis de notre temps, » Beyrouth, Ed. Arabelle, 1978.

Sobhi as-Salih, j'entends encore ton éloquente et saisissante voix, émanée des profondeurs de ton cœur, lorsque tu démontrais que se voiler les yeux était contre raison. J'entends encore aussi tes détracteurs et tes critiques, perfidement moqueurs, qui voulaient discréditer ton raisonnement par les ruses de la raison, expression qui te semblait inadmissible, contradictoire, qui appartient à l'héritage d'une dialectique confuse s'exprimant au moment où une lucidité toute cynique s'emparait de la raison. Tu persistais à dire alors que tuer un homme était tuer l'homme, tout l'homme, attenter à la valeur de la vie, à la vie comme une valeur.

Avec Sobhi as-Salih, ce n'est pas l'une des figures les plus connues de l'Islam contemporain qu'on a forcé à se taire à jamais ; c'est la figure de l'Islam, dans son enseignement de douceur, de justice et de paix, qu'on a roulée et précipitée dans le silence éternel. C'est la pensée de ce qui devrait être qui a été atteinte, mortellement. La guerre s'en prend aujourd'hui à l'espoir. Et ceux qui en ont créé les conditions, dans un métacalcul qui exploite enthousiasme et fidélité, courage et colère, raison et peur, ont peut-être omis de calculer que c'est une voie qui tue également le jugement des hommes et que c'est par une extrême discrétion que le Professeur Jean Hamburger a distribué sur deux titres de ses livres : « La passion et la raison » et le « Miel et la Ciguë », les termes de « La passion et la ciguë » dont l'alliance est le seul, l'unique et triste titre que mérite notre étrange inquiétude.

Imprimerie de Fédala – Mohammedia – Maroc